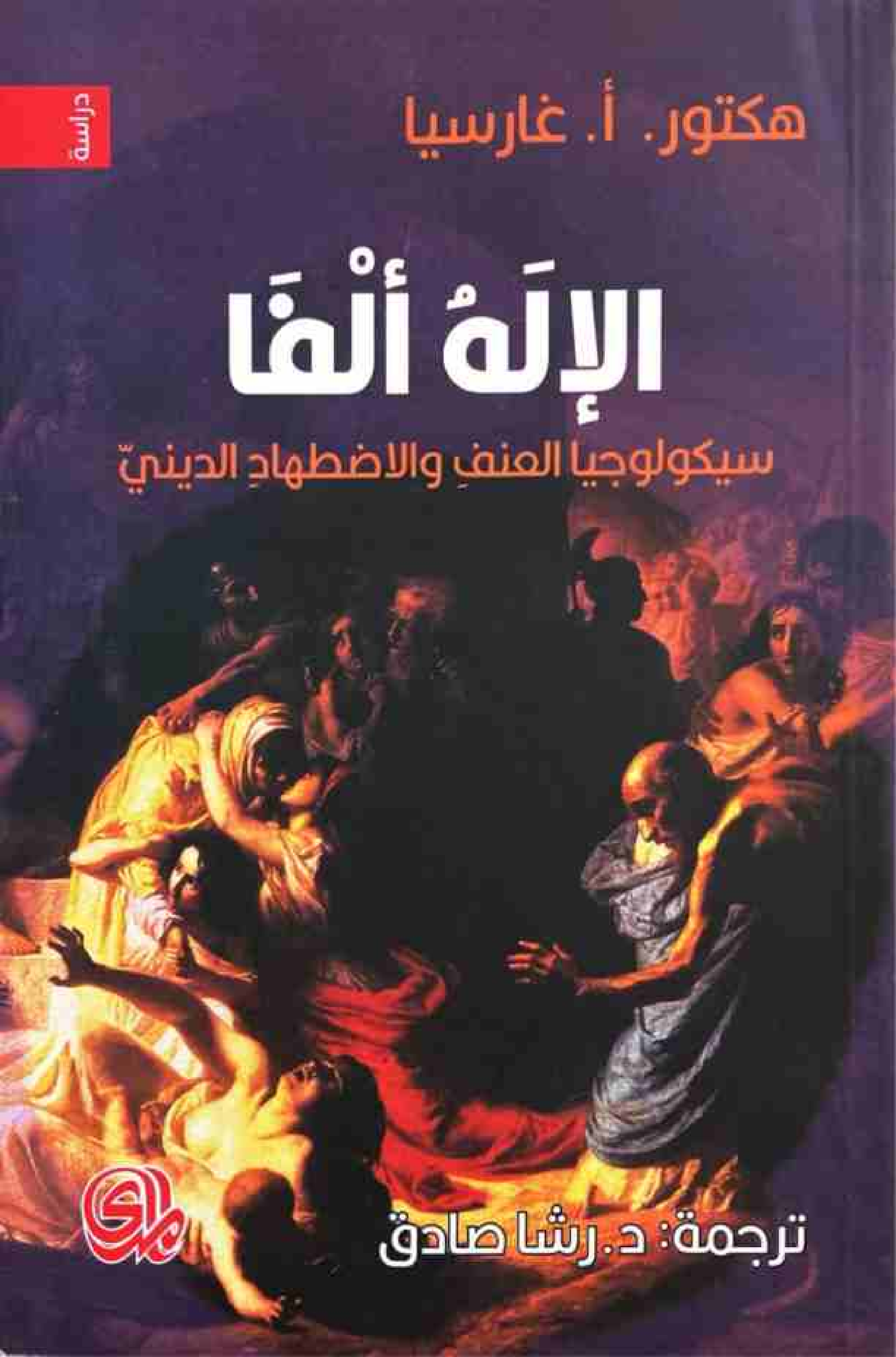
دراسة

هكتور. أ. غارسيا

الإلَهُ ألْفَا

سيكولوجيا العنفِ والاضطهادِ الدينيّ



ترجمة: د. رشا صادق

الإلَهُ ألْفَا

سيكولوجيا العنفِ

والاضطهادِ الدينيّ

دراسة

اسم المؤلف: هكتور. أ. غارسيا
عنوان الكتاب: الإلـهُ ألـفـا - سيكولوجيا العنفِ والاضطهادِ الدينيّ
ترجمة: د. رشـا صـادق
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 2022

Author: **Hector A. Garcia**
Title: **Alpha God: The Psychology of Religious Violence and Oppression**
Translated by: **Dr. Rasha Sadek**
P.C.: **Al–Mada**
First Edition: **2022**

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+ 961 175 2617 + 961 706 15017
+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

هكتور. أ. غارسيا

الإلهُ ألْفَا

سيكولوجيا العنفِ والاضطهادِ الدينيّ

ترجمة : د. رشا صادق

إهداء المؤلّف

إلى والديّ

هكتور. أ. غارسيا



هو بروفيسور مساعد في قسم الطبّ النفسيّ، ضمن «مركز العلوم الصحيّة» في جامعة تكساس، سان أنطونيو، وطبيب ممارس يعمل في «الإدارة الصحيّة للمحاربين القدماء»، متخصّص في علاج وتدبير الكرب النفسيّ ما بعد الصدمة PTSD، التالي لخوض المعارك.

نشر مقالات عديدة تتعلّق بالكرب النفسيّ ما بعد الصدمة، ومقالات عن علاقة الهويّة الذكوريّة بالحرب والشدّة النفسيّة والرتبة العسكريّة، والعلاقة ما بين ممارسة الشعائر الدينيّة والاضطرابات النفسيّة. صدر له كتاب آخر يتناول السيكولوجيا التطوّريّة، عنوانه: «الجنس، السلطة، الشراكة: كيف يشرح علمُ التطوّر انقسامَنا السياسيّ».

شكر وتقدير

جين كوزارا: ملاحظاتكِ حول الكتاب كانت دقيقة، كما أنّ منظورك الأنثويّ قيّمٌ للغاية.

بنجامين بورزيكي: شكراً لك على إسهاماتك البنّاءة كلّها، من الغلاف إلى الغلاف، وعلى تشجيعك، وعلى نقاشاتنا الممتعة.

إيرين: لم يساعدني أحد كما فعلتِ أنتِ. أسلوبك في تحرير الكتاب كان ممتعاً ولامعاً ومُلهِماً، ممّا حوّل عملية التأليف المتعِبة، إلى رحلة تأمّلٍ تخطف الأنفاس. هذا الكتاب -وما أضافه إلى حياتي- غير ممكن من دونك.

أبي: منذ أن كنتُ طفلاً صغيراً، علّمتني البيولوجيا وعلم التطوّر وتحدّي التفكير السائد. تاريخكَ، وميراثكَ، وممانعتكَ لاستغلال السلطة، كلّها ما تزال حيّة في هذه الصفحات.

أخيراً، أودّ أن أشكر المفكّرين العظام القدماء جميعهم: لقد أسّستم الصخرةَ التي بُنِيَت عليها كلّ العلوم. ناركم، وآراؤكم، والمخاطر الكبرى التي أخذتموها على عاتقكم، لن تُنسى.

***

المحتويات

هكتور. أ. غارسيا 7

شكر وتقدير 9

الفصل الأوّل: الإله – الأبُ المهيمن 15

تعريف الهيمنة 21

تاريخ: كيف استولى الإله الذكر المهيمن على السلطة 24

الفصل الثاني: آليّاتُ التطوّرِ: السببيّات 35

الاصطفاء الطبيعيّ.. 36

الاصطفاء الجنسيّ Sexual selection........................ 37

I– التنافس من أجل التزاوج.. 37

II– اختيار الشريك 38

استراتيجيّاتُ التزاوج 41

I– الكمّيّة.. 41

II– غيرة الذكر 44

III– النوعيّة 46

تفضيل الأقارب وإيثارهم 48

السيكولوجيا التطوّريّة وعلوم الإله.. 50

الفصل الثالث: الإلهُ الحامي 57
الذكورُ الحماة 57
التيقّن من الأبوّة عند الأيب، والرجال، والله. 65
مشاكل التحالفِ مع الإله 71

الفصل الرابع: الهيمنةُ الجنسيّةُ: من الأيب، إلى الرجال، وحتّى الآلهة .. 77
الأيب 77
I- العنف والحصول على الجنس 77
II- قتل الأطفال عند الرئيسيّات غير البشريّة 81
الرجال 83
I- ماذا يريد الرجال؟ 83
II- ما الذي يحصل عليه الرجل المهيمن؟ 85
الآلهة 89
I- الألوهيّةُ الشبقة 89
II- الآلهةُ التي تقمع الجنس، والغيرةُ الإلهيّة 91
III- العذراء والملك 93
IV- العفّة الجنسيّة، والخضوع 96
النساء 100
I- ماذا تريد النساء من رجالهنّ، ومن آلهتهنّ؟ 100
II- الثمن الذي تدفعه النساء والأطفال 104
• الحجاب 105
• العنف ضدّ النساء 106
• قتل الأطفال على أيدي الرجالِ واللهِ 109
دراسة حالة 110

الفصل الخامس: التعاون على القتل، الهويّة داخل الجماعة، والله ... 119
الأدلّة على المستوى المجهريّ 119
تفضيلُ الأقارب برسم الحدود........................ 122
I- داخل الجماعة / خارج الجماعة 122
II- الإيثار التبادليّ، والتبادليّة اللّامباشرة 127
الله كصانع حرب 131
I- أنماط التحالف بين الرئيسيّات 131
II- إرسال إشارات مكلفة إلى الله، كي يساعدنا في القتل .. 134
III- التعصّب ضدّ الغرباء 140
IV- أفراد الجماعة السيكوباتيّون 144
V- القتل السيكوباتيّ 148

الفصل السادس: ماذا يعني أن تركع؟ 157
الهيمنة والحجم: ماذا يعني أن تكون ضخماً؟ 157
I- رؤوسٌ كبيرة، قبّعاتٌ كبيرة 159
II- القامة المنتصبة........................ 164
III- التواصل البصريّ 168
IV- تقبيل الأيدي والأقدام 170
الخضوع من خلال الاستسلام العقائديّ 173

الفصل السابع: سوء التكيّف، والخضوع إلى الألوهيّة........................ 179
ترتيبُ النّقر 179
انعدامُ قيمة الفرد، وخطيئةُ الغرور........................ 182
انعدام المتعة 189
I- الجنس وخطيئة الشهوة 189

II- الطعام وخطيئة الشراهة 195
تناقص المقدرة على التفكير 201

الفصل الثامن: سمعةُ الرجالِ والآبِ والآلهة 211
منشأ السمعة 211
الرجال 215
الآلهة 222

الفصل التاسع: مملكةُ الربّ 233
ترسيمُ حدودِ منطقة النفوذ 234
منطقة النفوذ، والحقُّ الجنسيّ الحصريّ 241
الاغتصاب في الكتاب المقدّس 248
المطالبة بالأمّ – الأرض 253
I- الأرض كنظام بيئيّ 254
II- التنافس بين الذكور واستهلاك الموارد 258
III- جشع الأديان: رؤية بديلة 262

الفصل العاشر: إصلاحُ الذات 269
سيكولوجيا الآخر 270
السِلميّة والمراقبة الانتقائيّة 278
تشييد الجدار 284
الصحّة المجتمعيّة والاتجاهاتُ المستقبليّة 292
أفكار ختاميّة 299

المراجع 301

الفصل الأوّل

الإلهُ – الأيبُ المهيمِن

لو امتلكتِ الثيرانُ والخيولُ والأسُودُ أياديَ،
وكانت قادرة على الرسم وعلى القيام بما يفعله البشر،
إذن، سترسم الخيول آلهتَها بحيث تشبه الخيول،
وسترسم الثيران آلهتها بحيث تشبه الثيران، وكلّ منها
سيرسم جسد إلهه مطابقاً لجسمه.

• زينوفان، حوالي 570–478 قبل الميلاد.

ما هو «الله»؟

سيجيب العديدون بأنّ الله هو الحبّ، أو أنّ الله هو الجَمَال، بينما سيقول آخرون إنّه كينونة غير ماديّة، وخالق الكون. يوصَف الله بأنّه رؤوف ورحيم، وبأنّه السُلطة الأخلاقيّة العليا، أو المنبع المطلق للخير في العالَم، ومن هذه الصورة يستمدّ الورعون شعوراً بالخشية والعزيمة والأمل والتعاطف، كما تلتفّ حولها حشود من النّاس في أرجاء الكوكب، يوحّدهم شعور مشترك بالإعجاز والامتنان، ويخلقون بين بعضهم وبعض بيئة ملؤها الإحسان والكَرَم والدعم. تلك الصورة غير قابلة للنقاش، بما أنّها تشكّل فينومينولوجيا عبادة الله.

لكن هناك صورة أخرى لله، لا تقلّ واقعيّة عن الأولى. غالبيّة المؤمنين

حول العالم، يعبدون إلهاً ذكراً ضارياً، يفرض الثواب والعقاب، تصوّره النصوص المقدّسة على أنّه إله يصبّ غضبه على أعدائه، ويذبح المنافقين، ويتحكّم بالحياة الجنسيّة لمن يخضعون له، فضلاً عن أنّه مهووس بالإخلاص الجنسيّ. المتطرّفون الثملون بتلك الصورة، يختطفون الطائرات ويفجّرون المباني بواسطتها، أو يفجّرون أنفسهم في الأسواق المزدحمة، كما أنّهم يشجّعون مشاعر الخزي الجنسيّ، ويمارسون بتر الأعضاء التناسليّة والاعتداء بالحمض وما يُدعى بجرائم الشرف. إنّهم الذين أنشؤوا محاكم التفتيش ومحارق الساحرات، وشنّوا الحروب والفتوحات الدينيّة، واقتنصوا السلطة الإيديولوجيّة. إنّهم من زرعوا الخرافات والجهل والتعصّب، وحاولوا أن يفرضوا تحريماً على التشكيك بالله، ممّا يترك الجرائم السابقة كلّها خارج نطاق الفحص، خوفاً من التعرّض للممارسات ذاتها أحياناً.

نحن نعيش اليوم في عصر تتصادم فيه الأديان مع حقوق النساء، ومع المساواة بين الجنسين ومكتسباتها التي نحاول جاهدين الحفاظ عليها، وفيه وضعت الأنظمة الثيوقراطيّة يدها على ترسانة من الأسلحة النوويّة، فضلاً عن تنامي التطرّف الخطير حول العالم. إنّها لحظة مصيريّة بالنسبة لنا كي نتأمّل ما يحصل، ونفهم كيف تُستَغَلُّ الأديانُ لتشجيع أسوأ ما في الطبيعة البشريّة، لا أفضل ما فيها.

سنبدأ برسم القواسم المشتركة، بين من يرتكبون أفعال العنف والاضطهاد السابقة. سنلاحظ على الفور أنّهم الرجال حصريّاً، وحتّى في الحالات النادرة التي يكون فيها الجاني امرأة (أو طفلاً)، الرجال أيضاً هم من يحرّضونها على ارتكاب فعلتها، أو يرغمونها على ذلك. إنّها نقطة انطلاق هامّة، وبما أنّ القاسم الثاني المشترك لتلك الأفعال هو التديّن المزعوم، لذلك سنطرح سؤالاً ثانياً مفصليّاً: هل توجد قواسم مشتركة للتصوّرات عن الله خلف تلك الأفعال؟ وسنتوصّل بالإجابة عليه إلى لبّ المشكلة، وهو التصوّر المشترك لله على أنّه رجل.

أنا أجادل في هذا الكتاب أنّ الله خُلِقَ على صورة الرجل، وهو جدل قديم، فكلمات زينوفان تقترح أنّ المفكّرين ناقشوا هذا الترابط منذ عصر الإغريق القدماء. بأيّ حال، هناك أسباب عديدة تدفعنا لا لنؤكّد أنّ الله خُلِق على صورة رجل - وليس العكس - فحسب، بل كي ندرس أيضاً صفات الهيمنة التي يجسّدها الله، خاصّة أن رجال السلطة تماهوا معه تاريخيّاً، كي يوسّعوا سلطتهم ويستغلّوها لفرض المزيد من العنف والاضطهاد. يتكرّر هذا النموذج في تاريخ الأديان، إذ يُسبغ الرجال شرعيّة إلهيّة على أنفسهم كي يبرّروا أسوأ أفعالهم، كما أنّ الله بحدّ ذاته كثيراً ما يُصوَّر منخرطاً في أفعال عنيفة، ممّا يرسّخ الأفعال التدميريّة التي يقوم بها أصحاب السلطة.

البورتريه السابق أوضح ما يكون في الأديان الإبراهيميّة (اليهوديّة، المسيحيّة، الإسلام)، التي تصوّر نصوصُها المقدّسة إلهاً ذكراً مستبدّاً. عبادة الإله الإبراهيميّ، هي الأوسع انتشاراً بين العبادات المتمحورة حول إله مُرتَكِز على صورة الرجل، ويشكّل أتباعها حوالي خمسين بالمئة من المتديّنين حول العالم. بلا شكّ، لا تنفرد الأديان الإبراهيميّة وحدها بإله طاغية، العديد من الأديان الأخرى في العالم - حتّى تلك التي تعبد آلهة متعدّدة - فيها أيضاً آلهة ذكور مُهَيمِنون، يتصرّفون كالذكر البشريّ المهيمن بالضبط. لذلك، سأشير أحياناً إلى آلهة ذكور في الأديان غير الإبراهيميّة، لتوضيح مدى رسوخ أنماط الهيمنة الذكريّة النموذجيّة في تقاليد الإيمان المختلفة، مع التركيز على الإله الإبراهيميّ بشكل خاصّ، لأنّ هيمنته هي الأشيع انتشاراً عبر العالم.

كي نفهم إلهاً مثله، لا بدّ أوّلاً من فهم عقول الرجال، لأنّها هي التي تبتدع طرقاً للقمع والقتل. الطريقة المثلى لفهم الأساس المطلق للعنف والقمع الذكوريّ، تتمّ من خلال علم التطوّر الذي يضمّ فروعاً معرفيّة تدرس الدوافع الكامنة خلف الاضطهاد والعنف، التي تبدّلت أنماطها الحاليّة بسبب عمليّة الاصطفاء الطبيعيّ Natural selection. الأنماط السلوكيّة الناجمة عن تلك الدوافع، انتقلت إلينا من أسلافنا «الرئيسيّات» Primates، ويمكن تمييزها

بسهولة في الرئيسيّات غير البشريّة التي ما تزال حيّة اليوم، أي عند أقربها إلينا من منظور علم التطوّر. على الرغم من قامته المنتصبة، ومن ملابسه، ومن آداب المائدة التي يتحلّى بها أحياناً، فإن الرجل نادراً ما يتجاوز تلك الدوافع البدائيّة الموروثة من الرئيسيّات، وغالباً ما يسعى إلى الهيمنة بأسلوب الآيب[1] الذكر، مسخّراً العنف للحصول على جوائز تطوّريّة، كالطعام ومنطقة النفوذ والجنس. اخترعت البشريّة اختراعات عديدة كالأدوات والأسلحة والأديان، لكنّنا في الواقع ما نزال جنساً من أجناس الآيب الكبرى التي هاجرت من إفريقيا.

ربّما يصعب على العديد من الأشخاص سماع ما سبق، لأنّنا كبشر نميل إلى اعتبار أنفسنا جنساً فريداً من نوعه، أسمى من الأجناس الأخرى، لكنّنا كبقيّة الأحياء نملك DNA يقولب أدمغتنا ويؤثّر على نمط تفكيرنا، ونشترك بحوالي 99% منه مع الرئيسيّات غير البشريّة. فضلاً عن ذلك، نحن مخلوقات عضويّة تعيش وتأكل وتتكاثر وتموت كباقي الحيوانات، أي أنّنا نحتاج إلى الطعام والجنس ومنطقة النفوذ[2] كي نلبّي احتياجاتنا العضويّة، ولا شيء ممّا سبق يجب أن يفاجئنا.

بأيّ حال، قد يفاجئنا أنّ إله الأديان الإبراهيميّة الذي يملك قدرات تفوق مستوى البشر، ما يزال منشغلاً دون طائل بشؤون بشريّة محضة، أشبه باهتمامات الآيب. يُصوَّر الله على أنّه قدير (يمتلك قوّة لا نهائيّة)، وعليم (علمه غير متناه)، وكليّ الحضور (موجود في كلّ مكان)، وغير ماديّ (لا

1- Apes نوع من الرئيسيّات من فصيلة Hylobatidae (تضمّ الجيبون) وفصيلة Hominidae (تضمّ الشمبانزي، البونوبو، الغوريلا، الأورانجوتان، والإنسان الذي افترق عن الأنواع السابقة تطوريّاً قبل حوالي 6 ملايين سنة)، تمتاز عن القرود بأنّها عديمة الذيل، تمتلك زائدة دوديّة، يمكنها أن تمشي منتصبة على قدمين، وأدمغتها أكثر تعقيداً. المترجمة

2- Territory: هي منطقة جغرافيّة - اجتماعيّة يحدّدها الحيوان، ويدافع عنها ضدّ أبناء جنسه وضدّ الأجناس الأخرى، وتقدّم له مكاناً آمناً لتنشئة صغاره. غالباً ما يدافع عنها بضراوة أثناء موسم التزاوج فقط، ويرسم حدودها إمّا من خلال الحركات، أو الأصوات، أو الرائحة. المترجمة

يتّخذ هيئة ماديّة مجسّدة)، وأبديّ، أيّ أنّه لا يموت. هذه الصورة، تطرح السؤال التالي: لماذا يشغل إله مثله نفسه بمتطلّبات بشريّة، كالطعام والجنس ومنطقة النفوذ؟! لماذا يطلب أن يُقدَّم له الطعام كأضحية، ولماذا يطالب باستعمار الأراضي التوراتيّة، طالما أنّه لا يحتاج إلى الطعام أو إلى الأرض للبقاء، بل هو قادر على خلق عوالم بأكملها بمجرّد أن ينطق بكلمة؟!

الإجابة، هي أنّ الله هو الذكر ألفا، أي الآيب المُسيطِر. بعبارة أخرى، تجليّات الإله الإبراهيميّ والآلهة الذكور في الأديان الأخرى حول العالم، تعكس المشاغل الأساسيّة في ماضينا التطوّريّ كجنس من أجناس الرئيسيّات، وهي حرفيّاً اقتناص السلطة والحفاظ عليها، واستغلالها للتحكّم بالموارد الماديّة والتكاثر. بالتالي، فهمُ اللهِ يتطلّب فهمَ ميراث الرجل التطوّريّ ضمن الهرميّات الاجتماعيّة للرئيسيّات، كما أنّ فهم العنف والاضطِهاد الدينيّ، يتطلّب إلقاء نظرة فاحصة على الكيفيّة التي عكس فيها البشر سيكولوجيتّهم على نظرتهم إلى المُقدَّس.

هذا الكتاب يفحص كيف رُسِم الله على هيئة رجل، وتسلّح بذخيرة عتيقة من السلوكيّات الموروثة عن أسلافنا من ذكور الرئيسيّات، كما يفحص أيضاً كيف يتصارع أولئك الذكور لتحقيق الهيمنة ضمن مجموعاتهم، باستخدام استراتيجيّات متنوّعة -من ضمنها الترويع والعدوانيّة- بغية تحقيق مرتبة أعلى. المرتبة بحدّ ذاتها تترافق مع جوائز، تتضمّن بالنسبة للذكور امتياز الوصول إلى الموارد، كالغذاء والإناث والأرض. بغية الحفاظ على ذلك الكنز البيولوجيّ، لجأ الآيب والرجال المهيمنون طيلة تاريخهم الطويل، إلى استخدام العنف والقمع ضدّ الأفراد الأدنى مرتبة في مجتمعاتهم، وعندما نتنبه إلى أنّ الله بدوره يُصَوَّر على أنّه يهتمّ اهتماماً بالغاً بتلك الموارد، ويحافظ عليها باستخدام استراتيجيّات مماثلة، سندرك أنّه ظهر باعتباره أعلى الذكور مرتبة على الإطلاق، لا أكثر ولا أقلّ.

إذن، يهدف هذا الكتاب إلى إلقاء الضوء على أنماط سلوكيّات الهيمنة عند الله، وتتبّعِ أثرها إلى منشئها عند الرجال، وعند ذكور الرئيسيّات غير البشريّة

الموجودة اليوم، بغية اكتشاف كيف خلق البشرُ الآلهةَ بشكل غريزيّ ينسجم مع تطوّر سيكولوجيّتهم، وما ترتّب على ذلك من عواقب وخيمة. سأعتمد على الأبحاث العلميّة في كلّ من حقول البيولوجيا التطوّريّة، السيكولوجيا التطوّريّة، السيكولوجيا السريريّة، علم الرئيسيّات Primatology، وتاريخ العالَم، إضافة إلى الفرضيّات التي لم تثبت بالتجربة بعد. التوصّل إلى فهم أفضل لآلهتنا هو أمر في غاية الأهميّة، ومن خلاله فقط قد نفهم الدور الذي تلعبه تلك الآلهة في تبرير عنف البشر ووحشيّتهم.

من المهمّ أن أنوّه إلى أنّني لا أقوم بشنّ هجوم شامل على الأديان، ولا أنوي ذلك. أنا أجادل بالأحرى أنّ دوافعنا التطوّريّة حدّت من تحقيق الخير في الأديان، لأنّ تلك الدوافع -كالأديان تماماً- تطوّرت في عالم وحشيّ، خضنا فيه صراعاً شاقّاً من أجل البقاء، ولم ننجح إلّا من خلال اللجوء للعدوانيّة. لقد وضعنا حدوداً لمقدرات الإنسان الهائلة، من خلال الآلهة التي خلقناها.

بالنسبة إلى أولئك الذين قد يستاؤون من الطرح الأساسيّ الذي يتمحور حوله هذا الكتاب، يجدر بالذكر أنّني لا أدّعي بأنّ إلهكم هو حقّاً آيب مهيمن. في الحقيقة، أنا أجادل بأنّه لا وجود لكينونة ما -فوق- طبيعيّة، أو أيّ نوع من أنواع الوعي الخارق الأسمى الذي يشبه الرجال أو الآيب، سواء من حيث الهيئة أو السلوك. برأيي الشخصيّ، هناك قوّة عليا (لم أجد براهين على وجودها بعد)، وهي لا تشبه أبداً أيّاً من الصفات الواضحة المُبسَّطة، المتمحورة حول الجنس البشريّ، والتي طُرِحَت بحماس طيلة تاريخ الأديان. سأحاول أن أبرهن على أنّ تلك الصفات، انبثقت من تطوّر سيكولوجيّتنا المكرّسة لسبر تفاعلاتنا مع البشر الآخرين -خاصّة ذوي السلطة- وهي وظيفة عتيقة، لكنّها ما تزال حاسمة لبقائنا اليوم. إن كنتُ على صواب، هذا يعني أنّ الجوانب الشاذّة لصورة الله، هي في الحقيقة انعكاس لإدراكنا المحدود، ولا علاقة لها مع «القوّة الأسمى» أيّاً كان تعريفها.

أعي أيضاً أنّ الأسئلة التي سأطرحها في هذا الكتاب، قد تُنتزع من سياقها

وتُستَغلّ -تماماً كما تمّ استغلال الأديان- لتبرير العنف أو كراهية من لا ينتمون إلى الجماعة، أو لغايات أسوأ، وهو ما جعلني أتروّى قليلاً. بأيّ حال، لا بدّ من فهم العنف والاضطهاد الدينيّ بشكل أفضل، بغية تخفيف ما ينجم عنهما من معاناة، بالتالي لا مفرّ من المخاطرة بطرح أسئلة مُستفزّةً. لذلك، يلزمنا أن نفهم بدقّة الدوافعَ الغريزيّة، التي نُسقطها نحن الكائنات البيولوجيّة على الاعتقادات الدينيّة وعلى ممارستها، لأنّ تلك الدوافع هي مصدر كلّ أشكال القمع والاضطهاد.

تعريف الهيمنة

كي نلقي نظرة أشمل من الناحية التطوريّة على مفهوم الله، لا بدّ من توضيح بعض المصطلحات والمفاهيم الأساسيّة المتعلّقة بالتطوّر. أوّلاً، ما هي الهيمنة؟ وماذا تعني بالنسبة للرئيسيّات كالإنسان؟

في أجناس الأيب العليا جميعها، يتوزّع الذكور ضمن تراتبيّات هرميّة وفق النفوذ، بينما لا نجد تراتبيّات مماثلة بالنسبة للإناث. نموذجيّاً، يهيمن الذكور على الإناث -باستثناء البونوبو Bonobo- كما تترافق حالة الهيمنة مع درجة أكبر من العنف الذكوريّ. الشمبانزيّ المسيطِر يبدي سلوكيّات عدائيّة متكرّرة، ويبادر بشنّ العدوان، ويُصعّد العنف، ويربح المواجهات، أكثر بكثير من أقرانه الذكور الأدنى مرتبة.

البشر بدورهم، كما الرئيسيّات الأخرى، يقضون معظم حياتهم في مجتمعات ذات تراتبيّة هرميّة. تختلف درجة انقسام المجتمع إلى طبقات وفقاً للمرتبة ما بين حضارة وأخرى، لكنّ البنية المتمحورة حول المكانة موجودة، حتّى في مجتمعات الصيد والالتقاط التي تسود فيها درجة أعلى من المساواة، كما يترتّب عليها تداعيات هامّة فيما يتعلّق بالسلوك.

يؤكّد الأنثروبولوجيّان جوزيف هنريتش وفرانسيسكو جِل - وايت، على أنّ المكانة الأعلى تترافق مع نظام للجوائز، يحصل ذكور الرئيسيّات المسيطِرون بموجبه على «ميّزات تفضيليّة كالإناث والطعام والمكان،

كما يقلّدهم الآخرون أكثر» (ستتعرّف إلى الامتيازات المترافقة مع المرتبة العليا أكثر فيما بعد). نوّه العالمان أيضاً، إلى صفة مهمّة من صفات التراتبيّة الهرميّة عند البشر، وهي أنّ المحافظة على المرتبة العليا تتمّ إمّا من خلال «الهيمنة» (استخدام القوّة، أو التهديد باستخدامها)، أو من خلال «البرستيج» (الاحترام الذي يُسبَغ دون شروط). في التراتبيّة المعتمدة على الهيمنة، تتعزّز المكانة من خلال العدوانيّة وإثارة الخوف، كما أنّ أصحاب المرتبة الدنيا يتجنّبون التواصلَ البصريَّ المباشر مع من هم أعلى مرتبة، ويفسحون مكاناً لهم، ويتملّقونهم، ويُبدون إشارات الخضوع الأخرى. البرستيج كما وصفه هنريتش وجِل - وايت، يتميّز بغياب الخوف نسبيّاً، يصونه الأفراد ذوو المرتبة العليا بإظهار البراعة والحكمة والموهبة، أو باللجوء إلى الإقناع. هنا، عوضاً عن أن يتجنّب الفرد ذو المرتبة الأدنى التواصلَ البصريّ المباشر، وعوضاً عن التباعد المكانيّ، نجد أنّه يسعى إلى النظر مباشرة في عيون الأفراد ذوي البرستيج، أو إلى الاقتراب منهم، بغية الحصول على معلومات مهمّة عادة. لتوضيح الفرق ما بين الهيمنة والبرستيج، يذكر هنريتش وجِل - وايت عالمَ الفيزياء العظيم ستيفن هوكنج، الذي كان مصاباً بالشلل الرباعيّ لكنّه تمتّع بالبرستيج، أمّا المتنمّرون في المدرسة الثانويّة، فهم مثال على الهيمنة المحضة.

كما لاحظ هنريتش وجِل - وايت، قد يلجأ الفرد إلى الهيمنة والبرستيج معاً، لتحقيق المكانة والحفاظ عليها. سأركّز في كتابي على الهيمنة، لكنّني سأشير عدّة مرّات إلى دور البرستيج في تحقيق مكانة الذكر، سواء الرجل أو الله، آخذاً بعين الاعتبار أنّ الأفراد المهيمنين قد يلجؤون إلى تقنيّات مختلفة لتحقيق أهدافهم، أي أنّني سأركّز عموماً على السلوك المهيمن الذي يتبعه كلٌّ من ذكر الآيب، والرجل، والإله الإبراهيميّ. قد يجادل البعض بأنّ الإله الإبراهيميّ، خاصّة شخصيّة يسوع المسيح في العهد الجديد، يستغلّ البرستيج كاستراتيجيّة، لكنّ استخدامه لأساليب الهيمنة أكثر رسوخاً، كما أنّه يلجأ إلى تحريض الخوف للحفاظ على مكانته. إذن، بما أنّ تسخير

الهيمنة وليس البرستيج، هو ما يحرّض العنف ضمن التقاليد الدينيّة الإبراهيميّة، لذلك ستحتلّ الهيمنة مركز الصدارة في كتابي، من خلال أربعة محاور رئيسيّة:

- **الترهيب**: يلجأ الذكور المسيطِرون إلى «استعراضات الهيمنة» لإظهار أنّ حجمهم أكبر، بينما يؤكّد الأفراد من ذوي المرتبة الأدنى خضوعَهم، بإظهار أنّهم أصغر حجماً (انكماش الجسم)، إضافة إلى غضّ البصر، أو إبداء مشاعر الخوف والتواضع، لا الغضب والغرور.
- **الاستحواذ على منطقة النفوذ**: يتحكّم الذكر المهيمن غالباً بمنطقة نفوذ، وهي وفق تعريفي لا تقتصر على بقعة من الأرض، وإنّما تعني أيضاً التحكّم بالموارد الموجودة ضمن حدود جغرافيّة معيّنة. تلك الموارد ترتبط بمضامين رئيسيّة (خاصّة الغذاء والإناث) بالنسبة إلى تلاؤم الذكر مع البقاء وفق معيار التطوّر، وستخضع إلى سيطرة الذكر المهيمن عندما يفوز بمنطقة النفوذ.
- **التحكّم الجنسيّ**: باتّباع دوافعه التطوّريّة، غالباً ما يتحكّم الذكر المهيمن منفرداً بالاتّصال الجنسيّ مع الإناث، ويقوم بحراسة شريكاته، ويبدي درجة عالية من الغضب والغيرة الجنسيّة إن تحدّى ذكرٌ آخر هذا الامتياز، فضلاً عن أنّه سيصرف غالباً مقداراً ضخماً من الطاقة، في محاولة التصدّي لطموحات المنافسين الذكور الجنسيّة.
- **العنف**: يلجأ الذكر المهيمن إلى العنف لتأسيس مكانته والحفاظ عليها، وكذلك للحفاظ على الموارد المترافقة معها، وهو ما يعني قتل المنافسين أحياناً.

فهمُنا للترابط بين تلك التكتيكات المرتبطة مع الغرائز، وبين منظورنا إلى المقدّس، سيساعدنا على تعليل ولع البشريّة بالقتال. لربّما كانت الفترة الأشدّ مرارة في التاريخ، هي الحقبة التوراتيّة في الشرق الأوسط، التي رسمت خلالها القوى البشريّةُ المضطربةُ الإلهَ الإبراهيميّ الحاليّ. بتحليل هذه الحقبة، قد نفهم سبب الانتشار الصاروخيّ لعبادة الإله الذكر المهيمن،

وبماذا يدين هذا الانتشار إلى جاذبيّته الغريزيّة، خاصّة بالنسبة إلى تاريخ الرئيسيّات المُهيّأة عقولُها -وفق التطوّر البيولوجيّ- للخوف والخضوع واتّباع الذكر المهيمن.

تاريخ: كيف استولى الإله الذكر المهيمن على السلطة

يكشف التاريخ نمطاً صاعقاً، يماهي الرجال من خلاله أنفسهم مع الله كوسيلة لتضخيم سلطتهم، فضلاً عن ارتقاء الآلهة الذكور إلى مصاف الحكم الشموليّ، بالأسلوب ذاته الذي اتّبعه الرجال، أي بالاعتماد على العنف والقتل. من خلال القراءة النقديّة لذلك التاريخ، يمكننا أن نعلّل طبيعة الإله الإبراهيميّ المستبدّة، التي يبدو أنّه ورثها من أسياد الحرب النشيطين في الحقبة التوراتيّة.

قام عدد من الباحثين، لعلّ أبرزهم هو روبرت رايت، بتحليل تطوّر مفهومِ الإله والممارساتِ الدينيّة، عندما انتقل البشر من مجتمعات الصيد والالتقاط، إلى القبائل، ومن ثمّ إلى الدولة القوميّة، وألقوا الضوء على تاريخ متشابك تتقاطع فيه قوى معقّدة مختلفة، سياسيّة وثقافيّة وعسكريّة وسيكولوجيّة، ترسم كلّها ملامح الله (أو الآلهة). رغم أنّني سأركّز بشكل خاصّ على المحور التطوريّ، لكنّني سأمرّ بإيجاز على هذا التاريخ، لأنّه يشرح المسيرة الصاعقة نحو عقيدة التوحيد في الشرق الأوسط، التي تمخّضت عنها الأديان الإبراهيميّة، كما أنّه يعلّل تنامي الحاجة إلى وجود الآلهة الذكور المهيمنين، وسأعتمد على أطروحة روبرت رايت في هذا الصدد.

ينطلق روبرت رايت من تحديد خمس فئات للكائنات ما فوق - الطبيعيّة، التي تظهر بشكل ثابت في مجتمعات الجني والصيد جميعها، وهدفها الأساسيّ هو شرح عالَم الطبيعة:

- الأرواح البدئيّة: أي الظواهر غير الحيّة، كالرياح والقمر والنجوم... إلخ، وكلّ منها تملك روحاً وشخصيّة خاصّة بها.

- الظواهر الطبيعيّة التي تتحكّم بها كائنات خارقة، كإله مُشَخْصَن يتحكّم بالريح مثلاً.
- الأرواح الحيّة: كروح القيوط مثلاً، أو روح الأشجار.
- أرواح الأسلاف.
- الآلهة العليا، وهي الأهمّ. يعرّفها رايت كـ: «إله يُعَدُّ على نحو مبهم أهمّ من بقيّة الكائنات ما فوق - الطبيعيّة، وهو الإله الخالق غالباً».

كلّ الفئات السابقة تشتمل على إسقاطات بشريّة، وبما أنّنا تطوّرنا في مجتمعات تراتبيّة، لذلك من الطبيعيّ أنّ إسقاطاتنا بدورها ذات تراتبيّة اجتماعيّة. حتّى في الأديان الأولى، نلاحظ بوضوح سلوكيّات الهيمنة الذكريّة في مفاهيم الإله، خاصّة الآلهة العليا. على سبيل المثال، إله الشمس كموكامتش Kmukamtch عند قبائل كلاماث Klamath (قبيلة من سكّان أمريكا الأصليّين)، كان غيوراً من ابنه آيشيش Aishish، وحاول جاهداً أن يغوي كناته. غاونا Gaona، وهو الإله المهيمن عند قبائل كُنغ سان Kung San! في إفريقيا، قام باغتصاب زوجة ابنه، وافترس اثنين من أخوتها. كلٌّ من الرغبة بالاستحواذ الجنسيّ، والتنافس للظفر بالشريك، هو نمط من سلوكيّات الهيمنة الشائعة بين ذكور الرئيسيّات، كما سنكتشف في الفصول القادمة.

يعتقد المؤرّخون، بمن فيهم روبرت رايت، أنّ البشر عندما انتقلوا من الحياة في مجموعات جوّالة معتمدة على الجني والصيد، إلى مجتمعات زراعيّة أكبر، تغيّرت احتياجاتهم الدينيّة كي تعكس نمط حياتهم الجديد: مع تزايد أعداد البشر، عكس دور الآلهة الجديد الهمومَ الاجتماعيّة الناشئة، لا قوى الطبيعة، كما بدأت تلك الآلهة تضطلع بدور فاعل في تنظيم العلاقات الاجتماعيّة، ومعاقبة من يخرق الأخلاقيّات والتعاون. وفقاً لروبرت رايت، عاش البشر خلال مرحلة الصيد والجني في تجمّعات صغيرة، تتألّف من أفراد تربطهم علاقات قربى مباشرة، وبالتالي لم يكونوا بحاجة إلى آلهة تشرف على التفاعلات ما بينهم. بمعنى آخر، كانت مجتمعاتهم صغيرة وشفّافة، إلى

حدّ يسمح بإدارتها ذاتياً من قبل أعضائها. عندما أخذت المجتمعات شكل قبائل أكبر، تحوّلت الآلهة إلى «حارسة للقوى السياسيّة، ومشرفة على الأداء الاقتصاديّ، وداعمة للقواعد الاجتماعيّة، ممّا سمح لأعداد ضخمة لا مثيل لها سابقاً من البشر بالعيش معاً». آلهة قبائل تونغان Tongan في بولينيزيا مثلاً، عاقبت اللصوصَ بهجمات أسماك القرش، وفي تلك القبائل، تمتّع الرجال المهيمنون بقوى إلهيّة، أو كانوا شخصيّاً آلهة تمشي على الأرض. بالتالي، خرقُ قوانين الزعيم أصبح خرقاً لقوانين الله.

مع تزايد أعداد البشر وتشكيل الدولة، نَمَت قوّة الآلهة بالتناسب مع مقدار السلطة اللازمة لتنظيم الجموع الضخمة، كما أصبحت وظائفها أكثر تخصّصاً، مما يعكس تعاظمَ التعقيد الاجتماعيّ وتقسيم العمل. بسطت الدولة سيطرتها على مجموعات إثنيّة مختلفة، وظهرت حاجة لا لتنظيم السلوك داخل الجماعة فحسب، بل إلى تنظيم العلاقات بين الدول أيضاً، عندما احتكّت شعوب متنوّعة مع ما تعبده من آلهة بعضها مع بعض، فبدأ القادة السياسيّون بوضع قواعد للقانون الدوليّ ترتكز على الاعتقادات الدينيّة، نظراً لأنّ الدين والسياسة والقانون كانت كلّها متداخلة معاً بشكل حميم في تلك الحقبة. بغية دعم التجارة والعلاقات التجاريّة، ومن خلال الاحتكاك الدائم بكلّ بساطة، تبنّت الدول آلهةَ شركائها التجاريّين، أو على الأقلّ تعايشت معها. بالتالي، الكثير من الأديان الباكرة في الشرق الأوسط كانت تعدّديّة Polytheistic.

تحت مظلّة التعايش السلميّ نسبيّاً مع الآلهة الأخرى، انطلق الإله الذكر المهيمن في مهمّة نموذجيّة، هي تأسيس منطقة نفوذه. يكتب مُنظّر العلاقات الدوليّة آدم واتسون، أنّه في الألفيّة الثالثة قبل الميلاد في بلاد ما بين النهرين «إنليل، ملك كلّ البلاد وأبو الآلهة جميعها، وضع حدوداً بين إله لكش وإله أوما، من ثمّ قام ملك كيش بترسيم تلك الحدود، بموافقة الإله المحليّ في المستوطنات الخاضعة، وشيّد علامة من الحجر هناك». تعاظمت أبعاد منطقة نفوذ الآلهة الذكور، وفقاً لما يمليه تطوّر قوّة الرجال الذين يمثّلون

تلك الآلهة، علماً أنّ الحدّ الفاصل ما بين الرجل وإلهه كان دائماً مبهماً عن قصد. عندما خرق ملكُ أوما مرسومَ إنليل على سبيل المثال، عاقبه جيش لكش (أو كما تذكر المصادر التاريخيّة: عاقبة إله لكش، بواسطة جيش لكش)، وهكذا تبدّلت احتياجات الآلهة تدريجيّاً، وسيطرت على مناطق نفوذ عابرة للدول، وأرست قواعدَ للسلوك تنظّم حشوداً أكبر من البشر.

سارت الآلهة نحو العقيدة التوحيديّة Monotheism، جنباً إلى جنب الرجال ذوي المراتب العليا، الذين وحّدوا أمماً بأكملها تحت مظلّة حكم أوتوقراطيّ. أحد أهمّ الأمثلة على ذلك، هو مدينة بابل -العدوّ اللدود لإسرائيل القديمة- التي وُلِدَ فيها الإله الإبراهيميّ. هناك، ومنذ مطلع الألفيّة الثانية قبل الميلاد، مجّد الملك حمورابي -الذي يُنسب إليه الفضل بسنّ إحدى أقدم الشرائع القانونيّة في العالم- الإلهَ مردوخ، واستغلّ صورة إلهه هذا كي يحقّق طموحاته السياسيّة والشخصيّة، لكنّه حرص على أن يسبغ الإلهان آنو وإنليل شرعيّة مقدّسة على ما يصدره من قوانين، بأن يقوم هذان الإلهان بترقية مردوخ إلى مرتبة عليا، ويهباه «هيمنة على البشر في الأرض». صورة مردوخ زاخرة بالإشارات إلى التنافس الذكوريّ، فهو إله ذكر مهيمن مجيد فحل، يُوصَف بأنّ له قلبَ طبلٍ، وقضيب أفعى ينتج نطافاً ذهبيّة. إدغام الحدود بين الإله والرجل، وتحديداً بين حمورابي ومردوخ المهيمن، مهّد الطريق لاستيلاء حمورابي على بلاد ما بين النهرين بأكملها. رغم أنّه مات قبل أن يتحقّق ذلك، لكنّ بابل هزمت الممالك المجاورة، ونصّبتْ مردوخ على رأس بانثيون الآلهة في المناطق التي احتلّتها، إمّا من خلال إخضاع الآلهة المحليّة، أو بالاستحواذ على وظائفها، حَدَد مثلاً كان إله المطر، لكنّه تحوّل إلى «مردوخ المطر»، ونابو الذي كان إله المحاسبة، أصبح بدوره «مردوخ المحاسبة». هذا لا يعني الانتقال إلى ديانة توحيديّة، تعبد إلهاً أحداً لا يشاركه إله آخر، بل إلى عبادة إله مهيْمن يسود على بقيّة الآلهة في البانثيون. تعايشت آلهة كثيرة معاً في بابل القديمة إبّان تلك الحقبة، يختصّ كلٌّ منها بوظيفة محدّدة كأنّها في مجلس بيروقراطيّ، فقد أظهر إحصاء

أجري في القرن التاسع قبل الميلاد، وجود حوالي خمسة وستّين ألف إله وإلهة آنذاك.

إن أخذنا بعين الاعتبار ذلك التداخلَ ما بين القادة الذكور، والآلهة الذكور، سنفهم الدافع خلف السعي إلى توحيد الهويّة الإلهيّة. سيقدّم توحيد الآلهة حلّاً سريعاً لترسيخ السلطة، أمّا وجود مجموعة من الآلهة المختلفة فقد يشوّش بنية السلطة الملكيّة، ويقوّضها في نهاية المطاف. مع ذلك، من المهمّ أن نؤكّد على أنّ الإله الذكر المسيطر المهيمن، هو اختراع من اختراعات الرجل، لا المرأة. مَهْدُ الحضارةِ القديمة البدائيُّ ذاك، لم يكن مهداً للمساواة بين الجنسين، فالرجال الأقوياء هم من وضعوا العقائد، وسنّوا القوانين، وأرسوا قواعد العلاقات الخاصّة مع آلهتهم، التي يتجلّى استغلالها تاريخيّاً في السعي الذكوريّ النموذجيّ إلى الاستيلاء على السلطة والأرض، باتّباع سلوك ذكور الرئيسيّات القديم الموروث. ربّما لعب الدمج ما بين الآلهة والملوك أيضاً دوراً في منع التمرّد، كما يشير المؤرّخ ويل ديورانت: «كلّ ذلك المجد الإلهيّ حمى العرش، وحوّل التمرّدَ إلى خطيئة كبرى، لا يخاطر مرتكبها بعنقه فقط، بل بروحه أيضاً».

ادّعت آلهةٌ مختلفة مرتبةَ الإله المنفرد بقوّته، إن لم يكن الإله الأحَد نظريّاً. تقدّم لنا مصر -وهي عدوّ آخر مهمّ من أعداء إسرائيل القديمة- مثالاً على ذلك: هيمن الإله آمون على بانثيون الآلهة المصريّة، بعد سلسلة من الحملات العسكريّة الناجحة التي أشرف عليها رمزيّاً، من ثمّ لُقّب بـ«ملك الآلهة» أو «أمير الأمراء»، وتحوّل إلى الإله المطلق والأعظم بين الآلهة الخارقة في تاريخ مصر الدينيّ، وتحكّم كهنته بسلطة سياسيّة واقتصاديّة عظيمة مستمدّة من الثروات التي درّتها الحملات العسكريّة. ينوّه روبرت رايت إلى أنّ الفرعون أمنحوتب الرابع، الذي ورث العرش عن والده، امتلك أسباباً وجيهة للاعتقاد بأنّ إلهاً قويّاً كآمون يمثّل تهديداً له، فلم يمض وقت طويل حتّى نبذه، ونصّب آتون (إله الشمس) مكانه، من ثمّ أعلن نفسه ابناً لآتون الذي تحوّل في نهاية المطاف إلى الإله خالق العالم. من قصّة أمنحوتب وآتون، نستشفّ

كيف يستحوذ الرجل على السلطة ومنطقة النفوذ باسم الآلهة، ونكتشف كذلك شعوره بالغيرة: أثناء حكم أمنحوتب، أُجْبِرَ كلّ من يحمل اسم (آمون) على تغيير اسمه، ومُحيَتْ آثار آمون كلّها من الوجود حيثما وُجِدَت. آتون يجسّد رمزيّاً كلّاً من المذكّر والمؤنّث، لكنّ الرجال الطغاة هم من يمارسون ذلك السلوك الاستحواذيّ، جوزيف ستالين مثلاً انتهج سلوكاً مشابهاً بعد أن تبوّأ السلطة في روسيا، فقام بمحو آثار الرجال المغضوب عليهم، من كتب التاريخ والمنحوتات والعملات، فضلاً عن إبادة معظمهم. من الجدير بالذكر أنّ عملية طمس آثار المنافسين في منطقة النفوذ، شائعة أيضاً بين الرئيسيّات، كما أنّها ازدهرت في الحقبة التوراتيّة. عبد الإسرائيليّون القدامى في بادئ الأمر آلهة عديدة، ويهوه هو مجرّد إله انبثق من بانثيون يضمّ آلهة غيره، ولم يكن أحَداً، ولم يتمتّع بأيّ من الصفات الخارقة التي أُسبِغَتْ عليه فيما بعد، كما أنّ العهد القديم حافل بإشارات عديدة إلى الآلهة التوراتيّة الأخرى في التاريخ الإسرائيليّ القديم، قبل ظهور التوحيد.

من المهمّ أن نفهم البيئة الجيوسياسيّة في الشرق الأوسط القديم، التي تمخّضت عن ولادة الديانة الإبراهيميّة الأولى، أي الديانة اليهوديّة وإلهها التوحيديّ يهوه. الحملات العسكريّة التي تبيد مدناً بأكملها لم تكن نادرة آنذاك، إنّها عنف يتمّ عن قرب، وجهاً إلى وجه، بحيث تحدّق في عيني من يهاجمك قبل أن يمزّقكَ إلى أشلاء (بأسلحة برونزيّة مثلّمة، من ثمّ بأسلحة حديديّة لاحقاً)، ويذبح عائلتكَ بأكملها، ويحرق مدينتك إلى أن تتحوّل إلى رماد. ما لم تمتلك سلطة عظمى، أو تتحالف مع من يملكها، ستجد نفسك تحت رحمة الغزاة، لذلك اضطرّت الدويلات الصغيرة غالباً إلى دفع أتاوة للممالك القويّة ابتغاء للحماية، وإلّا ستُمحى عن وجه الأرض. آنذاك، عيّن الرجالُ الأقوياء الآلهةَ الذكور في منصب «قادة الجيش»، وعَزَوا انتصاراتهم في المعارك (أو في الإبادة) إلى تلك الآلهة. بلا شكّ، لم تنفرد هذه الحقبة وحدها بالمآسي، لكن ما إن بدأ عدد السكّان بالتزايد في مهد الحضارة ذاك، حتّى استعرت الحروب أكثر فأكثر.

ليس عسيراً أن نفهم لماذا عكست أديان البشر حاجتهم إلى إله ذكر حامٍ شرس، في بيئة تمزّقها الحروبُ وعدمُ اليقين الوجوديّ. على الأرجح أنّ آلهة تلك الحقبة عكست سادة الحرب آنذاك، الذين اضطلعوا بالمهمّة ذاتها بالنسبة لشعوبهم، فإمّا أن يحملوا السلاح ضدّ الغزاة، أو على العكس، أن يجتاحوا ممالك الأعداء طمعاً بمواردها. مملكة إسرائيل القديمة وجدت نفسها أمام مشكلة من نوع آخر، وهي موقعها بين قوّتين عظيمتين متحاربتين، هما مصر وآشور، فتعرّضت بالتالي إلى السبي والمذابح من قبل الطرفين. التحالف مع إحداهما لم يكن خياراً مطروحاً على حدّ قول روبرت رايت، لأنّ «التحالف يساوي الخضوع غالباً، بالنسبة إلى مملكة صغيرة محشورة بين قوّتين عظيمتين».

فضلاً عن ذلك، لم يضطر ملوك المنطقة إلى مواجهة الجماعات الخارجيّة الغازية فحسب، بل إلى الحفاظ على تراتبيّة هرميّة مستقرّة داخليّاً، وهو ما تطلّب منهم اللجوء إلى العنف غالباً. انقسام الجماعة دينيّاً داخل حدود الأمّة، قد يُضعِف الدولة بأكملها، ويعيق تنسيق الجهود لتحقيق أهداف مشتركة كالدفاع مثلاً، كما أنّ الجماعات المنشقّة قد يتزعّمها قادة ذكور مسيطرون محليّون (وآلهتهم)، يشلّون قوّة الأمّة من خلال الاشتباكات الجانبيّة. امتلك قادة الدولة عادة سلطة كافية لمعاقبة المنشقّين، وتمتين التحالفات، فضلاً عن أنّ المساوئ الاستراتيجيّة لموقع مملكة إسرائيل وصغر مساحتها، خلقت حاجة ملحّة إلى التلاحم الداخليّ. كالعادة، الرجال الذين نهضوا بمهمّة القضاء على الاختلافات بين أفراد الجماعة، قاموا بذلك على مستوى الآلهة والبشر بآن واحد.

في تاريخ مملكة إسرائيل الغارقة بالدماء والعبوديّة، ظهرت سلسلة من الملوك الأقوياء واجهوا مشكلة الحاجة إلى إله أقوى. في عام 640 ق. م تقريباً، تبوّأ الملك يوشيا عرش إسرائيل، وبدأ بترسيخ سلطته تحت راية الإله يهوه، ومحو آثار الآلهة المحليّة كعشتار وشَمَش وملكوم (مولوخ) وبعل، وهي آلهة توفيقيّة برزت إلى الوجود بعد قرون من الاندماج الثقافيّ، لكنّ

يوشيا أعلن أنّها جميعها باطلة، ودمّر كلّ معابدها وأصنامها ومستلزمات عبادتها وكهنتها، إذ يرد في العهد القديم أنّه «وَذَبَحَ جَمِيعَ كَهَنَةِ الْمُرْتَفَعَاتِ الَّتِي هُنَاكَ عَلَى الْمَذَابحِ، وَأَحْرَقَ عِظَامَ النَّاسِ عَلَيْهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أُورُشَلِيمَ» (سفر الملوك الثاني 23: 20). بدأت النصوص المقدّسة بفرض الرقابة على كلّ من يخالفها بالرأي، كأسلوب لتحقيق الاندماج ووحدة الجماعة، يقول العهد القديم عن يوشيا أيضاً: «وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لاَ يَسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ. وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يُطْغِي، فَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلاَمًا لَمْ أُوصِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، أَوِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ آلِهَةٍ أُخْرَى، فَيَمُوتُ ذلِكَ النَّبِيُّ» (سفر التثنية 18: 19–20). بالمثل، إن تجرّأ أيّ شخص على عبادة آلهة أخرى، سيُقتَل بدوره: «وَإِذَا أَغْوَاكَ سِرًّا أَخُوكَ ابْنُ أُمِّكَ، أَوِ ابْنُكَ أَوِ ابْنَتُكَ أَوِ امْرَأَةُ حِضْنِكَ، أَوْ صَاحِبُكَ الَّذِي مِثْلُ نَفْسِكَ قَائِلًا: نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى لَمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلاَ آبَاؤُكَ... بَلْ قَتْلًا تَقْتُلُهُ. يَدُكَ تَكُونُ عَلَيْهِ أَوَّلًا لِقَتْلِهِ، ثُمَّ أَيْدِي جَمِيعِ الشَّعْبِ أَخِيرًا» (سفر التثنية 13: 6، 9)، وإن وُجِدتْ مدينة إسرائيليّة تعبد آلهة أخرى «فَضَرْبًا تَضْرِبُ سُكَّانَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِحَدِّ السَّيْفِ، وَتُحَرِّمُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مَعَ بَهَائِمِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. تَجْمَعُ كُلَّ أَمْتِعَتِهَا إِلَى وَسَطِ سَاحَتِهَا، وَتُحْرِقُ بِالنَّارِ الْمَدِينَةَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهَا كَامِلَةً لِلرَّبِّ إِلهِكَ، فَتَكُونُ تَلاًّ إِلَى الأَبَدِ لاَ تُبْنَى بَعْدُ» (سفر التثنية 13: 15–16).

استراتيجيّة عدم التسامح تلك، كانت نتاج طموحات يوشيا لتوسيع مملكة إسرائيل، بتوحيد شمالها وجنوبها أوّلاً تحت حكم إله واحد. رغم وحشيّة ما أعدّه لغير المؤمنين، لكنّه لم يعكس إلّا روح عصره الذي لا يرحم. على سبيل المثال، عندما تمرّد زيديكيا ملك يهوذا لاحقاً ضدّ البابليّين، غزا نبوخذ نصر القدسَ وأحرقها، ثمّ قتل ابن زيديكيا أمامه قبل أن يسمل عينيه، وساق معظم أهالي المدينة عبيداً إلى بابل. مدركاً أهميّة الصورة الإلهيّة (وربّما لأنّه آمن بها أيضاً)، حرص نبوخذ نصر أيضاً على تدمير معبد يهوه.

كبقيّة دويلات المنطقة آنذاك (كما عندما هُزِم المؤابيّون أمام إسرائيل)، عانت مملكة إسرائيل سنينَ طويلة من الاحتلال والعبوديّة، فقد خضعت

مثلاً طيلة ثماني سنوات للملك كوشان رِشَعْتايِم ملك آرام النهرين؛ وطيلة ثمانية عشر عاماً لإغلون ملك مؤاب، ونُفي الإسرائيليّون وبقوا في الأسر حوالي خمسين عاماً، بعد أن غزاهم البابليّون في القرن الخامس قبل الميلاد (اعتبر البابليّون انتصارهم ذاك، دليلاً على هيمنة إلههم مردوخ). يمضي روبرت رايت أبعد من ذلك، فيقترح أنّ فترة السبي كانت الحقبةَ الأهمَّ في تاريخ اليهوديّة، والعامل الحاسم في تطوّر العقيدة التوحيديّة، فكما يوحّد الدينُ القوميّ الناسَ، كذلك توحّدهم المأساة القوميّة.

انطلاقاً من مأساتهم وإذلالهم، بدأ الإسرائيليّون بتحويل الله إلى مُخلّص، ونجحوا أخيراً بترسيخ يهوه كإله وحيد، بعد أن تطوّرت صورته تدريجيّاً من «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي»، وصولاً إلى «لا يكن لك آلهة سواي». من ثمّ، طوّر الإسرائيليّون لاحقاً ما يُعرف بعقيدة الثواب والعقاب، ومن حقبة المعاناة تلك انبثقت قائمة تعويضات، قام يهوه بتحصيلها من أعداء إسرائيل، بأسلوب أسياد الحرب المهيمنين في الشرق الأوسط القديم، إذ يقول في سفر إشعياء: «وَأُطْعِمُ ظَالِمِيكِ لَحْمَ أَنْفُسِهِمْ، وَيَسْكَرُونَ بِدَمِهِمْ كَمَا مِنْ سُلاَفٍ، فَيَعْلَمُ كُلُّ بَشَرٍ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ مُخَلِّصُكِ، وَفَادِيكِ عَزِيزُ يَعْقُوبَ» (إشعياء 49: 26)، وتوعّد أعداء إسرائيل بانتقام مرعب: «مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ صَفَّقْتَ بِيَدَيْكَ وَخَبَطْتَ بِرِجْلَيْكَ وَفَرِحْتَ بِكُلِّ إِهَانَتِكَ لِلْمَوْتِ عَلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، فَلِذلِكَ هأَنَذَا أَمُدُّ يَدِي عَلَيْكَ وَأُسَلِّمُكَ غَنِيمَةً لِلأُمَمِ، وَأَسْتَأْصِلُكَ مِنَ الشُّعُوبِ، وَأُبِيدُكَ مِنَ الأَرَاضِي. أُخْرِبُكَ، فَتَعْلَمُ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ» (سفر حزقيال 25: 6–7).

تطول قائمة التهديدات العقابيّة تلك، وتقدّم مثالاً عن الحاجة إلى إله محارب يحمي شعبه، وينتقم له ممّن يضطهدونه. في بيئة سياسيّة يديرها رجال أقوياء، يحتاج المرء إلى إله يرتكز على سيكولوجيا الرجل القويّ، وقادر على المناورة ضمن تراتبيّة الهيمنة بين الرجال.

باستعراض هذا التاريخ، أردتُ أن أوضّح السياق الذي ظهرت فيه الأديان التوحيديّة الثلاث، إثر الانفجار السكّاني في الشرق الأوسط، حين حثّت

الإبادةُ الوحشيّة الناسَ على اللجوء إلى قادة أقوياء مهووسين بالحروب، ابتغاء للحماية ضدّ غيرهم من الرجال ذوي الميول المشابهة، وعلى اللجوء إلى آلهة لا تقلّ عنهم ضراوة. العديد من الأنماط التي يؤطّرها ذلك التاريخ ظهرت من قبل، وتكرّرت لملايين السنين في البيئة البدائيّة الوحشيّة التي عاش فيها أسلافنا من الرئيسيّات، فقد شهدت السافانا والغابات المطريّة في إفريقيا -كبلاد ما بين النهرين الغابرة- ظهورَ ذكور مهيمنين قادوا اعتداءات دمويّة، واستولوا على مناطق النفوذ، وذبحوا الذكور الآخرين ضمن الجماعة، وصدّوا هجوم الذكور الأغراب الذين يهدّدون حدودهم. يتفرّد البشر عنهم بخلق وكيل خارق للطبيعة يقوم بكلّ ما سبق، جنباً إلى جنب أقرانه الفانين. السياقات الدينيّة والثقافيّة التي انبثق منها الإله الذكر المهيمن متجذّرة في إرثنا البيولوجيّ، وسنتناول في الفصل الثاني كيف عمل الاصطفاء الطبيعيّ على قولبة عقل الإنسان، وأثّر على قائمة من سلوكيّات الهيمنة التي وصفتها هنا، ممّا أدى إلى ظهور نزعة عابرة للثقافات، تتجسّد بخلق كينونات خارقة تطالبنا بالولاء لها، وتحرسنا أثناء نومنا.

***

الفصل الثاني

آليّاتُ التطوّرِ: السببيّات

في هذا الفصل، سأشرح كيف تطوّر الإنسان لإسباغ خصائص بشريّة على العالَم الطبيعيّ، وكيف أدّت هذه النزعة في نهاية المطاف إلى ظهور إله يرتكز إلى صورة الرجل. لا بدّ هنا من التطرّق إلى أساسيّات علم التطوّر، كما أنّني سأفصّل الفروقَ في استراتيجيّات التكاثر بين الجنسين، منطلقاً من إسهامات تشارلز داروِن الثوريّة. فهمنا لهذه النقاط ضروريّ للغاية، لأنّ التنافس على التزاوج، هو القوّة الدافعة القصوى خلف العنف الذكوريّ. ضمن الإطار العامّ لهذا الفصل، سنفكّك صورة الذكر كي نفهم الإله المبنيّ على صورته، وهو ما سيُمَوضِع طغيانَ الله مجدّداً في سياق الرئيسيّات التي تطوّر منها.

منذ سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة وحتّى عصر النهضة، عاشت أوروبا حقبة مظلمة سادت فيها الخرافات والجهل، فضلاً عن التشوّش الفكريّ والاقتصاديّ والثقافيّ، والسبب عائد بالدرجة الأولى إلى السلطات الدينيّة، التي حاولت جاهدة أن تتحكّم بعقول الناس. بعد ألف عام تقريباً، برز اتّجاه جديد مع بدايات عصر النهضة، حرّر المعارف الأساسيّة من ذلك القبر المظلم حيث خنقتْها الاعتقاداتُ الدينيّة طيلة قرون. بدأت تعاليم المفكّرين مثل وليام بايلي بالنأي عن النصوص المقدّسة، واتّجهت إلى حقول معرفيّة جديدة كاللّاهوت الطبيعيّ، الذي يدعو إلى اكتساب المعارف عن طريق المراقبة اليوميّة العاديّة للعالَم، مناقضاً الدوغما السائدة المتجسّدة

بـ «الكشوف الدينيّة»، التي يتمّ وفقها تحصيل المعارف عن طريق الكشوفات الإلهيّة حصراً. تحقيق الاستقلال الفكريّ عن الدين كان شاقّاً، والفصل ما بين الكنيسة والحرّيّة الفكريّة كان رهين الاعتبارات السياسيّة، فاللّاهوت الطبيعيّ بدوره اعتبر أنّ كلّ النباتات والحيوانات، تدين بوجودها إلى إله خالق.

في عام 1859، نشر تشارلز داروِن كتاب «أصل الأنواع»، بعد جهد استمرّ سنوات عديدة، وفيه جادل بأنّ الحياة على الأرض ظهرت وفقاً لقوانين الطبيعة، كما أعلن عن اكتشاف فائق الأهميّة، وهو أنّ تنوّع أشكال الحياة ناجم عن عمليّة الاصطفاء الطبيعيّ natural selection (أو الانتقاء الطبيعيّ)، أي النظريّة التي تنصّ على أنّ اختلاف الصفات بين الأفراد، يؤدي إلى اختلاف قدرتهم على البقاء، وأنّ الصفات الأصلح للبقاء هي التي تنتقل للأجيال اللّاحقة.

أريد أن أوضّح نقطتين هنا، الأولى هي أنّ إسهام داروِن كان عظيماً. كتابي هذا -فضلاً عن فروع معرفيّة عديدة- ما كان ممكناً دون «أصل الأنواع». النقطة الثانية هي أنّ اكتشافات داروِن أدّت إلى تداعيات خطيرة على صعيد هويّة الإنسان، كما مهّدتْ نظريّته عن الاصطفاء الطبيعيّ الطريقَ لظهور نظريّة التطوّر المستقلّ عن وجود الإله، وفيها لا تظهر أنواع الكائنات الحيّة المختلفة كلٌّ على حدة، بل تشترك جميعها بأصل واحد.

الأهمّ من ذلك كلّه، أجبرت نظريّة داروِن الناسَ على التفكير بموقعهم في الكون، ممّا ولّد قلقاً وجوديّاً هائلاً، وتحرّراً فكريّاً عظيماً.

الاصطفاء الطبيعيّ

الاصطفاء الطبيعيّ هو عمليّة لوغاريتميّة، تدفع الطبيعة بواسطتها التصميمَ الجينيّ قدماً عبر الأجيال.

الجينات هي سلاسل بروتينيّة ملتفّة، تطفو في نوى الخلايا، ولا تملك بحدّ ذاتها القدرة على التفكير أو الاختيار، بل تعمل بطريقة عمياء وفقاً للوغاريتم.

يعتمد الاصطفاء الطبيعيّ على أمرين لا غنى عنهما، هما الاختلافات بين الأفراد، والتكاثر المتباين[1]. باختصار، كلٌّ منّا لديه جينات مختلفة، وهذا الاختلاف هو ما يسمح لجنسنا عبر الأجيال بالتكيّف مع البيئة المتغيّرة. الجينات التي ترمّز صفات تتماشى بشكل أفضل مع البقاء، تحمل عموماً ميزة تكاثريّة (التلاؤم مع البقاء fitness)، وبالتالي تظهر الصفات المترافقة معها أكثر من غيرها. لا تكترث الطبيعة في الحقيقة بهويّة الجينات التي تتكاثر، كما أنّ الصفات الظاهريّة التي تنجم عنها، لا تكون بالضرورة لطيفة، أو عادلة، أو أخلاقيّة، أو وادعة. لعلّها أحياناً كذلك، لكن فقط لأنّ التعبير عن الجينات التي ترمّزها يقدّم فائدة لوغاريتميّة، وهذا ناجم بدوره عن الاختلافات الفرديّة والتكاثر المتباين.

الاصطفاء الجنسيّ Sexual selection

I- التنافس من أجل التزاوج

إضافة إلى الاصطفاء الطبيعيّ، أشار داروين أيضاً إلى أنّ الاصطفاء الجنسيّ يدفع بدوره عمليّة التطوّر إلى الأمام. بشكل عامّ، هناك نوعان للاصطفاء الجنسيّ، أوّلهما هو التنافس من أجل التزاوج الذي سنشرحه هنا.

في الأنواع التي يتنافس فيها الأفراد للفوز بحقّ التزاوج، يتمّ انتقاء الاختلافات الفرديّة التي تضمن ميزة تنافسيّة، ممّا يحدّد مسيرة التطوّر. ذكر الإلكة Elk على سبيل المثال، يملك قروناً عملاقة -فضلاً عن صفات أخرى، كعضلات عنقه وظهره الضخمة- يستغلّها في التنافس مع الذكور الآخرين خلال موسم التزاوج. لقد ورث تلك الصفة من أسلافه، والذكر ذو القرون الأضخم يربح وسطيّاً عدداً أكبر من المواجهات، ويجامع بالتالي عدداً أكبر من الإناث، أي أنّه أكثر نجاحاً على صعيد التكاثر. على العكس

1- Differential reproduction: أي الاختلاف في معدّل النجاح بالتكاثر ما بين فرد وآخر، أو ما بين مجموعات مختلفة ضمن جنس ما. بعبارة أخرى، هذا يعني عدد الأطفال الذين سينجح الفرد (أو مجموعة من الأفراد) بإنجابهم. المترجمة

منه، الذكر الضئيل الحجم ذو القرون الأصغر، أقل كفاءة في المنافسة، ويتزاوج أقلّ، وفي نهاية المطاف ستمثّل صفاته نهاية تطوّريّة مسدودة. أنياب الخنزير البرّيّ، وقرون التيس الجبليّ المبرومة، ولبدة الأسد الكثيفة (التي تجعله يبدو أكبر حجماً)، كلّها تطوّرت بسبب التنافس على التزاوج.

عدوانيّة الذكور (بمن فيهم الذكر البشريّ)، هي صفة أخرى نتجت عن التنافس على التزاوج، والارتباط ما بينهما تدعمه براهين واسعة، تتوزّع على مختلف الفروع العلميّة بما فيها الأنثروبولوجيا، التي تشرح لنا كيف يعمل التكاثر المتباين. على سبيل المثال، رجال قبائل يانومامو Yąnomamö في الأمازون، الذين سبق لهم أن قتلوا رجالاً آخرين في المعارك، يملكون عدداً أكبر من الزوجات والأطفال مقارنة بأولئك الذين لم يقتلوا أحداً.

ديفيد باس، وهو اختصاصي بعلم النفس التطوريّ، يشرح لنا فوائد العدوانيّة من حيث التلاؤم مع البقاء، وهي تتضمّن: «الاستيلاء على الموارد، صدّ المعتدين، ترسيخ سمعة مهيبة تردع المنتهكين، إلحاق الضرر بالمنافسين، ارتقاء سلّم التراتبيّة الهرميّة للجماعة، إقناع الشريك بعدم المغادرة، إلغاء الذرّيّة الضعيفة غير المتلائمة مع البقاء، والحصول على شريكات جديدات». تلقي هذه اللائحة الضوء أيضاً على السلوك العدوانيّ الذي يتبعه الرجال الفانون، المضطرّون للتنافس مع غيرهم من الرجال، على الموارد من أجل البقاء.

سنكتشف في الفصول التالية كيف يسخّر الله العدوانيّةَ بغية البقاء، تماماً كما يفعل الرجال، ويخرق بذلك صفته الأساسيّة: القدرة الكليّة.

II- اختيار الشريك

اختيار الشريك، هو قوّة أخرى تدفع الاصطفاء الجنسيّ قدماً. عموماً، الذكور والإناث مُبرمَجون جينيّاً لاختيار الصفات الناجحة في شركائهم، أي أنّهم مبرمجون للبحث عن تلك الصفات التي ستحافظ على بقاء الذرّيّة، أو تحسّنه. تطوّرت بعض الصفات خصّيصاً من أجل استعراضات التزاوج،

كالذيل الضخم اللمّاع الملوّن الزاهي عند ذكر الطاووس مثلاً. ظاهريّاً، تبدو تلك البهرجة إسرافاً مبالغاً به من الناحية التطوّريّة، ومن المستغرب أنّ متطلّبات ترشيد الطاقة التي يفرضها الاصطفاء الطبيعيّ لم تقضِ عليها، لكنّ القدرة على الاحتفاظ بمظاهر مكلفة هي علامة على الصحّة والنجاح، تدلّ على أنّ الطاووس الذكر نجح بالاستحواذ على المصادر الضروريّة لنموّ ذيله، وكذلك على نجاحه بالنجاة من المفترسين، حتّى عندما يجرّ ذيلاً ثقيلاً ألوانه صارخة. إن اختارت الأنثى الذكرَ الذي يملك أجمل ذيل، ستتمتّع ذريّتها من الذكور غالباً بذيول مبهرة تثير إعجاب الإناث، وهو ما يُدعى بفرضيّة «الابن الجذّاب جنسيّاً». بالمقابل، سينتج الابن الجذّاب جنسيّاً نسخاً أكثر من جينات أمّه عبر ذرّيّته.

بالمثل، أنثى الإلكة -كإناث العديد من الأجناس الأخرى- لا تجلس بانتظار الذكر المنتَصِر فحسب، أو تقبل به دون نقاش، بل تفضّل عادةً الذكرَ الذي ينتصر في المنافسات العنيفة الصعبة، لأنّه يتحلّى حكماً بالقوّة والشجاعة والعزيمة، وهي صفات تصبّ كلّها في مصلحة الذرّيّة. بالمقابل، الأنثى التي تفضّل ذكوراً ضعيفين متواضعين، ستنجب أبناء ضعيفين ومتواضعين، ينجبون بدورهم ذكوراً يحملون هاتين الصفتين، ولا يقدرون على الانتصار في التنافس على التزاوج، ولا على النجاة من التحدّيات التي تفرضها الطبيعة، ممّا يعني أن تفضيل الذكر الضعيف سرعان ما سيختفي من الحوض الجينيّ gene pool. هذا هو أحد الأسباب التي تفسّر لماذا تصبح الأنثى في العديد من الأجناس -بما فيها الجنس البشريّ- عدوانيّة عندما يقترب منها ذكر أدنى مرتبة، لكنّها تنجذب إلى الذكور المسيطرين.

جاذبيّة الذكر المهيمن ترجع إلى أسباب أخرى أيضاً، منها قيامه بحماية الإناث من بقيّة الذكور، كما هو واضح بين الرئيسيّات. لاحظ عالِم الرئيسيّات فرانز دي وال، أنّ أنثى الشمبانزي عندما يهدّدها ذكر «قد تركض إلى الذكر المهيمن، وتجلس خلفه أو بالقرب منه، حيث لا يجرؤ المهاجِم على الاقتراب». عالِمة الرئيسيّات الأمريكيّة باربرا سمتس، درست

مجموعات البابون في السافانا، واكتشفت أنّ الأنثى تصادق الذكرَ الذي يحميها هي وأطفالها من الذكور الآخرين، غالباً مقابل الجنس. تجادل هي وديفيد باس، أنّ قيام الرجل بحماية المرأة ضدّ الرجال الآخرين، كان ملمحاً هامّاً من ملامح تطوّر الجنس البشريّ. إضافة إلى ذلك، يأخذ باس باعتباره المعدّل العالي لاغتصاب النساء في بعض الثقافات المعاصرة، ويجادل بأنّ قدرة الرجل على تأمين الحماية، ما تزال عاملاً مهمّاً بالنسبة للمرأة عند اختيار شريكها في عصرنا الحاليّ.

قد يفسّر ما سبق، لماذا تميل النساء حول العالَم إلى تفضيل الرجل الطويل، وهو ما تؤكّده أبحاث كثيرة، ففي عالمنا هذا، الأكبر يعني عموماً الأقوى. قام الباحثون في إحدى الدراسات بقياس أطوال 1440 زوجاً وزوجة، ووجدوا ثنائياً واحداً فقط كانت الزوجة فيه أطول من زوجها، وهذا أندر بكثير من احتمال أن تكون المرأة أطول من الرجل عموماً (لا يتعدى 0.02%). ربطت دراسة أخرى بين طول القامة والنجاح التطوّريّ، لأنّ فرصة الرجل الأطول بإنجاب الأطفال، أكبر من فرصة الرجل الأقصر قامة، كما وجد الباحثون دليلاً آخر مباشراً، وهو أنّ المرأة تميل أكثر إلى تفضيل الرجل الطويل، عندما تكون في ذروة خصوبتها أثناء الدورة الطمثيّة.

باختصار، في عالمنا الضاري، يدلّ طول القامة على الهيمنة، والهيمنة هي ما تفضّله النساء عموماً. علاقة هيمنة الذكر مع نجاح الأنثى بالتكاثر، تلقي الضوء على العلاقات التي تقيمها النساء مع إله ذكر مهيمن حامٍ، وهو ما سنتطرّق إليه لاحقاً.

اختيار الشريك ينطبق أيضاً على ما يفضّله الذكور، كانبهار الرجال مثلاً بالصفات الجسديّة للنساء. عمليّة الولادة خطرة من الناحيّة الطبيّة، كما أنّ تربية الطفل مرهقة جسديّاً. بالتالي، الصحّة هي مرادف للقدرة على التكاثر، ولطالما كان المظهرُ الجسديُّ الدليلَ الأمثل عليها، قبل أن تقدّم التكنولوجيا الطبيّة طريقة لمعرفة قدرة الأنثى على الإنجاب. المثال الآخر هو انجذاب الرجال إلى الشابّات، وهو ميلٌ تصوغه الصحّةُ، والمجالُ الزمنيّ الضيّق

لخصوبة الأنثى، لأنّ قدرة المرأة الإنجابيّة محصورة بفترة شبابها، وهي فترة قصيرة نسبياً تمتدّ منذ البلوغ وحتّى سنّ الضهي. بعبارة أخرى، كلّما كانت المرأة أصغر سناً، ستتمكّن من إنجاب وتربية عدد أكبر من الأطفال، كما أنّها تتمتّع عموماً بصحّة أفضل من المرأة الأكبر سناً، أي أنّها أكثر قدرة على تحمّل المتطلّبات الجسديّة المرهقة للحمل والولادة. باختصار، المرأة الشابّة موفورة الصحّة تبدو جذّابة أكثر، لأنّ جينات الرجل التي ترمّز انجذابه إلى تلك الصفات كانت نافعة للبقاء.

استراتيجيّاتُ التزاوج

I- الكمّيّة

يُبدي كلّ من ذكور الأيب، والرجال، والآلهة الذكور المرسومين على صورة الرجل، ميلاً للتحكّم بالنساء، ومن المهمّ أن نفهم كيف نشأت هذه العادة عند الإله الذكر.

كالعديد من الحيوانات، يوظّف الرجال والنساء عادة استراتيجيّات مختلفة للتزاوج. باستخدام تعبير «استراتيجيّة»، أنا لا أقصد أنّ الرجال والنساء يمارسون الجنس بنيّة الفوز في مسابقة لإنجاب الأطفال، فهم بالطبع لا يفعلون ذلك! على حدّ تعبير عالِم النفس ستيڤن بِنكر، يمارس الرجال والنساء الجنسَ لأنّه يمدّهم بشعور طيّب، وتلك هي بالضبط استراتيجيّة جيناتنا: أن تجعل الجنس مبهجاً، كي يتحوّل إلى وسيلة تنسخ تلك الجينات نفسها بواسطتها إلى الأجيال القادمة. عموماً، يمكن تلخيص فروقات الاستراتيجيّات المتّبعة، بالكمّيّة مقابل النوعيّة. تفضّل النساء استراتيجيّة «النوعيّة»، لأنّ إنتاج البويضات مكلف ومحدود، فخصوبة المرأة -أي توافر البويضة- تنحصر بالإباضة الشهريّة، وتتناقص أثناء الإرضاع، كما أنّ المرأة لا تنتج وسطيّاً أكثر من خمسمئة بويضة إجمالاً خلال حياتها. إذن، من المجزي أكثر بالنسبة لها، أن تكون انتقائيّة تجاه من ستتشارك معه بمواردها الثمينة تلك.

على النقيض من ذلك، الاستراتيجيّة السائدة عند الرجال هي «الكمّيّة». النطاف رخيصة، يتمّ إنتاج الملايين منها خلال فترة طويلة تبدأ منذ البلوغ، وتستمرّ حتّى الشيخوخة. نظريّاً، هذا يعني أن الاستراتيجيّة المثلى بالنسبة للذكر، هي التزاوج مع أكبر عدد ممكن من الإناث. عمليّاً، هذا يعني أنّ الرجال الميّالين لتجديد الشريكات، والذين يدفعهم الشبق إلى علاقات متنوّعة (علاقات عابرة، تعدّد الشريكات الجنسيّات... إلخ) سيمرّرون جيناتهم بمعدّل أعلى إلى الأجيال اللّاحقة. بعبارة أخرى، الجينات التي ترمّز الاستحواذَ الجنسيّ، تملك ميزة لوغاريتميّة أكبر من تلك التي ترمّز القناعةَ الجنسيّة مثلاً. هذه المعادلة لا تميل لمصلحة المساواة الجندريّة، لكنّها بسيطة وفعّالة، ومن السهل اكتشافها عند الرجال حول العالم.

تناولت الأبحاث استراتيجيّةَ «الكمّيّة» من مختلف الزوايا، فدرست مثلاً فترة «الاستعصاء الجنسيّ» (أو الِحران الجنسيّ Sexual refractory period، والتي تشير إلى الذكر عادة)، وهي فترة تلي القذف مباشرة، يعجز الذكر خلالها عن الانتصاب. بيّنت الدراسات إلى أنّ هذه الفترة تنتهي بشكل أسرع عند ظهور أنثى جديدة، فما إن تُقدَّم للذكر حتّى ينتصب قضيبه، ويباشر عمليّة التزاوج، كما يتكرّر هذا الأمر مرّة تلو المرّة كلّما ظهرت أنثى جديدة مختلفة. دراسة أخرى أُجرِيَت على قرود الريسوس، بيّنت أنّ استثارة الذكر تتناقص باستمرار بوجود إناث مألوفات، حتّى ولو ظلّت الأنثى مُستثارة بشكل دائم نتيجة حقنها بالهرمونات، أمّا عندما تُقدَّم إليه إناث جديدات، فستتزايد استثارته مباشرة، ممّا يعني أنّها ليست مرتبطة باستثارة الأنثى، بقدر ما هي استراتيجيّة «كمّيّة» تطورّية يتّبعها الذكور... وهي ليست الاستراتيجيّة الوحيدة بالطبع!

يذكّرنا ديفيد باس بأنّ العلاقات الجنسيّة العابرة، وتعدّد الشريكات، والعلاقات خارج إطار الزواج، قد تكون خطرة أحياناً، لأنّها تعرّض الذكر إلى العدوى بالأمراض التناسليّة، أو إلى مسدّس الزوج، أو تكلّفه مقداراً ضخماً من الطاقة والوقت، لكن بالمقارنة مع النساء، العلاقات الجنسيّة

العابرة مجّانيّة تقريباً بالنسبة للرجل، لا تكلّفه عادة أكثر من حفنة نطاف رخيصة. الوضع مختلف بالنسبة للمرأة، ومن المستحيل أن نسمع سيّدة تتباهى قائلة: «على حدّ علمي، ليس لديّ أطفال لا أعرفهم»... المرأة تعرف دائماً، لأنّها من سيتحمّل العبء في نهاية المطاف.

مختبر ديڤيد باس، قدّم ثروة من المعلومات فيما يتعلّق باستراتيجيّات التزاوج عند البشر. في إحدى دراساته، وجد أنّ الرجال يفضّلون تعدّد الشركاء الجنسيّين، ويستغرقون وقتاً أقلّ من المرأة للموافقة على ممارسة الجنس، كما أنّ معاييرهم أخفض بما يتعلّق بصفات الشريكة في العلاقات الجنسيّة العابرة، فمن بين سبع وستّين صفة من الصفات المرغوبة في شريك هذا النوع من العلاقات، وجد باس أنّ معايير الرجال كانت أخفض بالمقارنة مع النساء، فيما يتعلّق بإحدى وأربعين منها. في كتابه القيّم «تطوّر الرغبة الجنسيّة»، وهو كتاب هامّ حول استراتيجيّات التزاوج عند البشر، يشير باس إلى أنّ الرجل لا يكترث كثيراً بالعديد من المميّزات، كالسحر، البنية الرياضيّة، التعليم، السخاء، الصدق، الاستقلال، اللطف، الذكاء، الإخلاص، حسّ الفكاهة، الانفتاح، الثروة، تحمّل المسؤوليّة، العفويّة، التعاون، والاستقرار العاطفيّ. المستوى الذي قد تنحدر إليه معايير الرجال مرعب، لكنّه غير مُستغرَب إن استعرضناه من منظور التطوّر. عندما سُئِلَ المشاركون في إحدى الدراسات عن صفات الشريك غير المحبّذة، لم يعانِ الرجال مشكلة كبيرة مع صفات من قبيل: «العنف النفسيّ، الميول الجنسيّة الثنائيّة، كراهيّة الآخرين للشريك، الإفراط بتناول الكحول، الجهل، تدنّي مستوى التعليم، حبّ الاستحواذ، الفسوق، الأنانيّة، غياب حسّ الفكاهة، انعدام الشهوة»، لكنّهم –وعلى النقيض من النساء– صنّفوا أربع صفات فقط على أنّها غير محبّذة، وهي: «ضعف الدافع الجنسيّ، الجسد القبيح، الشعرانيّة، الحاجة للالتزام». الصفات الثلاث الأولى توحي بمشاكل تتعلّق بالخصوبة، أمّا «الالتزام» فهو بحدّ ذاته عائق تفرضه العلاقة على استراتيجيّة «الكميّة».

II- غيرة الذكر

يُبدي الإلهُ المستند إلى صورة رجل غيرةً جنسيّة هائلة، سأتطرّق إليها لاحقاً. حالياً، من المهمّ أن نفهم المصدر الذي استقى منه الآلهة الذكور هذا الشعور.

لربّما نعتقد أنّ أسوأ نتيجة تطوّريّة في مسابقة البقاء العظمى، هي عدم التكاثر، لكن هناك نتيجة أسوأ، وهي أن يقوم الكائن باستثمار الوقت والموارد الثمينة لتنشئة ذريّة ليست من صلبه، أي ما يعرف بالدِياثة cuckoldry (يُشتقّ المصطلح بالإنجليزيّة من طائر الكوكو Cuckoo، الذي يضع بيوضه في أعشاش الطيور الأخرى، التي ستربّي صغاره). تربية الأطفال تتطلّب حصّة من الموارد الحيويّة -التي واجه أسلافنا مخاطر جمّة لتوفيرها ضمن بيئتهم القاسية- كما ينبغي أيضاً حمايتهم من المفترسين، ومن عنف الذكور الآخرين. تصبح العناية بالذريّة مكلفة أكثر كلّما طال اعتماد الطفل على والديه، فمعظم الرئيسيّات تدفع ثمناً باهظاً لقاء العناية بصغارها، بينما يتكبّد البشر الكلفة الأعلى.

على الرغم من أنّ المرأة تاريخيّاً هي مقدّم الرعاية الأساسيّ للأطفال، على العكس من الآباء الذين كثيراً ما يهجرون ذرّيتهم، لكنّ الرجال أيضاً يقومون بإعالة النساء والأطفال. بأخذ المجازفة التطوّرية بعين الاعتبار، من المنطقيّ أن تظهر غيرة الذكر الجنسيّة من خلال الاصطفاء الطبيعيّ. الذكور الغيورون سيتجنّبون الدياثة نظريّاً، وبالتالي سيمرّرون الجينات التي ترمّز الغيرةَ إلى الأجيال اللّاحقة، أمّا الذكور غير الغيورين فسيعملون على استئصال أنفسهم من الحوض الجينيّ، بسبب رعايتهم لذريّة ذكر آخر دون علمهم، وهي رعاية قد تتطلّب عقوداً طويلة من منحِ الموارد للأطفال.

تغار المرأة بلا شكّ، لكن هناك فروقات هامّة بين الجنسين في مظاهر الغيرة، فالرجال يميلون إلى أن يغاروا أكثر من عدم إخلاص النساء جنسيّاً، بينما تميل المرأة لأن تغار أكثر من قيام الرجل بمنح الموارد، والحبّ، والعاطفة، لنساء غيرها. أثبتت الدراسات أنّ هذا الفرق يعبّر عن نفسه

بوضوح في مختلف الثقافات، وأنّه متجذّر في صلب عمليّة التزاوج، إذ تطالب المرأة بأن تبقى الموارد والحبّ ملكاً لها ولأطفالها، دون أن تشاركها مع المنافِسات، أمّا الرجل فيطالب بالتيقّن من أنّ الأطفال الذين يربّيهم ليسوا أبناء منافسيه.

يطالب الآلهة الذكور بدورهم بالعفّة الجنسيّة، والتهديد بالدياثة يفسّر منشأ هذا الاهتمام: الرجال. الفروقات الجنسيّة في قيمة العفّة، تتوضّح من خلال دراسة تجريبيّة أجراها ديفيد باس وفريقه لتحرّي خيارات التزاوج المفضّلة، ضمن عيّنة ضخمة مؤلّفة من 10047 شخصاً من دول مختلفة. كشفت الدراسة عن أنّ الرجال يسبغون دائماً على عفّة الزوجة، قيمة أعلى ممّا تسبغه النساء على عفّة الزوج، وأنّ المرأة تميل غالباً إلى تسويق نفسها للرجل من خلال عدسة هذا الحافز التطوريّ، أي بالتأكيد على عفّتها، إذ تخضع بعض النساء مثلاً إلى جراحة مؤلمة مكلفة لرتق البكارة، وهي غشاء مهبليّ رقيق يدلّ -ولو بشكل غير دقيق- على العذريّة. بالمقابل، نادراً ما يشغل الرجل نفسه بالبرهان على بتوليّته أو حتّى احتشامه، لكنّه يهتمّ بأن يتأكّد تأكّداً مطلقاً من وجود هاتين الصفتين عند المرأة، كما أنّه ابتكر تقاليد متعدّدة عبر التاريخ (الزواج من عذراء، حزام العفّة[2]، البرقع... إلخ) كي يضمن نجاحه في استراتيجيّات التطوّر.

من المعروف أيضاً أنّ الآلهة الذكور يعزلون النساء في الأديرة، وهو سلوك آخر موروث عن الرئيسيّات، سيرد المزيد عنه في الفصول اللّاحقة. يقوم ذكور عدّة أنواع من الرئيسيّات بحراسة الإناث الخصبات، وكلّما ازدادت هيمنة الذكر، لاقى نجاحاً أكبر في هذا الصدد عموماً. الرجال يقومون بالفعل نفسه بدورهم، فقد بيّنت الدراسات أنّ الرجل يعرف -ولو

2- سروال معدنيّ أُجبِرَت بعض النساء على ارتدائه خلال العصور الوسطى، لمنعهنّ من ممارسة العلاقات الجنسيّة خلال غياب أزواجهنّ. يتألّف من إطار يُثبّت على الخصر، وصفيحة معدنيّة تمتدّ من البطن إلى الظهر كي تغطّي المنطقة التناسليّة تماماً، دون أن تترك سوى فتحة صغيرة لتصريف الفضلات، تحيط بها أسنان معدنيّة حادّة. للسروال قفل، يحتفظ الزوج بمفتاحه. المترجمة

بشكل غير واع- متى تكون شريكته خصبة. إحدى تلك الدراسات طلبت من المشتركات ارتداء تيشرتات معيّنة في أطوار مختلفة من الدورة الطمثيّة، ثمّ طلبت من المشتركين أن يقيّموا رائحة التيشرت إمّا كـ «لطيفة» أو «مثيرة جنسيّاً»، فوجدت أنّ الرجال صنّفوا التيشرتات التي لبستها النساءُ خلال الطور الجُرَيبيّ (أي عندما تصبح البويضة جاهزة للإلقاح)، تصنيفاً أعلى على مقياس الإثارة الجنسيّة. كشفت دراسة أخرى عن أنّ الرجال «يحرسون» شريكاتهم أكثر خلال طور الخصوبة، من خلال التحكّم بوقتهنّ، أو الاتّصال بهنّ في أوقات غير متوقّعة، أو بالاستشاطة غضباً إن تكلمت المرأة مع رجل آخر، دون أن ننسى أنّ بعض الرجال نجحوا بتأسيس «حريم»، أي بالجمع بين «حراسة الشريكة»، و«استراتيجيّة الكمّيّة»، مستعينين بالثقافة الذكوريّة السائدة في المجتمع، وبالأديان المتمحورة حول آلهة ذكور مهيمنين.

كي نلخّص ما سبق: يميل الذكور إلى التنافس العنيف على التزاوج، وإلى إبداء غيرة هائلة، وفرض العفّة على النساء، وحراسة الشريكة (خلف جدران حصينة أحياناً)، واللجوء إلى استراتيجيّة التزاوج الكمّيّ أو المتعدّد. لاحقاً، سأبيّن كيف يوظّف الله كلّ الاستراتيجيّات التي تمثّل علامة فارقة تطوّريّاً بالنسبة للرجال.

III- النوعيّة

عند مناقشة الدور الذي يلعبه الآلهة الذكور في حياتنا، لا بدّ من أن نفهم استراتيجيّة الإناث أيضاً، نظراً لوجود مليارات النساء بين أتباع الديانات التوحيديّة، أُجبِر بعضهنّ على اتّباع إملاءات دينيّة تقيّد حريّتهنّ، بينما تعبد العديدات منهنّ آلهة ذكوراً بحماس صادق، وهذا مرتبط بالعلاقات التي شكّلتها المرأة مع الرجل المهيمن خلال تاريخ التطوّر. المرأة مُهيّأة كي تكون أكثر دقّة بانتقاء «نوعيّة» الشريك، وصفة الهيمنة قد تكون مؤشّراً هامّاً على «نوعيّة» الرجل.

سنفهم استراتيجيّة «النوعيّة» على أفضل وجه، بدراسة الفروقات ما بين الجنسين فيما يتعلّق بالاستثمار في مجال التكاثر. تكرّس المرأة موارد

هائلة، وتتعرّض إلى مخاطر صحّيّة كبرى كما ذكرنا من أجل إنجاب ذرّيّة، فالحمل والولادة هما مرحلتان خطيرتان صحّيّاً (تموت العديد من النساء أثناء المخاض مثلاً، حتّى في عصرنا الحاليّ)، أمّا الرجال، فمن البديهيّ أنّهم خارج نطاق الخطر. فضلاً عن ذلك، المرأة في مختلف الحضارات هي عادة من تتحمّل العبء الأكبر بتربية الأطفال كما ذكرنا في بداية الفصل، دون أن ننسى أنّ البويضات هي بضاعة شحيحة. بالتالي، سترجح كفّة المرأة بقوّة لمصلحة ترشيد الموارد، ومن المجزي أكثر بالنسبة لها، أن تكون انتقائيّة أكثر من الرجل عند اختيار شريكها.

تتطلّب تربية الطفل البشريّ الكثير من الوقت والطاقة والموارد، لذلك يدفع الاصطفاءُ الطبيعيّ المرأةَ إلى تفضيل الرجال الذين يملكون الموارد، والملتزمين باستثمارها لمصلحتها هي وأطفالها. عندما نسخّر العلم لتمحيص هذه النقطة، سنكتشف أنّ استراتيجيّة «النوعيّة» مُطبَّقة في كلّ أرجاء الكوكب، فوفقاً لدراسة أجراها ديفيد باس: «في كلّ القارّات، وكلّ الأنظمة السياسيّة بما فيها الشيوعيّة والاشتراكيّة، وكلّ الجماعات العِرقيّة، وكلّ الجماعات الدينيّة، وكلّ أنماط الزواج بدءاً من تعدّد الزوجات الصريح إلى الزواج بامرأة واحدة فقط، تولي النساءُ المواردَ الماليّة أهميّة أكبر، بنسبة قد تصل إلى الضعف أحياناً مقارنة بالرجال».

ينبغي هنا مناقشة أنّ ما سبق، قد يكون نتيجة لعدم التساوي في الأجور بين الرجال والنساء. تذكّروا أنّ 99% من مسيرة تَطوُّرِنا كجنس حصلت بعيداً عن العالَم الصناعيّ، في بيئات تختلف اختلافاً جذريّاً عن تلك التي نعيش فيها اليوم، خاصّة بيئة العمل المعاصرة. لذلك، يجادل البعض بأنّ التباين في الأجور بين النساء والرجال، هو ما جعل استثمار موارد الرجل أمراً مهمّاً من وجهة نظر المرأة. بأيّ حال، الاستبيان الذي اعتمد عليه باس وزملاؤه في بحثهم، مستمدّ من دراسة أمريكيّة أُجريَتْ في عام 1939، ثمّ تكرّرت مجدّداً في عامي 1956، 1967، وفي منتصف حقبة الثمانينيّات. تلك العقود شهدت اضطرابات هائلة في قواعد الجندر ضمن أماكن العمل في أمريكا،

لكنّ باس توصّل إلى نتيجة قاطعة: تولي النساء أهمّية للموارد الماليّة أعلى بمقدار الضعف من الرجال، ورغم أنّنا نتوقّع وجود فروقات ثقافيّة ضخمة بين الشعوب، فإن المرأة تفضّل دائماً أن يحظى شريكها بموارد ماليّة جيّدة، وذلك بنسبة الضعف أيضاً مقارنة بما يفضّله الرجال.

ليس مفاجئاً إذن، أن تميل النساء إلى تفضيل الرجال الأكبر سنّاً والذين يتمتّعون بمرتبة عليا، لأنّ اجتماع هاتين الصفتين معاً يعني عادة توافر موارد أكبر، وهذا الميل -وفقاً لدراسة باس أيضاً- يظهر حول العالم، عند نساء ينتمين إلى مختلف الأديان والإيديولوجيّات والثقافات. المرأة تنجذب إلى البرستيج والسلطة والمكانة والمرتبة العليا، كما يذكّرنا باس بأنّها تتعامل ببرود مع الرجال الأضعف، أو الأدنى مرتبة، أو الذين يهيمن عليهم رجال آخرون.

باختصار، تترافق القوّة مع الموارد، وهو أمر فائق الأهمّيّة في عالم تلزمنا فيه تلك الموارد من أجل البقاء. هذا يعني أنّه خلال تاريخنا التطوّريّ، نجحت النساء اللواتي انجذبن إلى الرجال الأقوياء بالإنجاب، أكثر من اللواتي لم يهتممن كثيراً بالقوّة والسلطة.

تفضيل الأقارب وإيثارهم

سأبيّن لاحقاً أنّ الإله الإبراهيميّ -تماماً كالبشر وبقيّة الحيوانات- يحابي ذرّيته. حاليّاً، سأتناول موضوع «اختيار الأقارب»، وهو قوّة تطوّريّة تفسّر محاباة العائلة.

«نظريّة اختيار الأقارب»، هي نظريّة طرحها عالم البيولوجيا التطوّريّة البريطانيّ وليام. دي. هاملتون عام 1964، وتنصّ على أنّ الأقارب البيولوجيّين قد يؤثّر بعضهم على بعض، من حيث التلاؤم مع البقاء. هذه العمليّة واضحة للغاية في علاقة الوالد والوالدة بطفلهما، فكلّ منهما يعتني به، ويشترك معه بـ50% من الجينات. بالتالي، سيضمن هذا الاستثمار الأبويّ / الأموميّ، انتقال الإرث الجينيّ للأب والأمّ مع مجرى التطوّر.

بشكل عامّ، الأفراد الذين يميّزون أقاربهم البيولوجيّين (تمييز الأقارب)، ويتعاملون معهم على نحو مختلف عن تعاملهم مع غير الأقارب (التحيّز للأقارب)، سينشرون المزيد من جيناتهم التي ترمّز ذلك السلوك. هذه الفكرة لم تصل مطلقاً إلى حدّ الكمال العلميّ، لكنّ الكائنات الحيّة تبحث عموماً عن عوامل تساعدها على تمييز أقاربها، كالمظهر والروائح المتشابهة، أي باختصار: هذا الكائن يشبهني، أي أنّه أحد أقاربي، وعليّ أن أساعده.

هذا المبدأ مهمّ للغاية في عمليّة التطوّر، لأنّه يشير إلى الجينات -وليس إلى الأفراد- باعتبارها وحدة الانتقاء selection unit، بمعنى أنّ الجينات تؤثّر على الأنماط السلوكيّة التي تؤدّي إلى ظهور نسخ أكثر من تلك الجينات، حتّى ولو كان مصيرها أجساد كائنات حيّة أخرى. عالم البيولوجيا التطوّريّة البريطانيّ ريتشارد داوكنز، مؤلّف كتاب «الجينة الأنانيّة»، يمضي أبعد من ذلك، فيقترح أنّ الكائنات الحيّة تُعَدُّ بمنزلة «آلات مُسخَّرة من أجل بقاء الجينات». بعبارة أخرى، تنتج الجيناتُ الصفاتِ الأفضل لضمان انتشار تلك الجينات نفسها.

هذا بدوره يفسّر السلوك الإيثاريّ، الذي يبدو كأنّه مأزق تطوّريّ يتمّ على حساب تلاؤم الفرد مع البقاء. فكّر مثلاً، بمن ستنقذ من مبنى يحترق: طفلك، ابن أختك، ابن عمّ من الدرجة الرابعة، سمكتك الذهبيّة، نباتاتك. على الأرجح أنّك ستنقذهم وفق الترتيب السابق، كما أنّ رغبتك بالمخاطرة بحياتك ستتناقص بالاتّجاه نحو نهاية القائمة. استناداً إلى مفهوم «تفضيل الأقارب»، لن يفاجئنا أنّ استعدادك للإنقاذ، يترابط إيجابيّاً وبقوّة مع مقدار المادّة الجينيّة المشتركة بينك، وبين أولئك المحاصَرين خلف اللهب. قد تفقد حياتكَ، لكنّك ستمرّر خمسين في المئة على الأقلّ من جيناتك للأجيال اللّاحقة إن أنقذتَ طفلكَ، وخمسة وعشرين في المئة إن أنقذتَ ابن أختك، وهكذا دواليكَ. هناك قول مشهور لعالم الجينات البريطانيّ جي. بي. إس هالدين، وهو: «سأبذل حياتي من أجل أخَوين، أو ثمانية أبناء عمومة». الخلاصة: تفضيل الأقارب هو طريقة أخرى لنقل المادّة

الجينيّة، من خلال مساعدة الأفراد الذين يمتّون لنا بصلة قربى بيولوجيّة على البقاء والتكاثر.

صورة إله يعمل وفق قواعد التحيّز لمصلحة الأقارب وإيثارهم، هي فكرة تخرق مفهوم الإله الأبديّ (الذي لا يحتاج إلى التكاثر البيولوجيّ)، لكنّها تشكّل محوراً للديانات الإبراهيميّة كما سأبيّن لاحقاً.

السيكولوجيا التطوّريّة وعلوم الإله

فهمُ إلهٍ يتصرّف كأنّ عقله مُبَرمَجٌ تطوّريّاً، يتطلّب منّا فهم تطوّر دماغ الإنسان. السيكولوجيا التطوّريّة -وهي فرع علميّ ينهل من البيولوجيا التطوّريّة، والسيكولوجيا المعرفيّة Cognitive psychology، وعلوم الأعصاب- هي مقاربة من مقاربات علم النفس، تسعى لفهم تأثيرات الضغوط الاصطفائيّة selective pressures القديمة على طبيعة دماغ الإنسان وتطوّره. لقد أمضينا 99% من تاريخنا معتمدين على الصيد والجني، والعديد من المقدرات العقليّة التي نملكها الآن، كانت متخصّصة بالتعامل مع مشاكل البقاء وفقاً لنمط الحياة ذاك.

في مقدّمة كتابهما عن السيكولوجيا التطوّريّة، تقتبس ليدا كوسمايدس وجون توبي مقطعاً هامّاً عن عالم النفس الأمريكيّ وليام جيمس، طرح فيه حاجتنا إلى «جعل الطبيعيّ يبدو غريباً»، بغية تمييز التكيّفات السيكولوجيّة البشريّة في سياق التطوّر، وفحصها بشكل مستقلّ، ومَوْضَعَتها في سياق الاصطفاء الطبيعيّ:

يتطلّب الأمر عقلاً أغوته المعرفةُ للاستمرار بـ«جعلِ الطبيعيّ يبدو غريباً»، وصولاً إلى مرحلة يتساءل فيها عن «السبب» الكامن خلف أيّ فعل من أفعال الإنسان الغريزيّة. وحده عالِم الميتافيزيقيا، سيفكّر بأسئلة من قبيل: لماذا نبتسم عندما نفرح، عوضاً عن أن نتجهّم؟ لماذا لا نستطيع أن نخاطب حشداً من البشر، بالسهولة ذاتها التي نتكلّم فيها مع صديق بمفرده؟ لماذا تقلب امرأة معيّنة كياننا رأساً على عقب؟ لا توجد إجابات عند الرجل

العاديّ سوى: بالطبع سنبتسم، بالطبع ستتسارع دقّات قلوبنا لرؤية الحشد، بالطبع سنقع في حبّ المرأة، تلك الروح الجميلة المتجسّدة في هيئة مثاليّة، التي خُلِقَت هكذا وبصراحة كي تكون موضع حبّ طيلة الدهر. لربّما تقارب الحيوانات على نحو مماثل، التصرّفاتِ التي تقوم بها تجاه كائنات معيّنة: بالنسبة للأسد، خُلِقَت اللبوة كي يحبّها، وكذلك الدبّة بالنسبة للدبّ. وجود مخلوق لا يؤمن بأنّ عشّاً مليئاً بالبيض، هو أثمن وأجمل شيء في العالَم، ولا يرغب بحضانة البيض لأطول وقت ممكن، هي فكرة ستبدو همجيّة من منظور الدجاجة. إذن، يمكننا أن نقول بثقة إنّه مهما بدت غرائز الحيوانات غامضة بالنسبة لنا، ستبدو غرائزنا كذلك غامضة من وجهة نظرها.

أن نستعمل «بالطبع» في هذا السياق، يكافئ استعمال منطق مشوّش يتمحور حول الجنس البشريّ، كي نتهرّب من التوضيح. «جعل الطبيعيّ يبدو غريباً»، هو طريقة ممتازة لخلق مسافةٍ تباعدٍ ضروريّة فكريّاً، بغية فحص الظواهر السيكولوجيّة اللّاواعية كما تظهر عند المراقِب، ولا غنى عنها خلال هذا الكتاب بأكمله، خصوصاً بالنسبة للقارئ المتديّن الذي تبدو له عبادة إله ذكر بديهيّةً تماماً.

تجادل كوسمايدس وتوبي أنّ «الدماغ هو نظام فيزيائيّ، يعمل كالكمبيوتر تماماً، بوجود دارات تطوّرت لتوليد سلوك متلائم مع ظروف البيئة». خلاصة هذه المقارنة، هي أنّ الدماغ عبارة عن منظومة شديدة التعقيد من الدارات العصبيّة المتداخلة، المصمّمة لأداء وظائف محدّدة. نتاج تلك المنظومة هو «العقل»، أي أنّ كلّ أفكارنا، وآمالنا، وأحلامنا، ونوايانا، ومخاوفنا، ومشاعرنا، وإحساسنا بوجود «الآخر»، وإحساسنا بأنفسنا -أي كل ما يصنع الكون الذي نعيه- هي وظائف إلكتروكيمائيّة من وظائفِ الدماغ.

ما سبق ينطبق كذلك على التجربة الدينيّة. الأبحاث التي أُجريَتْ على مرضى «صرع الفصّ الصدغيّ» TLE، قدّمت دليلاً على المنشأ العصبيّ لتلك التجربة: أثناء نوبات الصرع التي تنشأ من المنطقة الصدغيّة الأنسيّة في الدماغ، يذكر المصابون مرورهم بتجربة دينيّة عميقة، يشعرون خلالها

بتوحّد تامّ مع الله والكون. تتوافر علاجات جراحيّة لصرع الفصّ الصدغيّ، لكنّ قلّة من المرضى يوافقون على الخضوع لها... ومن سيفعل؟! النشوة الدينيّة مذهلة، والأبحاث المذكورة تشير إلى أنّ التديّن قدّم منفعة لبقاء أسلافنا. كقاعدة عامّة، كلّ ما يمدّنا بشعور طيّب (تناول الطعام، الجنس... إلخ) مفيدٌ للبقاء، أمّا ما يجعلنا نشعر بشعور سيّئ (الحرّ الشديد، أو البرد القارس مثلاً) فهو على الأغلب لن يصبّ لمصلحة البقاء.

في السابق، ساد الاعتقاد بأنّ الدماغ هو آليّة متعدّدة الوظائف تحلّ المشكلات، يكون أشبه بصفحة بيضاء عند الولادة، وأنّ مقدراتنا العقليّة كلّها مكتسبة بالتعلّم. فكرة «الصفحة البيضاء» Tabula rasa تسلّلت من الفلسفة الإغريقيّة إلى التفكير الغربيّ والشرق أوسطيّ، وروّج لها الفيلسوف الإنجليزي جون لوك في عمله الهامّ «مقال حول فهم الإنسان». ما اكتشفناه منذ ذلك الوقت عن الدماغ، يلقي الضوء على السبب الذي يجعلنا نرى آلهتنا كالذكر ألفا.

عوضاً عن «الصفحة البيضاء»، كشفت العلوم التطوّريّة أنّنا نمتلك عند الولادة تشكيلة هائلة من الدارات العصبيّة المتخصّصة بحلّ مشاكل معيّنة، تدعى بالوحدات الوظيفيّة modularity، تبرز أهمّيتها عندما تتضرّر. على سبيل المثال، تكون مقدرة الأطفال المصابين بالتوحّد autism على تحديد الحالة الذهنيّة للآخرين (أي قراءة أفكار الآخرين) معيبة، فهم عاجزون عن إدراك أنّ الآخرين لديهم أفكار، وأحاسيس، ومعتقدات، ونوايا صادقة وأخرى خادعة، ويعجزون عن القيام بالحيل الذهنيّة اليوميّة المألوفة (التي يعتبرها معظم الناس من البديهيّات)، مثل «أنا أعرف أنّك تعرف أنّني أعرف أنّك تعرف أمراً ما». بأيّ حال، اكتشف الباحثون أنّ قراءة الأفكار لا تعتمد على الذكاء العامّ، بل هي «وحدة وظيفيّة» modularity متخصّصة قائمة بحدّ ذاتها، فعند مقارنة الأطفال المصابين بالتوحّد، مع أولئك المصابين بمتلازمة داون (وهم مصابون بالتأخّر العقليّ، لكنّهم قادرون على قراءة الأفكار)، من ذوي معدّل الذكاء المماثل، نجد أنّ قدرة المصابين بالتوحّد على قراءة الأفكار هي أسوأ بكثير. قراءة الأفكار -وما يتفرّع عنها- هي وظيفة

معرفيّة هامّة من وظائف الدماغ البشريّ، تترتّب عليها تداعيات هامّة تتعلّق بإسقاطاتنا على مفهوم الإله وفقاً لـ «علوم الأديان»، وهي فرع معرفيّ يتطوّر بسرعة، ويضمّ فرعاً آخر لا يقلّ أهمّيّة هو «سيكولوجيا الدين من منظور التطوّر». يجدر بالذكر أنّ بعض المفكّرين في كلا الفرعين، يصفون الدِين كنوع من «التكيّف» سهّل التعاون بين البشر الأوائل، بينما يصفه آخرون على أنّه نتاج جانبيّ للوجود باعتباره مقدرة معرفيّة تطوّرت تدريجيّاً، وهناك من يعتبر أنّ الدِين هو تكيّفٌ ونتاج جانبيّ للوجود بآن واحد.

كي نفهم لماذا نتصوّر الله كذكر مهيمن من ذكور الرئيسيّات، من المفيد أن نتعرّف إلى الآليّة التي توصّلنا من خلالها إلى القيام بالإسقاط الذهنيّ، ولماذا تميل إسقاطاتنا إلى أن تأخذ هيئة بشريّة. يقدّم الأنثروبولوجيّ ستيوارت غوثري دليلاً جيّداً على أنّ ميلنا لعزو صفات بشريّة إلى الله، ناجم عن تكيّف معرفيّ مصمّم لاكتشاف وجود البشر في بيئتنا، أي ما يصفه بـ «الأنثروبومورفيّة[3] المُمَنْهَجَة». يبدأ غوثري بتقديم مفهوم «الإحيائيّة» animism، أي النزعة لعزو الحياة إلى أشياء غير حيّة، من ثمّ يشرح أنّه من المفيد امتلاك أنظمة ذوات ميل إيجابيّ كاذب لتحرّي وجود الأحياء، على النقيض من تلك ذات الميل السلبيّ الكاذب، لأنّ اكتشاف الأحياء قد يعني البقاء: وفقاً لغوثري، إن قمتُ بنزهة مثلاً، ورأيتُ جسماً بنيّاً في البعيد، سأفكّر إمّا بدبّ أو بصخرة. من الأفضل أن أميل للتفكير بالدبّ، حتّى ولو كنتُ مخطئاً. لو فكّرتُ «أنّه دبٌّ!» وأخذتُ حذري، ثمّ اكتشفتُ أنّها صخرة، لن أصاب بأذى، أمّا إن فكّرتُ «إنّها صخرة!»، وتبيّن أنّه دبّ بنيّ، فقد يمزّقني أشلاء. هذا المفهوم ينسجم على نحو جيّد مع ما نعرفه عن الاصطفاء الطبيعيّ، فأولئك الذين يملكون أنظمة تحرٍّ ذات ميل سلبيّ كاذب، قد ينتهي بهم الحال كطعام للدببة بنسبة أعلى، وبالتالي سينجبون

3- Anthropomorphism: إسباغ صفات بشريّة (عقليّة أو جسديّة) على الحيوانات أو الظواهر الطبيعيّة أو الآلهة، أو على غير البشريّ عموماً، كما عندما نعزو الشرّ مثلاً إلى الكمبيوتر، أو نسمع أصواتاً بشرية في الريح. المترجمة

عدداً أقلّ من الأطفال، أي أنّ جيناتهم التي ترمّز لتلك الأنظمة ستختفي من الحوض الجينيّ.

بعد ذلك، يقترح غوثري أنّ البشر يميلون بشدّة إلى الأنثروبومورفيّة، نظراً لأنّ الكائنات الحيّة التي لعبت الدور الأهمّ في بقائهم تاريخيّاً، كانت البشر الآخرين. من منظور التصميم المعرفيّ Cognitive design، غوثري على حقّ، وأحد البراهين على ذلك هو امتلاكنا لوحدة وظيفيّة عصبيّة modularity محدّدة متخصّصة بقراءة الأفكار. في الحقيقة، نحن نملك عدداً هائلاً من البنى العصبونيّة المكرّسة لاكتشاف وجود البشر الآخرين، وفهمهم، والتواصل معهم، والتعلّم منهم، والتعاون معهم، والاقتتال معهم، والتزاوج معهم، وهذا واضح أيضاً من منظور الأمان، فنحن لا نركّب أقفالاً على أبوابنا لمنع دخول الذئاب أو الأفاعي، بل البشر الآخرين.

يشير عالم الأديان والفيلسوف جون تيهان إلى أنّ رصد وجود الآخرين ليس سهلاً، نظراً إلى أنّ البشر قادرون على الاختباء أو تمويه أنفسهم، أو تنفيذ مآربهم عن بعد باستخدام الأسلحة أو الفخاخ مثلاً. لذلك، امتلاك الإنسان لنظام رصد يكشف البشر المرئيّين بوضوح فقط، هو استراتيجيّة خطرة، لأنّ أساليب الخداع التي يلجأ إليها البشر جعلت من استقصاء وجودهم حولنا -حتّى ولو لم يكونوا موجودين حقّاً (تحرٍ إيجابيّ كاذب)- تكيّفاً هامّاً، أدّى بدوره على الأغلب إلى تطوّر مقدرة عقليّة قويّة مميّزة، هي «رصد الكائنات البشريّة[4]».

4- هي ميل الحيوانات بما فيها البشر إلى افتراض وجود تدخّل مقصود من قبل كينونة حارسة أو ذكيّة، في حَدَث لا يتضمّن مثل تلك الكينونات في الواقع. «الآليّة الفائقة لرصد الكائنات البشريّة»، تعمل جزئيّاً من خلال رصد الجسم الذي يتحرّك حركة ذاتيّة، وعندها يفترض الدماغ أنّ هذا الجسم هو كينونة فاعلة ذات إرادة، ويتصرّف تجاهه بناء على ذلك. بمعنى آخر، من الأفضل مثلاً أن نفسّر صوت الحفيف في الأجمة على أنّه نمر جائع، لا مجرّد أوراق تحرّكها الريح، فنحن نتحدّر من أشباه إنسان كانت أكثر ارتياباً منّا، وقدرتها على الشخصنة أكبر، ممّا زاد احتمال نجاتها من المفترسين. المترجمة

انطلاقاً من دراسة غوثري، قام عالم النفس جستِن باريت بدراسة استراتيجيّة معرفيّة أخرى، تهدف إلى تحرّي وجود الصفات البشريّة بكفاءة أعلى، أطلق عليها اسم «الآليّة الفائقة لرصد الكائنات البشريّة» التي تطوّرت خصّيصاً على ما يبدو بغية إسباغ صفات بشريّة على منبّهات غامضة. نجد مثالاً من واقعنا على تلك الآليّة عند العلماء، خاصّة الذين يعملون في مختبرات الأبحاث، والذين سرعان ما ينسبون صفات بشريّة إلى أشكال جغرافيّة صغيرة تتحرّك على الشاشة أمامهم، رغم أنّها لا تمتلك شبهاً بالإنسان أو الحيوان على الإطلاق.

تلقائيّاً، نحن نقوم بإسقاط قوّة ما فوق - طبيعيّة على الظواهر الطبيعيّة، معتقدين أنّها تتصرّف كالبشر. من السهل ملاحظة هذا الأمر في حياتنا اليوميّة، فالإنسان يفسّر الكوارث الطبيعيّة على أنّها تحدث بأمر من الله، ويعتقد أنّ المرض ينجم عن استحواذ الأرواح الشرّيرة على الجسم، وأنّ الحظّ الجيّد هو منّة من إله كريم، وأنّ النجوم تجسّد آلهة تشبه البشر... إلخ. هذه الإسقاطات تتولّد عن البيولوجيا، وهي حقيقةٌ تقدّم الكثير لشرح لماذا تحيط الأرواح الخفيّة، والأشباح، والآلهة، والملائكة، والشياطين، بكلّ حضارة من الحضارات على وجه الأرض. بشكل ما أو بآخر، المناحي البشريّة المشتركة حول العالَم، تعكس غالباً بيولوجيّتنا المشتركة.

الأنثروبولوجيّ الفرنسيّ باسكال بوييه، وصف بدوره ظهور الدِين من خلال آليّة معرفيّة قديمة، مصمّمة أصلاً لاستخلاص الاستنتاجات عن العالَم الذي نعيش فيه، كما في المسائل المتعلّقة بالتبادل الاجتماعيّ، وخرق الأخلاق، واكتشاف الكائنات الحيّة، وما شابه. استناداً إلى بوييه، بعض العقائد الدينيّة تماهت جيّداً مع تلك الآليّة الموجودة مسبقاً، وبالتالي أفرزت تجارب حسيّة قويّة لا تُنسى، رغم أنّ الأسباب الكامنة خلفها لا واعية.

النظريّات الدينيّة موجودة منذ آلاف السنين، لكنّ الدراسة التجريبيّة للدين ما زالت في المهد، وما زلنا بحاجة إلى المزيد من الأبحاث. من حيث المنشأ، نموذج الإله ألفا ينسجم جيّداً مع توصيف بوييه، فنحن نملك قدرات

معرفيّة مصمّمة لتحرّي الهيمنة الاجتماعيّة، وربّما وجود الذكر المهيمن أيضاً، نظراً لامتلاكنا بنى دماغيّة خاصّة تحلّل المعلومات المتعلّقة بالمرتبة. بالتالي، نحن نقوم بتحليل تلك المعلومات أوتوماتيكيّاً بسرعة فائقة، وهذا غير مُستغرَب في جنس كجنسنا، تطوّر طيلة ملايين السنين في مجموعات مبنيّة حول المكانة، لعبتِ التراتبيّةُ الهرميّة للهيمنة ضمنها دوراً لا غنى عنه من أجل البقاء. باختصار إذن، يملك البشر آليّة عقلية تنطلق بالعمل مباشرة عند ظهور ذكور مهيمنين، فضلاً عن أنّ إسقاط صفة الهيمنة على المهيمن، هو بالدرجة الأولى عمليّة غير واعية. تطوّرت الاعتقادات الدينيّة بحيث تندمج مع تلك الآليّات، ممّا جعلها تنجح بتوليد تجارب شعوريّة قويّة غريزيّة، تعكس تركيبنا الجينيّ المتطوّر.

بعد أن تعرّفنا إلى هذه المعلومات الأساسيّة عن علوم التطوّر، سننتقل إلى دراسة الكيفيّة التي تنعكس من خلالها إسقاطاتنا التطوّريّة على وجود الآلهة الذكور وشخصيّاتهم، في عالم أدّى وجود الذكر المهيمن فيه إلى صياغة المشهد التطوّريّ للأديان في نهاية المطاف، وسنبدأ بفكرة الإله الحامي.

***

الفصل الثالث

الإلهُ الحامي

الذكورُ الحماة

يعجّ عالم الطبيعة بالثعابين العملاقة، والتماسيح، والأسود، والفهود، والضباع، وعدد لا يُحصى من الضواري المخيفة. لذلك، كان الموت بين أنياب المفترِسين قوّة قولبت تطوّرَ أدمغتنا، وإحدى النتائج التي ترتّبت عليها هي خوفنا الأزليّ من «الوحوش»، فكما يقول الفيلسوف ديڤيد ليڤنغستون سميث، نجد أمثلة عن ذلك الخوف حالياً في أفلام الرعب التي تنتجها هوليوود، والتي تسحر المشاهدين من خلال تحريض «الوحدات الوظيفيّة الدماغيّة» modules المتعلّقة بالافتراس، عندما يختبرون مفعول تلك الشحنة القديمة من الأدرينالين بأمان ضمن قاعة السينما. يقتبس سميث عن فيلسوف البيئة بول شيبرد، ما يلي:

«ترجع جذور خوفنا من الوحوش الليليّة، إلى تطوّر أسلافنا من الرئيسيّات غالباً، والتي أبادتها أهوالٌ مرعبة، ما تزال ظلالها تحرّض صرخات القرود في العتمة. عندما نسمع هدير الدم في آذاننا، فلا شكّ أنّ صدى ملايين الصرخات التي أطلقتها القرود ليلاً في الظلام، عندما كان آخر ما شاهدته من العالَم هو عيني فهد، قد ترك آثاره على جهازنا العصبيّ».

ما يريد كلٌّ من سميث وشيبرد قوله في نهاية المطاف، هو أنّ خوفنا أخذ شكله من ماضينا التطوّريّ، تماماً كما هو الحال عند بقيّة الحيوانات. يورد

سميث مثالاً عن ظبي برونغهورن الذي ركض في الماضي عبر سهوب أمريكا، للنجاة بحياته من فهود الشيتا التي تطارده. اليوم، يُعدُّ هذا الظبي أسرع حيوان في القارّة الأمريكيّة، إذ إنّه قادر على الركض بسرعة تصل إلى ستّين ميلاً في الساعة، أمّا فهود الشيتا التي لطالما افترسته، فقد اختفت منذ زمن طويل. يعلّق عالم البيولوجيا جون. إيه. بايرز على تلك السرعة التي لا مبّرر لها حاليّاً، بالقول إنّ «أشباح المفترسين في الماضي» ما زالت تترصّد الظباء. تشارلز داروين بدوره خمّن أنّ مخاوف الإنسان نجمت عن قوى مماثلة، فعندما لاحظ أنّ ابنه الذي يبلغ العامين من عمره يخاف خوفاً شديداً من الحيوانات الكبيرة في حديقة الحيوان، تساءل: «ألا يمكن أن تكون مخاوف الأطفال -المستقلّة تماماً عن المرور بتجربة مماثلة سابقة- هي عبارة عن تأثيرات موروثة لمخاطر حقيقيّة في العصور الغابرة الوحشيّة؟!».

تقدّم السيكولوجيا السريريّة، مثالاً جيّداً عن بصيرة داروين: تظهر «الفوبيا» عند البشر تجاه أيّ شيء تقريباً، لكنّ فوبيا الأفاعي شائعة بنسبة عالية جدّاً مقارنة بالمخاوف المَرَضيّة الأخرى، ممّا يعكس أخطار البيئة البدائيّة التي تطوّرتْ فيها أدمغتنا قديماً. هذه الملاحظة صحيحة حتّى في المدن الصناعيّة الكبرى، كنيويورك أو لندن أو طوكيو، رغم أنّ احتمال الموت هناك بلدغة أفعى يعادل الصفر عمليّاً، مقارنة مثلاً مع الموت بسبب سيّارات الأجرة في نيويورك، التي تشكّل خطراً حقيقيّاً يهدّد السلامة العامّة، علماً أنّ معدّل الفوبيا من سيّارات الأجرة، يساوي الصفر عمليّاً.

إضافة إلى الدافع للابتعاد عن أخطار ماضينا التطوّريّ، ورثنا كذلك حافزاً للاقتراب ممّن يحمينا. أنا أجادل أنّ تلك الدوافع موجَّهة بالدرجة الأولى، للاقتراب من الشخصيّات الذكوريّة القويّة، وأنّها نزعة تعكس إرث الحماة الذكور في ماضينا التطوّريّ، وهو إرث تجدّد من خلال شخصيّة المُخَلِّصين الذكور في العقائد الدينيّة.

الدليل على ذلك الإرث واضح عند الرئيسيّات الموجودة اليوم: مقارعة الضواري هي من اختصاص الذكور في مختلف الأجناس، فالذكر عموماً

أضخم من الأنثى، وأسنانه أكبر وأكثر حدّة، ممّا يجعله كفئاً في الحماية، وهي واجب غالباً ما يقع على عاتقه أيضاً. عند الارتحال إلى مناطق الغذاء على سبيل المثال، يحرس ذكور البابون محيط المجموعة لإبعاد المفترسين، بينما تتحرّك الإناث والصغار في المركز الآمن. يهاجم ذكورُ قرود باتا أبناءَ آوى مباشرة، بينما يهاجم ذكور قرود لانغَر الطيورَ الجارحة دفاعاً عن صغارهم، كما يصدّ ذكور البابون والشمبانزي الفهودَ، وقد يقتلونها. بالمثل، كان الرجل هو من يقوم عادة في مجتمعات الصيد والجني، بقتل الضواري الخطرة كالشيتا والفهود والأسود وأفاعي البيثون.

إذن، البيئة الاجتماعيّة الأولى التي تطوّرتْ فيها أدمغتنا، دفعتنا إلى طلب الحماية من الذكور الأقوياء، ضدّ المفترسين الخطرين. لذلك، يقوم الإله الذكر بذلك الدور بشكل بديهيّ، أي أنّ الآلهة تحمينا من الافتراس تلقائيّاً. الإله المصريّ القديم «بس» هو مثال على ذلك، وظيفته الأساسيّة هي حماية النساء والأطفال، وكان معروفاً بقدرته على خنق الأسود والدببة والأفاعي بيديه المجرّدتين. يظهر الآلهة الذكور الحماة في الميثولوجيا الإغريقيّة أيضاً، زيوس قتل التايفون، وهي أفعى لها مئة رأس عاثت فساداً في المدن اليونانيّة، أمّا ابنه هرقل فقد حارب العديد من المخلوقات المرعبة، وأنقذ في طفولته أخاه من الموت، عندما خنق ثعبانين معاً، فضلاً عن قيامه في «الأعمال الاثني عشر» الشهيرة، بقتل تشكيلة من الوحوش التي روّعت الإغريقيّين: أسدُ نيميا، وحشُ ليرنا (هيدرا ذات سبعة رؤوس)، طيور ستيمفاليا، وغيرها من الضواري الخرافيّة. نظراً لشجاعته، تحوّل هرقل إلى بطل، وخلّدته الأسطورة بوصفه من جعل العالَم أكثر أماناً بالنسبة للبشر.

يضطلع الإله اليهوديّ – المسيحيّ بدوره بوظيفة الحماية، فيُوصَفُ في العهد القديم بأنّه درع، صخرة، ركيزة، قلعة، برج حصين، وملجأ، كما أنّه أخذ على عاتقه المهمّة العتيقة المتمثّلة بصدّ الحيوانات الخطرة: «أمّا أنتَ يا ربّ، فلا تبعد. يا قوّتي، أسرِعْ إلى نصرتي، أنقِذْ من السيف نفسي، من يد الكلب وحيدتي، خلّصني من فم الأسد، ومن قرون بقر الوحش. استجبْ

لي». (المزمور 22: 19-21)، «على الأسد والصّلّ تطأ، الشبل والثعبان تدوس» (المزمور 91: 31). أحد الضواري التي يصفها الكتاب المقدّس، هو في الواقع كائن هجين من عدّة ضوارٍ عاشت سابقاً في السافانا الإفريقيّة، بما فيها الدبّ الذي كان متوطّناً هناك، قبل أن ينقرض بسبب الصيد: «ثُمَّ وَقَفْتُ عَلَى رَمْلِ الْبَحْرِ، فَرَأَيْتُ وَحْشًا طَالِعًا مِنَ الْبَحْرِ لَهُ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ، وَعَلَى قُرُونِهِ عَشَرَةُ تِيجَانٍ، وَعَلَى رُؤُوسِهِ اسْمُ تَجْدِيفٍ. وَالْوَحْشُ الَّذِي رَأَيْتُهُ كَانَ شِبْهَ نَمِرٍ، وَقَوَائِمُهُ كَقَوَائِمِ دُبٍّ، وَفَمُهُ كَفَمِ أَسَدٍ. وَأَعْطَاهُ التِّنِّينُ قُدْرَتَهُ وَعَرْشَهُ وَسُلْطَانًا عَظِيماً». (سفر رؤيا يوحنّا اللّاهوتيّ 13: 1-3).

روّع ذلك الوحشُ المسيحيّين إلى أن ظهر ذكر قويّ آخر، هو يسوع المسيح على حصانه الأبيض، فقتله ورماه إلى بركة من النار (سفر رؤيا يوحنّا اللّاهوتيّ 19: 19-21). بالمثل، يُعَدُّ إبليس عدوَّ الله في التقاليد المسيحيّة، ويقترن مع الأفعى المخيفة التي أغوت حوّاء في حدائق عدن، كما يُوصف في سفر الرؤيا على أنّه تنين: «فَطُرِحَ التِّنِّينُ الْعَظِيمُ، الْحَيَّةُ الْقَدِيمَةُ الْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَالشَّيْطَانَ» (سفر رؤيا يوحنا اللّاهوتيّ 12: 9)، لكنّ هذا المفترسَ المتجسّد بإبليس، سيُهزَم على يد شخصيّة دينيّة ذكريّة قويّة من شخصيّات سفر الرؤيا: «وَرَأَيْتُ مَلاَكًا نَازِلًا مِنَ السَّمَاءِ مَعَهُ مِفْتَاحُ الْهَاوِيَةِ، وَسِلْسِلَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى يَدِهِ. فَقَبَضَ عَلَى التِّنِّينِ، الْحَيَّةِ الْقَدِيمَةِ، الَّذِي هُوَ إِبْلِيسُ وَالشَّيْطَانُ، وَقَيَّدَهُ أَلْفَ سَنَةٍ، وَطَرَحَهُ فِي الْهَاوِيَةِ وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ، وَخَتَمَ عَلَيْهِ» (سفر رؤيا يوحنا اللّاهوتيّ 20: 1-3).

تصوّر الأيقوناتُ المسيحيّة إبليس أشبه بإنسان له أعضاء حيوانيّة، كالأسنان القاطعة الضخمة، والحوافر، والقرون، وأجنحة كأجنحة الخفّاش، ممّا يوحي بحيوان خطر. من ناحية أخرى، قد يأخذ عدوُّ الإله الذكرِ المهيمنِ هيئةً تبتعد عن صورة الحيوان في الخرافة، فيُشَخَّص كإنسان أو كمفهوم مجرّد (الخطيئة، الإغواء، الفسوق... إلخ)، على الرغم من أنّ الحيوانات المخيفة ما تزال تحرّض مشاعرنا بقوّة، كما يفعل الرجال الأقوياء الذين ننجذب إليهم إن داهمنا الخطر. تدلّ أبحاث علم النفس على

أنّ هذا الانجذاب غير واعٍ في جزئه الأعظم، ممّا يقترح أنّه نشأ خلال مسيرة تطوّرنا. هناك براهين علميّة عديدة ترتكز إلى «نظريّة إدارة الرعب» Terror management theory (أو TMT اختصاراً)، وهي نظريّة تفترض أنّ البشر بنَوا دفاعات سيكولوجيّة، ضدّ رعبهم من الموت.

ينفرد الإنسان عن بقيّة المخلوقات بأنه واعٍ لذاته، وقادر على تصوّر المستقبل البعيد، لذلك يتوجّب عليه أن يتعايش مع فكرة الموت، أي مع فنائه الداهم القريب، ما إن يصبح قادراً على تصوّره. هذا الوعي قد يتحوّل إلى تجربة مخيفة قويّة، كما يوضّح إرنست بِكَر، وهو أنثروبولوجيّ أمريكيّ قدّم عملُه قاعدةً نظريّةً لأبحاث «نظريّة إدارة الرعب»: «الإنسان مشطور حرفيّاً إلى نصفين، لأنّه يدرك تفرّده الدهش الذي يجعله يبرز من الطبيعة بمهابة، لكنّه يعود مجدّداً إلى التراب أعمى وأخرق، كي يتعفّن ويختفي إلى الأبد. إنّها معضلة مرعبة يمرّ بها، وعليه أن يتعايش معها».

يدرس الباحثون في مجال تلك النظريّة، الحوافزَ والقدرات المعرفيّة للأشخاص الذين يؤرّقهم الخوف من الموت، بعد تحريض ذلك الخوف تجريبيّاً بعمليّة تدعى «التحريض الواعي لفكرة الموت»، إذ يُطلَب من المشاركين في التجربة أن يقرؤوا أو أن يكتبوا مقالة حول الموت، تدور عادة عن موتهم هم، بينما يُطلَب من مجموعة المقارَنة[1] قراءة أو كتابة موضوع مختلف، لا علاقة له بالموت، كالطعام أو مشاهدة التلفاز.

وجد الباحثون أنّه عندما يتمّ تحريض الخوف من الموت، يلتفّ المشاركون في التجربة حول القادة السياسيّين، تماماً كما نتوقّع من الحيوانات التي تطوّرت في مجتمعات تسود فيها تراتبيّة هرميّة، ويقوم فيها أفراد مهيمنون (الذكور عادة) بدور الحماة. إحدى الدراسات التي أُجريَت

1- في التجارب السريريّة، تُقسَم عيّنة الدراسة إلى مجموعة التجربة التي تُطبَّق عليها التجربة أو العلاج، ومجموعة مقارنة (أو المجموعة المرجعيّة) لا يُطبَّق عليها العلاج أو التجربة، بهدف التأكّد من أنّ النتائج التي نحصل عليها من المجموعة الأولى هي فعلاً ناجمة عن العوامل المدروسة، لا عن عوامل عشوائيّة. المترجمة

أثناء فترة رئاسة جورج دبل يو بوش، وجدت أنّه بعد تحريض مخاوف مجموعة التجربة من الموت، عبّر أفرادها بنسبة أكبر عن دعمهم لبوش ولسياساته ضدّ الإرهاب، مقارنة مع مجموعة المقارنة، التي وُجِّهت إليها أسئلة تتعلّق بمشاهدة التلفاز. وجدت تجربة أخرى منفصلة ضمن الدراسة ذاتها، أنّ التذكير باعتداءات 11/9 الإرهابيّة على مبنى التجارة العالميّ، كان لها التأثير ذاته لتحريض الخوف من الموت، إذ عبّر المشاركون عن دعم أكبر للرئيس بوش، بغضّ النظر عن توجّهاتهم السياسيّة. خَلصت الدراسة إلى أنّ الميل للاصطفاف خلف القادة الأقوياء، مستقلّ عن الانتماء السياسيّ، وهو ميل قديم جدّاً على الأرجح. في الحقيقة، استلهام الثقة من حام ذكر مسيطر هو تقنية لجأ إليها بوش نفسه، فعندما سُئل إن كان قد طلب نصيحة والده حول الحرب في العراق، أجاب: «كما تعلمون، إنّه ليس الأب الذي نلجأ إليه ابتهالاً للقوّة. هناك أبٌ أسمى ألجأ إليه». يلخّص إرنست بِكَر، هذا الانجذاب السيكولوجيّ كالتالي: «الخوف هو ما يجعل الناس مستعدّين لاتّباع الديماغوجيّين الوقحين الأقوياء، ذوي الفكوك البارزة والصوت العالي، بكلماتهم الموزونة، والكراهيّة التي تشعّ من عيونهم، والذين يبدون الأقدر على تطهير العالَم من الغموض والضعف والشرّ وعدم اليقين».

ما سبق لا يكافئ الافتراض، بأنّ انتخاب القادة الذكور هو حتميّة تطوّريّة. في الفلبين، قادت امرأة هي ماريا كورازون كوجوانغو - أكينو ثورةَ «قوّة الشعب»، وأطاحت بالرئيس فرديناند ماركوس، وهو ما لم يكن ليتحقّق لولا الدعم الشعبيّ، كما أنّ بلادها عانت عدّة كوارث طبيعيّة أثناء فترة ولايتها (زلزال، ثوران بركانيّ، إعصار)، لكنّ الناس اصطفّوا خلفها. في سيرلانكا أثناء الحرب الأهليّة، حكمت امرأة أيضاً طيلة عشر سنوات، وانتخبت إيبيريا بعد الحرب الإيبيريّة الثانية، امرأةً هي إلين جونسون سيرليف. بالمثل، دعمت نيكاراغوا الرئيسةَ ڤيوليتا شامورو، بعد حرب أهليّة طاحنة. الظروف التي تحمل النساء إلى سدّة الحكم، تعكس بدورها سيكولوجيا التطوّر: قام ذكر الرئيسيّات بحماية ذرّيّته من الحيوانات الخطيرة، بينما قامت الأنثى

بحماية ذريّتها من هذا الذكر الخَطِر تحديداً، ودورها ذاك قد يكون حاضراً اليوم بقوّة وبشكل غريزيّ، في الدين والسياسة. شامورو على سبيل المثال، توصَف بأنّها أمٌّ قويّة حامية، وشهيدة أطاحت بدانييل أورتيغا، الذي يصوّره خصومه على أنّه رجل طاغية متعطّش للسلطة.

الندرة النسبيّة للشخصيّات الأنثويّة الحامية، تدلّ على تاريخ قديم للحامي الذكر، دارت أحداثه في السافانا الإفريقيّة، حين تطلّبت الحمايةُ القوّةَ والحجمَ والعدوانيّة. بالإضافة إلى ذلك، تدلّ الأبحاث على أنّ البشر يفضّلون القادة الطوال ذوي ملامح الوجه الرجوليّة -وهي ملامح تنجم عن هرمون التستيستيرون، الذي يترافق مع العدوانيّة والحجم والقوّة- خاصّة أثناء الحروب. جاذبيّة أولئك القادة عابرة للثقافات، كما أنّ الناس يفضّلون الملامح الذكريّة عند القائدات الإناث أيضاً. بأيّ حال، بما أنّ الملامح الذكوريّة أبرز وأشيع عند الرجال، لذلك قد يعكس انتشارُ شخصيّة الذكر الحامي في السياسة، مخاوفَنا البدائيّة التي ما زالت حيّة من الأخطار الخارجيّة، فضلاً عن أنّنا -بشكل غير واعٍ- نعتبر تلك الصفات قادرة على جعل حاملها ينجح في القتال من أجل حمايتنا. هاتان النقطتان صحيحتان أيضاً، فيما يتعلّق بشيوع الشخصيّات الدينيّة المذكّرة الحامية.

من المنطقيّ أن الأبحاث حول «نظريّة إدارة الرعب»، وجدت أنّ الخوف من الموت يدفع المشتركين في التجربة، إلى التصريح عن إيمانهم بالله بنسبة أعلى من مجموعة المقارنة، وعن التزام دينيّ أقوى. في إحدى الدراسات، طُلِبَ من المشاركين في مجموعة التجربة، أن يكتبوا مقالاً حول ماذا سيحدث لهم بعد الموت باعتقادهم، بينما طُلِب من أفراد مجموعة المقارنة الكتابةُ عن أطباقهم المفضّلة. عند تحريض الخوف من الموت، مال المشاركون في مجموعة التجربة إلى إعلان أنّهم يؤمنون بقوّة بالله، وأنّهم متديّنون أكثر من مجموعة المقارنة. خلصت دراسات أخرى مشابهة، إلى أنّ تحريض الرعب من الموت، يزيد نسبة الإيمان بالله وبالحياة الآخرة.

لربّما ورث البشر عن أسلافهم من الرئيسيّات، انجذاباً إلى الإله الذكر

القويّ في أزمنة الخطر، لكنّهم يتفرّدون بقدرتهم على تصوّر الدوافع التطوّريّة كمفاهيم مجرّدة، أحدها هو الحياة بعد الموت، وهو مفهوم ينسجم تماماً مع افتراض «نظريّة إدارة الرعب» بأنّ البشر يبنون آليّات دفاعيّة ضدّ مخاوفهم الوجوديّة... فما هو الأفضل من الوعد بحياة أبديّة، لتهدئة خوفنا من الموت؟! كما نتوقّع، المخلّص الذكر المهيمن هو من سيحمينا من الموت بين أنياب المفترسين، فضلاً عن حمايتنا من الموت ذاته. إنّها دوغما أساسيّة في العقيدة المسيحيّة، والكتاب المقدّس حافل بالإشارات إلى المخلّص الذكر والحياة الآخرة:

«وَمَتَى لَبِسَ هذَا الْفَاسِدُ عَدَمَ فَسَادٍ، وَلَبِسَ هذَا الْمَائِتُ عَدَمَ مَوْتٍ، فَحِينَئِذٍ تَصِيرُ الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ: ابْتُلِعَ الْمَوْتُ إِلَى غَلَبَةٍ. أَيْنَ شَوْكَتُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ غَلَبَتُكِ يَا هَاوِيَةُ» (كورنثوس الأولى 15: 54-55).

«ثُمَّ لاَ أُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ الرَّاقِدِينَ، لِكَيْ لاَ تَحْزَنُوا كَالْبَاقِينَ الَّذِينَ لاَ رَجَاءَ لَهُمْ. لأَنَّهُ إِنْ كُنَّا نُؤْمِنُ أَنَّ يَسُوعَ مَاتَ وَقَامَ، فَكَذلِكَ الرَّاقِدُونَ بِيَسُوعَ، سَيُحْضِرُهُمُ اللهُ أَيْضًا مَعَه». (رسالة بولس الرسول إلى أهل تسالونيكي الأولى 4: 13-14).

«ثُمَّ نَحْنُ الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِي السُّحُبِ لِمُلاَقَاةِ الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ، وَهكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ». (رسالة بولس الرسول إلى أهل تسالونيكي الأولى 4: 17).

«قَالَ لَهَا يَسُوعُ: أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الأَبَدِ. أَتُؤْمِنِينَ بِهذَا؟» (إنجيل يوحنا 11: 25-26).

« يَبْلَعُ الْمَوْتَ إِلَى الأَبَدِ، وَيَمْسَحُ السَّيِّدُ الرَّبُّ الدُّمُوعَ عَنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، وَيَنْزِعُ عَارَ شَعْبِهِ عَنْ كُلِّ الأَرْضِ، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ تَكَلَّمَ» (إشعياء 25: 8).

تَرِد أيضاً إشارات إلى قيام المسيح بحماية أتباعه من الافتراس (المفترس هنا هو الشيطان)، وبذلك يهبهم الحياةَ الأبديّة، ويمسح مخاوفهم من الموت في آن واحد: «فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضًا كَذلِكَ

فِيهِمَا، لِكَيْ يُبِيدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيس، وَيُعْتِقَ أُولئِكَ الَّذِينَ خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ كَانُوا جَمِيعًا كُلَّ حَيَاتِهِمْ تَحْتَ الْعُبُودِيَّة». (رسالة بولس الرسول إلى العبرانيين الثانية: 14-15).

مفهوم الحياة الآخرة، موجود في كلّ الثقافات والأديان. المصريّون القدماء آمنوا بحقول آرو، بينما آمن الإغريق والرومان بالعالَم السفليّ. فالهالا Valhalla (أو Hel أو Nifhel) موجودة في الثقافات الإسكندنافيّة، بينما نجد «أرض الأموات» عند قبيلة هوبي. يؤمن البوذيّون والهندوس وأتباع ديانة الويكا بالتقمّص، ويؤمن المسلمون بالفردوس، بينما يؤمن الكاثوليكيّون بالجنّة وجهنّم والمطهر، أمّا المورمون فيدّعون مِلكيّتهم للكواكب في المجرّات البعيدة. فضلاً عن ذلك، من الشائع أن يُنصَّب الذكورُ الأقوياء كحكّام لمملكة ما بعد الموت: أوزيريس يحكم آرو، هايدس يحكم العالَم السفليّ، ماساسو يحكم أرض الأموات، أودين يحكم فالهالا، يسوع يحكم الجنّة، الله يحكم الفردوس، وإبليس يحكم جهنّم.

التيقّن من الأبوّة
عند الأيب، والرجال، والله.

تعمل قواعد الاصطفاء الطبيعيّ من خلال تقديم الحماية، ويمكن تتبّع آثارها كما رأينا من الأيب، إلى الرجال، وصولاً إلى الآلهة. بما أنّ الكائنات الحيّة مبرمجة من قبل الجينات الأنانيّة لممارسة «إيثار القريب»، لذلك، الانتماء إلى ذريّة فرد قويّ، هو الطريقة المثلى للحصول على دعمه. بالنسبة للذكور، تقديم الدعم يعني تقديم الحماية من الخطر، وهو ما نلاحظه بوضوح عند الرئيسيّات غير البشريّة، فالبابون في السافانا مثلاً، يساند صغاره بشكل انتقائيّ خلال المواجهات العدوانيّة بينهم وبين الآخرين، ممّا يحميهم من الأذيّات والضغوط، ويساعدهم على اكتساب المكانة. بالمثل، يحمي ذكور الرئيسيّات الأخرى ذريّتهم فقط من اعتداء الذكور الآخرين، عندما يحاولون «قتل الأطفال».

نلاحظ أنّ خطر الوقوع ضحيّة لـ «قتل الأطفال»، يزداد بين الذين لا ينتمون إلى ذريّة ذكر قويّ، لأسباب تتعلّق بالتلاؤم مع البقاء، فالعديد من ذكور الرئيسيّات (بمن فيهم البشر)، يقومون بقتل أبناء الخصم، وهو ما سنناقشه مطوّلاً في الفصل القادم، لكن باختصار، الأخطار العديدة في عالم الطبيعة، تجعل الانتماء للأب مسألة حياة أو موت.

بأخذ التاريخ التطوّريّ ذاك بعين الاعتبار، وهو الذي توفّر فيه القرابةُ المباشرة مع الذكر حمايةً من الخطر، ويختار فيه الذكور تقديم العون إلى ذرّيّتهم، سنفهم لماذا يخلق البشر آلهة ذكوراً مهيمنين، ويحاولون تأسيس صلة قرابة معهم. إنّها نزعة بارزة في الديانة اليهوديّة - المسيحيّة، إذ تؤكّد مقاطع عديدة من الكتاب المقدّس على أبوّة الربّ: «أَنْتُمْ أَوْلاَدٌ لِلرَّبِّ إِلهِكُمْ» (سفر التثنية 14: 1)، «أنا قلتُ: إنّكم آلهة وبنو العليّ كلّكم» (المزمور 82: 6)، «فيقال لهم: أبناء الله الحيّ» (هوشع1: 10)، «فإذا نحن ذريّة الله» (أعمال الرسل 17 :29). تصطبغ تلك العلاقة بعاطفة إنسانيّة، فكما يشعر الآباء من الرئيسيّات بالحبّ تجاه ذرّيّتهم، كذلك يشعر الله بالحبّ الأبويّ، خاصّة عندما يؤكّد على أنّ المؤمنين به هم أولاده: «اُنْظُرُوا أَيَّةَ مَحَبَّةٍ أَعْطَانَا الآبُ حَتَّى نُدْعَى أَوْلاَدَ اللهِ» (رسالة يوحنا الرسول الأولى 3: 1).

على غرار ذكور الرئيسيّات، يتدخّل الإله - الأب في النزاعات بين أبنائه ومنافسيهم، وهو ما يؤثّر على مكانة أبنائه: «لأنّ كل الذين ينقادون بروح الله، فأولئك هم أبناء الله. إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف، بل أخذتم روح التبنّي الذي به نصرخ: يا أبا الآب» (رسالة بولس إلى أهل رومية، الإصحاح 8: 14-15). قيام الله بتقديم الدعم لذريّته، خاصّة في المعارك (وهو موضوع سأتوسّع به لاحقاً)، هو ثيمة تتكرّر باستمرار. على سبيل المثال، عندما انطلق يشوع المتحدّر من سلالة الربّ لاحتلال أريحا، أكّد الله دعمه له: «أَمَا أَمَرْتُكَ؟ تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ! لاَ تَرْهَبْ وَلاَ تَرْتَعِبْ لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ مَعَكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ» (سفر يشوع 1: 9)، كما قدّم دعماً مماثلاً لـ «بني إسرائيل» (المقصود بهم هنا قبائل رأوبين، وجاد، ومنسى): «فَانْتَصَرُوا

عَلَيْهِمْ. فَدُفِعَ لِيَدِهِمِ الْهَاجَرِيُّونَ وَكُلُّ مَنْ مَعَهُمْ لأَنَّهُمْ صَرَخُوا إِلَى اللهِ فِي الْقِتَالِ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ لأَنَّهُمُ اتَّكَلُوا عَلَيْهِ» (سفر أخبار الأيّام الأوّل 5: 20).

في المسيحيّة، تتجلّى علاقة الآب - الابن بالرعاية والحماية، كما يشرح البابا بندكت السادس عشر: «أبوّة الله، إذن، هي حبٌّ لا نهائيّ، ورعايةٌ تحمينا، نحن أطفاله الضعفاء المحتاجين لكلّ شيء... ضآلتنا، وطبيعتنا البشريّة الضعيفة، وهشاشتنا، تطلب رحمة الربّ التي تتظاهر بحنان وعظمة الأبّ، الذي يساعدنا ويغفر لنا ويحمينا وينقذنا».

الحبّ الأبويّ يعود بالنفع على الرئيسيّات، وعلى الآلهة التي تشبهها، لكنّه يتطلّب التيقّن من الأبوّة. تعرف أنثى الرئيسيّات دائماً الصغيرَ الذي أنجبَته، لكن يستحيل على الذكر أن يتأكّد ما إذا كان ابنه أم لا، لأنّ الإباضة وإلقاح البويضة هما عمليّتان خفيّتان عند البشر، وعند العديد من الرئيسيّات. من منظور الذكر، التيقّن من الأبوّة له تداعيات تتعلّق بالتلاؤم مع البقاء، لأنّه سيخاطر بصرف مقدار كبير من الوقت والطاقة لإعالة ذريّة ذكر آخر، إن وقع ضحيّة الدياثة. إحدى طرق التيقّن من الأبوّة، هي التحقّق من تشابه الملامح بين الأب وطفله، ونلاحظ هنا أنّ الرئيسيّات غير البشريّة، تستعمل بدورها الأدلّة البصريّة كي تميّز أقاربها.

للتشابه الشكليّ تداعيات هامّة على صعيد التلاؤم مع البقاء عند البشر، فقد وجدت الدراسات أنّ الرجال مستعدّون أكثر من النساء، لاستثمار المزيد من الموارد في أطفالهم الافتراضيّين، الذين تمّ تعديل صورهم رقمياً بحيث يحملون وجوه آبائهم ذاتها. كشفت دراسة أخرى عن أنّه عندما يتمّ تعديل ملامح وجوه الأطفال رقمياً في الصور، بحيث تتمازج مع ملامح آبائهم، يميل الرجال أكثر من النساء أيضاً لاعتبار أولئك الأطفال أكثر جاذبيّة، وهم الأطفال ذاتهم الذين سيتبنّاهم أولئك الآباء غالباً، ويقضون وقتاً أطول برفقتهم، وينفقون أموالهم عليهم، ويندمون أقلّ إن اضطرّوا الدفع نفقة إعالتهم بعد الطلاق.

تشابه ملامح الوجه، قد يكون مؤشّراً فعلياً على التلاؤم مع البقاء.

وجدت دراسة عن العائلات السنغاليّة التي تعيش في الأرياف، أنّ تشابه ملامح الطفل مع أبيه هو مؤشر على حجم استثمار الأب تجاهه، أي أنّ التشابه الأكبر بينهما يترافق مع تغذية أفضل للطفل (وبالتالي سينمو أفضل)، ممّا يقترح فروقاً في حصص الموارد التي يخصّصها الأب لأبنائه. الدراسة ذاتها وجدت أنّ تشابه رائحة الطفل مع أبيه، يدلّ أيضاً على حجم استثمارات الأبّ في ابنه، وهو سلوك معروف أيضاً عند الرئيسيّات غير البشريّة، التي تتعرّف على أقاربها من خلال رائحتهم.

قام الذكور إذن خلال ماضينا التطوّريّ بحماية وإعالة ذرّيّتهم بشكل انتقائيّ، وما زال التشابه بين الأب وأبنائه مؤشراً مهمّاً على مقدار الدعم الذي سيقدّمه الرجل المعاصر إلى أبنائه. لذلك، لن نستغرب محاولةَ النصوص المقدّسة الحثيثة لتأسيس تشابه جسديّ مع الله، باعتباره النموذج الأوليّ للذكر المهيمن في الجنس البشريّ. ضمن الديانة اليهوديّة – المسيحيّة، نجد تلك المحاولة أوضح ما تكون في عقيدة «صورة الربّ» Imago Dei، التي تنصّ على أنّ الله خلق البشر فقط على صورته ومثاله، كما يؤكّد سفر التكوين: «يَوْمَ خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ. عَلَى شَبَهِ اللهِ عَمِلَهُ» (التكوين 1: 5). اللاهوتيّ أوغسطين (354–430م) أسقف مدينة هيبون (عنّابة الحاليّة في الجزائر)، كان مفكّراً دينياً واسع التأثير، ترك بصمته على الفكر الغربيّ الذي يُدرَّس اليوم في أقسام الفلسفة في مختلف الجامعات. يعرض أوغسطين مقاربة جسديّة لعقيدة «صورة الربّ»، أورِدُها هنا كما اقتبسها عنه القديس توما الإكويني:

«جسد الرجل وحده بين حيوانات الأرض لا ينحني صوب الأرض، لأنّه متكيّف للنظر إلى أعلى، إلى السماوات، ولهذا السبب لن نخطئ لو قلنا إنّه خُلِقَ على صورة الله ومثاله، لا على هيئة الحيوانات الأخرى».

شدّد الكتاب المقدّس أيضاً على التشابه في الملامح بين يسوع والربّ، كي يؤكّد تحدّره من صلب الربّ: «الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللهِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ، بِكْرُ كُلِّ خَلِيقَةٍ» (رسالة بولس إلى أهل كولوسي 1: 15). الابن هو مجد الربّ،

وصورة دقيقة عن وجوده، يدعم كلّ الأشياء بقوّة كلمته: «اَللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيمًا، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُق كَثِيرَةٍ، كَلَّمَنَا فِي هذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ فِي ابْنِهِ، الَّذِي جَعَلَهُ وَارِثًا لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي بِهِ أَيْضًا عَمِلَ الْعَالَمِينَ الَّذِي، وَهُوَ بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ، وَحَامِلٌ كُلَّ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ، بَعْدَ مَا صَنَعَ بِنَفْسِهِ تَطْهِيرًا لِخَطَايَانَا، جَلَسَ فِي يَمِينِ الْعَظَمَةِ فِي الأَعَالِي» (رسالة بولس إلى العبرانيّين 1: 1-3).

مفهوم «صورة الربّ»، هو عقيدة محوريّة في اليهوديّة - المسيحيّة، تصنّف البشرَ في فئة مختلفة عن بقيّة أشكال الحياة، وتعتبرهم أعلى مرتبة لأنّ الله خلقهم كذلك. «صورة الربّ» تخلق عقيدةَ «هيمنة الإنسان»، التي تنصّ على أنّ الرجل يملك حقّاً مقدّساً، بالتسلّط والهيمنة على المخلوقات جميعها، بما فيها النساء، نظراً لأنّه خُلِقَ على صورة الله: «وَقَالَ اللهُ: نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ» (التكوين 1: 26). «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ» (التكوين 1: 28).

بعبارة أخرى، ترك الله القيادةَ للرجل. يشرح القدّيس أوغسطين السبب، بخلق رابط ما بين ألوهيّتنا وما بين الروح: «امتياز الرجل ناجم من واقع أنّ الله خلقَه على صورته، بإعطائه روحاً مفكّرة، ترفعه عن مستوى بهائم الحقل»، أي أنّ الله رفع الجنس البشريّ فوق مستوى حيوانات العالم أجمع، باعتباره سلالته المحميّة المميّزة. هذا الترتيب يحمل معه رضا وراحة، خاصّة للحيوانات التي تطوّرت في بيئات خطرة، والخائفة من الوحوش القابعة في الظلال. في الاقتباس التالي، يضع الله الإنسانَ على قمّة السلسلة الغذائيّة، ويقلب ترتيب الخوف والرعب. الآن، وبمساعدة منه، كلّ حيوانات العالم ستخاف من الإنسان: «وَلْتَكُنْ خَشْيَتُكُمْ وَرَهْبَتُكُمْ عَلَى كُلِّ حَيَوَانَاتِ الأَرْضِ وَكُلِّ طُيُورِ السَّمَاءِ، مَعَ كُلِّ مَا يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، وَكُلِّ أَسْمَاكِ الْبَحْرِ قَدْ دُفِعَتْ

إِلَى أَيْدِيكُمْ» (التكوين 9: 2). تفضيل الله للإنسان يرتكز إلى ميل الرئيسيّات للحياة الاجتماعيّة، فالرئيسيّات المهيمنة تحابي ذريّتها، والمحاباة هي عامل مساعد للاستحواذ على المكانة ضمن الجماعة.

بين الرئيسيّات غير البشريّة، المكانة الموروثة عن الأمّهات (غالباً بمساعدة من الأمّ التي تتدخّل في النزاعات بين الأبناء) موثّقة على نحو أفضل بكثير من نظيرتها المتوارثة عن الآباء. على النقيض من ذلك، يرث الأبناء الذكور المكانة والقوّة عن آبائهم عند البشر، كجورج. دبل يو. بوش عن أبيه جورج إتش. دبل يو. بوش، وكيم جونغ أون عن كيم جونغ الثاني. إنّهما مثالان عن انتقال القوّة والمرتبة في عالم السياسة المعاصر، يضافان إلى تاريخ طويل من الأبناء الذكور الذين يرثون العروش عن الملوك (ترث البناتُ بنسبة أقلّ). بالتالي، من المنطقيّ أنّنا إن اعتبرنا أنفسنا أقرباء مباشرين لأقوى كائن في العالم، فيجب أن نرث بعض قوّته من خلال انتمائنا له. لو لم يكن الله مرسوماً على مثال الإنسان المبرمج جينياً، لما توقّعنا منه أنّ يُبدي محاباة للرجل استناداً إلى الجينات الأنانيّة، لكنّ مفهوم «هيمنة الإنسان» يقترح قوّة عظيمة أسبِغَت على الرجل من قبل أبيه الإله، وهي ما يفرض «تفضيل الأقارب» على الله.

أن تكون من ذريّة الله هو وضع له إيجابيّاته، خاصّة بالنسبة للأبناء الذكور، أمّا عدم الانتماء له فقد يعرّضهم للخطر، كما هو الحال في مجتمعات الرئيسيّات. في البريّة، نلاحظ أنّ الذكر المهيمن يقوم بشكل ممنهج بقتل الصغار الذين لا ينتمون إلى ذرّيته، واستطاع علماء الرئيسيّات أن يحرّضوا هذا السلوك تجريبياً، بإبعاد الذكر ألفا عن المجموعة، ممّا يؤدّي إلى قتل الصغار جميعهم على يد ذكور من غير الأقارب، يسعون إلى الاستيلاء على دور الذكر المهيمن الشاغر. بالمثل، عدم التشابه في ملامح الوجه يرتبط بقتل الأطفال عند البشر، فغالباً ما يسوق الرجال غيابَ الشبه بين الطفل وبينهم، كدافع لارتكاب تلك الجريمة، وهناك ما يوازي سلوكهم ذاك في المسيحيّة: فسّر اللاّهوتيّون السقوط من النعمة -عندما عصى آدم وحوّاء أمرَ الله بعدم الأكل من ثمار شجرة المعرفة- على أنّه النقطة التي خسرت فيها البشريّة «صورةَ الربّ» (والتي استعادها المسيح بالنسبة

للمسيحيّين). عندها، انتهى شبه آدم وحوّاء بالله، الذي عاقبهما بالآلام الهائلة، وقتلهما كليهما في حقيقة الأمر بأن جعلهما فانِيَين، وهي أفعال نتوقّعها من ذكر مهيمن. لذلك، خلقت البشريّة دوغما دينيّة تحاول جاهدة أن تؤسّس تشابهاً أبويّاً مع الله، وهو ما يتماشى تماماً مع تاريخ تطوريّ قام خلاله الذكر القويّ، بقتل الابن الذي لم يَثْبُت أنّه ينتمي إلى ذرّيته.

بأي حال، لا تندرج كلّ العلاقات النافعة مع ذكر الرئيسيّات المهيمن ضمن إطار الأب وذرّيته، العلاقات غير القائمة على القرابة بين الذكور البالغين، لها تداعيات هامّة على صعيد التلاؤم مع البقاء أيضاً. الشمبانزي على سبيل المثال، يؤسّس علاقة ارتباط بينه وبين الذكر المهيمن من خلال عمليّة «التفلية»، وأظهرت الأبحاث أنّ الذكور البالغين يقايضون التفلية بالدعم خلال النزاعات، وأنّ التفلية هي عمليّة موّجهة من الأدنى للأعلى ضمن سلسلة التراتبيّة الهرميّة، لأنّ الذكور الأعلى مرتبة هم الأقوى، والأقدر عموماً على مدّ يد العون خلال النزاعات. بالتالي، محاولة التحالف معهم بشكل انتقائيّ، قد تقدّم منافعَ أعظم للبقاء بالنسبة للذكور الأدنى مرتبة. تأسيس علاقات مع الذكور الأعلى مرتبة، يدعم التلاؤم مع البقاء بطرق أخرى. خذوا كمثال ذكورَ الشمبانزي المهيمنين الذين يعقدون تحالفات فيما بينهم، ويتشاركون بالإناث، ويمنعون بقيّة الذكور من الوصول إليهنّ. النجاح بالتكاثر يرتبط غالباً بالمرتبة، أي بمقدار قرب الفرد على سلسلة التراتبيّة الهرميّة من الذكر المهيمن، والرجال الأقوياء يمارسون بدورهم سلوكيّات مشابهة من حيث تعدّد الزوجات، تتحدّد غالباً بمدى قربهم من الزعيم أو الملك، الذي يتربّع على رأس التراتبيّة الهرميّة في المجتمع.

مشاكل التحالفِ مع الإله

في الفصول التالية، سأناقش المنافع التي يربحها الرجال من منظور التلاؤم مع البقاء، عند تحالفهم مع إله ذكر مهيمن، بينما سأشرح هنا المشاكل المتأصّلة في تلك العلاقة الخاصّة.

من منظور علميّ، وجود الله هو فرضيّة لم نتمكّن من اختبارها بعد (ومن غير المرجّح أن نستطيع ذلك)، كما لم نتمكّن من توضيحها تجريبياً. بمصطلحات الدوغما الدينيّة، الله غير ملموس، وهو موجود في بُعد مختلف. لذلك، كلّ المنافع الملموسة على صعيد البقاء، الناتجة عن إقامة تحالف بين الذكور والله، يحصل عليها حصريّاً رجال فانون. بأيّ حال، الرجال هم ذكور من ذكور الرئيسيّات، يقومون غالباً باستغلال علاقتهم المفترضة مع الله لخدمة غاياتهم التطوّريّة الخاصّة، غالباً من خلال الاستبداد والطغيان، ممّا يخلق معاناة بشريّة هائلة. عقيدة «صورة الربّ» سُخِّرَتْ لإسباغ شرعيّة إلهيّة على أوتوقراطيّة الرجال الأقوياء، حمتْهم من المساءلة بسبب خوفنا التطوّريّ من الذكور المهيمنين، ممّا سمح لهم باستغلال تلك الحصانة للتخاطب مع الله مباشرة، أو مخاطبتنا كأنّهم هم شخصيّاً آلهة.

تاريخيّاً، أصرّ الرجال على الحصول على تلك المرتبة، يدفعهم إلى ذلك طمعهم بالمكاسب الهائلة المترافقة مع السلطة. والتر بَرْكِرت، وهو عالم ألمانيّ متخصّص بالميثولوجيا الإغريقيّة، يقدّم لنا قائمة تاريخيّة مثاليّة من الرجال الأقوياء الذين نسبوا شرعيّة إلهيّة إلى حكمهم: ادّعى الملوك الإغريق أنّ سلطتهم مستمدّة من زيوس، وادّعى الإسكندر الأكبر أنّه ابن الإله زيوس - آمون، كما نُصّبَ الحكّام في روما المسيحيّة بفضل Dei Gratia أي «ببركة الربّ»، فالموزاييك الذهبيّ في باليرمو مثلاً، يصوّر المسيح وهو يتوّج الملك روجر، أي على حدّ قول بَرْكِرت: «تقف الآلهة خلف أولئك الذين يتقلّدون السلطة الدنيويّة، أمّا الملك فيقف في المقدّمة، مستغرقاً في الصلاة». بسبب عدم وجود كائن أسمى ملموس يقاسمهم السُلطة، تحوّل عدد من الرجال (والنساء) شخصيّاً إلى آلهة من خلال تقاليد معيّنة، فراعنة مصر القديمة مثلاً كانوا آلهة تسير على الأرض، وكذلك حكّام المايا والإزتك والإنكا.

البابا هو نموذج آخر عن إله حقيقيّ يمشي على الأرض، ويتحكّم بسلطة تاريخيّة هائلة، فهو قادر على إجبار الملوك على الركوع تحت قدميه، أو على إزاحتهم ببساطة عن العرش، لأنّه ببساطة «نائب يسوع المسيح»، أو «الممثّل

الأرضيّ للمسيح والربّ». يستحقّ هذا الادّعاء المزيد من التأمّل، خاصّة إن أخذنا بعين الاعتبار السلطة الهائلة التي تجسّدها المؤسّسات، كمؤسّسة البابويّة، فالكنيسة الكاثوليكيّة تُعدّ أحد أضخم الطواغيت الاقتصاديّة والعسكريّة في تاريخ الأديان، والبابا هو من يتحكّم بتلك السلطة الهائلة، لأنّه ليس مجرّد وكيل لأقوى ذكر مهيمن في الكون فحسب، بل من يتحدّث نيابة عنه.

قد يجادل أحدهم بأنّ الوازع الدينيّ هو ما حرّض حماس الرجال لادّعاء تلك السلطة، لكن استراق النظر تحت أردية الباباوات المطرّزة بالذهب، سيكشف عن الأجساد المشعّرة ذاتها لأسلافنا من ذكور الرئيسيّات، الذين يتنافسون على موقع السلطة بالطرق القديمة نفسها، تلك التي يذكي لهيبَها العنفُ والجنسانيّة. يطرح القرن العاشر الميلاديّ أمثلة عديدة، البابا يوحنا الثاني عشر مثلاً كان زير نساء، يُشاع أنّه حوّل القصر البابويّ إلى مبغى خاصّ، كما اتّهمه أوتو الأوّل ملك ألمانيا بارتكاب الزنا مع عشيقة والده، إضافة إلى عدّة علاقات جنسيّة شائنة أخرى. اتُّهِمَ يوحنا الثاني عشر أيضاً بإخصاء مساعد الشمّاس الأساسيّ، وهو سلوك يلجأ إليه كلٌّ من ذكور الآيب والرجال الأقوياء كما سيمرّ معنا، بغية طرد منافسيهم من سوق التزاوج. آنذاك، حضر الملك أوتو الأوّل إلى روما، وأزاح البابا يوحنا الثاني عشر عن منصبه، وعيّن مكانه البابا ليو الثامن، لكن بعد عودته إلى ألمانيا، قام يوحنا الثاني عشر بذبح قادة الحلف الإمبراطوريّ في روما، واستعاد عرش البابويّة، قبل أن يقع ضحيّة تقاليد التنافس على التزاوج ذاتها، التي دفعته إلى إخصاء واغتيال الرجال، وإلى التلاعب بالنساء (وهي سلوكيّات نتوقّعها من الذكر المهيمن عند الرئيسيّات)، فقد قُتِل كما يُقال على يد زوج غيور، أثناء ممارسته الجنس مع الزوجة.

في القرن العاشر أيضاً، قام النبيل بونيفاسيو فرانكوني بشنق البابا بندكت السادس، ونصّب نفسه مكانه. بعد فترة وجيزة، هرب إلى القسطنطينيّة بعد أن سرق ثروات البابويّة، لكنّ طموحاته كذكرٍ ألفا لم تخمد، إذ سرعان ما عاد إلى روما، وقتل البابا يوحنّا الرابع عشر، ثمّ نصّب نفسه بابا للمرّة الثانية، وبقي في هذا المنصب حتّى وفاته عام 985م.

في بداية القرن العاشر أيضاً، أمر البابا سيرجيوس الثالث باغتيال سلَفَيه، البابا كريستوفر والبابا ليو الخامس، ممّا مهّد له الطريق لاعتلاء كرسيّ البابويّة. من المعروف عنه معاشرته لمجموعة من الخليلات، كما أنّ ابنه غير الشرعيّ، وباعتباره الابن المفضّل للربّ، أصبح في نهاية المطاف البابا يوحنّا الحادي عشر. البابا ألكساندر السادس (تولّى المنصب ما بين 1492-1503 م)، كان معروفاً بولعه بالجنس الجماعيّ، وأنجب ثمانية أطفال من ثلاث عشيقات أو أربع. رغم أنّه ارتكب معظم تلك الأفعال الجنسيّة الطائشة، قبل تولّيه منصب البابويّة في عمر الحادية والستيّن، لكنّه شنّ بمجرّد تولّيه للمنصب حرباً ضروساً على خصومه السياسيّين، واستولى على ثروة طائلة في سياق ذلك.

اللائحة طويلة، ورغم أنّ الدوغما الدينيّة، أو مجوهرات البابويّة البرّاقة، تحجب التشابهات أحياناً، لكنّنا نستطيع بسهولة أن نردّ الآليّات السابقة إلى موضعها ضمن غابات غومبي المطريّة[2]. سلطة الكرسيّ البابويّ المذهلة التي يدعمها الله، والتي كثيراً ما تمّ استغلالها للحصول على النساء والثروات، وللقضاء على الخصوم، مستلهمة دون شكّ من نيابة المسيح بحدّ ذاتها، أي من ادّعاء المسيح بأنّه الممثّل الوحيد للربّ. تلك المرتبة التي لا تُضاهى، والتي يشغلها المسيح، واضحة في الكتاب المقدّس: «فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: أَرِنَا الآبَ؟ أَلَسْتَ تُؤْمِنُ أَنِّي أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ؟ اَلْكَلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي، لكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ. صَدِّقُونِي أَنِّي فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ» (إنجيل يوحنّا 14: 9-11).

يمضي المسيح أبعد من الفراعنة، ويدّعي ارتباطاً مباشراً مع الربّ بقوله: «أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ» (إنجيل يوحنّا 10: 30)، كما أنّه يمنع أتباعه بصراحة من تجاوز التسلسل التراتبيّ: «لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي» (إنجيل يوحنّا 14: 6)، ويشدّد على أنّ أولئك الذين لا يحبّونه، ويخفقون بإدراك أنّه تجسيد للربّ، ولا ينصاعون لكلمته، سيدمّرون انتماءهم لله، ويصبحون أبناء

2- محميّة طبيعيّة في تانزانيا، تُعدّ موطناً هامّاً للشمبانزي، وغيره من الرئيسيّات. المترجمة

إبليس: «إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِنًا. لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ الله. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: لَوْ كَانَ اللهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي، لأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ اللهِ وَأَتَيْتُ. لأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي، بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي. لِمَاذَا لاَ تَفْهَمُونَ كَلاَمِي؟ لأَنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ، وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ» (إنجيل يوحنّا 8: 41–44)، من ثمّ: «اَلَّذِي مِنَ اللهِ يَسْمَعُ كَلاَمَ اللهِ. لِذلِكَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَسْمَعُونَ، لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ اللهِ» (إنجيل يوحنّا 8: 47).

يجدر بالذكر أنّ البابوات، والرجال الآخرين الذين شاركوهم التحالف مع الإله المرسوم على صورة الرجل، لم يستغلّوا ذلك التحالف على مستوى المكاسب الشخصيّة فقط كما في الأمثلة السابقة، بل سيّروا الجيوش كي تذبح وتقتل. قال نابليون بونابرت ذات مرّة: «تكريم الإمبراطور هو تكريم للربّ بحدّ ذاته... إن فشل الشخص بأداء واجبه تجاه الإمبراطور، فإنّه سيعصي بذلك النظامَ الذي أسّسه الربّ، ويستحقّ بالتالي العقاب الأبديّ». تقدّر الإحصائيّات أنّ حوالي خمسة إلى سبعة ملايين شخص، معظمهم من المدنيّين، قُتلوا خلال الحروب النابليونيّة.

من تقاليد الملوك -الآلهة (والملكات- الإلهات أحياناً)، إلى البروتستانتيّين الإنجيليّين في عصرنا الحاليّ الذين يديرون كنائس ضخمة، ما تزال قوّة الانتماء مستمرّة لم تنتهِ. الإنجيليّ جون هاجي على سبيل المثال، عقد اجتماعات أسبوعيّة مع جورج. دبل يو. بوش خلال فترة رئاسته، والذي تحكّم آنذاك بأقوى جيش في تاريخ العالم، ووجّهه وفقاً لاعتقاداته الدينيّة، فقاده بصفته رئيساً إلى الحرب التي أطلق عليها اسم «حملة صليبيّة على الإرهاب»، ممّا أشعل من جديد صراعاً عمره قرون ما بين المسيحيّة والإسلام. تحدّثت تقارير عديدة عن أنّ بوش في لقاءاته الخاصّة مع رجال الدولة أو القادة الدينيّين، ادّعى أنّ قراراته كقائد مسؤول هي قرارات أملاها الربّ شخصياً، وأنّ الربّ يتكلّم من خلاله. بتوسيع تحالف بوش المفترض مع الله، طرح اللوتانت جنرال وليام بويكن -وهو

شخصيّة محوريّة في الحرب على الإرهاب- السؤال التالي في خطاب وجّهه إلى مجموعات مسيحيّة: «لماذا يتواجد ذلك الرجل في البيت الأبيض؟ لم تصوّتْ له غالبيّة الأمريكيّين، لكنّه موجود في البيت الأبيض لأنّ الله وضعه هناك، من أجل زمن كهذا». لا بدّ من توظيف التفكير النقديّ حين يدّعي الرجال الأقوياء أنّهم يتكلّمون باسم الربّ، أو يعملون كوكلاء له على الأرض. ينبغي أن نفهم أنّهم يدّعون اتّباع إملاءات دينيّة، لكنّهم في حقيقة الأمر يتّبعون إملاءات بيولوجيّة، تدفعهم إلى قتل خصومهم في الحروب. فضلاً عن ذلك، عندما يدّعي الرجال إلهاماً إلهيّاً لإرسال الجيوش إلى ساحات المعارك، فهم يعلنون عن دورهم كحماة، وبالتالي يلعبون على وتر الآليّات التطوّريّة، التي تهدف إلى تحريض مشاعر قويّة غابرة في نفوس أتباعهم. ذلك الدور يتماهى أيضاً مع دور الله، يدّعي الجنرال بويكن على سبيل المثال أنّ الحرب على الإرهاب التي شنّها بوش، هي في حقيقة الأمر حرب على الشيطان، ذلك المفترس البهيميّ الذي يجسّد تلك «الأشباح» في ماضي أسلافنا. بالمثل، المتطرّفون الإسلاميّون الذين يشنّون هجمات إرهابيّة ضدّ الولايات المتّحدة الأمريكيّة، يصوّرون أمريكا غالباً على أنّها «الشيطان الأكبر».

قوّة علم التطوّر تتمثّل بأنّها تكشف النماذج التي يتبعها الرجال المهيمنون، وتسمح لنا بتفكيك ارتباطهم مع الله، ذلك الارتباط الذي ولّد العداوات والمذابح، كما توضّح لنا أنّ التبرير الإلهيّ لسلوك الإنسان التدميريّ، يستغلّ بالضرورة مخاوفنا الغابرة، ويجبرنا على اللجوء إلى الرجال والإله الذكر المرسوم على صورتهم، وشنّ الحروب في سياق ذلك. ربّما نصبح قادرين من خلال علم التطوّر، على اتّخاذ قرارات أكثر عقلانيّة، بما في ذلك قرارنا بدعم القادة السياسيّين أثناء النزاعات، وبالتالي أن نميّز ما بين المخاطر الحقيقيّة المعاصرة، ومخاوف أسلافنا.

***

الفصل الرابع

الهيمنةُ الجنسيَةُ : من الأيب، إلى الرجال، وحتّى الآلهة

الله يريد نساءنا على ما يبدو! على الرغم من قواه المبهرة، فإنه يعزل النساء، ويراقب حياتهنّ الجنسيّة، ويتّخذ إجراءات عقابيّة عنيفة ضدّ استقلالهنّ جنسياً، فضلاً عن أنّه يعاقب كذلك الطموحات الجنسيّة للذكور الأقلّ شأناً. هذه المشاغل الجنسيّة العاديّة، لا تتماشى بسهولة مع مفهوم كينونة أبديّة ليست بحاجة إلى النساء، ولا إلى الجنس، كي تتوالد وتدوم في الأجيال القادمة. في أسوأ حالاته، لدينا هنا إله ذكر مهيمن يتصرّف كذكر من ذكور الرئيسيّات، شَبِق وغيور واستحواذيّ من الناحية الجنسيّة. التفسير الأوضح لتلك التناقضات الإلهيّة، يكمن في سيكولوجيّتنا التكاثريّة. فهمُ هذه النقطة، وكشفُ الاهتمامات الجنسيّة المفترضة للآلهة على حقيقتها، يلقيان الضوء على القمع الجنسيّ الذي تفرضه الأديان، وكذلك على العنف الموّجه ضدّ النساء، الذي تحرّضه دوافع دينيّة.

الأيب

1- العنف والحصول على الجنس

الحاجة للإناث ترتبط ببيولوجيا التكاثر، وغالباً ما تكون ملحّة. هناك قيود بيولوجيّة مفروضة على التكاثر عند الرئيسيّات، تتعلّق عند الإناث

بالحمل والإرضاع، بينما تتعلّق عند الذكور بعدد الإناث اللواتي يمكن الوصول إليهنّ جنسياً. هذا يعني أنّه في جمهرة population يتساوى فيها عدد الذكور والإناث، سنجد نسبة أعلى من الذكور النشيطين جنسياً مقارنة بالإناث، فضلاً عن أنّ الإناث انتقائيّات أكثر فيما يتعلّق باختيار الشريك. هذان العاملان يدفعان معظم الذكور في أنواع الرئيسيّات المختلفة، إلى الانخراط في منافسات حامية بغية الوصول إلى الأنثى، أي أنّ العنف هو الاستراتيجيّة السائدة عند الرئيسيّات للظفر بالإناث، بما فيها مجموعات الأيب الكبرى.

غالباً ما يلجأ ذكر الغوريلا المهيمن إلى التهديد باستخدام العنف، كي «يحكم» مجموعته بأسلوب أشبه بالحكم الشموليّ الاستبداديّ. من الجدير بالملاحظة أن هيمنة ذكر الغوريلا المسيطر، تتيح له امتيازات جنسيّة حصريّة مع إناث المجموعة، ونظراً لأنّ الهيمنة المطلقة شائعة ومن النادر أن يعترض عليها بقيّة الذكور، لذلك تميل مجتمعات الغوريلا إلى أن تكون مستقرّة نسبيّاً، أي أنّ نسبة العنف الفعليّ فيها منخفضة.

على النقيض من الغوريلا، مكانة ذكر الشمبانزي متقلّبة، تتميّز بتغيّر التحالفاتِ السياسيّة بين الذكور وتبدّلِ مرتبة الذكر ألفا، ويتمّ اكتسابها باستخدام العنف، كما يختلف مقدار ممارسة الذكر للجنس تبعاً للمرتبة التي يحتلّها. هذا لا يعني إهمال الاستقلاليّة الجنسيّة لإناث الرئيسيّات، بما فيها الشمبانزي، فقد تتسافد أنثى الشمبانزي علناً مع الذكر المهيمن، من ثمّ تتسلّل بعيداً للتسافد مع ذكور أدنى مرتبة. بأيّ حال، قدرة ذكر الشمبانزي المهيمن على التحكّم بالعلاقات الجنسيّة واضحة، وكذلك توظيف العدوانيّة لتحقيق ذلك التحكّم والاستمرار به.

في دراسته لمستعمرة الشمبانزي في حديقة حيوان برجرز، في مدينة آرنهم الهولنديّة، ركّز عالم الرئيسيّات فرانز دي وال، على مراقبة ذكر مهيمن يُدعى يروين. سلطة يروين كانت مطلقة، واستحوذ في فترة ما على 100% تقريباً من علاقات التزاوج في المستعمرة. بعد أن تمّت الإطاحة به

أخيراً، لم يتمكّن أيّ ذكر آخر من تحقيق ما يشبه تلك السيطرة الكليّة على رفاقه، وارتبطت العلاقات الجنسيّة التي يقيمها المتنافسون الباقون ارتباطاً وثيقاً، بمستوى الهيمنة التي يبسطها الذكر خلال فترة ما، والتي تختلف وفقاً للتحالفات التي يعقدها، وللمواجهات التي يربحها أو يخسرها. عندها، توصّل دي وال إلى استنتاج هام: «هناك عموماً ترابط قطعيّ ما بين مرتبة الذكر وما بين تواتر التسافد، رغم أنّ هذا الترابط ليس قانوناً صارماً بأيّ حال من الأحوال، بل هو بالأحرى قاعدة لها استثناءات. الذكور ذوو المرتبة العليا أشدّ عدائيّة، ولا يتسامحون مطلقاً مع المنافسين ذوي المرتبة الأدنى، بل يطردونهم بعيداً عن الإناث اللواتي يدخلن طور الدورة النزويّة، وإن قبضوا على ذكر آخر يتزاوج، فقد يهاجمونه هو أو شريكته. من الواضح أيضاً، أنّ الإناث مدركات تماماً لهذه الخطورة».

قد يُجبَر ذكورُ الشمبانزي على إبداء الخضوع للذكر المهيمن، وذلك من خلال تجيير الحقّ بالوصول إلى الإناث والتزاوج إليه، وقد تُجبَر الإناث على التزاوج معه حصراً، وإلّا تعرّضن لعقوبات عنيفة. بمعنى آخر، كلّما كان ذكر الشمبانزي أقوى، ازدادت قدرته على التحكّم جنسيّاً بالإناث.

استخدام العنف كاستراتيجيّة للتزاوج، موثّق عند الرئيسيّات الأخرى أيضاً. في كتابه «الذكاء الماكيافيللي»، يقدّم عالم الرئيسيّات داريو ماستريبيري تحليلاً عميقاً لسلوكيّات التزاوج عند المكاك، وهي رئيسيّات تعيش في مجتمعات أموميّة، تمتلك الإناث فيها سلطة أكبر من الذكور. يهاجر ذكور المكاك من المجموعة التي يولَدون فيها، على عكس الأنثى التي تبقى ضمنها، ممّا يسمح لها بالاستحواذ على السلطة، وعقد التحالفات مع مرور الوقت. رغم ذلك، حتّى في هذا المجتمع الأموميّ، يطبّق الذكور استراتيجيّتهم المعهودة، أي الانتصار في المنافسات العنيفة، بغية الحصول على امتيازات جنسيّة مع إناث عديدات.

قد تتزاوج أنثى المكاك ذات المرتبة العالية مع عدّة ذكور، وربّما تتزاوج مع الذكور الأدنى مرتبة أحياناً، عندما تمرّ بطور منخفض الخصوبة، وهو

ما قد يمثّل محاولة لتشويش الأبوّة، أو ضمانة للحصول على خدمات، كالتفلية مثلاً، لكنّها تدرك أنّ الذكر ألفا يتّسم بالعنف، لذلك تنفّذ علاقاتها الجانبيّة تلك في الخفاء، بعيداً عن عيني الذكر المهيمن. أخيراً، عندما تدخل الأنثى ذات المرتبة العليا في طور الإباضة، ستميل إلى تفضيل التزاوج مع الذكور المهيمنين. إن كانت هناك أنثى مكاك واحدة فقط تمرّ بدورتها النزويّة، فقد ينجح الذكر المهيمن بالتحكّم بها جنسياً بشكل مطلق، لكن بشكل عامّ، ستدخل العديد من الإناث في آنٍ واحد بطور الدورة النزويّة، وبالتالي يصبح الذكر المهيمن محاطاً بوفرة من الإناث الخصبات، فيتحوّل إلى ما يشبه طاغية مهووساً بالسلطة، تدفعه إلى ذلك المهمّة المستمرّة المُجهِدة، المتمثّلة بحراسةِ حقوقه الجنسيّة العديدة، وطردِ المنافسين واستبعادِهم، وهو ما قد ينقلب إلى ماراثون حقيقيّ من الجنس والعنف. يجدر بالملاحظة أنّ الأنثى التي ترتكب تجاوزات، ستتعرّض للعقاب بدورها، فالذكر المهيمن سيهاجمها إن قبض عليها وهي تتسافد مع ذكر آخر، فضلاً عن أنّه يتصرّف كالرجال الهمجيّين تماماً، فيهاجمها أحياناً لمجرّد قيامها بمداعبة ذكر آخر. تلجأ الأنثى إلى إبداء خضوع جنسيّ رمزيّ، كي تتجنّب هجوم الذكر المهيمن، بأن تعرض مؤخّرتها عليه لفترة وجيزة، وهي إشارة يلجأ إليها الذكور الأدنى مرتبة بدورهم لامتصاص غضبه.

يلجأ العديد من أنواع البابون، إلى أنماط مماثلة من العنف والجنس والخضوع. بابون همادرياس، وبابون جِلادا، وبابون غينيا، تعيش ضمن مجموعاتٍ من الإناث -يُطلَق عليها اسم ملائم: الحريم- يهيمن عليها ذكر واحد يتمتّع بامتيازات جنسيّة (حصريّة نظريّاً) مع المجموعة بأكملها. يظفر ذكور بابون همادرياس وجلادا بالهيمنة، بعد تنافس عنيف بعضهم مع بعض، كما يشنّون غزوات على «حريم» الذكور الآخرين لسرقة الإناث. أحياناً، يعقد الذكور الأدنى مرتبة تحالفات فيما بينهم، للإطاحة بالذكر المهيمن والاستيلاء على إناثه. لذلك، بغية حماية حقوقه الجنسيّة الحصريّة،

يقوم ذكر بابون همادرياس بجمع إناثه في قطيع واحد من خلال تهديدهنّ بالعنف، وملاحقتهنّ، وتقييد حركتهنّ، وجرّهنّ، أو عضّ أعناق اللواتي يبتعدن كثيراً عن الحريم، أو اللواتي يقتربن من الذكور الأدنى مرتبة.

كذكور المكاك، يقوم ذكر البابون الأدنى مرتبة بعرض مؤخّرته على الذكر المهيمن بهدف استرضائه، وقد يقوم هذا الأخير بامتطاء الذكر الخاضع لفترة وجيزة، وهو ما يدعى بـ: «الامتطاء الزائف».

العلاقة بين الهيمنة وممارسة الجنس، ليست محصورة بالشمبانزي والغوريلا والبابون والمكاك، إذ تلجأ معظم الرئيسيّات إلى الاستراتيجيّات الآنفة الذكر، رغم اختلاف أنماط التزاوج. حتّى عند البونوبو، وهو تحت - جنس من الشمبانزي، تتميّز مجتمعاته بدرجة أعلى من السلام والتساوي في المرتبة بين الذكور، نجد أن التسافد يرتبط أيضاً بالهيمنة.

أخيراً، أثناء الاقتتال، تنشغل الرئيسيّات غير البشريّة بمهاجمة أعضاء الخصم التناسليّة، وهو ما يفعله المكاك والبابون والشمبانزي في البريّة وفي حدائق الحيوان، وغالباً ما تنتهي تلك الاعتداءات بالخصاء. الأعضاء التناسليّة تفتقر إلى الحماية، كما أنّها مؤلمة بشدّة، ويقدّم الخصاء فائدة أخرى، هي إزاحة الذكر من المنافسة على التزاوج نهائيّاً.

II- قتل الأطفال عند الرئيسيّات غير البشريّة

قتل الأطفال هو استراتيجيّة هامّة من استراتيجيّات الذكور، لوحِظَت عند عدد كبير من الثدييّات، بما فيها القرود بمعظم أنواعها، وأنواع الأيب العليا جميعها، والبشر.

يتمّ «قتل الأطفال» عندما يبسط أحد الذكور هيمنته بعد إزاحة ذكر آخر، بينما لا تقوم الإناث أبداً بذلك. إنّه سلوك بغيض، لكنّ فوائده واضحة من منظور التزاوج، فمن خلال قتل ذريّة المنافسين الذكور، يلغي الذكر المهيمن المنافسةَ المستقبليّة التي قد تؤثّر على تلاؤمه، أو تلاؤم صغاره، مع البقاء، كما أنّ الأمّ في معظم أنواع الرئيسيّات، تدخل الطور النزويّ مباشرة بعد أن

يُقتَل أطفالها. فضلاً عن ذلك، يقتلُ ذكور الرئيسيّات غير البشريّة ذريّة غيرهم من الذكور انتقائيّاً، ويحمون صغارهم من القتل في الوقت ذاته.

الزمن هو عاملٌ حاسم في عالم يكون البقاء فيه صعباً، وغيرَ مضمون، وتربية المواليد المعتمدين على الأمّ، وفطامهم، ومن ثمّ الدخول في طور الخصوبة مجدّداً، تتطلّب كلّها وقتاً طويلاً. بالتالي، الذكور الذين يقتلون ذريّة الخصم، من ثمّ يتزاوجون بسرعة مع الأمّ، سيتفوّقون في السباق من أجل البقاء.

تشير الأنثروبولوجيّة الأمريكيّة سارة بلافر هردي، إلى أنّ هذا السلوك قد ينقلب أحياناً إلى فخٍّ تطوّريّ للجنسين كليهما. رغم أنّ ما سيحصل مناف للمنطق، لكنّ أنثى الرئيسيّات تستفيد من التزاوج مع الذكور الذين يقتلون صغارها، لأنّهم سينجبون منها أبناءً يقتلون مواليد غيرهم بدورهم. إنجاب ذريّة من الذكور المسالمين الذين لا يقتلون مواليد الخصم، في عالم يهيمن عليه ذكور يمارسون هذا الفعل، يمثّل نهاية تطوّريّة مسدودة، لأنّ جينات الذكور المسالمين ستختفي من الحوض الجينيّ بعد مقتلهم. من ناحية أخرى، رغم أنّ الأنثى تربح منافع تطوّريّة عند تزاوجها مع الذكر قاتل المواليد، فإنّ موت صغارها الذين تكبّدت مخاطر عديدة لإنجابهم وتربيتهم، هو في الوقت ذاته خسارة لا تعوَّض، كما أنّها ستدفع ثمناً آخر باهظاً، هو مشاعر الضيق والأسى التي ستنتابها.

كثيراً ما لاحظ علماء الرئيسيّات أثناء دراساتهم الميدانيّة عمليّةَ قتل الأطفال، وفيما يلي وصفٌ لما حصل مرّة في مجموعة من الشمبانزي، حين هاجم ذكران أنثى ورضيعها، فهربت الأمّ بينما قبض الذكران على الصغير الخائف: «أنفه ينزف كأنّه تلقّى لكمة. أمسكه الذكر من قدميه، وبدأ بدقّ رأسه على أحد الأغصان مراراً وتكراراً، ثمّ قام بعد ثلاث دقائق بالتهام اللحم عن فخذي الرضيع، الذي توقّف عن المقاومة والصراخ».

الأنماط السلوكيّة التي ناقشناها هنا عند الرئيسيّات، تظهر كذلك أثناء الصراع على الهيمنة بين الرجال، كالتحكّم الجنسيّ بالنساء، وإخضاع

الرجال والنساء جنسياً، وقيام الرجال المهيمنين بإخصاء الذكور الآخرين، بل وحتّى بقتل مواليد الغير. كما هو الحال عند أبناء عمومتنا من الرئيسيّات، كلّما تمتّع الرجل بسلطة أعلى، ازداد نجاحه بتحقيق تلك الاستراتيجيّات.

الرجال

1- ماذا يريد الرجال؟

بالحركة البطيئة، تركض امرأة شابّة جذّابة للغاية عبر الغابة، حافية، لا ترتدي أكثر من بيكيني ضئيل بنيّ اللون، شعرها الكستنائيّ مشعّث، وتبدو بدائيّة أشبه بحيوان... سيشرد ذهننا على الفور، إلى الإيحاءات الجنسيّة لهذا المشهد. تتلفّت المرأة، فترى العديد من النساء ذوات الشعر الكستنائيّ، جميعهنّ شابّات جميلات يرتدين البيكيني أيضاً، ويركضن بالاتّجاه نفسه. ينقطع المشهد فجأة، وينتقل إلى امرأة شقراء فاتنة وجذّابة للغاية، تركض إلى أعلى التلّة، وخلفها العديد من الشقراوات اللواتي يركضن بدورهنّ إلى أعلى التلّة بالبيكيني. يتحوّل المشهد إلى لقطة مأخوذة من الجوّ، ويكشف عن أسراب من الشقراوات يركضن عبر الأودية والتلال، كأنّهن في ساحة قتال. بعد ذلك، نرى أسراباً من النساء سوداوات الشعر يغطسن في البحر، ويسبحن نحو الشاطئ كأنّهن تسونامي هائل. يتصاعد التشويق، ونرى الآن نساء حسناوات يتقاطرن من كلّ أرجاء العالم، ويركضن من الجهات جميعها إلى نقطة واحدة على الشاطئ، وعندها تتركّز الكاميرا على شابّ نحيل، يرشّ جسده بنوع من مزيل التعرّق. تبدو النساء منجذبات إلى الرائحة، ويندفعن بحماس أكبر، فنكتشف أنّهن جميعهنّ يشتهين الشابّ. أخيراً، تحيط النساء الشابّات الشهوانيّات به من كلّ الجهات، جميعهنّ شبقات، والاحتمالات الجنسيّة لا نهائيّة!

المشهد السابق مأخوذ من إعلان تلفزيونيّ لمزيل التعرّق آكس Axe، يُختَتم بعبارة: «رشّ أكثر، واحصل على المزيد». رغم أنّ الإعلان مغرق في الغلوّ، فإنّه يلاقي صدى عند الرجال من خلال استهدافه الفانتازيات

الجنسيّة، التي تخلقها استراتيجيّة «العدد» التطوّريّة. أظهرت الأبحاث التي تناولت تلك الفانتازيّات، أنّ نسبة ساحقة من الرجال يفضّلون «الكمّية»، وهو ما يمكن تقديره بدراسة رغبتهم بشريكات العلاقات الجنسيّة العابرة، فقد تبيّن أنّهم يفضّلون العلاقات الجنسيّة العابرة أكثر بكثير، ويستمنون أكثر، ويحلمون بالجنس الجماعيّ أكثر، مقارنة بما تفضّله أو تفعله النساء. وجدت إحدى تلك الدراسات، أنّ الرجال يحلمون بنسبة أعلى من الفانتازيات الجنسيّة يوميّاً، التي لا يختلف معظمها كثيراً عن إعلان آكس السابق، كما أنّهم صرّحوا بنسبة أعلى بأربع مرّات من النساء عن فانتازيات جنسيّة، وفقاً لدراسة أخرى تابعت أكثر من ألف فرد على امتداد حياتهم. في دراسة ثالثة، قام المشتركون -وهم شباب وشابّات في المرحلة الجامعيّة، وجميعهم جذّابون- بالتعرّف على شخص من الجنس الآخر، من ثمّ دعوته بسرعة لإقامة علاقة جنسيّة عابرة. وجد الباحثون أنّ خمسة وسبعين في المئة من الرجال وافقوا على الدعوة، مقابل صفر بالمئة من النساء.

بالإضافة إلى ذلك، يختلف الرجال والنساء بعضهم عن بعض، في نظرتهم إلى أهميّة الخيانة الجنسيّة. يرغب العديد من الرجال بعلاقات طويلة الأمد إضافة إلى العلاقات الجنسيّة العابرة، وهو ما يبدو كتناقض، لكنّه ينسجم مع فكرة أنّ الرجال مستعدّون للاستثمار في النساء وفي الأطفال الذين سينجبونهم معاً، ممّا يجعل اهتمام الذكر منصبّاً غالباً على عدم إخلاص شريكته جنسياً. على سبيل المثال، وجدت إحدى الدراسات أنّ الرجل يقلق من احتمال أن تقيم زوجته علاقة جنسيّة مع رجل آخر (وبالتالي أن تصبح حاملاً بطفله)، بينما لا يقلقه أن تقيم علاقة جنسيّة مع امرأة أخرى. مجموعة أخرى من الدراسات التي تناولت مجتمعات متعدّدة، وجدت أنّ الرجال ينزعجون عموماً من فكرة عدم الإخلاص الجنسيّ، أمّا النساء فتزعجهنّ فكرة عدم الإخلاص العاطفيّ أكثر. التفسير العامّ لتلك الملاحظات، هو أنّ الرجال طوّروا خوفاً من الدياثة (وهي خطر غير وارد بالطبع بالنسبة للنساء)، أمّا المرأة فتخشى من أنّ ارتباط زوجها عاطفيّاً بامرأة

ثانية، سيؤدّي إلى تقاسم الموارد بينهما. باختصار، الرجال، كبقيّة ذكور الرئيسيّات، يقومون بحراسة زوجاتهم.

استناداً إلى منطق التطوّر، يبدو لنا أن فانتازيا الرجل المثاليّة تتضمّن تشكيلة متنوّعة من نساء عديدات، بشرط أن يكون إخلاصهنّ الجنسيّ مضموناً. يُثبِت لنا التاريخ كيف تنافس الرجال بلهفة لتحقيق تلك الفانتازيا المثاليّة، عندما توافرت لهم الموارد، وأباحت لهم القوانين والأعراف الدينيّة تعدّدَ الزوجات.

II- ما الذي يحصل عليه الرجل المهيمن؟

تُنَظِّم المجتمعات البشريّة بدرجات متفاوتة وفقاً للتراتبيّة الهرميّة للمكانة، رغم أنّ مقدرتنا على تشييد ثقافة معقّدة تطوّرت وتوسّعت دون شكّ، منذ أن بدأ أسلاف الإنسان بشقّ طريقهم بالقوّة إلى مواقع السلطة. اليوم، لا يتطلّب تحقيق مرتبة عليا بين الرجال، اللجوءَ إلى العنف والترهيب بالحدّ ذاته كما في الماضي، لكنّهما ما يزالان استراتيجيّة تُطبَّق بأسلوب خفيّ يتماشى مع الأخلاقيّات المعاصرة. ما زالت المرتبة العليا (بغضّ النظر عن اللجوء إلى الهيمنة لتحقيقها، أو إلى أسلوب مسالم أكثر هو البرستيج) وسيلة تتيح التحكّم بالموارد، على الأقلّ نظريّاً، وهو ما يجذب النساء للأسباب التي ناقشناها في الفصل الثاني.

نتائج الأبحاث التي تناولت العلاقة ما بين هيمنة الرجل، وثروته ونجاحه في التكاثر، واضحة لا تقبل الشكّ. في دراسة عابرة للثقافات، شملت مئة وأربعة مجتمعات في القارّات الخمس، وجدَ الباحثون أنّ الذكر المهيمن يمتلك ثروة أضخم وعدداً أكبر من الزوجات، مقارنة بغيره من الذكور. في مجتمعات الصيد والالتقاط، يحقّق الرجال المكانةَ من خلال العدوانيّة المباشرة، والقوّة الجسديّة الصرفة، ففي قبائل يانومامو في الأمازون على سبيل المثال، يحوز الرجل على مرتبة أعلى بعد انتصاره في المواجهات التي يتمّ فيها لكم الصدور، والاقتتال بالفؤوس، وقتل الخصوم من المجموعات الأخرى، كما يملك أولئك الذين قتلوا رجالاً آخرين في المعارك، زوجاتٍ

وأطفالاً أكثر من أقرانهم الذين لم يقتلوا أحداً. بسبب عدم وجود نقود أو وسائل لتخزين الطعام، تتفاوت مستويات الثروة قليلاً ما بين الأفراد في مجتمعات يانومامو، لكنّ الرجال المهيمنين غالباً ما يتلقّون تقديمات غذائيّة من عائلات القرية، ممّا يعزّز قدرتهم على الوصول إلى الموارد الماديّة، التي يستغلّونها للحصول على المزيد من النساء والأطفال.

في المجتمعات المعاصرة، ابتعدت أساليب الحصول على الموارد عن الغزو والصيد، إلى أشكال مختلفة معقّدة من الاستحواذ، لكنّ العلاقة ما بين المرتبة والنجاح على الصعيد الجنسيّ، ما تزال متينة، فالرابحون اليوم هم نجوم الروك، نجوم البلاي بوي من أصحاب المليارات، الرياضيّون المحترفون، وممثلو هوليوود... إلخ. خذوا كمثال جين سيمونز، المغنّي الرئيسيّ في فرقة الروك الأمريكيّة كِس Kiss، الذي ادّعى أنّه مارس الجنس مع أربعة آلاف وثماني مئة امرأة. دراساتُ عالِم السيكولوجيا التطوّريّة ديفيد باس تفسّر تلك النزعة، وتُظهِر أنّ الرجال الناجحين ماديّاً، قادرون عادة على إقامة عدد أكبر من العلاقات الجنسيّة.

الاستحواذ على الموارد يخلق التنافس عادة، لكنّ التنافس على التزاوج تدفعه حاجة خاصّة ملحّة: عدم التزاوج، يوازي عدم التكاثر. نلاحظ مثلاً أن الرجال الفاشلين بالكاد يقيمون علاقات جنسيّة، وهو وضع خطير رغم أنّ تلك الخطورة مجازيّة، لكنّنا لا نجافي الواقع كثيراً على صعيد التطوّر، لأنّ عدم الإنجاب يكافئ من حيث النتيجة أن يُقتَل المرء، أي أنّه نهاية تطوّريّة مسدودة (باستثناء الجينات التي يساعدها تفضيل الأقارب، كما ناقشنا في الفصل الثاني)، لذلك يجابه التطوّر هذا الوضع من خلال آليّة مألوفة للتعامل مع الأخطار، وهي العدوانيّة.

في كتابها «الاستبداد والتكاثر المتباين»، تعرض الأنثروبولوجيّة لورا بتزيغ لمحة عامّة عن الظاهرة التي يلخّصها العنوان. بالاستناد إلى البيانات التي وفّرتها دراسة موردوك ووايت لعيّنة من ثقافات متعدّدة، درست بِتزيغ العلاقة بين الاستبداد والتكاثر المتباين، في مئة وأربعة مجتمعات حول

العالم، وعرّفت الاستبداد بدقّة على أنّه «الحقّ المشروع لزعماء المجتمعات بقتل رعاياهم عشوائياً، دون أن يتعرّضوا للمساءلة». فرضيّتها واضحة: «تتنبّأ السلطة الهرميّة بنتيجة متحيّزة في حسم النزاعات، ممّا يتنبّأ بدوره بحجم حريم الفائز. بالنسبة للرجال، يُعدّ ذلك مقياساً لنجاحهم في التكاثر».

استنتجت بتزيغ وجود نزعة ساحقة عند الحكّام الذكور الذين يتحكّمون بسلطة هائلة، لاستغلال تلك السلطة لغايات تكاثريّة، من خلال اضطهاد الخصوم الذكور وإجبارهم على الخضوع، والتحكّم بالنساء، وهو نمط سلوكيّ مألوف عند الرئيسيّات غير البشريّة كما رأينا. بالاستشهاد بأمثلة عديدة عن مجتمعات متنوّعة من القارّات الخمس، أظهرت بتزيغ أنّ الرجال لا يتوانون عن ممارسة الاستبداد عندما يتواجدون في موقع يتيح لهم ذلك، كما أنّهم يمارسونه بحماس شديد. صاغ الحكّام في كلّ الأعراق قوانين تخوّلهم الحصانة، أما أفراد الشعب الذين يخرقون تلك القوانين، فسيتعرّضون للتعذيب، أو القتل، أو بتر أيديهم أو أطرافهم، أو الإخصاء، لأنّ العديد من الحكّام سنّوا أيضاً قوانين تنصّ على إخصاء الذكر الزاني، وبالتالي قضوا قضاء مبرماً على تنافس الخصوم معهم جنسيّاً. تلك الأساليب سهّلت الحصول على الإناث، إذ تراوح حجم الحريم في دراسة بتزيغ ما بين امرأتين، إلى آلاف النساء.

عند الإنكا في البيرو قديماً، تحوّل الترافق التامّ تقريباً ما بين المرتبة والامتيازات الجنسيّة، إلى قانون. فيما يلي اقتباس بتزيغ، عن بوما دي آيالا[1]:

يحصل الكاسيك casique أي الزعماء الأساسيّون على خمسين امرأة، «نظراً لخدماتهم، وإسهامهم بزيادة عدد سكّان المملكة»، الهونو كوراكا Huno curaca (قادة الدويلات التابعة) يحصلون على ثلاثين امرأة، غوامانين آبو guamanin apo (زعماء المقاطعات التي تضمّ مئة ألف نسمة) يحصلون

1- Felipe Guaman Poma de Ayala (1535-1616) نبيل من نبلاء الكيتشوا في البيرو، اشتهر بتوثيقه وفضحه للمعاملة السيئة، التي تعرّض لها السكّان الأصليّون في جبال الأنديز، على يد المستعمرين الإسبان. المترجمة

على عشرين امرأة، وارانغا كوراكا waranga curaca (زعماء يقودون ألف شخص) يحصلون على خمس عشرة امرأة، بيسكاشوانغا كاماتشيكوك piscachuanga camachicoc (زعماء يقودون عشرة أشخاص) يحصلون على خمس نساء، بيتشيكاماتشيكاك pichicamachicac (يقودون خمسة أشخاص) يحصلون على ثلاث نساء، بينما يأخذ الهنديّ الفقير ما تبقّى.

سجلّات إحصاء السكّان عند شعب آزاندي في السودان، تشير إلى أنّه من بين كلّ مئة رجل، يوجد 26 عازباً، 47 رجلاً لديه زوجة واحدة، 18 رجلاً لديهم زوجتان، 9 رجال لديهم أكثر من زوجتين، فالحصول على الزوجات في مجتمعهم، هو امتياز يتعلّق بمرتبة الذكر. بالمثل، قد يتراوح عدد زوجات زعماء زاندي (وهي قبيلة مختلفة عن أزاندي) ما بين ثلاثين إلى مئة امرأة، أمّا ملوكهم فقد يمتلكون أكثر من خمسمئة زوجة.

في مملكة داهومي (تقع ضمن جمهوريّة بنين الحاليّة، في غرب إفريقيا)، يمتلك الملك زوجات وخليلات كثيرات، قد يصل عددهنّ إلى بضعة آلاف. هناك، نلمس الخضوع الجنسيّ بأقصى أشكاله: إن أرادت إحدى الخليلات أن تزور القرية، سيسبقها خادم يرنّ جرساً معلناً عن قدومها، ويتوجّب على القرويّين جميعهم إشاحة رؤوسهم بعيداً، وأن يقف الرجال بعيداً. عندما يرنّ الجرس، يسارع الناس إلى أخذ وضعيّة الخضوع خوفاً من العواقب، لأنّ زعماء داهومي يعاقبون التجاوزات التي يرتكبها الذكور الشبقون الأدنى مرتبة، بقطع رؤوسهم، أو صلبهم على الأعمدة، أو بقتلهم وتعليقهم رأساً على عقب، إلى أن تتحلّل جثثهم بالقرب من ساحة السوق، في إشارة تحذيريّة جليّة لكلّ من تسوّل له نفسه بارتكاب الزنا.

إضافة إلى ما سبق، وجدت بتزيغ أنّ السلطة ليست مؤشّراً على عدد الزوجات فحسب، وإنّما على عدد العذراوات أيضاً. طيلة التاريخ، لطالما عُدّت العذراوات جوهرةَ التاج التي تزيّن حريم الرجال الأقوياء، فالإنكا مثلاً، لم يسمحوا إلّا للعذراوات بالانضمام إلى الحريم الملكيّ. كما ناقشنا سابقاً، الاستراتيجيّات التطوّريّة التي يتبعها الرجال، تؤثر على القيمة التي

ينسبونها إلى عذريّة الأنثى، لأنّ الزواج بعرائس أو خليلات عذراوات، يضمن لهم عدم تلوّث شريكاتهم بجينات خصومهم. بعبارة أخرى، في عالم يكون للسلطة فيه تداعيات على صعيد التطوّر، يملك أصحاب المراتب العليا امتياز التحكّم بالقرينات العذراوات.

لقد تحوّل الحريم إلى سجن حصين، حرصاً على ضمان الإخلاص الزوجيّ. مهما كانت أجواؤه الداخليّة هادئة وشبقة، لكنّه أشبه دائماً بقلعة مسوّرة بعيدة عن العيون، تُشاد في مركز القصر، ويحرسه ذكور (غالباً من الخصيان) مدجّجون بالسلاح، يتحكّمون بصرامة بحركة الدخول إليه والخروج منه، ومن الصعب علينا أن نتخيّل وسيلة مباشرة أكثر من الحريم، للتحكّم بالموارد الجنسيّة الأنثويّة. ملوك غاندا (في أوغندا الحاليّة)، اعتادوا على تحصين حريمهم بجدران عالية من القصب يحرسها خدم مخلصون، «يخاطرون بحياتهم إن سمحوا لأحد بالدخول، أو ببتر أحد أعضائهم على الأقلّ، إن عفا عنهم الملك» كما اقتبست بتزيغ عن المبشّر الإنجيليّ والإثنوغرافيّ جون روسكو. لا يسعني إلّا أن أتساءل، كم مرّة استهدف البترُ أعضاءَهم التناسليّة؟!

الآلهة

I- الألوهيّةُ الشبقة

كان الآلهة الذكور الإغريق، شرهين للجنس. سائراً على خطى الرئيسيّات، استولى زيوس -أقوى آلهة الإغريق- على السلطة بعد أن أطاح بذكر مهيمن آخر، هو كرونوس والده، وبذلك ظفر بالسيطرة على منطقة نفوذه (الأوليمب). من هناك، حكم زيوس الأرض والسماء بمزاج عنيف، مستخدماً الصواعق المخيفة كسلاح، لفرض مشيئته على أولئك الأدنى منه مرتبة. كغيره من الذكور المهيمنين، ترافقت سلطته وقوّته بامتيازات جنسيّة، فرغم أنّه كان متزوّجاً من هيرا، لكنّه أنجب العديد من الأبناء والبنات من إلهات أخريات، ومن إناث التيتان. التوأمان المشهوران أرتميس وأبوللو

وُلِدا من علاقته بأنثى التيتان ليتو، لا من هيرا زوجته، كما كان مشهوراً بعلاقاته الجنسيّة مع نساء البشر: لُو، سيميل، كاليستو، ويوروبا التي اختطفها واغتصبها، على سبيل المثال لا الحصر. النقطة الرئيسة هنا هي أنّ زيوس كان زير نساء، تماماً كغيره من الذكور الأقوياء، ولا يجسّد حالة خاصّة، بل بالأحرى نمط متكرّر لسلوك الآلهة الذكور في العديد من الأديان.

يُعدّ كريشنا الإله الأسمى في الديانة الهندوسيّة، وتروي الأسطورة أنّه أغوى في شبابه حشداً من الحلّابات الشابّات للمشاركة في رقصات منتشية في الغابة، فاستجبن له، وجلبن تقديمات من الطعام والمجوهرات والثياب (وأجسادهنّ بلا شكّ). بعد جولة من التمتّع الكاذب، انخرط كريشنا في ماراثون جنسيّ دام ستّة أشهر مع الحلّابات جميعهنّ، اللواتي وقعن ضحايا لتوق شهوانيّ عميق تجاهه، بعد أن جذبتهنّ شهرتُه كمحارب قويّ. من الجدير بالذكر أنّ العديد من مغامراته الجنسيّة تمّت مع المتزوّجات، ممّا يعني أنّ أزواجهنّ الرعاة كانوا ضحيّة الديانة لمصلحته في التنافس التطوّريّ على الجنس، دون أن ننسى أنّ النساء تخلّين طوعاً عن هؤلاء الأزواج الوضيعين من أجله، باعتباره الذكر الأكثر هيمنة الذي سخّر مكره، ومرتبته كإله، لتلك الغاية. في تلك المنافسة، لم يعتمد كريشنا على سحره فقط، بل قام عند الضرورة بذبح الذكور المهيمنين الآخرين، واستولى على زوجاتهم ومناطق نفوذهم، فقد أطاح مثلاً بعمّه الملك كانسا وقتله، وبسط سلطته على رعاياه كي يؤسّس مملكته الخاصّة، من ثمّ تزوّج الأميرة روكميني بعد أن خطفها، وعرقل ترتيبات زواجها من الملك شيشوبالا، وقام لاحقاً بقتله. رحّبت روكميني بحماس بخطّة الزواج الجديد، نظراً لأنّها تعرف مرتبة كريشنا، الذي انطلق بعد ذلك لقتل العفريت ناراكاسورا، واستولى على ستّة عشر ألفاً ومئة عذراء! إنّها جائزة مذهلة، حتّى وفقاً لمعايير الملوك المستبدّين الناجحين. كغيره من الآلهة، شخصيّة كريشنا معقّدة للغاية، فقد يكون رحيماً وطيّباً أحياناً إن أراد ذلك، لكنّ أصوله كذكر من ذكور الرئيسيّات، تجعله عرضة للانخراط في العنف والهيمنة الجنسيّة.

يقدّم العهد القديم عدداً كبيراً من الذكور الباترياركيّين الذين مارسوا تعدّد الزوجات، بمن فيهم إبراهيم، أبيا، أحاب، بلشازر، آشور، ألقانة، جلعاد، هوشع، يهورام، يوآش، يهوياكين، رحبعام، داود، عيسو، هوشع، يعقوب... إلخ. سيطر كثير منهم على النساء، من خلال تحالفهم كذكور مع الربّ: «أَنَا مَسَحْتُكَ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ وَأَنْقَذْتُكَ مِنْ يَدِ شَاوُلَ، وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ سَيِّدِكَ وَنِسَاءَ سَيِّدِكَ فِي حِضْنِكَ، وَأَعْطَيْتُكَ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ وَيَهُوذَا» (سفر صموئيل الثاني 12: 7–8). الملك سليمان يبزّهم جميعهم، وينافس الزعماء المستبدّين في دراسة بتزيغ، فقد امتلك سبعمئة زوجة وثلاثمئة خليلة كما يرد في سفر الملوك الأوّل (11: 1–3). حتّى الإله الإبراهيميّ كان زير نساء، ففي سفر حزقيال يُوصَف يهوه بأنّ لديه زوجتين هما السامرة وأورشليم، أي أنّ مدناً بأكملها يتمّ شخصنتها هنا، وهي نقطة سأتطرّق إليها لاحقاً.

التشابه كبير بين الأديان الهندوسيّة والإغريقيّة والرومانيّة والإبراهيميّة، وهو ليس محض صدفة، وإنّما انعكاس للاحتكاك التاريخيّ ما بين تلك الثقافات، الذي أثبتت الأدلّة أنّه أوسع ممّا كان يُعتقَد سابقاً، وأدّى إلى ارتشاح عقائد دينيّة معيّنة من ثقافة إلى أخرى، على العكس من التقاليد الدينيّة التي تتفرّد بها كلٌّ منها. تستند تلك التقاليد المُتشابهة، إلى سيكولوجيّتنا التطوّريّة المشتركة.

II- الآلهةُ التي تقمع الجنس، والغيرةُ الإلهيّة

تاريخيّاً، سار الدين والقمع الجنسيّ يداً بيد، كما أنّ الإملاءات الدينيّة التي تقمع الجنس، تسلّلت إلى النواظم الأخلاقيّة للحضارات حول الكوكب. كي نفهم منشأ القمع الجنسيّ، لا بدّ لنا من دراسة ما إذا كان ظاهرة من ظواهر الطبيعة، وهل تحفّزه دوافع تطوّريّة قولبتْها الحضاراتُ البشريّة. أنا أجادل هنا أنّ السلوكيّات التي تقمع الجنس، والعقائد والإيديولوجيّات التي تمثّلها، متجذّرة في هندستنا العقليّة المصمّمة للإبحار في العالم الاجتماعيّ، الذي عاش فيه أسلافنا من الرئيسيّات.

بين الرئيسيّات غير البشريّة، يرتبط القمع الجنسيّ عموماً بالمرتبة، ويظهر

عندما يحاول الذكور الأعلى مرتبة، أن يعرقلوا الدوافعَ الجنسيّة لأولئك الأدنى منهم. يوظّف الرجل المهيمن استراتيجيّات مشابهة، كما عندما يسيطر الملوك على الحريم مثلاً، ويحوّلون الرجال الآخرين إلى خصيان. الآلهة الذكور بدورهم ليسوا معصومين عن تلك الرغبات، ولا عن الغيرة التي تبديها الرئيسيّات، فالله الغيور يأمر الرجال والنساء في العديد من النصوص الدينيّة، بأن يتجرّدوا من رغباتهم الجنسيّة بعضهم تجاه بعض، وأن يركّزوا اهتمامهم عليه عوضاً عن ذلك، وهو ما يحدث خلال رمضان والصوم الكبير عند المسيحيّين، عندما يمتنع ملايين المسلمين والكاثوليكيّين عن ممارسة الجنس، كنوع من التضحية من أجل إلّههم.

عُمْرُ الكائنات الحيّة محدود، لذلك تلعب الغيرة دوراً مهمّاً كحافز للتنافس على الموارد الضروريّة للبقاء، سواء كانت ماء، أو غذاء، أو منطقة نفوذ، أو شركاء جنسيّين. لا بدّ من أن نتوقّف هنا لحظة، كي نتذكّر أنّ الإله الإبراهيميّ وفقاً للنصوص المقدّسة، هو كينونة خالدة أبديّة، لا يلزمه الاعتماد على الموارد الضروريّة بالنسبة لنا كبشر. إن لم يلزمه الطعام، لماذا يقاتل للاستيلاء على منطقة نفوذ، تزوّده بموارد غذائيّة منتظمة؟ إن لم يهدّده الموت، لماذا ينشغل ذلك الانشغال كلّه بالجنسانيّة؟ وأخيراً، بوصفه إلهاً كليّ القدرة، خلقَ الكون بأكمله، والحياةَ على الأرض، وقام بمعجزات يستحيل أن نقوم بها نحن البشر، وذلك فقط من خلال مشيئته... إذن، يجب ألّا يغار الله من أحد، لأنّه لا وجود لبشريّ يرقى إلى مصاف منافسته! مع ذلك، يطالب الإله الإبراهيميّ صراحةً بالحصريّة الجنسيّة: «لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا، وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أَنَا الرَّبَّ إِلهَكَ إِلهٌ غَيُورٌ» (سفر الخروج 20: 4-5).

يطالب الرجال الأقوياء بدورهم بامتيازات حصريّة، تماماً كذكور الرئيسيّات غير البشريّة المهيمنين، وتحظى الحصريّة الجنسيّة باهتمامهم الرئيس. بالمثل، يطالب الله أتباعه بالتحالف الحصريّ معه، وهو مطلب

يُؤطِّر غالباً بتعابير الغيرة الجنسيّة: «فَإِنَّكَ لاَ تَسْجُدُ لإِلهٍ آخَرَ، لأَنَّ الرَّبَّ اسْمُهُ غَيُورٌ. إِلهٌ غَيُورٌ هُوَ. اِحْتَرِزْ مِنْ أَنْ تَقْطَعَ عَهْدًا مَعَ سُكَّانِ الأَرْضِ، فَيَزْنُونَ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ وَيَذْبَحُونَ لآلِهَتِهِمْ، فَتُدْعَى وَتَأْكُلُ مِنْ ذَبِيحَتِهِمْ، وَتَأْخُذُ مِنْ بَنَاتِهِمْ لِبَنِيكَ، فَتَزْنِي بَنَاتُهُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِنَّ، وَيَجْعَلْنَ بَنِيكَ يَزْنُونَ وَرَاءَ آلِهَتِهِنَّ» (سفر الخروج 34: 14-16).

يطرح العديد من المفكّرين الدينيّين فكرة أنّ عبادة الأصنام -أي عبادة رموز الآلهة الأخرى- هي فعل يوازي الزنا، بينما يجادل آخرون أنّ الزنا الروحيّ، أي عبادة كائنات أو أشياء أو مخلوقات أخرى غير الله (الزوج، الزوجة، المال، الأديان الأخرى... إلخ)، يماثل خيانة الله جنسياً. الاقتباس التالي من الكتاب المقدّس، يتعامل مع الجانب الجنسيّ للالتزام تجاه الله: «ولكنّ الجسد ليس للزنا بل للربّ، والربّ للجسد» (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 6: 13).

III- العذراء والملك

الإله الإبراهيميّ كغيره من الذكور المهيمنين، يفضّل العذراوات. إله المسيحيّة أقام علاقة جنسيّة مع مريم الناصريّة، أي أنّه أخذ زوجة رجل غيره، تماماً كما فعل زيوس وكريشنا وسلسلة طويلة لا نهائيّة من الذكور المهيمنين. كزيوس في فتوحاته الجنسيّة، لم يسأل ذلك الإله الإبراهيميّ مريمَ إنْ كانت موافقة على تلك العلاقة أم لا، بل قام ببساطة بأخذ ما يريد... وبالطبع، كانت مريم عذراء. يفضّل البشر العذراواتِ كما أوردتُ سابقاً، لأنّ العذريّة تقلّل خطر الأبوّة غير المؤكّدة، لكنّ الله كليّ القدرة وعليم بكلّ شيء، ألا ينبغي إذن أن يعرف ما إذا كان الطفل ابنه، أم لا؟! وكإله أبديّ، لماذا يحتاج إلى التكاثر جنسياً، كي يضمن استمراريّته إلى الأجيال القادمة؟ لا ينبغي أن يخشى الله الدياثة، ولا أن يفضّل العذراوات، ما لم يكن مرسوماً على هيئة ذكر بشريّ. أغرب ما في المسألة هو بقاء مريم عذراء، حتّى بعد أن أنجب الله منها ابنه. ذلك الطفل نما حرفيّاً بالمعنى الجسديّ داخل رحم مريم، ووُلِدَ منها بالطريقة ذاتها التي يُولَد بها أطفال البشر جميعهم، كما

يتّفق معظم المسيحيّين على أنّ كلّ خطوة من خطوات تلك العمليّة، تمّت وفقاً للقواعد البيولوجيّة للتكاثر عند الإنسان، ما عدا الجنس! إذ تمّ تجاوز المرحلة الجنسيّة بطريقة ما أو بأخرى، أو حذفها، أو تحويرها. من المثير للاهتمام أنّ اقتراح العكس يولّد ردَّ فعلٍ عاطفياً هائلاً، واتّهامات بالتجديف، وشعوراً بالقرف والاستياء والغضب. بما يخصّ مريم، ردّ الفعل هذا له علاقة بالقيمة التطوّريّة التي تُعزى إلى عفّة النساء والتي ناقشناها للتوّ، كما تظهر ردود الأفعال تلك في الخلفيّة البيوريتانيّة للمسيحيّة المعاصرة (خاصّة في أمريكا)، التي تسعى صراحة إلى إنكار جنسانيّة الله.

ألغت طائفة المورمون فكرةَ ممارسة الجنس بين مريم والربّ نهائياً، واختارت تفسيراً حرفياً أكثر. يشرح كتاب المورمون[2] بوضوح القيمةَ التي ينسبها الله للعذريّة ونفوره من نقيضها، أي الاستقلاليّة الجنسيّة: «لأنّني أنا الربّ إلهك أسعد بعفّة النساء، والعاهرات هنّ رجس أمامي، هكذا قال الربّ إله الجنود» (كتاب المورمون، يعقوب 2: 28).

هناك أمثلة أخرى لا حصر لها عن تقديس العذريّة، «تكريس العذراوات» مثلاً هو طقس ثابت في الكنيسة الكاثوليكيّة، يهدف إلى تكريس المرأة لحياة العذريّة المطلقة في خدمة الربّ، أي إخضاعُ جنسانيّة الأنثى إلى ذكر مهيمن. فيما يلي مقطع من قوانين الكنيسة، بما يخصّ تلك النقطة: «على غرار هذه الأشكال من الحياة المكرّسة، نجد نظام العذارى، اللواتي التزمن بالخطّة المقدّسة لاتّباع المسيح عن كثب، مُكرَّساتٍ للربّ من قبل أسقف الأبرشيّة وفقاً للطقس الليتورجيّ المُعتَمَد، مخطوبات بشكل صوفيّ للمسيح ابن الله، ومُكرَّسات لخدمة الكنيسة» (قانون 604).

إذن هناك عذارى يتمّ تزويجهنّ إلى المسيح على غرار الملوك، لكن

2- Book of Mormon هو نصّ مقدّس تتبعه «كنيسة يسوع المسيح لقدّيسي الأيّام الأخيرة»، يحتوي كتابات يعتقد المورمونيّون أنّها تعود لأنبياء قدامى، عاشوا في القارّة الأمريكيّة ما بين 2200 قبل الميلاد وحتّى 421 ميلاديّ. نُشِر هذا الكتاب للمرّة الأولى عام 1830، على يد جوزيف سميث مؤسّس الحركة. المترجمة

هل كان المسيح إلهاً - ملكاً على غرار البشر؟ يشير المؤمنون إلى المسيح بـ «ملك الملوك» و«ملك العالَم»، وعلى خطى ملوك البشر، يطالبُ مسيحُ الكتابِ المقدّس بالعذراوات، على الأقلّ في رسالة القدّيس بولس إلى أهل كورنثوس: «لأنّي خطبتكم لرجل واحد، لأقدّم عذراء عفيفة للمسيح» (كورنثوس الثانية، 11: 2). من المستحيل أن نعرف رأي يسوع التاريخيّ بتلك المسألة، إذ لم يُنقَل عنه سوى القليل جدّاً أثناء حياته، وما تورده الأناجيل كُتِبَ على مدار قرونٍ عديدة، تغيّر خلالها المشهد السياسيّ كثيراً، ممّا يلغي أيّ احتمال للدقّة التاريخيّة. بغض النظر عن ذلك، تتكرّر الإشارات إلى العذريّة والطهارة والعفّة والامتناع عن ممارسة الجنس، وربّما تشير إلى احتياجنا لمسيح الأسطورة، أكثر من مسيح التاريخ.

يحذو القرآن حذو الكتاب المقدّس بالتشديد على قيمة العذريّة، كما أنّه يورد إشارة فريدة من نوعها في هذا الصدد عن إله الإسلام، الذي يعد عباده المخلصين بالعذراوات في الجنّة. وَصَفَ المسيحيّون بدورهم العذارى في الفراديس، لكن في سياق يختلف اختلافاً جذريّاً، فعوضاً عن الاحتفاظ بالعذارى من أجل عِباد الله، عِبادُ الله أنفسهم يُحفَظون كـ «عذارى» من أجله، وها هو القدّيس متّى يصف كيف يستقبل المسيح أتباعه من الجنسين، وكأنّهم عرائس عذراوات: «حِينَئِذٍ يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ عَشْرَ عَذَارَى، أَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَخَرَجْنَ لِلِقَاءِ الْعَرِيسِ» (إنجيل متّى 25: 1)، ثمّ يتابع قائلاً إنّ خمساً منهنّ لسن مستعدّات للمسيح، ولذلك لن يدخلن ملكوته، موجّهاً في هذا المقطع إنذاراً للمتقاعسات عن الخضوع الفوريّ كـ «عذراوات» ليسوع المسيح: «وَفِيمَا هُنَّ ذَاهِبَاتٌ لِيَبْتَعْنَ جَاءَ الْعَرِيسُ، وَالْمُسْتَعِدَّاتُ دَخَلْنَ مَعَهُ إِلَى الْعُرْسِ، وَأُغْلِقَ الْبَابُ. أَخِيرًا جَاءَتْ بَقِيَّةُ الْعَذَارَى أَيْضًا قَائِلاَتٍ: يَا سَيِّدُ، يَا سَيِّدُ، افْتَحْ لَنَا! فَأَجَابَ وَقَالَ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُنَّ: إِنِّي مَا أَعْرِفُكُنَّ» (إنجيل متّى 25: 10-12).

تشبيه المسيح بالعريس وأتباعه بالعروس، هو فكرة شائعة في المسيحيّة، تُعرَف بلقب ملائم: «عروس المسيح». العرائس المسيحيّات، سواء تزوّجن

المسيح أم الرجال العاديّين، يخضعن غالباً إلى المتطلّبات الشوفينيّة للرجال المهيمنين، فالقدّيس بطرس مثلاً، ينبّهنا إلى رغبة الله بأن ترتدي النساء زيّ العذراوات: «ولاَ تَكُنْ زِينَتُكُنَّ الزِّينَةَ الْخَارِجِيَّةَ، مِنْ ضَفْرِ الشَّعْرِ وَالتَّحَلِّي بِالذَّهَبِ وَلِبْسِ الثِّيَابِ» (رسالة بطرس الرسول الأولى 3: 3)، بينما لا يخضع مظهر الرجال إلى الضوابط ذاتها. العذريّة، العفّة، الطهارة... إلخ، هي صفات يقدّرها الرجال أكثر من النساء، واللباس هو وسيلة لإبلاغ العالَم الخارجيّ إمّا عن الإخلاص الجنسيّ، أو على العكس، عن استعداد الشخص لإقامة علاقة جنسيّة.

يتشاطر الآلهة الذكور في أديان العالم اهتماماً بالجنس، كما يسعون إلى العلاقات الجنسيّة، ويحصلون عليها باتّباع أسلوب الذكر المهيمن النمطيّ ذاته، ويفضّلون العذارى على نحو خاصّ، أي الإناث اللواتي لا يحملن جينات الخصوم الذكور. هذا التشديد على العذريّة يمتدّ أبعد من الأديان الإبراهيميّة، وهو ما يتوافق مع توقّعاتنا، لأنّ الاهتمام بتأكيد الأبوّة ينشأ من سيكولوجيّتنا التطوّريّة المشتركة كجنس بشريّ. في حضارة الإنكا القديمة على سبيل المثال، عاشت طبقات من الشابّات العذارى مخصّصات حصراً لإله الشمس، الذي يرغب -كملوك الإنكا بالضبط- بنساء شابّات لا يحملن ذريّة ذكر آخر. شاركته أديان الهند تلك الرغبة، كريشنا وُلِد كالمسيح من ديفاكي العذراء، التي تمّ اختيارها بسبب طهارتها كي تصبح أمّ الإله، ممّا يعني أنّ أباه ڤشنو يقدّر العذريّة بدوره.

IV- العفّة الجنسيّة، والخضوع

كما رأينا في دراستنا عن الآيب والقرود والرجال، ينشغل الذكور المهيمنون غالباً، باعتراض الطموحات الجنسيّة لأولئك الأدنى منهم مرتبة، وهو سلوك يعود عليهم بالمنافع على صعيد التكاثر. بدوره، يقوم الله بترسيخ الكوابح الجنسيّة عند أتباعه، رغم عدم وجود منافسين حقيقيّين له من أيّ نوع أياً كان. هذا الأمر شائع في العديد من الأديان، إذ يتوجّب غالباً على رجل الدين أن يبقى بتولاً، أو على الأقلّ، أن يكون لديه زوجات أقلّ من بقيّة

الرجال في مجتمعه، باستثناء تلك الحالات التي يُدغِم فيها الرجالُ الحدودَ بينهم وبين إلههم المهيمن، كما هو الحال عند طائفة المورمون، التي يملك رجال الدين الأعلى مرتبة فيها، عدداً أكبر من الزوجات والأطفال.

يتلقّى الكهنة الكاثوليكيّون بدورهم نذور العفّة، كي يقتربوا من يسوع ومن الربّ وفقاً لوجهة نظر الكنيسة (كما هو الحال مع نذور الراهبات)، أي أنّهم من حيث المبدأ، رجال يقسمون على الحفاظ على بتوليّتهم، كي يخدموا غايات ذكر أقوى منهم، عوضاً عن أن يتنافسوا معه: «ينبغي على رجال الدين، أن يحافظوا على عفّة تامّة دائمة من أجل مملكة السماوات، وبالتالي أن يلتزموا بالعزوبيّة، وهي هديّة خاصّة من الربّ، يمكن من خلالها للقساوسة المقدّسين أن يتمسّكوا أكثر بالمسيح بقلب غير مقسّم، وأن يكرّسوا أنفسهم بحريّة أكبر لخدمة الربّ والبشريّة» (القانون الكنسي 277).

موقف الكنيسة من البتوليّة صريح للغاية، فقد عُقِدَ مجمع ترنت، الذي يُعَدّ من أهمّ المجامع الكنسيّة المسكونيّة الكاثوليكيّة، عدّة مرّات ما بين 1545-1563م، بغية إقرار القانون الكنسيّ، وتحديد الهرطقات الخارجة عنه. أحد أهدافه كان حرمانَ، ولعنَ، القساوسةِ والراهباتِ ممّن يخالفون تعاليمه: «كلّ من يفضّل الزواجَ على حياة العذريّة والبتوليّة، ولا يؤمن أنّ البقاء بحالة العذريّة أو العزوبيّة أفضلُ، وأكثر مدعاة للسعادة من الزواج، فهو ملعون» (القانون الكنسي 10).

عند الرئيسيّات غير البشريّة، لا يقمع الذكر ألفا كلّ العلاقات الجنسيّة، بل فقط تلك التي تتمّ مع خصومه، أي أنّه يتحوّل تلقائيّاً إلى الخيار الجنسيّ الوحيد المتاح أمام الإناث، وفي تشابه واضح، يهب رجال الدين جنسانيّتهم إلى الله، متّبعين إرث الرئيسيّات الراسخ المتمثّل بالخضوع الجنسيّ. يعتبر اللّاهوتيّون «نشيد الأنشاد» في العهد القديم، تمثيلاً رمزيّاً لعلاقة الربّ مع مملكة إسرائيل، أو لعلاقة المسيحيّين بالربّ أو بيسوع، كما توصَف الروح في المسيحيّة بأنّها مؤنّثة، بالتالي يمكن للرجل وللمرأة أن يصبحا «عروس المسيح»، وأن يخضعا له جنسيّاً. نشيد الأنشاد طويل، ويسرد تفاصيل

فاحشة: «يُقَبِّلْنِي بِقُبْلاَتِ فَمِهِ، لأَنَّ حُبَّكَ أَطْيَبُ مِنَ الْخَمْرِ» (سفر نشيد الأنشاد 1: 2)، «لرائحة دهانك الطيّبة. اسمك دهن مهراق، لذلك أحبّتك العذارى» (سفر نشيد الأنشاد 1: 3)، «أنا نائمة وقلبي مستيقظ. صوتُ حبيبي قارعاً: افتحي لي يا أختي، يا حبيبتي، يا حمامتي، يا كاملتي! لأنّ رأسي امتلأ من الطّل، وقُصصي من ندى الليل» (سفر نشيد الأنشاد 5: 2)، «حبيبي مدّ يده من الكوّة، فأنّتْ عليه أحشائي» (سفر نشيد الأنشاد 5: 4) «قمتُ لأفتح لحبيبي ويداي تقطران مرّاً، وأصابعي مرٌّ قاطر على مقبض القفل» (سفر نشيد الأنشاد 5: 5).

بين الرئيسيّات غير البشريّة، غالباً ما يؤدّي الذكور الخاضعون استعراضات جنسيّة تتوجّه إلى الذكر ألفا، وعند البشر أيضاً سنجد رجالاً يظهرون خضوعهم الجنسيّ لله. إن كان هذا الخضوع رمزيّاً كما يجادل المفكّرون الدينيّون، فهو إذن بالتعريف «امتطاء زائف» -كما رأينا عند الرئيسيّات الأخرى- يهدف إلى إظهار الخضوع.

من أساليب إظهار الخضوع الأخرى، الابتعادُ عن إناث الذكر ألفا، وهو سلوك واضح عند أنواع الرئيسيّات المختلفة، يتبع قاعدة نمطيّة: قاوِم رغباتكَ الجنسيّة، تجنبْ غضب الذكر ألفا. حاولْ أن تمارس الجنس مع إناثه، وستستنزل غضبه عليك! في سفر الرؤيا، يمطر الله الأرضَ بغضبه وانتقامه المرعب العنيف. أوّلاً، يأخذ الفاكهة كلّها، ويعصرها في معصرة نبيذ عملاقة، ثمّ يحوّل العصير إلى دم يُغْرِقُ به الأرض والمدن، فيعلو كالطوفان وصولاً «إلى سروج الخيول». بعد ذلك، يرسل الله أوبئة تعصف بالبشر كلّهم، وتسبّب لهم دمامل متقيّحة تغطّي أجسادهم. أخيراً، يقتل كلّ مخلوقات البحر بأن يحوّل ماءه إلى دم، كما يحوّل الأنهار إلى دم أيضاً، ويجعل الشمس تكوي الناس جميعهم حتّى الموت. رغم تعدّدِ صنوف العذاب، لم يُظهِر الناس خضوعهم لله كما ينبغي، أي أنّهم «لم يتوبوا ويقدّسوا مجده»، لذلك حوّل الله العالَم إلى ظلام دامس، وملأه بالألم لدرجة أنّ «البشر عضّوا ألسنتهم من شدّته»، لكنّهم لم يتوبوا عن أفعالهم،

فعاقبهم عقوبة أشدّ، وقام بتجفيف نهر الفرات، من ثمّ أرسل كوارث طبيعيّة مهولة -عواصف البَرَد، صواعق، زلازل... إلخ- هدمت المدن والجزر والجبال.

لماذا طبّق الله ذلك العقاب المرعب؟ على غرار ذكور الرئيسيّات المهيمنة، كان السبب هو أنثى! كلّ ذلك العنف المروّع، هو مجرّد عقوبة لامرأة منحت جنسانيّتها لذكرٍ خصم، فمدينة بابل القديمة تُعدّ زوجة من زوجات الله، وعندما زَنَتْ مع ذكر خصم (هو الوحش)، لم يعاقبها الله وحدها فحسب، بل عاقب أيضاً كلّ من تجرّأ على الانضمام إلى خصمه: «ثُمَّ تَبِعَهُ مَلاَكٌ آخَرُ قَائِلًا: سَقَطَتْ! سَقَطَتْ بَابِلُ الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ، لأَنَّهَا سَقَتْ جَمِيعَ الأُمَمِ مِنْ خَمْرِ غَضَبِ زِنَاهَا! ثُمَّ تَبِعَهُمَا مَلاَكٌ ثَالِثٌ قَائِلًا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَسْجُدُ لِلْوَحْشِ وَلِصُورَتِهِ، وَيَقْبَلُ سِمَتَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ أَوْ عَلَى يَدِهِ، فَهُوَ أَيْضًا سَيَشْرَبُ مِنْ خَمْرِ غَضَبِ اللهِ، الْمَصْبُوبِ صِرْفًا فِي كَأْسِ غَضَبِهِ، وَيُعَذَّبُ بِنَارٍ وَكِبْرِيتٍ أَمَامَ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ وَأَمَامَ الْخَرُوفِ. وَيَصْعَدُ دُخَانُ عَذَابِهِمْ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ. وَلاَ تَكُونُ رَاحَةٌ نَهَارًا وَلَيْلًا لِلَّذِينَ يَسْجُدُونَ لِلْوَحْشِ وَلِصُورَتِهِ وَلِكُلِّ مَنْ يَقْبَلُ سِمَةَ اسْمِهِ.. هُنَا صَبْرُ الْقِدِّيسِينَ. هُنَا الَّذِينَ يَحْفَظُونَ وَصَايَا اللهِ وَإِيمَانَ يَسُوعَ» (سفر رؤيا يوحنّا اللّاهوتيّ 14: 8-12). من ثمّ، يتابع سفر الرؤيا شرح الطبيعة الجنسيّة لتلك الرعونة: «ثُمَّ جَاءَ وَاحِدٌ مِنَ السَّبْعَةِ الْمَلاَئِكَةِ الَّذِينَ مَعَهُمُ السَّبْعَةُ الْجَامَاتُ وَتَكَلَّمَ مَعِي قَائِلًا لِي: هَلُمَّ فَأُرِيَكَ دَيْنُونَةَ الزَّانِيَةِ الْعَظِيمَةِ الْجَالِسَةِ عَلَى الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ، الَّتِي زَنَى مَعَهَا مُلُوكُ الأَرْضِ، وَسَكِرَ سُكَّانُ الأَرْضِ مِنْ خَمْرِ زِنَاهَا. فَمَضَى بِي بِالرُّوحِ إِلَى بَرِّيَّةٍ، فَرَأَيْتُ امْرَأَةً جَالِسَةً عَلَى وَحْشٍ قِرْمِزِيٍّ مَمْلُوءٍ أَسْمَاءَ تَجْدِيفٍ، لَهُ سَبْعَةُ رُؤُوسٍ وَعَشَرَةُ قُرُونٍ. وَالْمَرْأَةُ كَانَتْ مُتَسَرْبِلَةً بِأُرْجُوانٍ وَقِرْمِزٍ، وَمُتَحَلِّيَةً بِذَهَبٍ وَحِجَارَةٍ كَرِيمَةٍ وَلُؤْلُؤٍ، وَمَعَهَا كَأْسٌ مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِهَا مَمْلُوَّةٌ رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتِ زِنَاهَا» (سفر رؤيا يوحنّا اللّاهوتيّ 17: 1-4).

يدهشنا أنّ الله يقرّر وسط كلّ ذلك الدمار والفوضى، أن يعفو عن حياة مئة وأربعة وأربعين ألف رجل، بسبب حُسن سلوكهم. بما أنّ التقاليد

المسيحيّة تركّز على النواحي الأخلاقيّة، ستتوقّع أنّ الله كافأ خصالاً كالاجتهاد، أو مساعدة من هم أقلّ حظّاً، أو تعليم السلوك الاجتماعيّ للأطفال، أو برّ الوالدين والعائلة... لكنّ أيّاً من هذا كلّه لم يعادل أهمّيّة نبذ النزوات الجنسيّة، والابتعاد عن بابل امرأةِ الربّ الذي عفا عن حياة مئة وأربعة وأربعين ألف رجل، بسبب حفاظهم على بتوليّتهم: «هؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ لَمْ يَتَنَجَّسُوا مَعَ النِّسَاءِ لأَنَّهُمْ أَطْهَارٌ. هؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ يَتْبَعُونَ الْخَرُوفَ حَيْثُمَا ذَهَبَ. هؤُلاَءِ اشْتُرُوا مِنْ بَيْنِ النَّاسِ بَاكُورَةً للهِ وَلِلْخَرُوفِ» (سفر رؤيا يوحنّا اللّاهوتيّ 14: 4). هذا المجاز، يقدّم لنا مثالاً عن الكيفيّة التي يقرّر الذكر ألفا من خلالها، من يحقّ له أن يتزاوج ضمن الجماعة، ومن لا يحقّ له ذلك، لأنّ مجتمعاً يتزاوج فيه الأتباع بحريّة كما يشاؤون، هو مجتمع يتحدّى قواعد التراتبيّة الهرميّة.

ختاماً، الطريقة المثلى للخضوع إلى امتيازات الله الجنسيّة، هي ذاتها التي يتمّ فيها الخضوع للملوك المستبدّين، أي بالخصاء، سواء كان فعليّاً أم مجازيّاً، كما يقول القدّيس متّى: «لأَنَّهُ يُوجَدُ خِصْيَانٌ وُلِدُوا هكَذَا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَاهُمُ النَّاسُ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ» (إنجيل متّى 19: 12).

يجادل المفكّرون الدينيّون أيضاً أنّ الخصاء كما يُوصَف هنا، هو كناية عن العزوبيّة أو الولاء الروحيّ. بأيّ حال، ممارسة الإخصاء شائعة جدّاً بين الرجال المستبدّين، وبين الآيب على حدّ سواء، لذلك سأترك كلمات القدّيس متّى تقرّر!

النساء

I- ماذا تريد النساء من رجالهنّ، ومن آلهتهنّ؟

تنجذب النساء إلى الآلهة الذكور الأقوياء، وإلى الرجال الأقوياء على حدّ سواء، وهو ما لخّصه هنري كسنجر بعبارته الشهيرة: «السُلطة هي المنشّط

الجنسيّ الأقوى»، كما أنّ أبحاثاً عديدة موسّعة دعمت تلك الفرضيّة، ففي دراسة شملت خمسة آلاف طالب وطالبة من طلّاب الجامعات الأمريكيّة، وجد الباحثون أنّ المرأة عند انتقاء شريكها، تعزو أهميّة أكبر ممّا يفعل الرجل، إلى كلٍّ من «المكانة، البرستيج، المرتبة، الوظيفة، السُلطة، السمعة، والموقع الاجتماعيّ».

في يومنا هذا، يرتبط مفهوم السُلطة بالبرستيج أكثر من الهيمنة، لكنّ انجذاب النساء إلى الرجال الضخام (كما مرّ معنا في الفصل الثاني)، يكشف عن أنّ «جمجمة الإنسان الحديث تُؤوي عقلاً من العصر الحجريّ». نتائج الدراسات التي تناولت هذه النقطة واضحةٌ، فخلال الطور الخصب من الدورة الشهريّة، تميل المرأة إلى تفضيل الرجل الطويل، والصفاتِ الجسديّة الرجوليّة، وملامحِ الوجه الذكوريّة القويّة، والرجالِ الذين يُظهِرون سلوكيّات تنافسيّة (كإذلال الخصوم). فضلاً عن ذلك، تبدو روائح الرجال ذوي المرتبة العليا على مقياس الهيمنة الاجتماعيّة، أكثر رجوليّة وإثارة بالنسبة إلى المرأة أثناء طور الخصوبة. إحدى الدراسات وجدت أنّ النساء اللواتي يمارسن علاقة جنسيّة، مع رجال مهيمنين من ذوي ملامح الوجه الذكوريّة البارزة («مثنويّة الشكل الجنسيّة[3]» بالنسبة للوجه) يصلن إلى النشوة أسرع، ولعدّة مرّات خلال العلاقة، كما أنّ هذا النمط من النشوة الجنسيّة عند المرأة، يترافق باحتفاظها بالنطاف داخل جسمها بمعدّلات أعلى. عند البشر، «مثنويّة الشكل الجنسيّة» sexual dimorphism، أي الاختلافات الشكليّة الجنسيّة بين الرجال والنساء، ليست بارزة، على عكس الأجناس الأخرى التي تمتاز بتعدّد الشركاء الجنسيّين، لكنّ الرجال عموماً أطولُ وأقوى، وهو ما يعجب النساء.

بالإضافة إلى ذلك، يستثمر الرجال مواردهم الماديّة في شريكاتهم

3- أي اختلاف المظهر بين ذكور وإناث الجنس الواحد، كاختلاف الحجم، أو اللون، أو الشكل، أو البنية... إلخ، تتفاوت درجته وطبيعته من جنس لآخر، وينتج عن الاختلاف في وراثة الأنماط الجينيّة الجنسيّة. المترجمة

وأطفالهم، ولن نتعجّب من أنّ ميل النساء للانجذاب إلى ثروة الرجل الماديّة، هو ظاهرة ثابتة في مختلف الثقافات. في إحدى الدراسات، قام الباحثون بالتقاط صور فوتوغرافيّة لمجموعة من الرجال بثياب مختلفة، توحي بتفاوت مراتبهم اقتصادياً واجتماعياً: إمّا زيّ عامل في مطاعم برغر كنغ، أو زيّ مؤلّف من قميص أبيض وربطة عنق فاخرة وساعة رولكس. عندما عُرِضَت الصور على النساء، رفضت معظمهنّ مواعدة الرجال، الذين يلبسون ما يوحي بتدنّي مرتبتهم اجتماعياً واقتصادياً، ورفضن إقامة علاقة جنسيّة معهم أو الزواج بهم، لكنّهن أكّدن بالمقابل على أنهن مستعدّات للتفكير بالاحتمالات الثلاثة للعلاقة، مع من يرتدون زيّاً يوحي بمكانة اجتماعيّة أعلى.

بأيّ حال، النجاح في سباق التنافس اللّانهائيّ على الموارد في الطبيعة، يقدّم منافع للإناث بقدر استعداد الذكر لمشاركتها في تلك الموارد، كما وجد الباحثون أنّ جاذبيّة الرجل عموماً، تعتمد في نهاية المطاف على مزيج من الهيمنة والإيثار، ممّا يقترح أنّ المرأة تقدّر الرجلَ المهيمن الذي يقاسمها موارده.

تمتدّ أنماط الانجذاب السابقة، إلى الآلهة الذكور. في ميثولوجيا قبائل بلاك فوت Blackfoot الهنديّة مثلاً، «الرعد» هو إله سماويّ قويّ، يقدّم الحماية والموارد (المطر)، كما يخلق عواصف مرعبة، ويقذف الرجال بالصواعق ويسرق نساءهم. وفقاً للفلكلور الشعبيّ، لم تجد إحدى الشابّات من يرضيها بين الرجال الفانين جميعهم، فبحثت عن إله الرعد لأنّها تعرف مدى قوّته وسلطته، وتزوّجته، وأنجبت منه أطفالاً، وبذلك ظفرت هي وذريّتها بمرتبة عليا ضمن مجتمعات هنود بلاك فوت، إذ تلقَّبَ أبناؤها بـ «قصف الرعدِ»، ونُسِبَ الفضل إليها نيابة عن زوجها، بإحضار الغليون المقدَّس[4] إلى القبيلة. «نجم الصباح» هو إله مذكّر آخر، يشغل موقعاً

4- غليون مقدّس وفقاً لكثير من ثقافات السكّان الأصليّين في أمريكا الشماليّة. يتمّ تدخينه خلال الاحتفالات الطقسيّة، ويُعدّ الدخان المتصاعد منه وسيلة للتواصل بين البشر والآلهة. المترجمة

محوريّاً في ميثولوجيا قبائل بلاك فوت. بالمثل، افتُتِنت امرأة أخرى ببريقه، إلى درجة أنّها بحثت عنه وتزوّجته، وأنجبت منه طفلاً.

من منظور المسيحيّين، لا وجود لشخصيّة مذكّرة في الكون أقوى من الربّ. الراهبة الإسبانيّة تيريزا دي آفيلا (1515-1582م)، تقدّم لنا أوضح مثال عن الانجذاب الجنسيّ إلى إله قويّ. فيما يلي مقطعٌ من مذكّراتها:

«يسعد الربّ أحياناً، لأنّني أرى هذه الرؤية التي لا تنتابني إلّا فيما ندر: أرى على يساري ملاكاً متجسّداً بهيئة بشريّة. إنّه ليس طويلاً، بل قصير ووسيم للغاية، ووجهه يشتعل، لذلك أظنّه من الملائكة الناريّة العالية الرتبة. لا بدّ أنّه أحد الشيروبيم، والشيروبيم لا يخبرونني عن أسمائهم. أنا أعي تماماً وجود فروقات عظيمة بينهم وبين غيرهم من الملائكة، وبينهم وبين المخلوقات الأخرى، لكنّ شرح تلك الفروقات يستعصي عليّ. بين يديّ الملاك، أرى رمحاً من الذهب يتّقد اللّهب في نهاية ذروته الحديديّة، يطعن به قلبي عدّة مرّات إلى أن يخترق أحشائي. عندما يسحبه، أشعر بأنّه ينتزع أحشائي معه، ويجعلني الألم أحترق بحبّ عظيم تجاه الربّ. الألم حادّ للغاية، إلى درجة أنّني أتأوّه عدّة مرّات، لكنّ العذوبة التي ترافقه تجعلني أتمنّى ألّا يزول، وألّا تسعد روحي إلّا بالربّ».

من الصعب إنكار أنّ تيريزا، كانت تمرّ بتجربة جنسيّة مع الربّ. بعدها بمئات السنين، روت امرأة أخرى هي القدّيسة تيريز دي ليسيو (الملقّبة بـ «الوردة الصغيرة») تجربة مماثلة: «لا أعرف كيف أشرح ما حصل، وكأنّ يداً غير مرئيّة رمتني إلى النار، وأيُّ نار! وأيُّ حلاوة في الوقت ذاته! كنتُ أحترق بنار الحبّ، وأفكّر: أوه! دقيقة أخرى بعد... كلّا، ثانية واحدة بعد، ولن أقوى على احتمال هذا العذاب، بل سأموت! عندها، فهمتُ ما يقوله القدّيسون عن تلك الحالات التي كثيراً ما يمرّون بها. بالنسبة لي، مررتُ بها مرّة واحدة فقط، للحظة واحدة فقط، ومن ثمّ عدتُ مجدّداً إلى الجفاف المعهود. منذ عمر الرابعة عشرة اختبرتُ آلام الحبّ... أخ كم أحبّ الربّ! لكنّ ذلك لا يُعدّ شيئاً، بالمقارنة مع ما مررتُ به بعد تقديمة الحبّ تلك!».

لعلّ أحد أسباب جاذبيّة الإله الإبراهيميّ، هو قوّته وهيمنته. استعرضنا كيف يقوم الله -كالرجال الأقوياء- بحماية أتباعه من القبائل المعادية ومن الحيوانات البرّيّة، ويقدّم لهم الدعم في المعارك، لكن كي يتمتّع الله بجاذبيّة جنسيّة في عيون النساء، لا بدّ من أنّه قادر على إمدادهنّ بموارد وفيرة، وهو دور تحفل نصوص الديانات الإبراهيميّة بالإشارات إليه:

«فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: هَا أَنَا أُمْطِرُ لَكُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ» (سفر الخروج 16: 4)، «طعامَها أبارك بركة. مساكينها أُشبِعُ خبزاً» (سفر المزامير 132: 15)، «أعطى خائفيه طعاماً، يُذكَر إلى الأبد عهده» (سفر المزامير 111: 5)، «فيملأ إلهي كلّ احتياجاتكم بحسب غناه في المجد في المسيح يسوع» (رسالة بولس الرسول إلى أهل فليبي 4: 19)، «فلا تهتّموا قائلين ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ فإنّ هذه كلّها تطلبها الأمم، لأنّ أباكم السماويّ يعلم أنّكم تحتاجون إلى هذا كلّه» (إنجيل متّى 6: 31–32)، «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ» (سورة النور 38)، «هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» (سورة الملك 15)، «وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ» (سورة الشعراء 79).

بأخذ قوّة الله، واستعداده لتقديم الموارد، معاً بعين الاعتبار، يبدو لنا أنّه شريك مثاليّ للمرأة المبرمجة لتفضيل هاتين الصفتين عند الرجال، ولكنّ استراتيجيّات الهيمنة التي يلجأ إليها الرجل -كغيره من ذكور الرئيسيّات المهيمنين- تفرض ثمناً باهظاً على الأنثى، يتعدّى سيطرَتَه عليها جنسيّاً.

II- الثمن الذي تدفعه النساء والأطفال

يتبادل الذكور والإناث المواردَ (الجنس، تربية الأطفال، الطعام، الحماية)، وهذا التبادل يصبّ في نهاية المطاف لمصلحة تكاثر الطرفين. بأيّ حال، قد ينجم عن سباق التطوّر عدم مساواة جنسيّة على حساب الإناث وذرّيّتهنّ، لأنّ المرأة قد تدفع ثمناً باهظاً، عندما تصبح الاستراتيجيّات التي يتبعها الرجل للنجاح في التطوّر، متطرّفة أو مبالغاً بها، أو عند انعدام

الضوابط التي تكبحها. فيما يلي، سأناقش أمثلة عن إيديولوجيا الأديان التي ناصرت استراتيجيةَ الذكر في التكاثر، ممّا نتج عنه اضطهاد عنيف للمرأة في كلّ العالم.

• **الحجاب**

يعلن إنجيل متّى بصراحة، عن أنّ الربّ يريد من النساء الخضوعَ للرجال، «أَيَّتُهَا النِّسَاءُ، اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا يَلِيقُ فِي الرَّبِّ» (رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي 3: 18)، وعندما كتب القدّيس بولس إلى أهل كورنثوس قائلاً إنّ كنيستهم لا تمارس العبادة الصحيحة، جادل بأنّ المرأة خُلِقَت لخدمة الرجل، والرجل خُلِقَ لخدمة الربّ، وبالتالي على المرأة أن تصلّي للربّ بأسلوب يخدم الرجل، أي بعفّة وخضوع. لذلك، ستُعاقَب المرأةُ إن أخفقت بستر جسدها كما ينبغي أثناء الصلاة: «فَإِنَّ الرَّجُلَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ صُورَةَ اللهِ وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ. لأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ مِنَ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ. وَلأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ» (رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس الأولى 11: 7-9).

فَرْضُ الحجابِ هو ممارسة شائعة في مختلف الأديان، تهدف إلى التقليل من جاذبيّة المرأة الجنسيّة في عيون الخصوم الذكور. الشَعر ذو قيمة خاصّة من منظور الذكر، فالقدّيس بولس مثلاً يوصي بحلاقة شَعر المرأة التي تتجرّأ على الصلاة حاسرة الرأس، كما أنّ الشَعر الطويل تحديداً، يُعَدُّ تاجَ جمال المرأة في معظم الحضارات. قدرة المرأة على إطالة شعرها -والصفات الجماليّة الأنثويّة الأخرى التي تمتلكها- هي مؤشّر تطوّريّ على صحّتها الجسديّة الحسنة، وعلى خصوبتها. بالتالي، في رسائل بولس إلى أهل كورنثوس، يُقَصّ ذلك المؤشّر العالميّ على جمال المرأة قسراً، عقاباً لها على غرورها، كي لا يعاني الرجال الذين يساندهم الربّ جرّاء استعراض الجمال الظاهريّ ذاك، والذي قد يُفسَّر على أنّ صاحبته مستعدّة لإقامة علاقة جنسيّة معهم.

في بعض الطوائف الإسلاميّة، يطبّق الرجال الحجاب بحدّه الأقصى، أي البرقع، وهو رداء يغطّي كلّ إنش من جسد المرأة المسلمة. بذلك، يتمكّنون من التحكّم بالإغواء الجنسيّ بين خصومهم من الذكور، ويتلافون أيّ تهديد لعفّة المرأة قد يلطّخ شرفهم. الإصرار على إخفاء جنسانيّة المرأة قد يبلغ حدّاً مرعباً من التطرّف، في عام 2002 على سبيل المثال، اندلعت النيران في مدرسة للبنات في مدينة مكّة، وعندها قام رجال الشرطة الدينيّة (المعروفة بهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) بمنع رجال الإطفاء من إنقاذ الطالبات المحاصَرات داخل المبنى المشتعل، وشوهِد بعضهم وهم يضربون الفتيات لمنعهنّ من الفرار من ذلك الجحيم، لأنّهن ببساطة لا يلبسن البرقع الأسود التقليديّ الذي يفرضه الدين. ماتت خمس عشرة مراهقة آنذاك، لأنّ الرجال الذين «يحافظون» على الفضيلة منعوهنّ من النجاة بحياتهنّ! لاحقاً في ذلك العام، اندلعت أحداث الشغب في نيجيريا بسبب مسابقة ملكة جمال العالم، التي كانت ستقام في العاصمة أبوجا. منذ البداية، أثارت فكرة نساء يلبسن البيكيني غضبَ المسلمين النيجيريّين (وغَضَبَ اللهِ أيضاً كما زعموا)، والذين يحكمون مجتمعاً تخضع فيه جنسانيّة الأنثى لسلطة الذكور. عندما أعلن أحد مذيعي الأخبار أنّ النبيّ محمّداً سيختار زوجة له من بين المتسابقات، اندلعت مواجهات عنيفة في المنطقة، لاقى خلالها مئتا شخص مصرعهم، فضلاً عن مئات الجرحى، طُعِنَ العديد منهم، أو ضُرِبوا بالهراوات حتّى الموت، أو تمّ إحراقهم أحياء، كما ردّد المتظاهرون شعارات «الله أكبر» و«مسابقة ملكة الجمال خطيئة».

• العنف ضدّ النساء

كأبناء عمومتهم من ذكور الرئيسيّات، يميل الرجال إلى ضرب النساء بدافع من الغيرة الجنسيّة. أظهرت الأبحاث حول العالَم، أنّ الغيرة الجنسيّة هي الدافع الرئيسيّ للعنف ضدّ الشريك، الذي يرتكبه الزوج ضدّ الزوجة في الغالبيّة الساحقة من الحالات، وأنّها السبب الرئيسيّ لقتل الشريك في أرجاء الكوكب، وهي جريمة يرتكبها غالباً الزوج الغيور أيضاً، لا الزوجة.

فضلاً عن ذلك، يميل الرجال المهيمنون إلى استغلال القوانين لمصلحتهم على صعيد التطوّر، نظراً لأنهم من بسنّها عموماً، إذ يشير ديفيد باس إلى أنّ الرجال في مختلف البلدان، بما فيها الولايات المتّحدة الأمريكيّة، يُبرَّؤون عادة من تهمة قتل الزوجة، إن كان السبب هو خيانتها الجنسيّة. في تكساس على سبيل المثال، تُعَدّ تلك الجريمة ردَّ فعل يقوم به «الرجل العاقل»، لذلك سمح له قانون الولاية حتّى عام 1974 بقتل زوجته (أو عشيقها)، إن قبض عليها بالجرم المشهود.

يكشف التصفّح السريع للقوانين الدينيّة، عن قائمة من أفعال العنف التي تستهدف النساء، وهي ليست أفعالاً عشوائيّة، بل تعكس بالأحرى استراتيجيّاتِ التكاثر، التي ورثها كلٌّ من الله والرجل عن الرئيسيّات. تصف جاين غودال ردَّ فعلِ ذكرٍ مهيمن من ذكور الشمبانزي، تجاه عدم إخلاص أنثاه: «عندما يكتشف فيغان ما يحصل، يندفع نحو الثنائيّ، وكثيراً ما يلطم الأنثى عقاباً لها على خيانتها». نلاحظ هنا أنّ فيغان -وهو الذكر ألفا- يتجاوز الذكرَ الآخر الفاسق، ويندفع لضرب الأنثى، في تصرّف يقلّده الكثير من الرجال المذكورين في الكتاب المقدّس.

فيما يلي آية من سفر التثنية تصعق المنطق، وتُبيّن لنا كيف تتحول المنافع التطوّريّة المتطرّفة التي يحظى بها الرجال، إلى قوانين دينيّة: «إِذَا كَانَتْ فَتَاةٌ عَذْرَاءُ مَخْطُوبَةً لِرَجُل، فَوَجَدَهَا رَجُلٌ فِي الْمَدِينَةِ وَاضْطَجَعَ مَعَهَا، فَأَخْرِجُوهُمَا كِلَيْهِمَا إِلَى بَابِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ وَارْجُمُوهُمَا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَا. الْفَتَاةُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهَا لَمْ تَصْرُخْ فِي الْمَدِينَةِ، وَالرَّجُلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ أَذَلَّ امْرَأَةَ صَاحِبِهِ. فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكَ» (سفر التثنية 22: 23-24). في آية أخرى مروّعة، يشنّ الربّ حملة على زوجتيه السامرة وأورشليم (تمثّلهما الأختان أُهُولَة وأُهوليبة) بسبب ارتكابهما الزنا: «وَأَجْعَلُ غَيْرَتِي عَلَيْكِ فَيُعَامِلُونَكِ بِالسَّخَطِ. يَقْطَعُونَ أَنْفَكِ وَأُذُنَيْكِ، وَبَقِيَّتُكِ تَسْقُطُ بِالسَّيْفِ. يَأْخُذُونَ بَنِيكِ وَبَنَاتِكِ، وَتُؤْكَلُ بَقِيَّتُكِ بِالنَّارِ وَيَنْزِعُونَ عَنْكِ ثِيَابَكِ، وَيَأْخُذُونَ أَدَوَاتِ زِينَتِكِ. وَأُبَطِّلُ رَذِيلَتَكِ عَنْكِ وَزِنَاكِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فَلاَ تَرْفَعِينَ عَيْنَيْكِ

إِلَيْهِمْ وَلاَ تَذْكُرِينَ مِصْرَ بَعْدُ. لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هأَنَذَا أُسَلِّمُكِ لِيَدِ الَّذِينَ أَبْغَضْتِهِمْ، لِيَدِ الَّذِينَ جَفَتْهُمْ نَفْسُكِ. فَيُعَامِلُونَكِ بِالْبُغْضَاءِ وَيَأْخُذُونَ كُلَّ تَعَبِكِ، وَيَتْرُكُونَكِ عُرْيَانَةً وَعَارِيَةً، فَتَنْكَشِفُ عَوْرَةُ زِنَاكِ وَرَذِيلَتُكِ وَزِنَاكِ. أَفْعَلُ بِكِ هذَا لأَنَّكِ زَنَيْتِ وَرَاءَ الأُمَمِ، لأَنَّكِ تَنَجَّسْتِ بِأَصْنَامِهِمْ» (سفر حزقيال 23: 25–30). يأمر الربّ إذن بتر أعضاء المرأة وتعريتها واغتصابها، وهو السلوك ذاته الذي يلجأ إليه الرجل الغاضب للانتقام بعنف من زوجته، بسبب عدم إخلاصها الجنسيّ. بالإضافة إلى ذلك، يقوم الربّ هنا بإحراق أبناء زوجته أحياء.

تلك الهمجيّة المعادية للنساء التي يصوّرها العهد القديم، تتجدّد اليوم من خلال ما يُدعى بـ«جرائم الشرف»، في البلاد المسلمة. تنبع تلك الجرائم من فكرة أنّ عفّة المرأة مِلكٌ لأسرتها، وتُرتكَبُ لأسباب متنوّعة، تتعلّق كلّها بضبط جنسانيّة المرأة، كفقدان العذريّة قبل الزواج (سواء حصل هذا فعلاً، أم كان مجرّد إشاعة)، ممارسة علاقات جنسيّة خارج إطار الزواج، رفض الزواج المدبَّر، تبادل الأحاديث مع رجال من غير الأقارب، والتعرّض للاغتصاب. قد يجادل البعض بأنّ جرائم الشرف ليست دينيّة في جوهرها، لأنّ القرآن لا يتطرّق صراحة إلى «القتل دفاعاً عن الشرف»، لكن من الواضح أنّ الأخلاقيّات الإسلاميّة التي تشدّد على عفّة الأنثى، تُساق غالباً كمبرّر لتشريع قتل المرأة، فضلاً عن أنّ المحاكم الإسلاميّة في العديد من البلدان، تتساهل للغاية مع المجرم، ومعظمها يحكم ببراءته. تتأثّر تلك الفظائع دون شكّ، بالنصوص المقدّسة المعادية للنساء، فعلى سبيل المثال، يقترح الله في القرآن أن يقوم الرجال بضرب الإناث العاصيات: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا» (سورة النساء 34).

تُنَفَّذُ «جريمة الشرف» وفق الشريعة الإسلاميّة، وهي مجموعة من

القوانين الدينيّة المستوحاة من القرآن ومن السنّة النبويّة، أي من حياة النبيّ محمّد. اليوم، تطبّق دولٌ قليلة الشريعةَ الإسلاميّة، لكنّ الحركات الإسلاميّة حول العالم، تسعى إلى فرضها رسمياً من جديد. أحد قوانينها ينصّ على قتل الزناة، استناداً إلى حديث منسوب للنبيّ محمّد: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، والنَّفْس بِالنَّفْسِ، والتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ». رغم أنّ العقوبة ذاتها مفروضة ضمنيّاً على كلّ من الرجل والمرأة، لكن من النادر أن يُقتَل الرجل في هذه الحالة.

- قتل الأطفال على أيدي الرجالِ واللهِ

كما مرّ معنا، يقوم ذكور الأيب والقرود بقتل الصغار، وهو سلوك مرعب لكنّه يقدّم منافع على صعيد التكاثر. ككائنات مبرمجة على تغذية أبنائنا، وإحاطتهم بالحبّ والرعاية، يصعب علينا تقبُّل المنشأ البيولوجيّ لقتل الأطفال، إلّا أنّ أدبيّات الأبحاث العلميّة تكشف عن أنّها سلوك بشريٌّ، يتبع خطوط التلاؤم مع البقاء ذاتها بالنسبة للذكر عند مختلف أنواع الرئيسيّات، بينما يندر أن تقوم النساء به. عددُ جرائم قتل الأطفال التي يرتكبها زوج الأمّ أو عشيقها، أعلى بكثير (قد يصل إلى مئة ضعف) من تلك التي يرتكبها الآباء البيولوجيّون، فضلاً عن ذلك، العنف ضدّ أبناء الشريك أو الشريكة، خاصّة الضرب المبرّح حتّى الموت، هو نزعة ذكوريّة بامتياز، تنتشر في كندا، بريطانيا العظمى، الولايات المتّحدة الأمريكيّة، أستراليا، كوريا، ماليزيا، ترينيداد، وغيرها من البلدان. البيولوجيا هي العامل الأساسيّ الكامن وراء هذا الفعل، وهو ما يثبته انتشارُ قتل الأطفال عبر الثقافات والجغرافيّات وأنواع الرئيسيّات بما فيها البشر، كظاهرة يمارسها الذكور بشكل خاصّ.

قتل الأطفال، هذا السلوك الحيوانيّ عديم الرحمة، شائع في الكتاب المقدّس. في سفر العدد، ينصح الربّ بقتل النساء اللواتي قد يحملن جينات الخصوم الذكور، وبقتل أبنائهنّ الذكور جميعهم أيضاً، مقابل ترك العذارى على قيد الحياة، لاستغلالهنّ في العلاقات الجنسيّة: «فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ

مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلاً بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا. لكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لَكُمْ حَيَّاتٍ». (سفر العدد 31: 17-18).

في فعل انتقاميّ شهير ضدّ فراعنة مصر، وكعقاب لهم على عدم السماح لقبيلة موسى بالرحيل، يرتكب الربّ مجزرة بحقّ أطفالهم: «فَيَمُوتُ كُلُّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ، مِنْ بِكْرِ فِرْعَوْنَ الْجَالِسِ عَلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى بِكْرِ الْجَارِيَةِ الَّتِي خَلْفَ الرَّحَى، وَكُلُّ بِكْرِ بَهِيمَةٍ. وَيَكُونُ صُرَاخٌ عَظِيمٌ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ وَلاَ يَكُونُ مِثْلُهُ أَيْضًا» (سفر الخروج 11: 5-6).

تُعاقَب بابل بدورها، عقاباً عسيراً مرّة أخرى. قرأنا عن بغائها في المثال السابق، وعن ردّ فعل الربّ تجاه ذلك، لكن عدم الإخلاص الجنسيّ قد يؤدّي إلى ولادة ذريّة الخصم، والمثال الذي أسوقه هنا يقلّد التكتيك الآنف الذكر، الذي يتبعه ذكور الشمبانزي: «يا بنت بابل المخرّبة، طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا، طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم» (المزمور 137: 8-9). في النهاية، وفي نبوءة ضدّ بابل، تصوّر آيات الكتاب المقدّس أنماط قتل الأطفال على أيدي الرئيسيّات، وكذلك ممارسة الجنس مع الأمّهات الحزانى: «لِذلِكَ أُزَلْزِلُ السَّمَاوَاتِ وَتَتَزَعْزَعُ الأَرْضُ مِنْ مَكَانِهَا فِي سَخَطِ رَبِّ الْجُنُودِ وَفِي يَوْمِ حُمُوِّ غَضَبِهِ. وَيَكُونُونَ كَظَبْيٍ طَرِيدٍ، وَكَغَنَمٍ بِلاَ مَنْ يَجْمَعُهَا. يَلْتَفِتُونَ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى شَعْبِهِ، وَيَهْرُبُونَ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى أَرْضِهِ. كُلُّ مَنْ وُجِدَ يُطْعَنُ، وَكُلُّ مَنِ انْحَاشَ يَسْقُطُ بِالسَّيْفِ. وَتُحَطَّمُ أَطْفَالُهُمْ أَمَامَ عُيُونِهِمْ، وَتُنْهَبُ بُيُوتُهُمْ وَتُفْضَحُ نِسَاؤُهُمْ» (سفر إشعياء 13: 13-16).

دراسة حالة

الاستيلاء بالقوّة على منطقة النفوذ، إبادة الخصوم الذكور، الاستحواذ الجنسيّ، الحصول على امتياز الجنس الحصريّ بواسطة العنف وعزل الإناث، جنسانيّة الله... إلخ، كلّها ظواهر مذكورة في الكتاب المقدّس

وفي القرآن، باعتبارهما نصّين مقدّسين قديمين، لكن ما مدى علاقتها اليوم بالحياة الدينيّة؟ للإجابة على هذا السؤال، أقدّم هنا دراسة حالة تستند إلى البيانات التي جمعها المؤرّخ رامون. إيه. غوتيريه، في كتابه «عندما جاء يسوع، غادرت أمّهاتُ الذُّرَةِ». سنكتشف هنا كيف يجسّد الغزاة الإسبان الذين ينتمون إلى العالَم الغربيّ، صورةً واضحة عن أمثولة الإله ألفا، أحداثها أشبه بملحمة دراميّة، خاصّة أنّنا نلمس روح الهيمنة الذكوريّة، بين رجال تدور بينهم منافسة عنيفة.

عندما غزا الإسبان أمريكا الشماليّة، مدجّجين بدروعهم الحديديّة المجلجِلة، كان منظرهم مرعباً بلا شكّ: رجال ملتحون، أحصنة، أسلحة ناريّة، كلاب شرسة... إلخ، وكلّها أمور رآها السكّان الأصليّون للمرّة الأولى في حياتهم، وحوّلوها إلى أسطورة. باستغلال عامل الدهشة ذاك، سعى الإسبان أوّلاً إلى الاستيلاء على أراضي الهنود باسم يسوع والربّ، فقاموا على الفور بهدم جميع المعابد والأضرحة والآثار الدينيّة، واستبدلوا الأديان المحليّة كلّها بالصلبان، ومنحوتات القدّيسين، والأيقونات الكاثوليكيّة الأخرى. لقد أدركوا قوّة الرموز الدينيّة، فاستخدموا رموز الإله المسيحيّ كعلامات تحدّد مناطق نفوذ الذكر المهيمن بينهم، واحتلّوا بواسطة تلك العلامات مناطق واسعة من القارّة الأمريكيّة.

بعد أن تخلّصوا من الآلهة القديمة، باستخدام رموز الربّ الجديد، قام الإسبان بإعدام وقتل الكهنة/ الأطباء من ذوي النفوذ بعزم وتصميم، لأنّ الاحتلال الدينيّ هو أقصر طريق إلى الهيمنة، ولو لم يكن الدين عاملاً فائق الأهميّة لتحقيق تلك الغاية، لما اهتمّ الغزاة بالبنى الدينيّة القائمة عند السكّان الأصليّين. في نهاية المطاف، حصد الإسبان فائدة سيكولوجيّة هائلة من ترسيم مناطق النفوذ باستخدام رموز إله ذكر مهيمن شرس، وإجبار السكّان الأصليّين على اتّخاذ أسماء مسيحيّة.

كانت الهيمنة الجنسيّة دافعاً لا غنى عنه للاستعمار، وهو دافع يربط الاستعمار مع الغزوات في تاريخ الرئيسيّات على اختلافها. جرائم خوان

دي أونات، وهو مستكشف إسبانيّ وحاكم المستعمرة الإسبانيّة الجديدة نيو مكسيكو، تقدّم لنا مثالاً شهيراً: عند وصوله إلى القارّة الأمريكيّة، قرّر أونات أن يقضي على خصومه الذكور الفحول من شعب بويبلو Pueblo، فقام بمجرّد دخوله إلى قرية آكوما بويبلو، بجَمْع الرجال الذين تزيد أعمارهم عن خمسة وعشرين عاماً، ثمّ بتر إحدى قدمي كلٍّ منهم، باسم المسيح والكنيسة والتاج الإسبانيّ، وقتل على الفور كلّ من حاول مقاومته. لو كان ذلك مجرّد بسط «هيمنة محايدة» على الشعب، إذن لتمّ تطبيق البتر بحصافة أكبر حسب الجنس والعمر، ولشَمِل النساء والصِبية ما قبل سنّ البلوغ أيضاً. بعد ذلك، وباتّباع الحوافز الداروينيّة، قام رجال أونات باغتصاب نساء بويبلو، وهو حقٌّ تخوّلهم إيّاه الحرب.

من موقع هيمنتهم الخاصّة، ظهرت سلوكيّات مماثلة بين الرهبان الفرنسيسكان، الذين عهدت إليهم الكنيسة بإدارة الاستعمار الروحيّ للشعوب الأصليّة في المنطقة. مجدّداً، سنرى هنا أنّ الخطوة الأولى والأهمّ في أيّ غزو، هي الإطاحة ببنى المكانة الذكوريّة القائمة، فأوّل ما فعله الرهبان الفرنسيسكان، كان تحطيم ولاء الشباب لآبائهم، ممّا أدّى إلى تراجع مكانة الآباء، وخضوع الأبناء بسهولة إلى الذكور المهيمنين الجدد، أي الربّ والمسيح والرهبان أنفسهم. مستلهمين الكتابَ المقدّس، قام الرهبان الفرنسيسكان بإذلال الآباء الهنود علناً، أو بتعذيبهم جسديّاً عندما فشلوا بتجنيد الأبناء. مسرحيّة الهيمنة تلك ذات طبيعة جنسيّة واضحة، إذ يسرد غوتيريه كيف اتّبع الرهبان الفرنسيسكان استراتيجيّة شائعة لتحقيق الهيمنة، هي استهداف أعضاء الهنود التناسليّة:

«إذلال الآباء أمام عيون أبنائهم يبلغ أقصاه، عندما يقوم الرهبان الفرنسيسكان بإخصاء الرجال، وبالتالي تحويلهم رمزيّاً إلى نساء. إحدى التقنيّات المستخدمة روتينيّاً آنذاك، لكسر شوكة الهنديّ العنيد المزهوّ برجولته، كانت إمساكه من خصيتيه، وفتلهما إلى أن يتهاوى من شدّة الألم. اشتكى بيدرو أكوميلا من مدينة تاوس عام 1638، أنّ الراهب نيكولاس

هيدالغو لوى قضيبَه بشدّة إلى أن انكسر نصفين، وبذلك خسر بيدرو ما يُدعى برأس القضيب».

يؤكّد غوتيريه أنّ ما سبق كان ممارسة شائعة، مستشهداً بالعديد من الوثائق التاريخيّة التي تصف قيام الرهبان الفرنسيسكان بتمزيق الأعضاء التناسليّة للرجال الهنود، أي القيام حرفيّاً بإخصائهم، وتحويلهم إلى خصوم مصابين بالعنّة الجنسيّة. تراوحت المسوّغات ما بين عدم الخضوع للمسيح كما ينبغي، أو الاستمرار بممارسة تقاليد هنديّة ممنوعة. هنا، نجد أنّ نموذج الذكر ألفا واضح إلى حدّ مرعب، إذ ينبغي على الرجال الهنود أن يخضعوا جنسيّاً إلى المسيح، أي إلى النموذج الأسمى للذكر المهيمن، وهو ما سخّر الرهبان الفرنسيسكان أقصى درجات الهمجيّة لتحقيقه، بما فيها مهاجمة الأعضاء التناسليّة للخصم، وفقاً لأسلوب ذكور القرود والأيب ذاته.

كالملك -الإله بالضبط، امتلك الرهبان الفرنسيسكان قوّة ما فوق-طبيعيّة، وبجّلهم الهنود بأسلوب يليق بالآلهة، باعتبارهم جسراً إلى الربّ. قوننت الكنيسةُ الكاثوليكيّة تفاضلَ القوى ذاك، فخوّلت رهبانها بالهيمنة المطلقة على الهنود، الذين عدّتهم إمّا أطفالاً تحت الوصاية أحياناً، أو حيوانات أحياناً أخرى، ممّا سمح للرهبان الفرنسيسكان باستغلالهم في أعمال السخرة، أو تحويلهم ببساطة إلى عبيد.

بالهيمنة على رجال بويبلو، فاز الرهبان الفرنسيسكان بامتياز الوصول جنسيّاً إلى نسائهم، وهو ما تؤكّده وثائق لا تُحصى، خاصّة سجلّات محاكم التفتيش. يسرد غوتيريه أمثلة عديدة، تمّ بعضها باستخدام العنف، كقصّة امرأة هنديّة في مدينة تاوس بويبلو، ادّعت أنّ طفلها الهجين هو ابن الراهب نيكولاس هيدالغو، وقالت إنّ الراهب شنق زوجها، من ثمّ مارس معها علاقة جنسيّة أسفرت عن ولادة الطفل. اتُّهِمَ راهب آخر هو لويس مارتينيز بـ «اغتصاب امرأة، وذبحِها، من ثمّ دفْنِها في حجرته ضمن مقرّات الكهنة السكنيّة»، لكنّ السلطات الدينيّة رفضت معاقبته بجرم الاغتصاب والقتل، خشية تمرّد الهنود.

من الإنصاف القول إنّ نساء بويبلو اعتدن على وهب أنفسهنّ للرجال المقدَّسين، في مجتمع الهنود ما قبل الغزو الإسبانيّ، من ثمّ اتّجهن صوب الرهبان الفرنسيسكان، فمارست العديد منهنّ الجنسَ طوعاً مع الغزاة. في نهاية المطاف، حقّق أولئك الرهبان نجاحاً ساحقاً من منظور التكاثر المتباين، إذ علّق أحدهم في مذكّراته: «أرض بويبلو مليئة بأطفال الرهبان»، كما كان لدى العديد منهم خليلات. قدّم أحد القساوسة أخيراً دليلاً ضدّ أخوته الفرنسيسكان، فسرد قائمة طويلة من ضحايا «فتوحاتهم الجنسيّة» على رؤسائه: «ماريّا إنكارناثيون وماريّا دي غارثيا، بنتا عمّ من الدرجة الأولى لماريّا غوادالوبي ڤالديز، التي أنجبت ابنة. مانويلا تروخيليو. ماريّا لاين، التي أنجبت بدورها ابناً. آنا ماريّا فريسكيز. روزا مِستاس التي أنجبت صبيّاً. لا-روما. لا-لوب سانشيز. أنتونيا غاليغو. إغناسيا بينا ابنة إيزيدرو مدينا التي أنجبت صبيّاً. ابنة أليخاندرو ماركيز التي أنجبت صبيّاً، هو مانويل تروخيليو المعروف بـ لا-مالينش. سوليداد تينوريو». من خلال هذه اللمحة التاريخيّة، نستشفّ بوضوح النماذج التطوّريّة الذكوريّة، التي شقّت طريقها عبر المستعمرات ضمن سياق دينيّ بارز: الاستيلاء على مناطق النفوذ، قمع الرجال جنسيّاً، الاستحواذ على النساء، ونجاح الرجال المستبدّين على صعيد التكاثر المتباين.

على غرار ذكور القرود والأيب، قام الرهبان الفرنسيسكان ظاهريّاً بجمع النساء الهنديّات من أجل الربّ، فانتشرت الأديرة في نيو مكسيكو وفي بقيّة أرجاء القارّة الأمريكيّة، ممّا سهّل استغلال النساء جنسيّاً في قلعة الربّ الحصينة الآمنة، كما بذل الرهبان جهدهم لطرد الخاطبين الهنود، ومعاقبتهم على محاولتهم اختراق جدران الأديرة. الهدف المُعلَن من حبس النساء في الأديرة لا يتّفق ظاهريّاً مع الدوافع التطوّريّة، لكنّه سلوك نمطيّ يلجأ إليه ذكور الرئيسيّات في مختلف العصور.

شهدت أديان هنودِ بويبلو ما قبل الغزو، وجود نساء يمارسن الجنس رمزيّاً مع الآلهة الذكور المحليّين، إلّا أنّ الرهبان الفرنسيسكان نظروا بازدراء

إلى الطقوس الدينيّة المحليّة، خاصّة تلك الجنسيّة، وعدّوها بمنزلة تدنيس قذر مخزٍ يجب استئصاله فوراً من الثقافة الهنديّة، علماً أنّهم -وفي مفارقة تدعو للسخرية- بشّروا بعقيدة «عروس المسيح»، واستغلّوها للتلاعب بقلوب الهنود رجالاً ونساء، فحثّوهم على الخضوع جنسيّاً إلى المسيح عوضاً عن آلهتهم التقليديّة. هنا أيضاً، عُدَّت الروح مؤنّثة، كي يتمكّن الرجل والمرأة من تلبية رغبات المسيح الجنسيّة، باعتبار كلٍّ منهما «عروساً» له.

فيما يلي مقطع من ترنيمة فرنسيسكانيّة، مرفقة بتعليق غوتيريه عليها:

أصغوا إلى العروس (أي الروح) تنادي عريسها (أي المسيح): «أشعِلني، ولفّني كلّي بنيران حبّكَ، بحيث تنصهر روحي تماماً بك، وتسيل عليك، وتتوحّد بك»، من ثمّ تناشده بحرارة: «كي يقبّل فمي بقبلة من فمه»، وتلك القبلة ترمز إلى اتّحادهما المثاليّ. عندما يضمّ العريس عريَ الروح، «يشفق عليها، ويفرش لها رداءه كي يغطّيها، قائلاً إنّ هذه هي اللحظة المخصّصة للعشّاق وللنهود الجميلة، من ثمّ يعطيها خمراً كي تشرب، خمراً من قبو الحبّ الإلهيّ». الآن، كلّ ما تتمنّاه العروس هو أن «يخترقها بحميميّة إلى أعماق قلبها، وألّا يظهر لها بهيئة مرئيّة -رغم أنّه مَن تتوق له- بل كاندخال حميم. تتمنّى ألّا يظهر لها، بل أن يخترقها». لقد مزّقتها «سهام المحبّين»، وطارت بها «أجنحة الحبّ»، وأشعلتها «نيران الحبّ»، وها هي العروس تغنّي أناشيد المديح والإعجاب والتبارك لزوجها المسيح، وتتمتم بانتشاء: «آه يا حبيبي! آه يا حبّ حياتي!».

يُفترَض أنّ الترنيمة كناية عن الحبّ البشريّ، وأنّها عفيفة، لكنّها لم تكن كذلك على ما يبدو! يقال إنّ الذكور الهنود بعد ترديدها عدّة مرّات، كانوا يحلمون أحلاماً إيروتيكيّة مِثليّة عن المسيح، كما توثّق السجلّات التاريخيّة كيف حثّهم الرهبان على جلد أنفسهم خمس عشرة جلدة، وعلى الدخولِ في المسيح «رمزيّاً» و«صوفيّاً» عبر جراحه: «وجّه عيون روحكَ إلى الجروح القدسيّة للربّ إلهكِ مُخلّصكَ، وعانق الصليب، وركّز بصركَ على الجروح القدسيّة المفتوحة، وعلى الدم الذي ينزف من شخصيّته ككلّ ومن

جسده، وعلى الصليب الذي حمله من أجلنا، وتَضرّعْ له بحبّ وعاطفة كي يحميك من أعدائك». ينوّه غوتيريه هنا، إلى أنّ جراحَ المسيح كانت تُصوَّر على المذاخر المقدّسة[5] مستقلّة عن جسده غالباً، وتُرسَم عمداً في وضعيّة عموديّة -لا أفقيّة- كي تبدو أشبه بالمهبل وشعر العانة.

عانى السكّان الأصليّون كثيراً من حكم الفرنسيسكان الثيوقراطيّ، وحاول شعب بويبلو عدّة مرّات أن يرتدّ إلى ديانته الأصليّة، وأن يعبد آلهته القديمة من جديد. تلك التجاوزات كانت تُعاقب بغضب غيور وحشيّ، خاصّة بالسوط، بل وبالجَلد حتّى الموت في بعض الأحيان. وقع أحد تلك الحوادث (وهو مجرّد مثال، من بين حوادث لا تحصى) عام 1655، عندما اكتشف الأخ سلفادور دي غيرا أنّ خوان كونا، وهو هنديّ من قبيلة هوبي، «يعبد الأصنام»، فقام القسّ بجلد كونا إلى أن «غرق بدمائه». في اليوم التالي، في الكنيسة ذاتها، قام دي غيرا بجلد كونا مرّة أخرة بوحشيّة، من ثمّ قتله حيّاً بإحراقه بالتربنتين. التعذيب بالحرق كان ممارسة شائعة، وبرّر دي غيرا تصرّفه أمام السلطات الكنسيّة، بأنّ المنطق يملي عليه اجتثاث عبادة الأصنام.

ضاق شعب بويبلو ذرعاً بسوء معاملة الإسبان لهم، خاصّة ما يلقونه على يد الرهبان الفرنسيسكان. في بدايات 1670م، اكتسبت محاولاتهم لإحياء ممارساتهم الدينيّة الممنوعة زخماً، وتمرّدوا ضدّ الاستبداد الدينيّ الغاشم. سيفاجئنا أنّ الحرب بين البويبلونيّين والإسبان لم تكن حرباً بين الرجال، أو بين الثقافات فحسب، بل حرباً بين آلهة متنافسة. في عام 1672، تمرّدت قبيلة آبو وأحرقت الكنيسةَ المحليّة، ثمّ ألقى رجالها القبض على الأخ بيدرو دي آفيلاي إيْ إيالا، القائم على شؤون الكنيسة. اقتداء بالأسلوب الذي عاملهم به الغزاة، قاموا بتعريته، وجلدوه بلا رحمة، ثمّ قتلوه وشنقوا جثّته العارية

5- علبة أو صندوق أو ضريح... إلخ، تحوي تذكارات مقدّسة ملموبسة من رفات القدّيسين، كشعرهم، أو عظامهم، أو ملابسهم، أو الأدوات التي استعملوها. المترجمة

على الصليب، وذبحوا ثلاثة حملان رموا جثثها الدامية تحته، في إشارة رمزيّة أخرى. واجه خوان فرانسيسكو ترِڤينو، حاكم المنطقة الإسبانيّ، التمرّدَ بإطلاق حملة وحشيّة ضدّ «عبادة الأصنام»، وشنق عدداً من الأطباء الهنود المشهورين الذين نعتهم بـ«السَحَرة»، واعتقل خمسة وأربعين طبيباً آخرين، باعهم فيما بعد كعبيد.

لاحقاً، بدأ بوبيه –وهو طبيب هنديّ من سان خوان– بتنظيم تمرّد ساحق، سخّر خلاله آلهة الهنود بحماس للقتال ضدّ ربّ الغزاة، ممّا أغرى أتباعه بإحياء ولائهم القديم لآلهتهم المحليّة التقليديّة. تحت حكم الإسبان، يحقّ للمسيح فقط الحصول على زوجات عديدات، أمّا الزعماء والحكماء الهنود فكانوا يُحرَقون حتّى الموت، أو تُحلَق رؤوسهم كعقاب على تعدّد الزوجات. كي يرجح التكاثر المتباين لكفّة رجال قبيلته مجدّداً، وعد بوبيه أتباعه بأنّ «من يقتل إسبانيّاً سيحصل على امرأة هنديّة كزوجة، ومن يقتل أربعة إسبان يحصل على أربع نساء، ومن يقتل عشرة إسبان يحصل على عدد مماثل من النساء».

انتصرت قوّات بوبيه في نهاية المطاف، واستولت على مدينة سانتافيه، فوصفت السجلّات التاريخيّة كيف جاب الهنود الشوارع، وهم يصرخون: «ربُّ الإسبان، الذي كان أباهم، قد مات. القدّيسة ماريّا، التي كانت أمّهم، وبقيّة القدّيسين... هم جميعهم مجرّد قطع خشبيّة متعفّنة»، على عكس آلهة الهنود التي لا تموت أبداً. بعد أن انتقموا لسنوات من الخضوع والاستغلال، استعاد الهنود أراضيهم، وشيّدوا مذابحهم المقدّسة ونصبوا رموزهم الدينيّة من جديد، وحطّموا الصلبان التي كانت تهزأ منهم في كلّ زاوية، كما نبذوا أسماءهم المسيحيّة واستعادوا ألقابهم الهنديّة، وفرضوا عقوبات على كلّ من يتلفّظ باسم يسوع أو مريم.

يلخّص الفيلسوف وعالم النفس الأمريكيّ وليام جيمس ما حصل، ويطرح الرأي التالي: في أغلب الأحيان، نحن لسنا «واعين» لوجود الآليّات التطوّريّة في دماغنا، نظراً لأنّها تعمل بكفاءة عالية. لذلك، الخضوع جنسيّاً

للإله الذكر المهيمن، أو اتّباعُه كمثال لتحقيق الهيمنة الجنسيّة، هما نمطان سلوكيّان عاطفيّان مألوفان للغاية عند الكثير من المؤمنين، لدرجة أنّ البشر يخضعون لهما دون تفكير، وهو ما يجعلهما خَطِرَين.

عندما «نجعل الطبيعيَّ يبدو غريباً»، كما ناقشنا في الفصل الثاني، سنصبح قادرين على تفحّص الإملاءات المُجَنْدَرة للتقاليد الدينيّة. بالتالي، قد نتوصّل إلى أخلاقيّات روحانيّة ترسّخ الخير المشترك، وتقلّل ميلَنا لتكرار العنف والوحشيّة السائدَين في ماضينا التطوّريّ.

***

الفصل الخامس

التعاون على القتل، الهويّة داخل الجماعة، والله

الأدلّة على المستوى المجهريّ

التعاونُ هو صفة أساسيّة من صفات الحياة على الأرض، والتكافل الحيويّ Symbiosis هو الإطار الجوهريّ للتنوّع الحيويّ. تشير الدراسات إلى أنّ أجزاء معيّنة من الخليّة، كانت فيما مضى بكتريا حرّة تطفّلت عليها، ونجحت بتأسيس علاقة تشاركيّة متبادلة معها، من ثمّ اندمجتا معاً في نهاية المطاف، لتشكيل وحدات حيّة مفردة لا تنفصم.

تتعاون العضيّات وحيدة الخليّة لتشكيل أنسجة، والأنسجة تشكّل أعضاء، والأعضاء تشكّل أجهزة، والأجهزة تؤلّف كائنات حيّة معقّدة متعدّدة الخلايا، كالإنسان. داخل أجسادنا، توجد مليارات العضيّات التي تتعاون معاً ضمن شبكات واسعة، لبناء الجسد البشريّ الحيّ الذي يتنفّس ويفكّر. بهذا المعنى، نحن مبنيّون حرفيّاً من مستويات متعدّدة من التعاون.

العدوان -مثل التعاون- هو صفة أساسيّة للحياة على الأرض، حتّى على المستوى الأصغريّ (أي الخلايا). الفيروسات على سبيل المثال، هي تراكيب كيميائيّة بسيطة لا تمتلك بنية خلويّة، وغير قادرة على القيام بالاستقلاب، تبدو كأنّها تتأرجح على الحافّة ما بين تصنيفها ككائنات حيّة، أو كمادّة غير حيّة. بعضها بسيط للغاية، يتألّف من سلسلة RNA مفردة،

يحيط بها غلاف بروتينيّ يحميها. بما أنّ الفيروسات غير قادرة على القيام بالاستقلاب، لذلك فهي مجبرة على التطفّل، كي تضمن بقاءها وتكاثرها على حساب خلايا المضيف، أي بحرمانها من الطاقة. معظم الفيروسات تقتل خلايا المضيف في نهاية المطاف، بتفجيرها غالباً (وهو ما يُدعى بالانحلال الخلويّ Lysis)، أيّ أنّ البراهين على العدوانيّة موجودة، حتّى في أشكال الحياة الأبسط بكثير من الخليّة.

في الطبيعة، غالباً ما تترافق العدوانيّة والتعاون معاً، فحتّى أصغر أشكال الحياة في كوكبنا مُبرمَجة كي تَقتُل. لذلك، من البديهيّ أنّ توحيد القوى ما بين العضيّات المختلفة، يصبّ لمصلحة بقائها جميعها. يظهر التعاون في الحروب حتّى على مستوى العالَم المجهريّ، كما تتشابه الاستراتيجيّات المعقّدة المُستخدَمة، تشابهاً صاعقاً مع الحروب بين البشر، وتعكس أنماطاً من التكيّف تدلّ على ضغوط اصطفائيّة قاسية، تعرّضت لها الوحدات التنظيميّة الأبسط للكائن الحيّ. يعدّد أحد العلماء جوانب التشابه كما يلي:

التحالفُ الحربيّ (ينطبق على الآليّات الإمراضيّة التآزريّة، حين تعمل عدّة عوامل مُمْرِضة معاً، بالتوافق فيما بينها)، المهمّات الانتحاريّة (الخلايا التي تقتل نفسها ذاتيّاً، كي تقضي على المتطفّل)، الحقائب الانتحاريّة (ينطبق الاسم على الليزوزومات Lysosome، التي تتفجّر وتحرِّر محتوياتِها، كي تدمّر الخليّة)، التمويه (غلاف البكتريا سلبيّة الغرام[1]، الذي يمنع الكائن الحيّ من التعامل معها كجسم غريب، بسبب حجب العلامات المميّزة للعدوّ)، الذئب بجلد الحَمَل (ينطبق على الفيروسات التي تملك غلافاً مصنوعاً من أغشية خلايا المضيف)، حصان طروادة (البكتريا التي تجتاح الخلايا البالعة macrophage، وتسافر ضمنها إلى أجزاء مختلفة من الجسم، محميّة من الهجوم)، إشاراتُ الكَرْب distress signals (موادّ

1- تُصنَّف البكتريا وفق اللون الذي تتلوّن به أثناء الفحص المجهريّ، باستعمال صبغة خاصّة تُدعى تلوين غرام Gram stain، فتُقسَم إلى سلبيّة الغرام (تتلوّن بالأحمر)، وإيجابيّة الغرام (تتلوّن بالأزرق). المترجمة

كيميائيّة تفرزها الخلايا المتأذّية والمُحتَضرة)، التجسّس على الاتّصالات (الميكروبات التي ترتبط بمستقبلات الإشارات على سطح الخليّة، ممّا يشوّش التواصل بينها وبين الخلايا الأخرى، أو يثبّطه).

العامل الرئيس في دفاعات المضيف، هو القدرة على تمييز خلاياه وجزيئاته، عن تلك المُمْرِضة الغريبة عنه (أي تمييز الذّات عن الآخر). على الصعيد العسكريّ، يتحقّق ذلك بارتداء أزياء موحّدة مختلفة، كما أنّ أهدافنا في ساحة المعركة، لا تختلف عن أهداف الحروب المجهريّة داخل أجسامنا، أي البقاء والتكاثر، فضلاً عن أنّ جيناتنا تتحكّم بالساحة التي يدور فيها كلا النوعين من الحروب. هذه المقارنة، تطرح نقطة أخرى أساسيّة: المهمّة الأبرز للتعاون على العدوان، هي تمييز مَن هو جزء من التحالف، ومن يقف ضدّه.

لتحقيق ذلك الهدف، تطوّرت سيكولوجيا البشر بغية استكشاف الروابط داخل الجماعة (المجموعة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها الفرد)، وخارجها (المجموعات الاجتماعيّة التي لا ينتمي إليها الفرد)، في آن واحد، كما تطوّرت الثقافات والأديان كوسيلة تنظّم العلاقات ما بين أفراد الجماعة، وأولئك الذين لا ينتمون إليها. قد ترسّخ الثقافات العلمانيّة والأديان التعاطفَ والتعاون، لكنّها قد تحرّض على القتل بلا رحمة أيضاً. هذا النمط من الإيثار داخل الجماعة، والعداء ضدّ الذين لا ينتمون إليها، يُدعى بالإيثار المحدود، أو الضيّق.

ينبع العداء الدينيّ في نهاية المطاف من الاستراتيجيّات الجينيّة، التي تؤسّس جذور التعصّب ضدّ من لا ينتمون إلى الجماعة. المؤمنون الذين تحرّكهم الكراهية الدينيّة، لا يدركون عموماً الأساس الجينيّ لسلوكهم، بل تحرّكهم بالأحرى إيديولوجيّة دينيّة مرسومة وفق سيكولوجيّتهم التطوّريّة، ممّا يجعل أفعالهم ومواقفهم تبدو طبيعيّة تماماً بالنسبة لهم. كي نفهم كيف يحصل ذلك، تبدأ مهمّتنا من «جعل الطبيعيّ يبدو غريباً».

تفضيلُ الأقارب يرسم الحدود

I- داخل الجماعة / خارج الجماعة

سنراجع أوّلاً، مفهوم تفضيل الأقارب. كقاعدة عامّة، يرتبط التعاون على نحو وثيق بمقدار المادّة الجينيّة المشترَكة بين الأفراد، وتفضيل الأقارب هو حجر الزاوية في العلاقات البيولوجيّة، بما فيها تلك القائمة بين البشر، كما أنّه قولَبَ أدمغتنا طيلة آلاف السنوات، لذلك تطفو قواعد «إيثار الأقارب» في الفكر البشريّ، واللغة، والسلوك. البشر، بما امتلكوه من مقدرات غير مسبوقة على التفكير الرمزيّ واللغة، اختاروا تلك القواعد للتأثير بعضهم على بعض، وغالباً ما يلجؤون إلى تضخيم القرابة الجينيّة رمزيّاً، كي يعزّزوا التلاحمَ داخل الجماعة، والولاءَ بين أولئك الذين لا تجمعهم صلة قربى. على سبيل المثال، أعضاء الأخويّات يعتبرون أنفسهم «أخوة» حقّاً، والجنود يعدّون أنفسهم «أخوة في السلاح»، وأبناء الشعب الواحد يشتركون بـ«الوطن الأمّ». أفراد الجماعة الذين لا تجمعهم قرابة بيولوجيّة، لا يحتاجون دائماً إلى قرابة مُتخَيَّلة، لكنّ هذه الاستراتيجيّة تعزّز الانتماء.

كما هو الحال مع الولاء داخل الجماعة، الميلُ إلى خلق قرابة مُتخَيَّلة واضحٌ في الأديان. يُنادى الله بـ«أبانا»، ويُخاطَب ممثّلوه بوصفهم آباء أو أمّهات، كما يُعَدُّ الأتباع المتديّنون أخوة وأخوات، ويشتركون كجماعة بسلف واحد باعتبارهم أبناء الله. هذه الألقاب تخلق مستوى عالياً من الثقة والتراحم والبِرّ بين أتباع الإيمان الواحد، فضلاً عن أنّ خلقَ إخوة وأخوات مُتخَيَّلين، هو وسيلة فعّالة لحثّ الناس على رصّ صفوفهم.

على النقيض من ذلك، تضخيم الفروقات الجينيّة بيننا وبين الآخرين، يخلق عداوة هائلة، فإحدى الاستراتيجيّات الإيديولوجيّة الشائعة في الحروب، هي اعتبار الأعداء كائنات غير بشريّة، وتقديمهم كأنّهم كلاب، أو خنازير، أو قرود، أو وحوش، أو شياطين. معظم الناس الذين ساقتهم

تلك الصور إلى الحروب، لا يدركون أنّ غضبهم اللاّمُؤنْسِن ذاك، يستند إلى منطق الجينات الأنانيّة.

يجادل عالِم السيكولوجيا العسكريّة ديڤيد غروسمان، أنّ البشر ينفرون تلقائيّاً من قتل أبناء جنسهم، كما أنّ «كلفة القتل السيكولوجيّة» ملموسة، وقابلة للقياس، أثناء الحرب وبعد انتهائها. إعراض الفرد عن قتل أبناء جنسه كما يجادل غروسمان، هو صفة مميّزة للعديد من الحيوانات التي تنخرط في معارك طقسيّة. أسماك البيرانا مثلاً، تتمتّع بأسنان حادّة مصمّمة لتمزيق لحم الضحايا إلى أشلاء، لكنّها لا تمزّق بعضها بعضاً. المعارك التي تدور بينها رمزيّة، ومن النادر أن تنجم عنها أذيّات خطيرة، فالسمكة الأضعف تستسلم غالباً، كما أنّ السمكة الأقوى تنسحب عادة عند ظهور منافسين. هذا السلوك يسمح للمتنافسين بتجنّب الأذيّات الخطيرة المهدّدة للحياة، ويقترح أنّ الحيوانات (بتوجيه من الاستراتيجيّات الجينيّة)، قادرة على فرض كوابح عاطفيّة على العنف بين أفراد الجنس الواحد. توجد كوابح مماثلة عند البشر، ولا بدّ أنّها فعّالة للغاية إن أخذنا بعين الاعتبار قدرتنا على التعاون، فعندما ننخرط في مواجهات مميتة كما يقول غروسمان، نقوم بتعطيل تلك الكوابح جزئيّاً، باستعمال مصطلحات استراتيجيّة تهدف إلى جعل العدوّ غيرَ بشريّ (أي إنقاص قرابته الجينيّة لنا)، وهو ما نطلق عليه «اللاّأنسنة». من منظور الداروينيّة، هذا يكافئ القول: «أنت لا تتشارك معي بالجينات ذاتها، لذلك أنا لا أدين لك بالولاء، وبوسعي أن أقتلك كأنّك حيوان».

جمع الفيلسوف ديڤيد ليڤنغستون سميث، مسرداً ضخماً عن اللاّأنسنة عبر تاريخ الحروب، وبدأ بملاحظة ساقها الفيلسوف الإسكتلنديّ ديڤيد هيوم عام 1740م، حين تحدّث عن ميلنا إلى لا أنسنة العدوّ، وعن تعصّبنا المتطرّف لمصلحة الأفعال داخل الجماعة: «عندما تشنّ أمّتنا حرباً ضدّ أمّة أخرى، سنقوم بتحقير الأعداء من خلال نعتهم بالغدّارين، الظالمين، العنيفين... إلخ، لكنّنا دائماً ما نقيّم أنفسنا نحن وحلفاءنا على أنّنا عادلون، ومعتدلون، ورحيمون. إن كان قائد جيش أعدائنا ناجحاً، سننسب إليه هيئة وشخصيّة

رجل على مضض». يتابع سميث باقتباس السجلّات الأنثروبولوجيّة الباكرة عن الأبوريجينيّين في أستراليا، الذين يعدّون أعداءهم حيواناتٍ لا بشراً، ممّا يسهّل عليهم اصطيادهم وقتلهم كفرائس. بروباغاندا الحرب تقدّم لمحة أخرى، يجادل سميث أنّها تستغلّ خوفنا الغابر من وقوعنا فرائس بين أنياب الكائنات الأخرى:

- في بوستر للجيش الاتّحاديّ، يعود إلى حقبة الحرب الأهليّة الأمريكيّة، يظهر الجنرال سكوت قائد الجيش الاتّحاديّ حاملاً هراوة، يضرب بها حتّى الموت أفعى عملاقة ذات تسعة رؤوس، تحمل سبعة منها وجوه قادة الجيش الكونفدراليّ.
- في كاريكاتير أمريكيّ من حقبة الحرب الإسبانيّة الأمريكيّة، صوّرت كوبا على أنّها رجل - قرد ضخم شرير ذو أنياب بارزة، يحمل سكّيناً يقطر منها الدم، وهو يرتمي على قبر الجنود الأمريكيّين الذين قُتِلوا في انفجار السفينة الحربيّة «ماين»، في ميناء هافانا عام 1898م.
- في كاريكاتير تايوانيّ، رُسِم رجل لا حول له ولا قوّة في زورق خشبيّ، وسمكة قرش على وشك أن تفترسه. يحمل الزورق اسم «تايوان»، أمّا سمكة القرش فتحمل اسم «الصين».
- في بوستر سوفياتيّ من حقبة الخمسينيّات في القرن العشرين، رُسِمَ ذئب يرتدي بدلة وربطة عنق، وهو ينزع عن وجهه الغروتسكيّ المتجهّم، قناعاً يحمل ملامح وزير الخارجيّة الأمريكيّ آنذاك، دين آتشسون.

سنجد أمثلة لا حصر لها عن إطلاق نعوت مماثلة، على أولئك الذين لا ينتمون للجماعة، خاصّة في أوقات الحروب. يميل الناس غالباً إلى اعتبار الغرباء مخلوقات غير بشريّة، بينما يطلقون على أنفسهم في الوقت ذاته لقبَ «الشعب»، «البشر»، «الشعب المختار»، «الصالحين»، بل وحتّى «الشعب الذي تتمحور حوله الحضارة». بالتالي، لا يفاجئنا أن تجسّد الشرائع الدينيّة، بما فيها الأديان الإبراهيميّة، تلك الاستراتيجيّات الإقصائيّة المُخْتَلَقة. ها هو مثال من القرآن، يحوّل الله فيه اليهودَ إلى قرود وخنازير، بعد أن أثاروا سخطه: «قُلْ هَلْ

﴿أَنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (سورة المائدة 60)، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (سورة البقرة 65). من الواضح إذن أنّ العقيدة الإسلاميّة تلجأ إلى اللّاأنسنة، وليس صعباً أن نفهم كيف غذّت تلك الصفات عدمَ الثقة بالغرباء، وكيف حرّضت في نهاية المطاف على العنف ضدّ اليهود.

بما أنّ النصوص المقدّسة الرئيسيّة في اليهوديّة، سبقت الإسلامَ بمئات السنين، لن نجد بالطبع لا – أنسنة موجّهة ضدّ الإسلام، سواء في العهد القديم أو التلمود، لكنّنا سنكتشف أمثلة كثيرة عن أبناء إبراهيم الذين يلجؤون إلى لا – أنسنة الآخرين في العصر الحديث، كما عندما يقوم الجنود الإسرائيليّون بإهانة وتعذيب الأطفال الفلسطينيّين، وينعتونهم بـ «الكلاب».

لدراسة مثال عن اللّاأنسنة في العنف الدينيّ ما بين المسيحيّين، سأقدّم فيما يلي حرب الثلاثين عاماً (1618–1648م). إبّان تلك الفترة، مزّقت الصراعات الدمويّة أوروبا، ولم تكن صراعات ما بين المسيحيّة والإسلام، أو بين المسيحيّة واليهوديّة، وإنّما بين المسيحيّين أنفسهم، إذ تقاتل ملايين الكاثوليكيّين والبروتستانتيّين بضراوة على خلفيّة آرائهم اللّاهوتيّة، كما أنّ الاختلاف بالرأي لم يفرّق الكاثوليكيّين والبروتستانتيّين فحسب، بل انقسم البروتستانتيّون بدورهم إلى أحزاب متحاربة، فتقاتل كلٌّ من الكالفنيّين Calvinist، واللوثريّين Lutheran، وأتباع «تجديد العماد» Anabaptist، والتوحيديّين Unitarian، بغية بسط هيمنتهم الدينيّة، والاستحواذ على الأراضي التي تترافق معها.

بعد أن عرّف اللوثريّون مبادئ عقيدتهم في «كتاب الوفاق» Book of Concord عام 1580، قاموا بطرد الكالفنيّين من مناطق نفوذهم في ألمانيا، والذين أرسوا بدورهم مبادئ عقيدتهم الخاصّة في «محاورات هايدلبيرغ» The Heidelberg Catechism –وهو ما أثار غضب الكاثوليكيّين، واللوثريّين، على حدّ سواء– كما قاموا بقمع التوحيديّين، وفرضوا عقوبة

الإعدام على كلّ من يشكّك بالعقيدة الكالڤنيّة. بعد ذلك، بدأ اللوثريّون والكالڤنيّون باغتيال أعيان المجتمع وغيرهم من الناس، بتهمة الميول الكالڤنيّة أو اللوثريّة على الترتيب. أجّجت اللاأنسنة الكراهيّةَ، كما حصل عندما نشر القسّ اللوثريّ نيڤاندر عام 1582م، مقالاً عدّد فيه أربعين صفة من صفات الذئاب، وربط كلّاً منها مع نظيرتها عند الكالڤنيّين. انتشر استعمال هذا التكتيك كالنار في الهشيم عبر مناطق النفوذ الدينيّ المختلفة، محرّضاً اللوثريّين على ذبح الكالڤنيّين، وعلى اضطهاد الكاثوليكيّين بالأسلوب ذاته. لاحظ المؤرّخ ويل ديورانت، أنّ «مفردات كالروث، البراز، البغل، الخنزير، العاهرة، المجرم... أصبحت جزءاً من المصطلحات اللّاهوتيّة» آنذاك، كما أنّ الفنّ السياسيّ التقط روح العصر بدوره، فصوّرت المطبوعاتُ الألمانيّة مثلاً البابا، كخنزيرة تُرْضِع خنازيرَ جزويتيّة صغيرة.

تقاتل اللّاهوتيّون بضراوة حول أدقّ تفاصيل المراسيم والممارسات الدينيّة، وسخّروا اللّاأنسنةَ عمداً لتوسيع هوّة الاختلافات العقائديّة، فقد ورد في أحد الكتيّبات اللوثريّة: «إن رغب أيّ شخص بمعرفة ما هي تفاصيل الإيمان التي نختلف عليها نحن والكالڤنيّين نسلِ الأفاعي، فالإجابة هي باختصار: كلّها، واحداً واحداً... لأنّهم ليسوا مسيحيّين، بل يهود ومسلمون تلقّوا المعموديّة».

في حرب الثلاثين عاماً، ذبحت المجموعات المتحاربة المختلفة بعضها بعضاً، كالحيوانات التي وصفَتْها، وقدّرت الإحصاءات مقتل سبعة ملايين وخمسمئة ألف شخص في ألمانيا والنمسا فحسب. تلك الحرب، كغيرها من الحروب، تسبّبت بمعاناة بشريّة هائلة لم تقتصر على المذابح، بل تعدّتها إلى الاغتصاب الجماعيّ، والمجاعات، وقتل الأطفال. يجدر بنا التأكيد مجدّداً، على أنّ المسيحيّين ارتكبوا تلك الجرائم ضدّ مسيحيّين آخرين، أي ضدّ مجموعات بشريّة تعبد الربّ نفسه والمسيح ذاته. في هذه الحالة، تضخيم الاختلافات الجينيّة من خلال تحويل المسيحيّين الآخرين إلى حيوانات، لا إلى أخوة، سهّل عمليّة إبادتهم.

ينفرد البشر بقدرتهم على استغلال الإيديولوجيا الدينيّة، لترسيخ الحدود بين أفراد الجماعة والغرباء عنها، لكنّ استراتيجيّتهم الإيديولوجيّة تصبّ في سياق تطوّريّ هامّ. أنا لا أقول هنا إنّ اللّاأنسنة هي سبب الحروب، بل إنّها بالأحرى وسيلة فعّالة لتسهيل شنّ الحرب، بأسلوب يعيد إحياء مشاعر أسلافنا الذين تكاتفوا معاً ضدّ الغرباء عنهم، بغية البقاء.

بما أنّ كلّاً من تمييز الأقارب، والخوف من الخطر الذي يحمله الغرباء، هو تكيّف تطوّريّ من أجل البقاء، لذلك من المنطقيّ أن تخدم لا - أنسنةُ الخطرِ الخارجيّ عمليّةَ إدارة الرعب، فضلاً عن رصّ الصفوف داخل الجماعة، وبذلك قدّمت منفعة لمصلحة بقاء أسلافنا. يمكن تحريض تلك النزعة المتأصّلة عند الإنسان تجريبيّاً في المختبر، فقد وجدت الدراسات المتعلّقة بـ «نظريّة إدارة الرعب» TMT أنّ المشتركين في التجربة، يميلون إلى استخدام صفات حيوانيّة لوصف الغرباء، وصفات إنسانيّة لوصف المنتمين إلى جماعتهم، وذلك عند تحريض مخاوفهم من الموت تجريبيّاً. وجدت أبحاث أخرى في السياق نفسه، أنّ الأشخاص الذين يقيّمون أنفسهم بصورة سلبيّة، يميلون إلى لا - أنسنة الآخرين بنسبة أعلى من أولئك المُعْتَدّين بأنفسهم.

يمكن أن نعدّ اللّاأنسنة وسيلة إيديولوجيّة لتعزيز التلاحم داخل الجماعة، استناداً إلى منطق أصبح مألوفاً لنا على صعيد التطوّر، وهو تفضيل الأقارب. حلّل الباحثون في مجال علوم التطوّر أنماطاً أخرى من التعاون، تساعدنا على تعليل نجاح البشر في توسيع ذلك التعاون خارج إطار أقاربهم البيولوجيّين، وهي آليّة لعبت دوراً هامّاً في العدوان الجماعيّ.

II- الإيثار التبادليّ، والتبادليّة اللّامباشرة

بالنسبة للبشر، لم تقتصر فوائد التعاون على الصيد، جمع الطعام، تربية الأطفال، والحرب، بل شملت عموماً البقاء على كلّ الأصعدة. من الإنصاف القول إنّ بقاءنا كجنس بشريّ، كان مستحيلاً من دون تعاوننا معاً.

تذكّروا أنّه على صعيد تفضيل الأقارب، «تصمّم» الجيناتُ أدمغتَنا بحيث تحرّض التعاون ما بين الأقارب البيولوجيّين، ممّا «يضمن» لها أن تتكاثر نسخ عنها، موجودة داخل أجساد أولئك الأقارب. «الإيثار التبادليّ» هو مفهوم صاغه عالم البيولوجيا التطوّريّة روبرت ترايفرز، يوضّح لنا كيف تطوّرت أفعال الإيثار الظاهريّة، بين أفراد لا يمتّ بعضهم إلى بعض بصلة قربى جينيّة، أو بين أقارب بعيدين. يعرّف ترايفرز «الإيثار التبادليّ» بأنّه: سلوك يعود بالنفع على كائن آخر، لا يمتّ بصلة قربى مباشرة إلى الكائن الذي يقوم بذلك السلوك، ورغم أنّه قد يبدو مؤذياً لهذا الأخير، فإنّ منافعه ومخاطره تتحدّد من منظور إسهامه بالبقاء عموماً.

كما يشير ترايفرز، غالباً ما يتحوّل الأذى الظاهريّ إلى منفعة مستقبليّة، لأنّ الكائن الحيّ الذي يُقدِم على سلوك إيثاريّ، يتوقّع أنّ ما قدّمه سيُرَدّ له لاحقاً، وسيجني بالتالي فائدة على صعيد البقاء. بعبارة أخرى، قد لا يقوم الفرد بتقديم المساعدة لغيره، بغية تخليد المادّة الجينيّة المشتركة بينهما آنيّاً، لكنّه يتوقّع بأنّه سيتلقّى المساعدة بدوره في لحظة ما من المستقبل، ممّا يعود عليه بالنفع لمصلحة بقائه وتكاثره. يؤثّر الإيثار التبادليّ بقوّة على طيف واسع من العلاقات الإنسانيّة -بدءاً من الحياة الزوجيّة، وصولاً إلى الاقتصاد العالميّ- ويزيد كفاءة البشر بحلّ مشاكل التكيّف مع البقاء، لأنّه يسمح لهم بتوسيع شبكة علاقاتهم أبعد من حدود أقاربهم البيولوجيّين المباشرين.

بأيّ حال، إن أخذنا بعين الاعتبار التحيّز الأبديّ للجينات، وكيف تبرمج البشرَ كي يصبحوا أنانيّين، لا بدّ من أن يحاول بعض الأشخاص استغلال إيثار الآخرين، كي يحصلوا على المساعدة دون مقابل، فيرتفع بالتالي معدّل تلاؤمهم مع البقاء (لأنّهم لا يخاطرون بتقديم المساعدة بدورهم)، كالصيّاد الذي يشوي فريسته وحيداً في الغابة، عوضاً عن العودة بها إلى مخيّم قبيلته، لكنّه يطالب مع ذلك بحصّة ممّا يصطاده رفاقه. استجاب الاصطفاء الطبيعيّ لهذه النقطة بتطوير «أنظمة كشف الاحتيال» الحسّاسة، في مختلف أجناس

الكائنات الحيّة التي تعتمد على الإيثار التبادليّ، وهو ما أدّى بدوره إلى اصطفاء أفراد بارعين بالاحتيال دون أن يكشفهم أحد، أي أنّنا أمام سباق تطوّريّ شرس يتولّد من هذه الآليّة الديناميكيّة، فظهورُ المحتالين البارعين يدفع الطبيعةَ إلى تطوير أنظمة أكثر كفاءة بكشف الاحتيال، ممّا يؤدّي بدوره إلى ظهور محتالين أكثر براعة، وهكذا دواليك. في نهاية المطاف، أصبح البشر محتالين محنكين، لكنّهم شديدو اليقظة في الوقت ذاته، يكتشفون الاحتيال في الترتيبات القائمة على التعاون.

التبادليّة غير المباشرة تشبه الإيثار التبادليّ، لكنّها تظهر دون أن يتوقّع الفرد الحصول على مقابل مباشَر من الشخص الذي يتلقّى المساعدة، وهي عمليّة تعتمد على السمعة. بعبارة أخرى، لو أقدم أحدهم على فعل إيثاريّ، وقام من تلقّى المساعدة بإخبار الآخرين بذلك، سيكسب الفاعل «رأسَ مال» من السمعة يعود عليه بالنفع، لأنّه سيجعل الآخرين يثقون به ويتعاونون معه، بمن فيهم أولئك الذين لم يروه بأعينهم وهو يقدّم المساعدة. بالتالي، التبادليّة غير المباشرة، توسّع نطاق التعاون كي يشمل عدداً أكبر بكثير من الناس، ممّا يسهّل بناء مجتمعات متنامية باطّراد، تتألّف من أفراد متعاونين قادرين على العمل معاً، لتحقيق هدف مشترك.

تتجسّد خطورة الاحتيال، في كلفة استثمار الوقت أو الموارد في أولئك الذين لا ينوون ردّ الجميل، لذلك يُعَدّ كشفُه مسألة حيويّة في أنظمة التعاون على اختلافها، ففي عالَم محدود الموارد يعجّ بالمحتالين، ينبغي على المرء توخّي الحذر عندما يُقدِم على الإيثار. اختبرنا جميعنا مواقف تعاملنا فيها مع أشخاص، أظهروا لنا علامات زائفة على الالتزام كي يربحوا ثقتنا، من ثمّ استغلّونا بإجحاف. إنّه خداع ترك بصمته على التطوّر عبر التاريخ، لذلك ما زال البشر يعتبرونه تهديداً خطيراً للغاية، ويبذلون مجهوداً ضخماً بالتعاون فيما بينهم، لتأسيس انتماء يحدّد قواعد الانتماء للجماعة، وقواعدَ التبادليّة بين أفرادها، ويقضي على المحتالين. إحدى آليّات تنظيم تلك العمليّة، هي تطوير إشارات فريدة من نوعها تميّز الالتزام. يجادل عالم الإيكولوجيا

السلوكيّة[2] وليام آيرنز بأنّه: «كي تنجح علامات الالتزام، لا بدّ أن يكون تزويرها صعباً، أي عند تساوي العوامل الأخرى جميعها، يتناقص احتمال أن تكون الإشارة زائفة كلّما زادت كلفتها». بعبارة أخرى، عندما تفوق كلفةُ تزييف الإشارة، المنفعةَ الناجمة عن التزييف، يصبح التعاون بمأمن. تسمح الإشارات المكلفة لأفراد المجموعة، بالتعاون فيما بينهم بدرجة معيّنة من اليقين، وتجنّبهم صرف الوقت والطاقة كي يكتشفوا جدارة جيرانهم بالثقة. تُعرَف هذه الفكرة بـ«نظريّة الإشارات المُكْلِفة»، ونجد أمثلة كثيرة عنها في الأديان.

يكتب الأنثروبولوجيّ ريتشارد سوسيس عن ثلاثيّة الأديان: «السلوك، الشارات، والممنوعات»، بوصفها أنماطاً من الإشارات المكلفة، من السهل أن نستدلّ عليها: الكثير من الأديان تفرض على أتباعها سلوكيّات محدّدة يصعب تزييفها، كالحجّ المطوّل أو السجود المتكرّر، أو أخرى تستغرق وقتاً طويلاً، كصلاة المسبحة أو ترتيل الآيات الدينيّة. بالمثل، تحفل الحياة الدينيّة بالشارات، كالندبات الطقوسيّة، الختان، اللحى الطويلة، سوالف الشّعر المفتولة، البرقع... إلخ،وكذلك بكلّ أشكال الممنوعات، كتحريم بعض أنواع الأطعمة، أو فرض قيود على السلوكِ الجنسيّ واستخدامِ اللغة، واستهلاكِ بعض الموادّ كالقهوة أو التبغ أو الكحول.

يستعرض سوسيس اليهود الأرثوذكس المتشدّدين، أي الحريديم، وهي مفردة تعني «أولئك الذين يخافون الله، أو المرتجفين». تلبس نساء الحريديم قمصاناً طويلة الأكمام، وتنانير سميكة تصل إلى الأرض، ويغطّين رؤوسهنّ بمنديل أو بشعر مستعار، أو كليهما. بلحاهم الكثيفة، ومعاطفهم السوداء الطويلة، وبناطيلهم السوداء، يقضي رجال الحريديم أيّامهم وهم يتعرّقون بغزارة، ويتأرجحون إلى الأمام والخلف، منشدين المدائح للربّ تحت شمس الصحراء. يرتدي العديد منهم كذلك قبّعات من الفرو

2- Behavioral ecology: هي دراسة الأسس التطوّريّة لسلوك الحيوانات، من منظور ضغوط بيئتها. المترجمة

السميك، كانت مفيدة للغاية دون شكّ خلال فصول الشتاء الطويلة القارسة، في أوروبا الشرقيّة حيث عاش أسلافهم، لكن كان الأجدر بهم أن يتركوها على الحدود، عندما دخلوا الأراضي المقدّسة. بارتداء طبقات عديدة من الثياب، والوقوف في الصحراء عند منتصف الظهيرة، يرسل أولئك الرجال إشارة صريحة للآخرين: «هاي! انظروا! أنا يهوديّ من الحريديم. إن كنتم أعضاء أيضاً في هذه المجموعة، بإمكانكم أن تثقوا بي، وإلّا لماذا سأرتدي هذا الزيّ؟!». المختلّ عقليّاً فقط هو من سيقضي نهاره بالقيام بما سبق، ما لم يكن مؤمناً بتعاليم الأرثوذكسيّة اليهوديّة المتشدّدة، وملتزماً التزاماً تامّاً بمبادئها وأهدافها.

ارتداء الفرو في الصحراء، هو إشارة على الالتزام يصعب تزييفها. بسبب هذه الصعوبة تحديداً، تخلق السلوكيّاتُ المشابهة الثقةَ بمدى إخلاص من يقوم بها، وتسمح بإنشاء شبكات اجتماعيّة من الثقة، حول أولئك المستعدّين لأن يعانوا معاً. الإشارات المكلفة تسهّل الإيثارَ التبادليّ، والتبادليّةَ غير المباشرة، لأنّها تحدّد من هو الجدير بالثقة في التعاون المتبادل، ومن لا يستحقّ ذلك، وبالتالي يجب تجنّبه، أو حتّى قتله.

وجود الطقوس التي تعدّ نوعاً من الإشارات المكلفة، وانتشارها حول العالَم، يشير إلى أهمّيّة رسم الفروقات داخل الجماعة / خارج الجماعة، على صعيد البقاء.

الله كصانع حرب

I- أنماط التحالف بين الرئيسيّات

تحكم قواعدُ التبادليّة الحياةَ الاجتماعيّة للرئيسيّات غير البشريّة، تماماً كما تحكم حياة البشر. قواعد التبادليّة في التعاون على العنف واضحة، على سبيل المثال، عندما يصرخ أحد أفراد الرئيسيّات طالباً مساندة في القتال، سينجده على الأغلب أولئك الذين ساعدهم في السابق (أو الذين

قام بتفليتهم، أو تقاسم معهم الطعام). تبادلُ المساعدة في المواجهات، هو قاعدة اجتماعيّة هامّة يعزّزها العنف، فالشمبانزي الذي لا يساعد غيره في القتال، سيتعرّض غالباً للهجوم عندما يصرخ طالباً الدعم، ولن يتلقّى العون. فضلاً عن ذلك، يقوم الشمبانزي بشكل ممنهج، بعزل ومهاجمة أفراد مجموعته الذين ساعدوا خصومه في القتال ضدّه. من تلك الملاحظات، استنتج بعض الباحثين أنّ السبب الأشيع للعدوانيّة في مجتمعات الرئيسيّات، هو قيام الفرد بخرق القواعد الاجتماعيّة.

تلعب المرتبة الاجتماعيّة دوراً هامّاً في عقد التحالفات، ويبدو أنّ الرئيسيّات مهووسة بالأفراد الذين يتمتّعون بمرتبة عالية. في مختبرات الأبحاث على سبيل المثال، يفضّل ذكر المكاك أن يستعرض صور الأفراد ذوي المرتبة العليا (أو صور الأعضاء التناسليّة للإناث) على صور الطعام، لكنّه يطلب مكافآت إضافيّة من الطعام كي يقبل باستعراض صور الأفراد الأدنى مرتبة. تظهر الأبحاث أنّ أطفال البشر بدورهم يميلون منذ عمر مبكّر (ما بين 12–36 شهراً)، إلى تفضيل الأفراد الأعلى مرتبة، وتقليدهم.

يمكن تتبّع جذور نزعة التركيز الانتقائيّ على الأفراد الأعلى مرتبة، إلى الفوائد التي تنجم عن عقد التحالفات معهم، أي أنّ «الأصدقاء في المناصب العليا» مفيدون، خاصّة إن كنتم تعيشون في عالم يسود فيه التعاون على العدوان. لذلك، تنفق الرئيسيّات مقداراً ضخماً من الطاقة، في محاولة عقد التحالفات مع الأفراد ذوي المراتب العليا. حتّى في المجتمعات ذات التراتبيّة الأموميّة الصارمة، كمجتمعات قرود ڤيرڤت والمكاك والبابون، يُقدَّم الدعم في أثناء المواجهات إلى الأنثى ذات الرتبة الأعلى، التي ستتدخّل لاحقاً في القتال لمصلحة الذين قدّموا لها المساعدة. يعوّل الأفراد المهيمنون بدورهم على عقد التحالفات، لضمان حصولهم على مرتبة عليا أو الحفاظ عليها، كما يراقبون العلاقات بين الأفراد الخاضعين، من خلال معاقبة سلوكيّات معيّنة كتفلية الأفراد المحظورين، أو مشاركتهم بالطعام. يجادل فرانز دي وال بأنّ نمط السلوك هذا، هو استراتيجيّة لمنع

عقد تحالفات مُحتَمَلة، وعندما تفشل تلك الاستراتيجيّة، يُعاقَب التحالفُ بالعنف. يعقد البشر بدورهم تحالفات مشابهة، يبنون عليها علاقاتهم مع آلهتهم المرسومة على صورتهم، إذ يلجؤون إلى التحالف مع تلك الآلهة (وهي ذات مرتبة أعلى بالتعريف) خلال المعارك، ويشاركونها طقوسيّاً بالطعام (تقديمات، أضاحي... إلخ)، كي يضمنوا انحيازها إلى صفّهم. كأيّ ذكر مهيمن من ذكور الرئيسيّات، يُوصَف الله بأنّه يساعد أولئك الذين يتحالفون معه، ويعاقب من يتحالف مع الخصم.

يتكبّد البشر العناء من أجل ترسيخ تحالف الله معهم في المعارك، بما في ذلك قيامهم بإشارات متطرّفة ومكلفة، وهو سلوك يتعارض مع المفاهيم المحوريّة في عقائد الإله الإبراهيميّ، خاصّة مفهوم القدرة الكليّة، ومفهوم الخلود. الإشارات المكلفة في سياق التعاون على العنف، هي علامة واسمة للكائنات الحيّة التي تتعرّض إلى خطر القتل، إذ لا يمكن للكائنات الفانية أن تخاطر بالتصرّف بإيثار، دون ضمانات بالحصول على مساعدة في المقابل. على النقيض منها، الله هو كينونة خالدة، أي أنّ بمقدوره التحالف مع من يشاء في المعارك، دون أن يُهدّد وجودَه أيُّ خَطَر، وهو ما ينطبق أيضاً على كونه كليّ القدرة، فالنصوص المقدّسة تشدّد على عدم وجود من هو أقوى منه. إذن، من غير الممكن أن يصاب الله بأذى، وأيّ إشارات يقوم بها البشر لعقد تحالف بينهم وبينه، لن تترتّب عليها عواقب بالنسبة له. في سبيل تحالف الله معهم، يمضي البشر إلى حدود متطرّفة لإظهار ارتباطهم به، ويعملون على تعزيز ذلك الارتباط بأسلوب يتسبّب غالباً بمعاناة هائلة، سواء بين الأعداء أو بين من يرفضون إعلان ولائهم لله. التفسير «المنطقيّ» للقيام بإشارات مكلفة «غير منطقيّة» تجاه الله، هو أنّ البشر يعتمدون على قواعد التبادليّة ذاتها التي تسود فيما بينهم ضمن مجتمعاتهم، لتوجيه علاقاتهم مع إلههم. رغم أنّ تلك القواعد تحوّرت وأصبحت أكثر تعقيداً بعد أن صقلتْها الحضارة، فإنّها لا تزال متجذّرة في البنى الاجتماعيّة لأسلافنا من الرئيسيّات، ونحن نتصرّف وفقها بشكل غير واعٍ، من خلال سيكولوجيّتنا التطوّريّة.

II- إرسال إشارات مكلفة إلى الله، كي يساعدنا في القتل

اكتشف تشارلز داروين أنّ الحرب قد تمثّل قوّة تطوّريّة هامّة، تقولِب التعاون داخل الجماعات البشريّة. في الواقع، تبدو الحرب كأنّها التعريف الدقيق للعداء بين البشر، لكنّها تتطلّب أوسع أنماط التعاون المُكلِف المُنَسّق، على امتداد مجال شاسع من السلوكيّات الجماعيّة. بأخذ ما هو على المحكّ بعين الاعتبار، تتطلّب الحرب إيماناً هائلاً بالتبادليّة، لأنّ الاعتماد على رفاق غير جديرين بالثقة خلال المعركة، يسبّب خسائر باهظة، وربّما لهذا السبب بالذّات فَرِضَتْ عقوبات قاسية خلال معظم تاريخ الحروب المُنظّمة، على من يخرقون قواعد التبادليّة أثناء المعارك (كالخونة والجبناء)، لا تقلّ عن الإعدام. التحالفات التي يعقدها البشر أثناء الحروب، قد تكون أوثق من غيرها، إذ نلاحظ أنّ الروابط بين المقاتلين، أقوى من الرابطة التي تنشأ بين الرجل وزوجته، كما يعتمد أخوة السلاح بعضهم على بعض، إلى حدّ أنّ دافعهم الرئيسيّ لخوض المعركة يتجاوز الوطن أو القضيّة، وينقلب إلى القتال بعضهم من أجل بعض، والحفاظ على شرف المرء في عيون رفاقه.

بأدمغةٍ قولبتْها ملايينُ السنين من التعاون المتبادل، أصبح البشر مهيّئين لإرسال إشارات مكلفة بهدف عقد التحالفات، وهي نزعة تظهر في الثقافات كلّها، وتمتدّ إلى مفاهيمنا عن الله، إذ نتوقّع منه أن يتعاون معنا استناداً إلى «نظريّة الإشارات المكلفة»، أي إلى الوسيلة ذاتها التي نستعملها لتأسيس الولاء فيما بيننا. في حضارة المايا على سبيل المثال، يطالب الإله العَلِيّ توهيل بالدماء لقاء هِبَةِ النار، فيقوم عابدوه بممارسة الفصادة الطقسيّة من أجله: يخِزِ الرجال أعضاءهم التناسليّة، بينما تخز النساء ألسنتهنّ وآذانهنّ، من ثمّ يقطّرون الدم على الأوراق ويحرقونها، ويقوم العابد المخلص بالترويح على الدخان كي تتعالى تقديمته إلى السماوات.

يقوم الأزتك بالمثل تجاه آلهتهم، ويعتقدون أنّ الإله العليّ كويتزالكواتل -وهو أفعى يغطّيها الريش- خلق البشر من خلال تضحيته بدمه، فبعد أن وخز قضيبه، رشّ الدم النازف هنا وهناك كي ينبثق العالم إلى الوجود. يردّ

له أسياد الأزتك الأوفياء جميله، من خلال وخز أجسادهم بما فيها الأعضاء التناسليّة، بأشواك صبّار ماغاي، أو بالعظام المسنونة.

في مثال مشابه عن بتر الأعضاء التناسليّة، كانت العلامة الواسمة الأولى، من علامات الإشارات المكلفة في العقيدة اليهوديّة والمسيحيّة، هي العهد بين إبراهيم وبين الربّ. في الواقع، ذلك العهد هو إشارة مكلفة تؤسّس للديانة اليهوديّة، فقد طلب الربّ من إبراهيم أن يقطع قلفة قضيبه، هو وجميع أبنائه الذكور المتحدّرين من صلبه، وكذلك عبيده الذكور كلّهم، لإثبات ولائه. في مقابل هذا الفعل المؤلم، يهب الربُّ أرض مملكة إسرائيل لإبراهيم، ونسله من بعده، للأبد: «فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ، فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ. اِبْنَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ فِي أَجْيَالِكُمْ: وَلِيدُ الْبَيْتِ، وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّةٍ مِنْ كُلِّ ابْنِ غَرِيبٍ لَيْسَ مِنْ نَسْلِكَ. يُخْتَنُ خِتَانًا وَلِيدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ، فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا. وَأَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لاَ يُخْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي» (سفر التكوين 17: 11–14).

يعقد المقاتلون تحالفات فيما بينهم، كما يعقدون تحالفات مماثلة مع إلههم الذكر المهيمن، ويُسْقِطون عليه صورتهم الشخصيّة: «الرَّبُّ رَجُلُ الْحَرْبِ. الرَّبُّ اسْمُهُ» (سفر الخروج 15: 3)، أيّ أنّ الربّ يتصرّف كمقاتل، ويقدّم الدعم خلال المعارك. لن يصعب علينا فهم كيف تستمدّ الرئيسيّات الشجاعة، من خلال تحالفها في القتال مع أقوى ذكر مهيمن في الكون. فيما يلي مثالان يصف فيهما الكتاب المقدّس تلك الآليّة:

«لداود مبارك الرب صخرتي، الذي يعلم يدي القتال وأصابعي الحرب» (المزمور 144: 1)، «فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: لاَ تَخَفْ مِنْهُ لأَنِّي قَدْ دَفَعْتُهُ إِلَى يَدِكَ مَعَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَأَرْضِهِ، فَتَفْعَلُ بِهِ كَمَا فَعَلْتَ بِسِيحُونَ مَلِكِ الأَمُورِيِّينَ السَّاكِنِ فِي حَشْبُونَ. فَضَرَبُوهُ وَبَنِيهِ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ شَارِدٌ، وَمَلَكُوا أَرْضَهُ» (سفر العدد 21: 34–35).

أرسل الأزتك بدورهم، إشارات مكلفة مماثلة إلى إله الحرب

هويتزيلوبوتشتلي. في القرن الخامس عشر للميلاد، وحّدَ القائدُ القويّ تلاكاليل الممالكَ الأزتكيّة المتحاربة، بعد سلسلة من الحملات العسكريّة تحت راية هويتزيلوبوتشتلي، الذي ارتقى على إثرها، وأصبح أقوى إله ذكر في البانثيون الأزتكيّ. لقاء الانتصار في الحرب، قدّم الأزتك الطعام إلى هويتزيلوبوتشتلي، أي دم أعدائهم المهزومين، وهي ممارسة تحوّلت إلى حجر الزاوية في ثقافتهم الدينيّة - الحربيّة. في حوار مع الإمبراطور موتيكوزوما، ناقش تلاكاليل خطط إنشاء معبد عملاق، مكرّس لإله الحرب هويتزيلوبوتشتلي: «لن ينقصنا الرجال لتدشين المعبد عندما ننتهي من بنائه، لقد فكّرتُ بما ينبغي القيام به لاحقاً، ومن الأفضل أن نقوم به الآن. لا يجب أن يضطرّ إلهنا لانتظار معركة ما، كي ينطلق إلى الحرب. عوضاً عن ذلك، سنقيم سوقاً ملائماً، بحيث يمكن لإلهنا أن يذهب مع جيشه لشراء الضحايا والبشر كي يأكلهم، كما لو أنّه ذاهب إلى مكان قريب لشراء التورتيلا... متى شاء. كما يمكن لشعبنا أن يذهب إلى ذلك المكان بجيوشه، كي يبتاع بدماء الجنود وقلوبهم وحياتهم، الأحجارَ الكريمة واليَشْم[3] والريشَ الكبير الزاهي... لخدمة هويتزيلوبوتشتلي البهيّ». هويتزيلوبوتشتلي كان أيضاً إله الشمس، تُقدَّم له الأضاحي كي يتغذّى على دمها، لقاء ضوئه الساطع الذي يحفظ العالَم حيّاً، وغالباً ما كانت قلوب الضحايا - معظمهم أسرى حرب - تُستَخرج من صدورهم بسكين من اليشم، وهم أحياء.

بالمثل، ضحّى المايا بأسرى الحرب، وتصوِّرهم الريليفات المنحوتة القديمة وهم يقطعون رؤوس الأسرى، أو يسلخون جلدهم، أو يحرقونهم، أو ينتزعون أحشاءهم.

في السياق ذاته، أعلن إبراهيم عن ولائه للربّ، من خلال استعداده غير المشروط للتضحية بابنه إسحق (سفر التكوين 22: 1-19)، فكافأه الربّ من منظور تطوّريّ لقاء خضوعه، بعرض التحالف معه (ومع أبنائه) في الحرب: «قَالَ: بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هذَا الأَمْرَ، وَلَمْ

3- حجر كريم ألوانه متعدّدة، أشيعها الأخضر. المترجمة

تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ تَكْثِيرًا كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي» (سفر التكوين 22: 16-19).

أضحية الدم التي قدّمها يفتاح -وهو شخصيّة أخرى، من شخصيّات العهد القديم- في اللحظة الأخيرة لم تشفع له، رغم أنّه أحرق ابنته وهي على قيد الحياة، لقاء تحالف إلهه معه في الحرب: «وَنَذَرَ يَفْتَاحُ نَذْرًا لِلرَّبِّ قَائِلًا: إِنْ دَفَعْتَ بَنِي عَمُّونَ لِيَدِي، فَالْخَارِجُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَبْوَابِ بَيْتِي لِلِقَائِي عِنْدَ رُجُوعِي بِالسَّلاَمَةِ مِنْ عِنْدِ بَنِي عَمُّونَ يَكُونُ لِلرَّبِّ، وَأُصْعِدُهُ مُحْرَقَةً. ثُمَّ عبرَ يَفْتَاحُ إِلَى بَنِي عَمُّونَ لِمُحَارَبَتِهِمْ. فَدَفَعَهُمُ الرَّبُّ لِيَدِهِ. فَضَرَبَهُمْ مِنْ عَرُوعِيرَ إِلَى مَجِيئِكَ إِلَى مِنِّيتَ، عِشْرِينَ مَدِينَةً، وَإِلَى آبَلِ الْكُرُومِ ضَرْبَةً عَظِيمَةً جِدًّا. فَذَلَّ بَنُو عَمُّونَ أَمَامَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ثُمَّ أَتَى يَفْتَاحُ إِلَى الْمِصْفَاةِ إِلَى بَيْتِهِ، وَإِذَا بِابْنَتِهِ خَارِجَةً لِلِقَائِهِ بِدُفُوفٍ وَرَقْصٍ. وَهِيَ وَحِيدَةٌ. لَمْ يَكُنْ لَهُ ابْنٌ وَلاَ ابْنَةٌ غَيْرَهَا» (سفر القضاة 11: 30-34)، «وَكَانَ عِنْدَ نِهَايَةِ الشَّهْرَيْنِ أَنَّهَا رَجَعَتْ إِلَى أَبِيهَا، فَفَعَلَ بِهَا نَذْرَهُ الَّذِي نَذَرَ. وَهِيَ لَمْ تَعْرِفْ رَجُلًا. فَصَارَتْ عَادَةً فِي إِسْرَائِيلَ» (سفر القضاة 11: 39).

فكرةُ تضحية المرء بأطفاله للدلالة على ولائه، اكتسبت قوّة كبرى، لدرجة أنّها أصبحت فرضيّة تأسيسيّة في العقيدة المسيحيّة، التي تدّعي أنّ الربّ ضحّى بابنه الوحيد، كي يضمن الحياة الآخرة لأتباعه البشريّين: «أَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ» (إنجيل يوحنّا 3: 16). هنا، يسمح الله بقتل ابنه، ممّا يثير انبهار أتباعه. هذا الفعل لا يثير التعجّب إلّا من منظور كائنات محكومة بالتكاثر الجينيّ، يلعب تفضيلُ الأقارب بالنسبة لها دوراً هامّاً في البقاء. تذكّروا أنّ الله لا يحتاج إلى الجينات كي يحافظ على ذرّيته، لأنّه كليّ القدرة، يَخْلِق بمجرّد النطق بكلمته كما تصوّره النصوص المقدّسة، أو بواسطة الروح القُدس، ولا يخضع للاصطفاء الطبيعيّ. الله قادر على إنجاب

مليار ابن من صلبه، لا ابناً واحداً فقط، كما أنّه قادر على إعالة مليار ابن، دون أن يطلب شيئاً بالمقابل من البشر الضعفاء. إذن، تلك الإشارة الباهظة الثمن التي قام بها الربّ، لا معنى لها عملياً، لكنّها إشارة رمزيّة هامّة تجاه أتباعه، الذين يعيشون ويموتون حرفيّاً وفق قواعد التعاون فيما بينهم.

بالإشارة مجدّداً إلى أهمّيّة التعاون، يعلن الله بصرامة -تماماً كأقرانه من الرئيسيّات- بأنّه يمنع أتباعه من إبداء إشارات مكلفة تجاه الآلهة الأخرى، ممّا يوحي بأنّ هذا الأمر قد يكون نوعاً من الاحتيال على قواعد العلاقات التبادليّة: «مَنْ ذَبَحَ لآلِهَةٍ غَيْرِ الرَّبِّ وَحْدَهُ، يُهْلَكُ» (سفر الخروج 22: 20). من ثمّ، يطالب الله أتباعه بالتحالف معه ضدّ خصومه، أي ضدّ الآلهة الأخرى، وضدّ من يتحالفون معها. من ناحية أخرى، أتباع الله معروفون بأنّهم يرسّخون التحالف معه، عن طريق ذبح أتباع منافسيه، وتقديم لحمهم له.

لنفترض أنّكم سمعتم الربّ إلهكم، يعلن عن وجود بعض المنحطّين من الغوغاء في إحدى المدن، والذين ساقوا رفاقهم المواطنين إلى الضلالة، بتحريضهم على عبادة آلهة أجنبيّة. في هذه الحالة، عليكم أن تفحصوا الوقائع بدقّة، وإن ثَبُتَ لكم أنّ ذلك الفعل المشين قد وقع حقّاً، يجب أن تهجموا على المدينة المذكورة، وتبيدوا سكّانها ومواشيها، من ثمّ تجمعون كلّ الغنائم وتكوّمونها وسط الشارع، وتضرمون فيها النار، وتحرقون المدينة بأكملها كتقديمة للربّ إلهكم. تلك المدينة يجب أن تبقى خراباً أبد الدهر، وألّا تُبنَى مرّة أخرى، كما لا يجوز أن تحتفظوا بأيّ جزء من الغنيمة التي تنوون إحراقها، وإلّا أنزل الربّ غضبه الصاعق عليكم. عندما تنفّذون كلّ ما سبق، سيحيطكم الربّ برحمته، ويتعاطف معكم، ويحوّلكم إلى أمّة عظيمة كما وعد أسلافكم رسمياً: «قَدْ خَرَجَ أُنَاسٌ بَنُو لَئِيمٍ مِنْ وَسَطِكَ وَطَوَّحُوا سُكَّانَ مَدِينَتِهِمْ قَائِلِينَ: نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا. وَفَحَصْتَ وَفَتَّشْتَ وَسَأَلْتَ جَيِّدًا وَإِذَا الأَمْرُ صَحِيحٌ وَأَكِيدٌ، قَدْ عُمِلَ ذلِكَ الرِّجْسُ فِي وَسَطِكَ، فَضَرْبًا تَضْرِبُ سُكَّانَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِحَدِّ السَّيْفِ، وَتُحَرِّمُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مَعَ بَهَائِمِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. تَجْمَعُ كُلَّ أَمْتِعَتِهَا إِلَى وَسَطِ سَاحَتِهَا، وَتُحْرِقُ

بِالنَّارِ الْمَدِينَةَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهَا كَامِلَةً لِلرَّبِّ إِلهِكَ، فَتَكُونُ تَلاًّ إِلَى الأَبَدِ لاَ تُبْنَى بَعْدُ. وَلاَ يَلْتَصِقْ بِيَدِكَ شَيْءٌ مِنَ الْمُحَرَّمِ، لِكَيْ يَرْجِعَ الرَّبُّ مِنْ حُمُوِّ غَضَبِهِ، وَيُعْطِيَكَ رَحْمَةً. يَرْحَمُكَ وَيُكَثِّرُكَ كَمَا حَلَفَ لآبَائِكَ، إِذَا سَمِعْتَ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلهِكَ لِتَحْفَظَ جَمِيعَ وَصَايَاهُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، لِتَعْمَلَ الْحَقَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ إِلهِكَ» (سفر التثنية 13: 13-18).

يعقد إلهُ الإسلام الصفقات مع الرجال، بأسلوب الإشارات المكلفة ذاته، وسأقدّم فيما يلي مثالاً عن الكيفيّة التي يقايض بها الموتَ في المعركة، بالموارد العزيزة على قلوب أهل الصحراء (الماء)، وكيف يطالبهم بعدم التعاون مع أولئك الذين لا يتعاونون معه: «فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ. لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ» (سورة آل عمران: 195-197).

الإشارة المكلفة قد تكون ماديّة، إذ يكافئ الله الرجال في القرآن على تقديم ثرواتهم لتمويل الغزوات، وعلى التضحية بحياتهم في المعارك، فيهبهم إمّا النصر أو الفراديس: «الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» (سورة التوبة 20)، «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (سورة التوبة 111)، ويكافئهم لقاء القتال في سبيل عقيدته: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» (سورة التوبة 123)، ويكافئهم بالنصر في المعركة، وبالمغفرة، وبالحبّ، وبالجنّة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ

اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (سورة الصفّ 10–13).

دون شكّ، يحبّ الله أولئك الذين يقاتلون في سبيله: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ» (سورة الصفّ 4)، وهو من أرسل نبيّه محمّداً بالهداية والدين الحقّ (الإسلام)، ونصره على الأديان الأخرى كلّها، حتّى عندما قاومه المشركون: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (سورة الصفّ 9).

باختصار، يلجأ الناس إلى إله الأديان الإبراهيميّة باعتباره الذكر ألفا المهيمن، كي يتعاون معهم على العنف، تماماً كما يلجأ الرجال بعضهم إلى بعض. عبر الثقافات والجغرافيات والحقب المختلفة، تطالعنا قصص كثيرة عن رجال يسعون إلى التعاون مع الآلهة، مقابل تحالفها معهم في المعارك، وهو ما يدلّ على إرث غابر تركه لنا أسلافنا من الرئيسيّات، يُحْييه العنف الدينيّ من جديد.

III– التعصّب ضدّ الغرباء

قتلُ إنسان ما عن سابق إصرار وترصّد (على العكس من قتله عَرَضاً)، يُعدُّ أسوأ انتهاك لكلّ القوانين الاجتماعيّة منذ أقدم العصور، لذلك سنّت كلّ المجتمعات تشريعاتٍ تحرّم القتل. باختصار، تحريم القتل هو قاعدة راسخة بقوّة بين البشر، شرّعتها القوانين، كما أنّها بديهيّة للغاية، لدرجة أنّها توحي ضمناً بإجماع أخلاقيّ على وجود حقّ أساسيّ للإنسان، يتمثّل بعدم قتله على يد الآخرين. قد يبدو لنا ما سبق نظاماً أخلاقيّاً عالميّاً، لكنّه في الحقيقة ليس مطلقاً. هناك ضوابط صارمة ضدّ قتل أفراد الجماعة، لكنّ معظم المجتمعات تتساهل مع قتل أولئك الذين لا ينتمون إليها، أو تشجّع على ذلك، أو تجعله إجباريّاً. بالتالي، تحريم القتل ليس اتّفاقاً عالميّاً، بل تابو يُطبَّق انتقائيّاً. كي نكون منصفين، هذا النفاق التشريعيّ كان مسألة حياة أو

موت بالنسبة إلى البشر (تماماً كالحيوانات)، لأنّ المجموعات التي ترفض أن تَقتُل، أو غير القادرة على ذلك، ستُباد أو ستندمج ضمن مجموعات أخرى، مستعدّة للقيام بالقتل وقادرة على ارتكابه.

من هذا المنطلق غالباً، تبنّت الأديان بسهولة منطقَ قتل الغرباء. على سبيل المثال، الوصيّة السادسة في القانون اليهوديّ – المسيحيّ: «لا تقتل»، تعني في حقيقة الأمر كما طُبِّقت طيلة قرون عديدة: «لا تقتل أفرادَ جماعتك». عالِم الأديان جون تيهان كان محقّاً، عندما ذكّرنا بأنّ أوّل ما قام به موسى بعد نزوله من جبل سيناء، حاملاً لوحاً نُقِشَت عليه للتوّ وصيّة «لا تقتل»، كان ذَبْحَ أولئك الذين ارتكبوا خطايا أثناء غيابه: «وَقَفَ مُوسَى فِي بَابِ الْمَحَلَّةِ، وَقَالَ: مَنْ لِلرَّبِّ فَإِلَيَّ. فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمِيعُ بَنِي لاَوِي. فَقَالَ لَهُمْ: هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: ضَعُوا كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ عَلَى فَخْذِهِ وَمُرُّوا وَارْجِعُوا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ فِي الْمَحَلَّةِ، وَاقْتُلُوا كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ قَرِيبَهُ. فَفَعَلَ بَنُو لاَوِي بِحَسَبِ قَوْلِ مُوسَى. وَوَقَعَ مِنَ الشَّعْبِ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلاَثَةِ آلاَفِ رَجُل. وَقَالَ مُوسَى: امْلأُوا أَيْدِيَكُمُ الْيَوْمَ لِلرَّبِّ، حَتَّى كُلُّ وَاحِدٍ بِابْنِهِ وَبِأَخِيهِ، فَيُعْطِيَكُمُ الْيَوْمَ بَرَكَةً» (سفر الخروج 32: 26-29).

العبرة الأخلاقيّة للوصيّة السادسة الأصليّة، مبنيّة على منطق الانتماء للجماعة، وتؤسّس قاعدةً مفادها أنّ قتل أفراد من داخل الجماعة يُعَدّ جريمة، أمّا الغرباء فتُطبَّق عليهم معايير مختلفة، إذ يكون قتلهم مقبولاً غالباً، وصائباً من الناحية الأخلاقيّة، ومشروعاً في عيني الربّ. يزخر الكتاب المقدّس بأمثلة لا حصر لها، عن قتل الغرباء الذين لا ينتمون إلى الجماعة، كما حصل عندما وهبَ الربّ مملكة حشبون إلى اليهود، الذين لم يأخذوا غنائمهم صامتين، بل تبجّحوا بأنّهم: «أَخَذْنَا كُلَّ مُدُنِهِ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ، وَحَرَّمْنَا مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ: الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ. لَمْ نُبْقِ شَارِدًا» (سفر التثنية 2: 34)، من ثمّ هجموا على الملك باشان: «وَأَخَذْنَا كُلَّ مُدُنِهِ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ. لَمْ تَكُنْ قَرْيَةٌ لَمْ نَأْخُذْهَا مِنْهُمْ. سِتُّونَ مَدِينَةً، كُلُّ كُورَةِ أَرْجُوبَ مَمْلَكَةُ عُوجٍ فِي بَاشَانَ. كُلُّ هذِهِ كَانَتْ مُدُنًا مُحَصَّنَةً بِأَسْوَارٍ شَامِخَةٍ، وَأَبْوَابٍ وَمَزَالِيجَ. سِوَى قُرَى

الصَّحْرَاءِ الْكَثِيرَةِ جِدًّا. فَحَرَّمْنَاهَا كَمَا فَعَلْنَا بِسِيحُونَ مَلِكِ حَشْبُونَ، مُحَرِّمِينَ كُلَّ مَدِينَةٍ: الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالأَطْفَالَ» (سفر التثنية 3: 4-6).

يجادل تيهان –وهو على حقّ باعتقادي– أنّ ما حدث لا يمثّل «ضعف نفوس البشر، الذين استغلّوا طيبة الربّ ورحمته، بل مذابح أمر بها الربّ شخصياً». المثالان السابقان في سفر التثنية، هما إبادة جماعيّة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، تمّ تنفيذها بأمر صريح من إله ذكر مهيمن. إذن، قد يكون الإخلاص للجماعة حجّة أخلاقيّة، تعمي عيون المتديّنين الذين يرتكبون الفظائع باسم دينهم، متغنّين بنزاهة أخلاقهم، بينما ينظرون إلى الغرباء عن جماعتهم على أنّهم شياطين ثقافتهم مفلسة أخلاقيّة، وممارساتهم الدينيّة نوع من السحر، ممّا يسهّل قتلهم.

يُعرِّف «الإيثارُ المحدود» الأخلاقيّاتِ اليهوديّة – المسيحيّة، كما أنّه ازدهر في الإسلام. أوّلاً، أعلنت الآية التالية قواعده بصراحة: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» (سورة الفتح 29)، فضلاً عن وجود نصوص عديدة، تراقب كلّ نقطة من نقاط هذا الاتّفاق. حاولت العقيدة اليهوديّة – المسيحيّة أن تخلق نوعاً من الوحدة والأخوّة المعنويّة، أمّا القرآن (والثقافة الإسلاميّة) فشدّد على هذه الأخوّة المعنوية مراراً وتكراراً، كما في الآيتين التاليتين: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (سورة الحجرات 10)، «وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (سورة آل عمران 103).

ثانياً، بعد ترسيخ التحالف بين أفراد الجماعة، الخطوة التالية هي خلق مناخ من عدم الثقة بالغرباء، وهو ما أكّده القرآن باستفاضة: «لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» (سورة

آل عمران 28)، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ» (سورة آل عمران 118)، «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين» (سورة المائدة 57)، «تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ. وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ» (سورة المائدة 80–82)، «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» (سورة التوبة 30).

إذن، بعد أن أصبح غير المؤمنين غرباء عن الجماعة بالتعريف، يوصي إله الإسلام الذكر المهيمن بمعاداتهم، والانتقام منهم، والاعتداء عليهم: «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ» (سورة الأنعام 70)، «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا» (سورة النساء 56)، «وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ» (سورة البقرة 167)، «فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» (سورة التوبة 5).

على غرار المذابح التي يصفها سفر التثنية، إحراق العدو هنا عدّة مرّات

(وكأنّ جلده المحروق سيتجدّد بفعل السحر)، وإجباره على شرب الماء الذي يغلي، وتجاهل تضرّعاته وتوسّلاته وهو يطلب الرحمة والعفو، هي سلوكيّات لن تُعَدّ مقبولة أخلاقيّاً لو تمّ تطبيقها على أفراد الجماعة، بل تعذيب لا يمارسه إلّا السيكوباتيّون المختلّون، الذين لا يقيمون وزناً للأعراف داخل الجماعة.

في عيون العديد من المتديّنين، مفهوم الأخلاق بحدّ ذاته مرادف للالتزام بالممارسات والعقائد الدينيّة، بما فيها التعاليم الوحشيّة آنفة الذكر. فضلاً عن ذلك، من منظور المنتمين إلى ديانة ما، تعكس الفضيلة الدينيّة منطقاً أخلاقيّاً سامياً، ومجموعةً من المعايير الأخلاقيّة التي لا يمكن تجاوزها، صائبة من حيث المبدأ، وقويمة... إلخ، لكنّها لا تتعدّى حدود الانتماء إلى الجماعة الدينيّة، وهو ما يبدو لنا متناقضاً مع سموّها المفترض. هذه الحدود تلعب دوراً هامّاً للغاية في تسهيل الحروب الدينيّة، تذكّروا أنّ الحرب -وهي بالتعريف، التعاون على قتل الذين لا ينتمون إلى الجماعة- يتمّ تشريعها جماعيّاً من قبل الرجال المنتمين للجماعة، والذين ينخرطون فيها.

IV- أفراد الجماعة السيكوباتيّون

يحرّم القانون بعض الجرائم في جميع البلدان حول العالَم، كالاغتصاب، والقتل، والسرقة... إلخ، ويعدّها سلوكيّات بغيضة تعرّض من يرتكبها للعقاب. يطبّق الأفرادُ المتحضّرون من أصحاب الضمير قواعدَ مجتمعاتهم عادة، لكنّنا سنجد ضمن كلّ مجتمع بعض الأشخاص الميّالين إلى خرق القوانين، والذين يرتكبون أفعالاً مشينة دون ندم أو رأفة، فينتهكون بالتالي قواعد التعاون في ذلك المجتمع. هذا السلوك شاذٌّ إحصائيّاً، ويتسبّب بالمعاناة للغير، ويُعدّ اضطراباً مَرَضيّاً من الناحية السريريّة، يُشَخَّص كـ «اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع» antisocial personality، (وهو مصطلح سأستخدمه هنا بالترادف مع السيكوباتيّة psychopathy، والعداء للمجتمع sociopathy)، الذي يلخّص كلّ ما سبق بدقّة تامّة.

فيما يلي، قائمة بالمعايير التشخيصيّة لاضطراب الشخصيّة المعادية

للمجتمع. لاحِظوا أنّ الأعراض مُوَجَّهة اجتماعياً (كما يقترح الاسم)، وفكِّروا بالعواقب الناجمة عنها بالنسبة لمجتمع يسوده التعاون. كي يُشخَّص المريض على أنّه سيكوباتيّ، يجب أن يبدي السلوكيّات التالية:

1- الإخفاق بالالتزام بالمعايير الاجتماعيّة السائدة، فيما يخصّ الامتثال للقانون، ويدلّ عليه تعرّض الشخص للاعتقال المتكرّر بسبب أفعاله.

2- الغشّ، أو الكذب المتكرّر، أو انتحال الشخصيّة، أو خداع الآخرين للحصول على منفعة أو متعة شخصيّة.

3- الاندفاع، وعدم القدرة على التخطيط المسبق.

4- الهياج والعدوانيّة، ويتظاهران بتكرّر المواجهات البدنيّة، أو الاعتداءات الجسديّة.

5- التهوّر بما يخصّ سلامة النفس، وسلامة الآخرين.

6- السلوك غير المسؤول المتكرّر، كالفشل مراراً بالاستمرار في وظيفة ما، أو عدم الوفاء بالالتزامات الماليّة.

7- غياب الرادع الأخلاقيّ، أي عدم المبالاة واللّاعقلانيّة تجاه إيذاء الآخرين، أو إساءة معاملتهم، أو سرقتهم.

تغصّ السجون بالمصابين بذلك الاضطراب، بمن فيهم القتلة المتسلسلون، والمغتصبون المتسلسلون، والمحتالون، ولن يفاجئنا أنّه أشيع عند الذكور. تدعم أدلّة عديدة من مختلف الفروع العلميّة، فرضيّةَ أنّ السيكوباتيّة هي اضطراب نفسيٌّ موروث، ممّا يقترح أنّ السلوكيّات المعادية للمجتمع قد انْتُخِبَت بالاصطفاء الطبيعيّ، خاصّة خلال الماضي التطوّريّ لأسلافنا من ذكور الرئيسيّات. العلامة الواسمة لهذا الاضطراب، هي ممارسة الغشّ الاجتماعيّ، ففي بحث كلاسيكيّ عن آليّته الإمراضيّة، تصف ليندا ميلي السيكوباتيّين على النحو التالي: أشخاص ذوو نمط جينيّ وفيزيولوجيّ معيّن، وشخصيّة خاصّة، عاجزون عن الشعور بـ«المشاعر الاجتماعيّة الثانويّة» التي تُساهم عادة بالحوافز والكوابح السلوكيّة، كما

يشغل المصابون الموقعَ الذي يصفه علماء نظريّة الألعاب بـ «استراتيجيّة الغشّاش». بعبارة أخرى، أولئك المصابون باضطراب الشخصيّة المعادية للمجتمع هم أبرع المحتالين على الإطلاق، فهم ليسوا ميّالين للعدوانيّة فحسب، بل يغشّون ويحتالون، ويتظاهرون بالتعاون بذرائع زائفة، عادة كي يسرقوا الآخرين.

لا تعدّ السرقة اختلالاً مَرَضياً استناداً إلى معايير «الجمعيّة الأمريكيّة لعلم النفس» فقط، بل أيضاً في عيني الإله الإبراهيميّ. من خلال الوصيّة الثامنة «لا تسرق»، يعلن إله العقيدة اليهوديّة - المسيحيّة بصراحة عن أنّ السرقة هي سلوك ممنوع، كما تناولت مقاطع عديدة في الكتاب المقدّس مشكلةَ السرقة: «لا تَسْرِقُوا، وَلاَ تَكْذِبُوا، وَلاَ تَغْدُرُوا أَحَدُكُمْ بِصَاحِبِهِ» (سفر اللّاويّين 19: 11)، «إِذَا سَرَقَ إِنْسَانٌ ثَوْرًا أَوْ شَاةً فَذَبَحَهُ أَوْ بَاعَهُ، يُعَوِّضُ عَنِ الثَّوْرِ بِخَمْسَةِ ثِيرَانٍ، وَعَنِ الشَّاةِ بِأَرْبَعَةٍ مِنَ الْغَنَمِ» (سفر الخروج 22: 1)، «مَوَازِينُ غِشٍّ مَكْرَهَةُ الرَّبِّ، وَالْوَزْنُ الصَّحِيحُ رِضَاهُ» (سفر الأمثال 11: 1)، «لاَ يَسْرِقِ السَّارِقُ فِي مَا بَعْدُ، بَلْ بِالْحَرِيِّ يَتْعَبُ عَامِلًا الصَّالِحَ بِيَدَيْهِ، لِيَكُونَ لَهُ أَنْ يُعْطِيَ مَنْ لَهُ احْتِيَاجٌ» (رسالة بولس إلى أهل إفسس 4: 28). هذه القواعد تبدو صائبة أخلاقياً، لكنّها في الواقع وصايا مشروطة، إذ إنّنا لو حلّلنا بقيّة الكتاب المقدّس، لاكتشفنا أنّها تنطبق فقط على المنتمين للجماعة المؤمنة، باعتبارها قواعد تنظّم التبادليّة، وتهدف إلى المحافظة على التعاون والتلاحم داخل تلك الجماعة، بينما يتحوّل من لا ينتمون إليها إلى لقمة سائغة. تُشتَهر الشخصيّات الباترياركيّة في الكتاب المقدّس، بأنّها تسرق الغرباء -بتشجيع من الربّ- حتّى ولو أدّت السرقة إلى ذبح الضحايا: «وضرب داود الأرض ولم يستبق رجلاً ولا امرأة وأخذ غنماً وبقراً وحميراً وجمالاً وثياباً ورجع وجاء إلى أخيش، فقال أخيش إذا لم تغزوا اليوم فقال داود بلى على جنوبي يهوذا وجنوبي اليرحمئيليين وجنوبي القينيين، فلم يستبق داود رجلاً ولا امرأة حتى يأتي إلى جت إذ قال لئلا يخبروا عنا قائلين هكذا فعل داود وهكذا عادته كل أيام إقامته في بلاد الفلسطينيين» (سفر صموئيل الأوّل 27: 9-11).

في المثال التالي، يهب الربّ مدينة أريحا ليشوع، الذي ينهب ممتلكات سكّانها، ويرتكب إبادة جماعيّة لتحقيق ذلك: «وَكَانَ فِي الْمَرَّةِ السَّابِعَةِ عِنْدَمَا ضَرَبَ الْكَهَنَةُ بِالأَبْوَاقِ أَنَّ يَشُوعَ قَالَ لِلشَّعْبِ: اهْتِفُوا، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَعْطَاكُمُ الْمَدِينَةَ، فَتَكُونُ الْمَدِينَةُ وَكُلُّ مَا فِيهَا مُحَرَّمًا لِلرَّبِّ. رَاحَابُ الزَّانِيَةُ فَقَطْ تَحْيَا هِيَ وَكُلُّ مَنْ مَعَهَا فِي الْبَيْتِ، لأَنَّهَا قَدْ خَبَّأَتِ الْمُرْسَلَيْنِ اللَّذَيْنِ أَرْسَلْنَاهُمَا، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَاحْتَرِزُوا مِنَ الْحَرَامِ لِئَلاَّ تُحَرَّمُوا، وَتَأْخُذُوا مِنَ الْحَرَامِ وَتَجْعَلُوا مَحَلَّةَ إِسْرَائِيلَ مُحَرَّمَةً وَتُكَدِّرُوهَا. وَكُلُّ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَآنِيَةِ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ تَكُونُ قُدْسًا لِلرَّبِّ وَتَدْخُلُ فِي خِزَانَةِ الرَّبِّ. فَهَتَفَ الشَّعْبُ وَضَرَبُوا بِالأَبْوَاقِ. وَكَانَ حِينَ سَمِعَ الشَّعْبُ صَوْتَ الْبُوقِ أَنَّ الشَّعْبَ هَتَفَ هُتَافًا عَظِيمًا، فَسَقَطَ السُّورُ فِي مَكَانِهِ، وَصَعِدَ الشَّعْبُ إِلَى الْمَدِينَةِ كُلُّ رَجُل مَعَ وَجْهِهِ، وَأَخَذُوا الْمَدِينَةَ، وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُل وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْل وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ. وَقَالَ يَشُوعُ لِلرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ تَجَسَّسَا الأَرْضَ: ادْخُلاَ بَيْتَ الْمَرْأَةِ الزَّانِيَةِ وَأَخْرِجَا مِنْ هُنَاكَ الْمَرْأَةَ وَكُلَّ مَا لَهَا كَمَا حَلَفْتُمَا لَهَا. فَدَخَلَ الْغُلاَمَانِ الْجَاسُوسَانِ وَأَخْرَجَا رَاحَابَ وَأَبَاهَا وَأُمَّهَا وَإِخْوَتَهَا وَكُلَّ مَا لَهَا، وَأَخْرَجَا كُلَّ عَشَائِرِهَا وَتَرَكَاهُمْ خَارِجَ مَحَلَّةِ إِسْرَائِيلَ. وَأَحْرَقُوا الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ مَعَ كُلِّ مَا بِهَا، إِنَّمَا الْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ وَآنِيَةُ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ جَعَلُوهَا فِي خِزَانَةِ بَيْتِ الرَّبِّ. وَاسْتَحْيَا يَشُوعُ رَاحَابَ الزَّانِيَةَ وَبَيْتَ أَبِيهَا وَكُلَّ مَا لَهَا، وَسَكَنَتْ فِي وَسَطِ إِسْرَائِيلَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ، لأَنَّهَا خَبَّأَتِ الْمُرْسَلَيْنِ اللَّذَيْنِ أَرْسَلَهُمَا يَشُوعُ لِكَيْ يَتَجَسَّسَا أَرِيحَا. وَحَلَفَ يَشُوعُ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ قَائِلاً: مَلْعُونٌ قُدَّامَ الرَّبِّ الرَّجُلُ الَّذِي يَقُومُ وَيَبْنِي هذِهِ الْمَدِينَةَ أَرِيحَا. بِبِكْرِهِ يُؤَسِّسُهَا وَبِصَغِيرِهِ يَنْصِبُ أَبْوَابَهَا. وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يَشُوعَ، وَكَانَ خَبَرُهُ فِي جَمِيعِ الأَرْضِ» (سفر يشوع 6: 9-27)

حرّم القرآن بدوره السرقة، تحريماً مطلقاً: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (سورة المائدة 38)، لكنّنا هنا أيضاً أمام معايير مزدوجة، فقد موّل النبيّ محمّد وصوله إلى السلطة، بالثروات التي جمعها من شنّ الغزوات على قوافل الصحراء،

وشارك شخصياً في سبع وعشرين غزوة. يجمع الكثير من المؤرّخين على أنّ تلك الغزوات كانت عدواناً، وليس دفاعاً عن النفس، شنّها محمّد بهدف الاستيلاء على الموارد، ولم يكن الإسلام لينتشر لولاها.

تَجَاهُل أخلاقيّات الجماعة أثناء المحاولات الدينيّة، أو العلمانيّة، لسرقة الموارد، يتمّ بشكل غير واعٍ، ممّا جعل علماء السيكولوجيا يستنتجون أنّه ظهر عن طريق السيكولوجيا التطوّريّة، والأمر ذاته ينطبق على القتل أيضاً.

٧- القتل السيكوباتيّ

في صيف عام 1969، أمر تشارلز مانسون أتباعَه باغتيال جميع المقيمين في منزله الكائن في ضواحي لوس أنجلس، قائلاً: «أبيدوهم جميعهم، وبأقصى درجة من الوحشيّة». شارون تايت، وهي ممثّلة هوليووديّة شابّة، قُتِلت آنذاك رغم أنّها كانت حبلى. لم تشفع لها تضرّعاتها اليائسة من أجل حياة جنينها، بل تلقّت ستّ عشرة طعنة، وكتب أتباع مانسون بدمها كلمة «خنزير» على الباب الأماميّ. تيد بَندي هو سيكوباتيّ شهير آخر، اغتصب ثلاثين امرأة على الأقلّ وقتلهنّ، كما قطع رؤوس اثنتي عشرة امرأة منهنّ. أحمد سراجي هو قاتل متسلسل إندونيسيّ، قتل اثنتين وأربعين امرأة وطفلة، وعُرِفَ عنه أنّه يدفن ضحيّته في التراب إلى مستوى الخصر، ثمّ يخنقها بسلك.... تطول القائمة، لكنّني لن أرهق القارئ بالتفاصيل.

إن قرأتم هذه الحوادث، وشعرتم بقشعريرة باردة تسري في عمودكم الفقريّ، أو أحسستم بالاشمئزاز الأخلاقيّ، هذا يعني أنّ بوصلتكم الأخلاقيّة تعمل كما يجب. تلك الأفعال الدنيئة التي تُرتَكب دون أدنى وازع أخلاقيّ، سواء أقدم عليها المجرم من تلقاء نفسه، أم استجابة لأوامر فرد آخر مهيمن، تنتهك القوانين الأخلاقيّة إلى حدّ أنّ معظم المجتمعات، تعتبر من يرتكبها غير جدير بالحياة، فقد عُوقِب اثنان من المجرمين في الأمثلة السابقة بالإعدام، وهو ما أيّده المجتمع بقوّة في كلا الحالتين. سريريّاً، سلوك أولئك المجرمين يمثّل جوهر السيكوباتيّة.

الأفعال التي يرتكبها هؤلاء السيكوباتيّون المحتالون، الذين يبغضهم أفراد جماعتهم في كلّ مكان من العالم، قد لا تروّعنا عندما تُنفَّذ ضدّ الذين لا ينتمون إلى الجماعة، والذين لا ينتفعون غالباً من القوانين الأساسيّة القائمة، التي تحرّم الاغتصاب والقتل والتعذيب وقتل الأطفال. أكرّر أنّ الذكور ليسوا مضطرّين إلى اللجوء للدِين، كي يفصلوا الأخلاقيّات إلى داخل / خارج الجماعة، لكن ضمن المؤسّسات الدينيّة المختلفة، التي تُعدّ عماداً للفضيلة في معظم أجزاء العالَم، نجد أنّ ازدواجيّة المعايير الأخلاقيّة مشروحة علناً وبالتفصيل، حتّى على مستوى أبسط النصوص الدينيّة الأساسيّة. درسنا فيما سبق رأي جون تيهان بأنّ «لا تقتل»، تعني في الواقع: «لا تقتل أولئك الذين يقوم بينك وبينهم، اتّفاق على التعاون». النفاق إذن كما يبدو، هو انتهاك آخر للقوانين الأخلاقيّة، التي تنطبق حصريّاً على أولئك الذين يتعاونون معاً، ضمن الجماعة ذاتها.

أنا أجادل هنا بأنّ التحيّز لمصلحة المنتمين إلى الجماعة، ولمصلحة بُنى الهيمنة، هو أحد أهمّ الصفات المتجذّرة في أعماق الجنس البشريّ، وأخطرها على الإطـلاق. التعصّب حـرّض الحروب، والاضطهاد، والتعذيب، وغيرها من التصرّفات الوحشيّة، وسمح لمعظم البشر بإتقان النفاق، وخوّلهم الحقّ بالتلاعب باتّجاه داخل الجماعة / خارج الجماعة. يعلّق ديفيد ليفنغستون سميث فيما يلي، على تحيّز الفرد لاعتبار نفسه الأسمى أخلاقيّاً: «يُسهِّل خداعُ الذات الآليّةَ السيكولوجيّة لارتكاب القتل، ويواسي الضمير الموجوع. من خلال إسدال غطاء على أعيننا، والاستكانة إلى خداع الذات، نحسب أنفسنا أشخاصاً وَرِعين أخلاقيّين رحيمين، حتّى عندما ندعم، أو نشارك، في تدمير كائنات بشريّة أخرى دماراً شاملاً».

من الواضح أنّ البشر ينزعون إلى التحيّز لمصلحة من ينتمي إلى جماعتهم، لكنّ الأديان غالباً ما تشجّع ذلك التحيّز وتشرّعه. إله اليهوديّة - المسيحيّة على سبيل المثال، يأمر أتباعه صراحة بالامتناع عن التعاطف مع غيرهم من البشر، ربّما في محاولة منه لتعطيل الكوابح التي تمنع الشخص

من ارتكاب العنف ضدّ أبناء جنسه: «وَتَأْكُلُ كُلَّ الشُّعُوبِ الَّذِينَ الرَّبُّ إِلهُكَ يَدْفَعُ إِلَيْكَ. لاَ تُشْفِقْ عَيْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَعْبُدْ آلِهَتَهُمْ، لأَنَّ ذلِكَ شَرَكٌ لَكَ» (سفر التثنية 7: 16). عندما يُلغى التعاطف من المعادلة، تصبح كلّ أنماط القتل مباحة. الإبادة الجماعيّة على سبيل المثال، تتكرّر في الكتاب المقدّس، فمن خلال موسى يساعد الربُّ يشوعَ على إبادة اثنتي عشرة مملكة، وفقاً لتقدير ناقد الأديان ستيف ويلز، ويغدق الغنائم على الإسرائيليّين: «فَأَخَذَ يَشُوعُ كُلَّ مُدُنِ أُولئِكَ الْمُلُوكِ وَجَمِيعَ مُلُوكِهَا وَضَرَبَهُمْ بِحَدِّ السَّيْفِ. حَرَّمَهُمْ كَمَا أَمَرَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ. غَيْرَ أَنَّ الْمُدُنَ الْقَائِمَةَ عَلَى تِلاَلِهَا لَمْ يُحْرِقْهَا إِسْرَائِيلُ، مَا عَدَا حَاصُورَ وَحْدَهَا أَحْرَقَهَا يَشُوعُ. وَكُلُّ غَنِيمَةِ تِلْكَ الْمُدُنِ وَالْبَهَائِمَ نَهَبَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لأَنْفُسِهِمْ. وَأَمَّا الرِّجَالُ فَضَرَبُوهُمْ جَمِيعًا بِحَدِّ السَّيْفِ حَتَّى أَبَادُوهُمْ. لَمْ يُبْقُوا نَسَمَةً» (سفر يشوع 11: 12–14)، وها هي لمحة أخرى موجزة عن الإبادات الجماعيّة التي ارتكبها البشر بأمر من الربّ، تذكّرنا بجرائم مانسون وأتباعه (قتل الرجال والنساء والأجنّة)، لكن على مستوى أضخم: «هكذا يقول ربّ الجنود إنّي قد افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر، فالآن اذهب واضرب عماليق وحرّموا كلّ ما له، ولا تعفُ عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جَمَلاً وحماراً» (سفر صموئيل الأوّل 15: 2–3)

الإبادة الجماعيّة هي إحدى علل الوجود الإنسانيّ، حتّى لو تناولناها فقط من منظور المعاناة الهائلة التي تسبّبها، لكنّ النصوص الدينيّة التي تمدحها ما زالت تُعدُّ نصوصاً مقدّسة في الكنائس والكاتدرائيّات حول العالَم، لأنّ القتل هو انتصار ضدّ الشرّ، أمر به إلهٌ خَلوق معصوم بطبيعته.

الحملات الصليبيّة عُدَّت بدورها صائبة أخلاقيّاً في الحقبة التي جرت فيها، كما تمّ الاستشهاد بها بعد قرون عديدة من قبل قادة العالَم، كجورج دبل. يو. بوش، الذي نادى بـ«حملة صليبيّة ضدّ الإرهاب». في حقيقة الأمر، الحملات الصليبيّة كانت سلسلة طويلة من المعارك التي خلّفت دماراً هائلاً، تسبّب المسيحيّون بالجزء الأكبر منه. خذوا على سبيل المثال

أحداث 15 تمّوز 1099، حين هجم اثنا عشر ألف جنديّ صليبيّ على القدس، فهدموا أسوارها ثمّ دمّروها. لا بدّ أن تذكّرنا كلمات شاهد العيان، القسّ رايموند دي أغيلير، بأنّ التحيّز لمصلحة المنتمين إلى جماعتنا، يهزم المعايير الأخلاقيّة البشريّة:

«سنرى أموراً مدهشة! قُطِعَت رؤوس عدد من السراسين[4]... بينما رُشِقَ آخرون بالسهام، أو أُجْبِروا على القفز من الأبراج، وخضع غيرهم للتعذيب عدّة أيّام، من ثمّ أُحْرِقوا. في الشوارع، رأينا أكواماً من الرؤوس والأيدي والأقدام، وكنّا نتجوّل في كلّ مكان بين جثث الرجال والخيول». ونَقَت سجلّات أخرى اغتصاب النساء وذبحهنّ، وانتزاع الرضّع عن أثداء أمّهاتهنّ، ثمّ قتلهم بتحطيم رؤوسهم على الأعمدة، أو برميهم من فوق الأسوار. قُتِلَ حوالي سبعين ألف مسلم يومها، وجُمِعَ اليهود داخل كنيس، ثمّ أُحرِقوا أحياء.

الإسلام مذنب بدوره، لأنّه يطبّق ذلك المنطق المقلوب على القتل، تجاه أولئك الذين لا ينتمون إلى الجماعة. هناك مقاطع عديدة في القرآن تسرد أفعالاً مشينة باسم الدين، لكن أوّلاً، لا بدّ من وضع التراحم جانباً كما فعل الكتاب المقدّس اليهوديّ - المسيحيّ: «فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ» (سورة محمّد 35)، وعندها يصبح العنف ممكناً بكلّ أشكاله: «إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» (سورة الأنفال 12)، أمّا أولئك الذين يشنّون الحرب ضدّ الله ورسوله ويعيثون فساداً في الأرض، فسيعاقَبون بأن يُقتَلوا، أو يُصلَبوا، أو تُقطَع أيديهم وأرجلهم، أو يُسجَنون، وهي عقوبات تجلب

4- Saracen لقب استخدمه الكتّاب اللاتينيّون والإغريقيّون في الحقبة الكلاسيكيّة المتأخّرة للإشارة إلى سكّان إقليم البتراء وإقليم الصحراء العربيّة الرومانيّين. بدأ المسيحيّون باستخدامه في القرون اللّاحقة للإشارة إلى قبائل شبه الجزيرة العربيّة كلّها، ومن ثمّ توسّع المفهوم أكثر مع البيزنطيّين، الذين استخدموه للإشارة إلى أيّ مسلم في دولة الخلافة، وانتقل استعماله مع الصليبيّين إلى أوروبا. المترجمة

الخزي عليهم في هذا العالم، فضلاً عن العذاب الأليم الذي ينتظرهم في الحياة الآخرة: «إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (سورة المائدة 33).

هذا النمط من الوحشيّة التي يحرض عليها الدِين، يعكس بكلّ بساطة وَعْيَنا في حقبة غابرة، أي مجموعة من المبادئ الأخلاقيّة التي تركناها خلفنا منذ العصر التوراتيّ. من جهة أخرى، أفعال القتل أو البتر أو التعذيب، التي تتمّ باسم الأديان بلا رحمة، لا تقتصر على العقائد الإبراهيميّة فقط، أو على حقبة إبراهيم أو يسوع أو محمّد. في الهند عام 2002 مثلاً، هجمت حشود من الهندوس في غوجارات، على المسلمين الذين يعيشون هناك (ولا ينتمون إلى الهندوس بطبيعة الحال). طُعِنَت الأمّهات بالسيوف أمام عيون أبنائهنّ، وجُرِّدَت الشابّات من ملابسهنّ وتمّ اغتصابهنّ في وضح النهار، ثمّ دُلِقَ عليهنّ الكاز وأُحرِقنَ، كما شقّ الهندوس بطن امرأة حامل، وغرزوا جنينها على ذروة سيف، ثمّ ألقوا به إلى إحدى المحارق التي اندلعت في المدينة. بعدها، مشّطوا الأحياء المسلمة، فسرقوا ونهبوا واغتصبوا، وأحرقوا مئة وأربعة وعشرين مسلماً وهم على قيد الحياة.

تلك الأفعال الوحشيّة التي تثير القشعريرة، تحمل علامات السيطرةِ على منطقة النفوذ عند الرئيسيّات، والولاءِ للجماعة، والتحالفِ مع الذكر ألفا، واستعراضاتِ الهيمنة التي تقوم بها الرئيسيّات. جرائم الهندوس تلك، عُدَّت انتقاماً لهجوم سابق، شنّه المسلمون على قطار مليء بالناشطين الأعضاء في «مجلس فشنو الهندوسيّ» (أي المجلس الهندوسيّ العالميّ). وفقاً للقصّة المتداولة، هُدِمَ مسجد يعود تاريخ بنائه إلى القرن السادس عشر، بغية تشييد معبد هندوسيّ مكرّس للإله رام، وهو إلهٌ ذكرٌ عَلِيٌّ، وأحد آلهة الحرب. أعضاء المجلس الهندوسيّ، الذين كانوا يقومون بجولة لحشد التأييد لبناء المعبد، اندفعوا من القطار آنذاك، وحاولوا أن يجبروا بائعاً مسلماً

على الهتاف «يعيش رام»، ثمّ شدّوه من لحيته (سنناقش الأهمّيّة التطوّريّة للحى في الفصل القادم)، وضربوه عندما رفض الانصياع لطلبهم. انتقم المسلمون لما حصل، فرشقوا القطار بالحجارة، وأضرموا فيه النار وقتلوا خمسين شخصاً، معظمهم من النساء والأطفال كما قيل. جرائم قتل الأطفال والنساء تلك، تروّع معظم الأشخاص الذين يطيعون قواعد الولاء والالتزام بالجماعة التي ينتمون إليها، لكنّ الرجال عموماً لا يشعرون بأنّهم مضطرّون لاعتبارها أفعالاً غير أخلاقيّة، إن ارتكبوها ضدّ العدو.

المثال الأفضل عن ازدواج المعايير بالنسبة للقتل الذي يحرّض عليه الدِين، يقدّمه إله اليهوديّة-المسيحيّة نفسه. إله الكتاب المقدّس، يقتل لأسباب لها مبرّراتها وفق المعايير الأخلاقيّة داخل الجماعة، لكنّها جرائم يرتكبها بأسلوب القاتل السيكوباتيّ عديم الرأفة. في كتابه «سكرانُ بالدم: الإله القاتل في الكتاب المقدّس»، يلقي ستيف ويلز الضوء على نزوات الربّ المتقلّبة فيما يتعلّق بالقتل: «يدفن الربّ الطرفين المتحاربَين كليهما مع عائلتيهما، أحياء» (سفر العدد 16: 34)، و«يحرق الربّ مئتين وخمسين شخصاً أحياء، لأنّهم أشعلوا البخور» (سفر العدد 16: 35). بمقدورنا أن نملأ صفحات وصفحات بأمثلة مشابهة كما فعل ويلز، لكنّ النقطة الأهمّ في عمله، هي قيامه بإحصاء ضحايا كلّ جرائم القتل التي عدّدَها الكتابُ المقدّس، سواء تلك المنسوبة إلى الربّ، أو إلى الشيطان. استنتج ويلز أنّ الربّ مسؤول مباشرة عن قتل مليونين ونصف المليون شخص تقريباً -أو 2475636 شخصاً على وجه التحديد- أمّا الشيطان فلم يقتل سوى عشرة أشخاص فقط. بعد ذلك، قدّر ويلز حجم المدن والمجتمعات التي أبادها الربّ، فوجد أنّ الإله التوراتيّ قد أباد ما ينوف على أربعة وعشرين مليون شخص (24643205 شخصاً بالضبط)، العديد منهم كانوا من عباده، مقابل ستّين شخصاً قتلهم الشيطان. من نافل القول إنّ الشيطان باعتباره عدوّ الله، يُصوَّر على أنّه خبيث وشرّير وخطر، بل الشرّ بعينه، أمّا الإله اليهوديّ - المسيحيّ فهو إله فاضل. لذلك، يخضع كلّ ما يرتكبه من قتل وإبادة إلى

التحوير في النصوص المقدّسة، ويُبَرّر منطقياً، أو يتمّ تجاهله، أو إنكاره كلياً ببساطة، فالربّ لم يرتكب شخصياً أيّاً من أفعال القتل تلك، لأنّها إمّا أن تنجم عن كوارث طبيعيّة (زلازل، طوفانات، أوبئة)، أو ينفّذها الرجال كما يفعلون دائماً في الحروب الدينيّة.

المنطق الذي تقوم عليه الحروب الدينيّة (والعلمانيّة أيضاً) يستند غالباً إلى معايير سامية، تقدّم تبريراً دينياً أخلاقياً للأفعال التي يرتكبها البشر في ساحة المعركة. آليّة العنف المُنظَّم في سياق الحروب الدينيّة، تقوم على أنماط التحالفات الغابرة بين الرئيسيّات، وتتحدّد بقواعد التعاون داخل الجماعة. لعب الله دوراً محوريّاً، وحرّض الذكور المهيمنين في تاريخنا التطوّريّ، بأسلوب يبدو لنا بديهيّاً للغاية من منظور السيكولوجيا التطوّريّة. الرئيسيّات غير البشريّة مهووسة بالمهيمنين، وتنفق مقداراً ضخماً من الطاقة ومن الوقت كي تتحالف معهم، ولا يختلف البشر عنها كثيراً. بتصوير الله على أنّه أقوى ذكر في الكون، تتحوّل التجربة الدينيّة إلى قوّة جذب خاصّة للتحالف معه، كما يلجأ البشر إلى إشارات مكلفة لتحقيق ذلك، كالهجوم على من سيصبحون أعداءه، أو بالدفاع عن كلمته، مستعينين أحياناً بوسائل متطرّفة، كالقتل. في أحيان أخرى، قد يتحالفون معه من خلال التقديمات والأضاحي، وأخبثها هي تلك التي تُقَدَّم كـ«طعام» من الدماء والجثث البشريّة. إجمالاً، اتّباعُ أنماطِ التحالف التي تعقدها الرئيسيّات، بغية عقد تحالف مع الله، سبّب معاناة هائلة للجنس البشريّ.

كخلاصة، تعاونُ أسلافِنا معاً تحت راية العقائد الإيديولوجيّة الغريزيّة، صبَّ لمصلحتهم، خاصّة أولئك الذين عاشوا في الحقبة البربريّة التي ظهرت خلالها الأديان الإبراهيميّة، وكان اتّحادهم تحت قيادة ذكر مهيمن، مسألةَ حياة أو موت. إدراك ميولنا اللّاواعية -كالعديد من مناحي السيكولوجيا التطوّريّة الأخرى- سيساعدنا على التخلّي عمّا يزيد عذاب البشر، أمّا تمييزُ الآليّات البيولوجيّة للنفاق الأخلاقيّ، فسيسهّل ابتعادنا عن السلوك السيكوباتيّ، حتّى عندما يظهر خارج نطاق جماعتنا المباشَرة، وهو ما ينبغي

أن ينطبق على الجماعات الدينيّة، وأن يضع تحت عدسة المجهر تلك المعايير الأخلاقيّة «السامية» التي تحرّض العنف الدينيّ. يجب أن يخضع الولاء لإله ذكر مهيمن معيّن إلى الحدّ الأقصى من التمحيص، لأنّ ذلك الولاء هو غالباً العلامة الواسمة لهويّة الجماعة، التي تولّد أبشع الجرائم ضدّ من لا ينتمون إليها.

***

الفصل السادس

ماذا يعني أن تركع؟

«للوهلة الأولى، يفاجئنا النجاح الساحق الذي حقّقته الأديان، لكنّ قدرتها تلك هي ببساطة مقياس لقوّة ميولنا البيولوجيّة الأساسيّة، التي ورثناها مباشرة عن أسلافنا القرود والآيب، أي استسلامنا الكليّ لفرد من أفراد جماعتنا، يتمتّع بالهيمنة والنفوذ المطلق».

• ديزموند موريس / القردُ العاري

الهيمنة والحجم: ماذا يعني أن تكون ضخماً؟

لقد أورثنا أسلافُنا بروتوكولاتٍ اجتماعيّة معيّنة، قمنا بدورنا بإسقاطها على الله. في مجتمعات الرئيسيّات، ينكمش الأفراد الأدنى مرتبة على أنفسهم تلقائياً أمام الذكر المهيمن، ممّا يجعله يبدو أضخم، ويعزّز فوقيّته. إله الأديان الإبراهيميّة، كغيره من آلهة الأديان الأخرى، يُصَوَّر غالباً على أنّه ذكر ضخم، يطالب أتباعه بالانحناء له. مطلبٌ كهذا سينتهك العقائد المركزيّة في مفهوم الإله الإبراهيميّ، كالقدرة الكليّة (إذ لا وجود لمنافس حقيقيّ له)، اللّاجسديّة (الحجم مهمٌّ فقط بالنسبة إلى كائن من لحم ودم)، والخلود (لا يحتاج الله إلى التكاثر بيولوجيّاً، وبالتالي لن يقدّم إخضاع الذكور الآخرين

منفعةً له على هذا الصعيد). كي نفهم ذلك الإسقاط، سنبدأ بدراسة دور الحجم في التراتبيّات الهرميّة للرئيسيّات.

تُعزى الفروقات الجنسيّة في الحجم، إلى الاصطفاء الجنسيّ الذي يعمل من خلال التنافس على التزاوج بين الذكور. الذكور الأضخم حجماً هم الفائزون عادة في المنافسة على التزاوج، وبالتالي سيمرّرون الجينات التي تُرمِّز الضخامةَ إلى الأجيال التالية من الذكور. تطوّر البشر بدورهم ضمن مجتمعات مُنَظَّمة وفق التراتبيّة الهرميّة، وتنافسوا بعنف على المكانة الاجتماعيّة، خاصّة بين الرجال. نظراً للكلفة الباهظة التي تفرضها المواجهات الجسديّة، القدرةُ على معرفة المرتبة التي يشغلها الخصم على سلّم التراتبيّة الهرميّة، تُعَدُّ ضغطاً اصطفائيّاً هامّاً قولَبَ العقل البشريّ، (بعبارة أخرى، الإخفاق بإدراك أنّ الخصم يتمتّع بمرتبة عليا، قد يكون خطأً قاتلاً)، وأدّى إلى تطوّر بنى دماغيّة خاصّة، مكرّسة لتقييم المعلومات المتعلّقة بالمكانة الاجتماعيّة. لذلك، يحلّل البشر تلك المعلومات بشكل غير واعٍ، وبسرعة فائقة. فهمُ العلاقة ما بين الحجم، والقدرةِ على التسبّب بأذى جسديّ، هو آليّة هامّة من آليّات تمييز الهيمنة.

ضخامة الحجم هي مرادف للهيمنة عند الكثير من أنواع الحيوانات، كما أنّها تلعب دوراً هامّاً في بنى المكانة الاجتماعيّة بين الرجال، إذ ينوّه العالمُ واللغويُّ ستيفن بنكر مثلاً، إلى أنّ قادة مجتمعات الصيد والالتقاط، كانوا رجالاً ضخاماً بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى. تناقصت أهمّيّةُ الحجم في التنافس بين الرجال ضمن المجتمعات الصناعيّة في عصرنا الحاليّ، التي لا يتمّ فيها الاستحواذ على الموارد عبر المواجهات الجسديّة بالضرورة، لكنّ أهمّيّة الحجم السيكولوجيّة ما تزال ملحوظة. خذوا بيئة العمل كمثال: وجدت الأبحاث أنّ طول القامة يلعب دوراً هامّاً في سوق العمل، ويترافق مع الهيمنة والمكانة والأجور الأعلى، كما يؤثّر على نمط الوظيفة التي سيشغلها الشخص (وظيفة مكتبيّة، أم عمل يدويّ). استناداً إلى الإحصاءات، مديرو المبيعات أطولُ عادة من البائعين، والأساقفة أطول من

القساوسة. فضلاً عن ذلك، يرتبط طول قامة الرجل مع قوّته البدنيّة، وقدرته على القتال، ومرتبته الاجتماعيّة، بل حتّى مع نجاحه بالتكاثر. يجب أن نفرّق هنا ما بين الترابط والعلاقة السببيّة، إذ توجد بكلّ تأكيد متغيّراتٌ كثيرة تؤثّر على الهيمنة بين الرجال، كالذكاء، والصحّة، والكاريزما، على سبيل المثال لا الحصر. بأيّ حال، على امتداد المملكة الحيوانيّة، ضخامةُ الحجم مفيدة، والعديد من الحيوانات تدرك هذه النقطة وتستغلّها للاستدلال على أمور من قبيل الهيمنة والتهديد بالخطر، وربّما تحاول إيهام الخصم بأنّها أضخم من حجمها الحقيقيّ، بغية إخضاعه.

1- رؤوسٌ كبيرة، قبّعاتٌ كبيرة

تكيّفت العديد من الحيوانات لتضخيم رؤوسها، ممّا يجعلها تبدو أضخم حجماً بالمجمل، وهي استراتيجيّة قديمة تُلاحظ في مختلف الأنواع: توجد طيّات جلديّة على جانبي رأس العظاءة المُكشكَشة Frilled neck lizard، تنفتح عندما تواجه الخصوم الذكور أو المفترسين. يملك الأسد الذكر لبدة رائعة للغاية، كما يهدّد ذكر الفيل خصومه بفتح أذنيه الضخمتين، ممّا يجعل رأسه العملاق أصلاً يبدو هائلاً.

يملك ذكور الرئيسيّات، تكيّفات مماثلة: عظم الوجنة عند ذكر الأورانجوتان على سبيل المثال، هو عظم ضخم يحيط بالفكّ العلويّ، ويبرز على جانبي الوجه من الجهتين، فضلاً عن وجود وسادة شحميّة ضخمة في الوجنتين، ولحية برتقاليّة طويلة. هذه الإكسسوارات مصمّمة للإيحاء بالهيمنة، لأنّها تجعل رأس الذكر البالغ يبدو عملاقاً بالمقارنة مع رأس الأنثى، أو الذكر اليافع. شعر الوجه عند الأورانجوتان والأنواع الأخرى، يلعب أيضاً دوراً في استعراضات الترهيب، كلحية القرد الزاعق Howler monkey الطويلة المتدليّة، وخصلات الفراء الكثيفة على جانبي رأس البابون، وفوق أذني المارموست marmoset.

لم يغفل الرجل المعاصر، عن أهمّيّة الاستعراضات السابقة. لاحظ عالمُ البيولوجيا آر. دايل غوثري، أنّ اللحية تضيف امتداداً لحافّة الذقن، ممّا

يجعل الرأس يبدو أضخم، وهو ما قد يخدم الغايات ذاتها عند الرئيسيّات. في الواقع، وجد الباحثون أنّ المشتركين في التجارب السريريّة، يصنّفون الرجال الملتحين في الصور على أنّهم أكثر عدوانيّة، ويتمتّعون بمرتبة اجتماعيّة أعلى من الرجال حليقي الذقون... تذكّروا أنّ هرمون التستوستيرون –وهو هرمون يترافق مع العدوانيّة– يحرّض نموَّ اللحية عند الرجل، وظهور صفات «مثنويّة الشكل الجنسيّة» الأخرى. إلقاء نظرة سريعة على الدور الرمزيّ الذي تلعبه اللحية في الهيمنة بين الرجال (خاصّة أصحاب المراتب العليا، أو المقاتلين)، يدعم فرضيّة غوثري. على سبيل المثال، غالباً ما يطلق أفراد عصابة الدرّاجات الناريّة لحاهم، كي يبدوا مرعبين. فرسان العصور الوسطى أطلقوا لحاهم كعلامة على الرجولة والشرف، وكان إمساك لحية الرجل آنذاك إهانةً، تستدعي الثأر للشرف بالمبارزة على الفور. الملوك في مختلف العصور، أطلقوا لحاهم بدورهم كعلامة على العزّة والشرف، وهما فضيلتان توحيان بسموّ المرتبة.

بما أنّ السلطة والهيمنة هما ثيمتان ثابتتان في مختلف التقاليد الدينيّة، لن يفاجئنا كيف احتفظت الثقافة الدينيّة بالتكيّفات التطوّريّة المُصَمَّمة لترهيب الخصوم، ولا كيف احتفظت تلك التكيّفات بمعانيها الأصليّة. كتب القدّيس أوغسطين: «اللحية تميّز الشجعان»، أمّا القدّيس كليمنت الإسكندرانيّ، فقال إنّ اللحية تعطي الوجه «عزّة ورهبة أبويّة»، وكتب أنّ الله «زيّنَ الرجل باللحية كالأُسود، وجعل كثافتها علامة على رجولته وقوّته وسلطته». بأخذ القوّة الرمزيّة للحى بعين الاعتبار، سنلاحظ أنّ معظم رجال الدين يطلقون لحاهم. كلّ الطوائف الإسلاميّة تقريباً تشجّع أتباعها الرجال على ذلك، كما توجد توجيهات دينيّة بإطالة اللحية، في كلّ من الديانات الهندوسيّة والراستفاريّة[1]

1– ديانة ظهرت في جامايكا حوالي عام 1930، نسبة إلى الأمير راس تافاري Ras Tafari الذي أصبح إمبراطور إثيوبيا في ذلك العام (تلقّبَ بـ: هيلا سيلاسي)، والذي تعدّه الحركة بمنزلة المسيح الأسود، ويعتقد أتباعها أنّهم من سلالة القبائل الإسرائيليّة الاثنتي عشرة في التوراة. معتقداتها هي مزيج ما بين الكتاب المقدّس، والمعتقدات الدينيّة الإفريقيّة. المترجمة

والسيخيّة. اليهوديّة ليست استثناء، إذ يأمر العهد القديم على سبيل المثال بـ «لاَ تُقَصِّرُوا رُؤُوسَكُمْ مُسْتَدِيرًا، وَلاَ تُفْسِدْ عَارِضَيْكَ» (سفر اللّاويّين 19: 27). أفراد الكهنوت المسيحيّ في بعض الطوائف بما فيها الأرثوذكس، مُلزَمون بإطلاق لحاهم. في ارتباط صريح ما بين اللحية والتنافس على الهيمنة، قام الرجال الأميش المتمرّدون ذات مرّة في أوهايو، بإذلال أخوتهم في الدين بقصّ لحاهم الطويلة. في مثال آخر يوضّح صلة اللحية بالهيمنة، كان فراعنة مصر القديمة يضعون لحية مستعارة معدنيّة طويلة، تُثبّت على الذقن، وترمز إلى سلطتهم ومكانتهم الإلهيّة. أخيراً، في الثقافة الشعبيّة الأمريكيّة، يُشار إلى الربّ أحياناً بـ «العجوز الملتحي»، وهو ما يوحي بمستوى من الهيمنة، يختلف تماماً عن هيمنة مراهق أجرد مثلاً.

يعمد معظم ذكور الرئيسيّات إلى تضخيم حجم رؤوسهم، باستعمال الإكسسوارات التي وهبتهم إيّاها الطبيعة (اللحى، الوسائد الشحميّة في الوجنتين... إلخ)، بينما يلجأ البشر إلى استعمال مثيلاتها الصنعيّة للإيحاء بالهيمنة، ففي سهوب أمريكا، يثبّت المحاربون الهنود قرونَ البوفالو على رؤوسهم، كي يُرهِبوا خصومهم في المعارك، بينما يعتمر الجنود المسلّحون في الحرس الملكيّ البريطانيّ، قبّعات ضخمة لا تُصنَع من القشّ أو اللبّاد، بل من فرو الدبّ الأسود. نحن هنا إذن أمام رجال مسلّحين، يحرسون امرأة ذات رتبة عالية، وهم يضعون قبّعات من جلد حيوان مفترس مرعب على رؤوسهم! تاريخيّاً، وضع الملوك تيجان مدبّبة من الذهب، مزيّنة بالأحجار الكريمة التي تدلّ على المكانة والثروة، والثروة هي بدورها وسيطٌ للمرتبة بين البشر. زعماء كافا Kafa المستبدّون في إثيوبيا، يعتمرون فوق رؤوسهم مخروطاً طوله ثلاثة أقدام، مزيّناً بالرمز الأوضح للتنافس بين الرجال: ثلاثة فالوسات[2] ذهبيّة.

2- Phallus مفردة تشير في الأصل إلى قضيب ذكريّ في حالة انتصاب، لكنّها تُستخدم عموماً بمعنى «ما يأخذ شكل قضيب منتصب»، سواء كانت أداة، أو منحوتة، أو صورة، أو رمزاً. المترجمة

من ناحية أخرى، رفعُ القبّعة عن الرأس هو علامة تدلّ على الاحترام والخضوع والتبجيل، فقد اعتاد الناس على خلع قبّعاتهم عند مخاطبة النبلاء، وأصحاب المراتب العليا. عندما مزّقت القبائل المنغوليّة روسيا في القرن الثاني عشر للميلاد، أعلن الأمراء الروس استسلامهم بنزع قبّعاتهم عن رؤوسهم، وملئها بالحبوب، وإطعام خيول الغزاة منها مباشرة، ولم يوقف المنغوليّون هجومهم على الشعب الروسيّ إلّا بعد أن انتهى عرض الإذلال هذا. في المسيحيّة، إبقاء القبّعة على الرأس داخل الكنيسة ينمّ عن عدم الاحترام، لذلك يخلعها الرجال قبل الدخول إلى منزل الربّ، بينما لا تخضع المرأة إلى ذلك، وهو دليل آخر على أنّها إيماءة متجذّرة في صميم التنافس بين الذكور.

كما هو الحال مع اللحى، يستغلّ رجال الدين تأثير القبّعات الكبيرة، الذي يلاقي صداه في قدرتنا البديهيّة على حدس المرتبة. لا يُسمَح باعتمار قبّعات كبيرة في الكنائس المسيحيّة، إلّا لأعضاء الكهنوت، أي رجال الدين الذين يشغلون المواقع الأعلى على سلّم التراتبيّة الهرميّة الدينيّة. اللّاما البوذيّ يعتمر ما يشبه قبّعة ضخمة، يبدو أحد أنواعها -كتلك التي يعتمرها الدالاي لاما- كنسخة عملاقة عن خوذة المحارب الرومانيّ القديم. حتّى في الفلسفات الدينيّة القائمة على التآخي والتواضع، توجد مراتب مختلفة، ولا يقاوم أصحاب المراتب العليا على ما يبدو، إغراءَ تضخيم رؤوسهم. أفراد طبقة «كوهين غادول» Kohen Gadol، وهم طبقة الحاخامات الأعلى في الديانة اليهوديّة، يعتمرون عمامة ضخمة تشبه الفطر، تعلوها تيجان من الذهب، بينما يعتمر الحاخامات الأدنى مرتبة قبّعات مخروطيّة الشكل أبسط وأصغر حجماً، مصمّمة خصّيصاً كي توحي بالفرق بينها وبين عمائم رؤسائهم. يصف الكتاب المقدّس أفراد «كوهين غادول» بعمائمهم الكبيرة، وكيف يتمتّعون بامتياز حصريّ للزواج من عذراوات (سفر اللّاويّين 21: 13)، وهو ما يوضّح العلاقة الجذريّة بين الأزياء الدينيّة، والتنافس على التزاوج بين الذكور.

يعتمر بابا الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة، قبّعة ضخمة مذبّبة تدعى «تاج البابويّة»، لا يُسمَح بارتداء مثيلها إلّا للبابا، والأساقفة، وأفراد الكهنوت ذوي المراتب العليا فقط. بعض تلك التيجان مصنوع من الذهب، وبعضها مرصّع بالجواهر الثمينة كتيجان الملوك. يعتمر البابا أيضاً «التاج الثلاثيّ البابويّ»، وهو تاج مختلف مصنوع من الذهب والأحجار الكريمة المتلألئة. المعنى الثابت الذي يوحي به التاج فائق الأهمّيّة، وهو الإشارة إلى السلطة وامتلاك زمام الحكم، وأنّ من يعتمره هو ممثّل الربّ، وسلطاته تتعدّى السلطات المدنيّة. فيما يلي الإعلان التقليديّ عن تتويج البابا: «خذ التاج المزيّن بثلاثة تيجان، واعلم أنّك أبو الأمراء والملوك، حاكم العالم، نائب مخلّصنا يسوع المسيح على الأرض، فليدم مجده وعزّته أبد الدهر».

لا يعتمر الآلهة الذكور قبّعات عادة، لكنّ الأيقونات الدينيّة تصوّرهم مع هالات كبيرة من الضوء تحيط برؤوسهم، ممّا يضخّم حجم الرأس في دلالة على بأس المقاتل الذكر، أثناء التنافس على التزاوج. عندما يصف هومر المحاربين الذين يتقاتلون حتّى الموت في الإلياذة على سبيل المثال، يصف نوراً خارقاً يحيط برؤوسهم (تذكّروا أنّ أولئك الذكور، كانوا يتقاتلون رمزيّاً للاستيلاء على أنثى، هي هيلين الطرواديّة)، كما تتألّق الهالات حول رؤوس الأبطال في الأيقونات الإغريقيّة أحياناً، كبرسيوس وهو يذبح الميدوسا. الأديان السومريّة تصف بدورها هالات نورانيّة حول رؤوس آلهتها، ورؤوس الملوك، والأبطال السومريّين الذكور. في المسيحيّة، جنود الربّ المسلّحون الشجعان، أي الملائكة، هم مرادفات للهالة. أخيراً، لن يفاجئنا أنّ الآلهة الإغريقيّة والرومانيّة، وبوذا، وإله الشمس المصريّ رع، وكذلك الربّ الذي أرسل إبراهيم ومحمّداً ويسوع المسيح، يُصَوَّرون جميعهم مع هالات.

في الوقت ذاته، القبّعات الكبيرة هي رموز مهمّة في الحرب الروحانيّة. في سفر الرؤيا، يركب يسوع المسيح على حصان أبيض، ويشنّ حرباً على الشيطان، والمسيح الدجّال، وعلى ملوك وقادة الأرض جميعهم. ثوبه ملطّخ بالدم (يقول البعض إنّه دم أعدائه الذين قضى عليهم)، ويضع على رأسه

عدّة تيجان: «وَعَيْنَاهُ كَلَهِيبِ نَارٍ، وَعَلَى رَأْسِهِ تِيجَانٌ كَثِيرَةٌ، وَلَهُ اسْمٌ مَكْتُوبٌ لَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُهُ إِلاَّ هُوَ» (سفر رؤيا يوحنّا اللّاهوتيّ 19: 12). بعد أن يذبح أعداءه، يصبح المسيح حاكم الأرض المطلق (سفر رؤيا يوحنّا اللّاهوتيّ 19: 11–17)، وبعد أن يهزم الملائكةُ ملوكَ الأرض، ويجبرونهم على الخضوع إلى سلطة الربّ الأزليّة، يخلع الملوك قبّعاتهم الكبيرة: «يَخِرُّ الأَرْبَعَةُ وَالْعِشْرُونَ شَيْخًا قُدَّامَ الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ، وَيَسْجُدُونَ لِلْحَيِّ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ، وَيَطْرَحُونَ أَكَالِيلَهُمْ أَمَامَ الْعَرْشِ قَائِلِين: أَنْتَ مُسْتَحِقٌّ أَيُّهَا الرَّبُّ أَنْ تَأْخُذَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْقُدْرَةَ، لأَنَّكَ أَنْتَ خَلَقْتَ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَهِيَ بِإِرَادَتِكَ كَائِنَةٌ وَخُلِقَتْ» (سفر رؤيا يوحنّا اللّاهوتيّ 4: 9–10). من نافل القول إنّ ملوك سفر الرؤيا، لم يطالبوا الربَّ بالمقابل بأن يخلع هالته كشرط لاستسلامهم، ولا أن يخلع المسيح تيجانه العديدة.

II– القامة المنتصبة

بغية تجنّب المواجهات الجسديّة المكلفة، تلجأ الحيوانات إلى استعراض مكانتها بالانتصاب، أي بالوقوف على القائمتين الخلفيّتين للإيحاء بأنّ حجمها، وبالتالي هيمنتها، أكبر. على العكس، يلجأ الحيوان إلى الانكماش على نفسه، في محاولة للإيحاء بأنّه أصغر حجماً، عندما يريد إبداء خضوعه. محاولة تصغير الحجم، قد تكون إشارة مصمّمة للإيحاء بصفات طفوليّة، لأنّ معظم الحيوانات مبرمجة على عدم مهاجمة صغارها. الشمبانزي الذكر مثلاً، يستعرض هيمنته بنفش فرائه، والوقوف منتصباً كالرجل. بالمقابل، عندما يريد إبداء خضوعه، سينكمش على نفسه ويُطرق بوجهه نحو الأرض. يقدّم فرانز دي وال وصفاً مفصّلاً لهذه النقطة، في ملاحظاته التي جمعها في حديقة حيوان بيرجرز في مدينة آرنهم:

«التحيّة»، هي مجرد شخرات قصيرة لاهثة متتالية، تُعرَف بـ«الشخير اللهاثيّ». عندما يقوم الذكر الخاضع بإصدار هذه الأصوات، يتّخذ وضعيّة خاصّة، بحيث ينظر إلى أعلى، صوب الذكر المهيمن الذي تُوَجّه له التحيّة. في معظم الأحيان، سيقوم أيضاً بسلسلة متتالية من الانحناءات حتّى الأرض،

بحيث ينحني المرّة تلو المرّة بسرعة فائقة، وهو ما يُدعى بـ «التأرجح». أحياناً، يجلب الفرد صاحب التحيّة معه تقديمات (ورقة، غصن... إلخ)، ويمدّ يده نحو الذكر الأعلى مرتبة، أو يقوم بتقبيل قدميه أو عنقه أو صدره. عندها، يستجيب الذكر المهيمن بفرد قامته إلى أقصى حدٍّ ممكن، ونفش فرائه. النتيجة هي تضادّ صارخ بين ذَكَرَي الأيب، حتّى ولو كان لهما الحجم ذاته في الواقع. أحدهما يتمرّغ على التراب عمليّاً، والثاني يتلقّى التحيّة بأبّهة الملوك. يتمّ تضخيم هذه العلاقة عملاق / قزم بين الذكور البالغين، من خلال أفعال دراميّة استعراضيّة، كأن يقوم الذكر المهيمن بالدوس على الذكر الذي يقدّم التحيّة، أو بالقفز من فوقه... في الوقت ذاته، يقرفص الأيب الخاضع واضعاً رأسه بين يديه، كي يحمي نفسه. هذه الألعاب البهلوانيّة أقلّ شيوعاً في علاقة الذكر مع الإناث، إذ غالباً ما تقوم الأنثى عند التحيّة بعرض مؤخّرتها على الأيب المهيمن، كي يفحصها ويشمّها.

بمقدورنا أن نعقد مقارنات عديدة بين الممارسات الدينيّة وملاحظات فرانز دي وال. يقدّم لنا عالم الأحياء البريطانيّ ديزموند موريس استنتاجاته الشخصيّة حول الخضوع الدينيّ، التي تتوافق بشكل تامّ مع ما وصفه دي وال، علماً أنّها سبقته بعقود طويلة:

«من منظور السلوك، لا مفرّ من الاستنتاج بأنّ الفعاليّات الدينيّة هي عبارة عن حشد عدد كبير من الأشخاص معاً، لتأدية استعراضات مطوّلة متكرّرة، تهدف إلى استرضاء فرد مهيمن بإبداء سلوكيّات تنمّ عن خضوعهم له، كإغماض العينين، إحناء الرأس، ضمّ اليدين معاً بوضعيّة استجداء، الركوع، تقبيل الأرض، أو السجود، مع العويل المتكرّر أو غناء مقاطع لفظيّة... إلخ، وسيظفرون برضا الفرد المهيمن، إن كانت أفعال الخضوع تلك ناجحة، لكن بما أنّه يتمتّع بقوّة هائلة، لذلك لا بدّ من استرضائه بطقوس تتمّ على فواصل منتظمة متكرّرة، تمنع استثارة غضبه من جديد».

سلوكيّات الخضوع مترسّخة في الطقوس الدينيّة، خاصّة تلك التي تتوجّه إلى الله أو وكلائه الأرضيّين، فضلاً عن أنّ التضادّ ما بين كينونة أسمى

وما بين متضرّعين أدنى مرتبة، يتجسّد بدوره ضمن العمارة الماديّة للسلطة الدينيّة والسياسيّة، فعروش الملوك، ومنابر الرؤساء، ومذابح القساوسة، كلّها تعلو فوق مستوى الجماهير. منطقيّاً، يمكن لرجال الدين أن يعظوا واقفين في وِهدة -كأرضيّة المسرح الرومانيّ مثلاً- وسيبقى الحضور قادرين على رؤيتهم وسماعهم، لكنّ المنابر تتعالى بأبّهة، تماماً كالكاتدرائيّات الشاهقة في أنحاء الكوكب، وهي نقطة لا غنى عنها لإحداث التأثير السيكولوجيّ المطلوب. لذلك، يصوِّر عرش الربّ، الذي سيخلع الملوك تيجانهم تحته، كبرج رمزيّ شاهق: «رَأَيْتُ السَّيِّدَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ عَالٍ وَمُرْتَفِعٍ، وَأَذْيَالُهُ تَمْلأُ الْهَيْكَلَ» (سفر إشعياء 6: 1).

تنعكس القيمة التي نعزوها للبعد العموديّ، على لغتنا: الكاهن الأعلى، العالي والسامي، الرتبة العليا، الفراديس في السماوات العالية... إلخ، على النقيض من الحياة الدنيا، المرتبة الأدنى، والموقع الأدنى الذي يشغله الفرد في الحياة. في الحقيقة، الفراغ هو بُعدٌ نسبيٌّ لا قيمة له، إلّا من خلال ما نُسقطه نحن عليه، باعتبارنا حيوانات تعزو مكانة تراتبيّة لطول القامة. الله موجود هناك في الأعالي، أي في الفراديس، بينما يقبع إبليس في الجحيم، أي في الحضيض، لأنّنا كنوع من أنواع الرئيسيّات، لا نتقبّل أن يجلس إبليس في مكان أعلى من الله. عندما ينهض إبليس محاولاً بسط هيمنته، يجبره الله على الركوع مجدّداً، متّبعاً الأسلوب ذاته الذي أرسَتْه حيوانات الأرض، إذ يصف الكتاب المقدّس كيف يقول إبليس: «أَصْعَدُ إِلَى السَّمَاوَاتِ. أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ اللهِ، وَأَجْلِسُ عَلَى جَبَلِ الاجْتِمَاعِ فِي أَقَاصِي الشَّمَالِ. أَصْعَدُ فَوْقَ مُرْتَفَعَاتِ السَّحَابِ. أَصِيرُ مِثْلَ الْعَلِيِّ»، فيجيبه الله: «لكِنَّكَ انْحَدَرْتَ إِلَى الْهَاوِيَةِ، إِلَى أَسَافِلِ الْجُبِّ» (سفر إشعياء 14: 13-15).

من غير المنطقيّ أنّ الله يجب أن يكون ضخماً كي يبسط هيمنته، إن أخذنا بعين الاعتبار أنّه قادر على خلق الكون الماديّ، بمجرّد النطق بكلمته. الانشغالُ بالحجم ينتمي إلى مملكة الرجال المحكومين بقواعد العالَم الماديّ، رغم ذلك، يوضّح الكتاب المقدّس مقدار «سموّ»، أي «علوّ» الربّ،

وهو مصطلح يرادف «الجلالة»، ويوحي بالضخامة وطول القامة، وهما مظهران هامّان من مظاهر السلطة والمرتبة عند الرئيسيّات. ها هو الربّ هنا يعلو فوق الأرض، ويجعل الأرض كلّها موطئاً لقدمه: «وَيَعْلَمُوا أَنَّكَ اسْمُكَ يهوه وَحْدَكَ، العَلِيُّ على كُلِّ الأرض» (المزمور 83: 18)، وهذا الربّ العَلِيّ الأسمى لا يعيش في المعابد التي بناها البشر، بل كما قال الكتاب المقدّس: «السَّمَاءُ كُرْسِيٌّ لي، وَالأَرْضُ مَوْطِئٌ لِقَدَمَيَّ» (سفر أعمال الرسل 7: 49).

المبالغة بإظهار الفروقات في الحجم، تحتلّ موقعاً خاصّاً في الإسلام. يعبّر المسلم عن خضوعه لله بالسجود، إذ يضع المؤمن أنفه وجبهته على الأرض قائلاً «سبحان ربّي الأعلى»، ثمّ «سبحان ربّي العظيم». الخضوع يشغل موقعاً مركزيّاً من منظور المسلمين، وهذا واضح من كلمة «الإسلام» بحدّ ذاتها، التي تعني حرفيّاً التسليم والخضوع لله.

بما يخصّ السجود والانحناء وما شابه، هناك العديد من الإشارات في الكتاب المقدّس، أكثر من أن نعدّدها كلّها هنا، لذلك سأقتصر على مثال واحد فقط: «هلمَّ نسجدُ ونركعُ ونجثو أمامَ الربِّ خالِقنا، لأنّه هو إلَهنا، ونحن شعبُ مرعاهِ وغنمُ يده» (المزمور 95: 6-7). الركوع كما يرد في المزمور، يطرح معنى آخر لخفض النفس، فالانحناء والركوع يرادفان عمليّاً إظهار الاحترام للرجل المهيمن. منذ العصور القديمة، يَمْثُل الناس بوضعيّة الركوع أمام النبلاء والأعيان والملوك، وغيرهم من أصحاب المراتب العليا، وما زال هذا السلوك شائعاً في المجتمعات التي تسود فيها فروقات شاسعة في السلطة أو الطبقة، كما أنّه عُرفٌ شائع في الأديان. الكنيسة الكاثوليكيّة على سبيل المثال تزخر بطقوس الركوع، فعندما يمرّ المرء أمام المذبح، ينبغي أن يركع. في حضرة الأسقف أو البابا، عليه أن يركع. عندما يتوجّه بالصلاة إلى الربّ، عليه أن يركع تلقائيّاً. فضلاً عن ذلك، وجد الخضوع الطقوسيّ طريقه إلى تصميم العمارة الداخليّة في الكنائس، فخلف كلّ صفّ من صفوف مقاعدها، مقعد واطئ صغير يُفترَض بالعابدين أن يركعوا عليه أثناء الصلاة، دليلاً على تقواهم.

III- التواصل البصريّ

الحياة ضمن التراتبيّة الهرميّة للهيمنة، تتطلّب أن يمتلك الأفراد مقدرة معرفيّة على إدراك مرتبة من حولهم، وتوقّع سلوكهم، وحالتِهم العاطفيّة. تبرعُ الرئيسيّات على وجه الخصوص بتلك المهمّات، فضلاً عن أنّ أدمغتها تطوّرت لاستنتاج المعلومات المطلوبة، بواسطة التواصل البصريّ. الدراسات التي أُجريَت على الرئيسيّات غير البشريّة، اكتشفت وجود نورونات خاصّة مصمّمة لرصد العيون التي تحدّق إلى الفرد، وهي موجودة عند البشر أيضاً. تقترح الأبحاث أنّ هذا التكيّف، يرتبط بالمشاعر التي تلعب دوراً رئيسياً باكتشاف المرتبة الاجتماعيّة. على سبيل المثال، اللوزة Amygdala هي مركز الخوف والغضب في الدماغ، كما أنّها منطقة هامّة تتدخّل بإدارة اتّجاه النظر، وهي بحدّ ذاتها عمليّة معقّدة تتعلّق بالكثير من الأمور، كالانتماء، وتأمين الدعم، أو درء الخطر. في العديد من الأجناس، سواء البشر أو الرئيسيّات غير البشريّة، يُعَدُّ التحديق المُباشر عموماً مؤشّراً على التهديد، أمّا غضّ البصر فيعني الخضوع.

استنبط البشر قواعد للتواصل البصريّ، تختلف باختلاف المرتبة الاجتماعيّة، وهي أوضح ما تكون في المجتمعات ذات التراتبيّة الهرميّة البارزة. خذوا كمثال جزيرة تيكوبيا جنوب المحيط الهادئ، حيث يتوجّب على المرؤوسين أن يغضّوا أبصارهم في حضرة الزعماء المستبدّين. تصف لنا الأنثروبولوجيّة لورا بتزيغ، نقلاً عن الإثنوغرافيّ رايموند فيرث، ماذا يحصل إن حدّق أحد المرؤوسين مباشرة في عيني الزعيم المهيمن:

إن لمح الزعيم وهو يسير صوب ساحة المراسم وجهاً مرفوعاً للأعلى، سينادي المُذنِبَ قائلاً: «من ذاك الذي ينظر إلى مجلس الآلهة؟!»، عندها سيشعر المذنب بالخزي والعار، ويقوم -باقتباس عبارة داي وال- باستعراضات دراميّة، إذ يخرج بزورقه إلى عرض البحر (فعلٌ رمزيّ يمثّل الانتحار)، من ثمّ يعود إلى بستانه ويحمّل زورقه بالطعام (تقديمات)، ويذهب إلى الزعيم، ويبدأ بتقبيل يديه وقدميه مصدراً أصواتاً حَلْقيّة تدلّ

على الخضوع، وبعدها ينفجر بعويل ذليل، ويزحف فوق السجّادات، ويضغط بأنفه على قدمي الزعيم وركبتيه، وأخيراً يُنْشد مرثيّة. عند قبيلة الفور في السودان، يُحظَر النظر مباشرة إلى وجه الزعيم، وكان من عادة الملك أن يظهر مغطّياً نصف وجهه، ولا يُسمَح حتّى لرجاله الأعلى مرتبة أن يحدّقوا إليه.

غضّ البصر، هو طقس غير واعٍ شائعٌ في الممارسات الدينيّة. عند التواصل مع الله أثناء الصلاة، يُحنَى الرأس، وتتّجه العينان صوب الأرض. هذا التصرّف البسيط يترابط على نحو وثيق، مع القواعد التي تحكم العلاقات بين ذكور الرئيسيّات، فقد تترتّب عواقب وخيمة على التحديق إلى عيني ذكر قويّ عند مخاطبته. يصف الكتابُ المقدّس موسى، عندما قابل الربَّ في غابة مشتعلة: «فَارْتَعَدَ مُوسَى وَلَمْ يَجْسُرْ أَنْ يَتَطَلَّعَ» (سفر أعمال الرسل 7: 32). بدوره، يمنع الربّ أتباعه من النظر إليه مباشرة، تحت طائلة الموت: «فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: انْحَدِرْ حَذِّرِ الشَّعْبَ لِئَلاَّ يَقْتَحِمُوا إِلَى الرَّبِّ لِيَنْظُرُوا، فَيَسْقُطَ مِنْهُمْ كَثِيرُونَ. وَلْيَتَقَدَّسْ أَيْضًا الْكَهَنَةُ الَّذِينَ يَقْتَرِبُونَ إِلَى الرَّبِّ لِئَلاَّ يَبْطِشَ بِهِمِ الرَّبُّ» (سفر الخروج 19: 20-21)، ثمّ يكرّر الله تهديده، بصراحة أكبر هذه المرّة: «لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِي، لأَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَرَانِي وَيَعِيشُ» (سفر الخروج 33: 20). في إنجيل لوقا، يُعبّر جابي الضرائب عن خضوعه للربّ بغضّ بصره وضَربِ نفسه، ثمّ يتوسّل طالباً الرحمة: «وَأَمَّا الْعَشَّارُ فَوَقَفَ مِنْ بَعِيدٍ، لاَ يَشَاءُ أَنْ يَرْفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، بَلْ قَرَعَ عَلَى صَدْرِهِ قَائِلًا: اللّهُمَّ ارْحَمْنِي، أَنَا الْخَاطِئَ» (إنجيل لوقا 18: 13).

نظراً لتأكيد الأديان على أهمّيّة الهيمنة والسلطة، يُعَدّ التواصل البصريّ المباشر تحدّياً، أمّا غضّ البصر فهو علامة على الخضوع. إحناء الرأس هو طريقة أخرى لخفض العينين، تجعل الشخص يبدو أصغر في الوقت ذاته. في عالمنا المعاصر، يتّخذ الناس تلك الوضعيّة عند مخاطبة النبلاء، أو الأفراد الأعلى مرتبة، كما أنّها طقس دينيّ شائع، خاصّة عند التوجّه إلى رجال الدين أو الله.

IV- تقبيل الأيدي والأقدام

التمطّق بالشفتين يعادل التقبيل عند الرئيسيّات غير البشريّة، وهو استعراض شائع للاسترضاء تمارسه القرود والآيب، قد يهدف إلى تقليد الأصوات التي يصدرها الصغار أثناء الرضاعة، لأنّ تلك الأصوات قد تهدّئ المعتدي على ما يبدو، وقد توحي كغيرها من السلوكيّات الطفوليّة المشابهة بـ: «أنا كالرضيع، لا أمثّل تهديداً على الإطلاق».

كالتواصل البصريّ، للقبلة عند البشر معانٍ ووظائف عديدة، منها إبداء الخضوع. في سلسلة أفلام «العرّاب» The Godfather، تقبيل يد الدون هو إشارة إلى الاعتراف بمرتبته. لا أدري إن كان أفراد العصابات الحقيقيّة، يقومون بذلك أم لا في الحياة الواقعيّة، لكنّ معنى تلك الإشارة بديهيّ تماماً بالنسبة للمشاهدين. تقبيل الأيدي هو عادة روتينيّة لإظهار الخضوع للملك، خاصّة عندما تترافق مع إحناء الرأس والركوع، وغالباً ما كانت تتمّ بتقبيل خاتمه الذي يحمل شعاره، وما تزال حيّة اليوم في الأنظمة الملكيّة الباقية.

ما زالت هذه العادة سارية أيضاً في الكنيسة الكاثوليكيّة (كأنّ الكنيسة تراتبيّة هرميّة ملكيّة)، حيث يركع المؤمن أمام البابا، ويقبّل خاتمه. الأعراف الكنسيّة الأخرى، تقترح أنّها إشارة متجذّرة بقوّة في الاستعراضات الغابرة التي أدّتها الرئيسيّات، تهدف إلى الإيحاء بالبنوّة، إذ يُشار إلى البابا على سبيل المثال بالأب، ويُعَدّ أفراد الرعيّة بمنزلة أبنائه. من عادة المؤمنين في العديد من الكنائس الأرثوذكسيّة، أن يحنوا رؤوسهم بورَع ويقولوا للقسّ «باركنا يا أبتي»، وللكاردينال «باركنا يا سيّدي»، وهم يمدّون أيديهم اليمنى. عندها، يرسم القسّ أو الكاردينال علامة الصليب، ثمّ يمسك يدَ المؤمن بطريقة تتيح لهذا الأخير تقبيل يده. على نحو مشابه، على المؤمن أن يبدأ الرسائل الموجّهة إلى رجال الدين بعبارة «باركني يا أبتي»، ويختمها بـ «أقبّل يدكَ اليمنى»، فمن خلال مهاراتهم الفريدة في التفكير التجريديّ، نقل البشر استعراضات الخضوع الغابرة إلى اللغة المكتوبة.

تقبيل الأقدام هو سلوك شائع بين الرئيسيّات غير البشريّة، يعبّر بواسطتها

ذكور الأيب والقرود الأدنى مرتبة، عن إذعانهم للأفراد المهيمنين في مجتمعاتهم. انتقل هذا السلوك إلى المجتمعات البشريّة القائمة على التراتبيّة الفائقة، كتلك التي تخضع للأنظمة المَلَكيّة. تقبيل قدمي الملك كان مرادفاً دائماً لسلوكيّات التضرّع، كإظهار الاحترام المطلق له، أو استجداء رحمته، أو الاعتراف بأنّه يمثّل الربّ.

تُوَجَّه التحيّة للمسيح أيضاً -الذي يُلقَّب أحياناً بـ«المسيح الملك»- بتقبيل قدميه، وأقدام من ينوبون عنه على الأرض. في البازيليسكا في روما، ينتصب تمثال برونزيّ ضخم للقدّيس بولس، يعود تاريخه إلى القرن الخامس الميلاديّ. رغم أنّه ظلّ صامداً طيلة ما ينوف على ألف وخمسمئة عام، لكنّ قدميه اهترأتا بفعل شفاه الحجّاج. سرت عادة تقبيل قدمي البابا في الكنيسة الكاثوليكيّة، ثمّ تحوّل هذا التقليد إلى قانون على يد البابا غريغوري السابع في «الأوامر البابويّة» Dictatus Papal، وهي وثيقة أوضحت بشفافيّة تامّة العلاقةَ بين تقبيل الأقدام والمرتبة، لئلّا نخلط بينها وبين إيماءة أخرى عاطفيّة. ينصّ الأمر التاسع منها على: «سيقبّل الأمراء جميعهم، قدمي البابا وحده حصريّاً»، أمّا الأمر الثاني عشر فهو: «يجوز للبابا تنحية الأباطرة». يعكس هذان الأمران التراتبيّةَ الهرميّة الأزليّة، التي حاولت الكنيسة من خلالها بسط سلطتها على الملوك، والأمراء، والأباطرة، وغيرهم.

بالإضافة إلى ما سبق، يُلقّب المسيح بـ«ملك الملوك»، كما أنّ المؤمنين البسطاء قد يُعامَلون أحياناً كملوك الملوك بفضل الربّ، وبأسلوب المهيمنين وأتباعهم. يصف النبيّ إشعياء، كيف يعبّر الملوك عن خضوعهم للربّ من خلال تقبيل (أو بالأصحّ: لعق) أقدام أتباع الله: «وَيَكُونُ الْمُلُوكُ حَاضِنِيكِ وَسَيِّدَاتُهُمْ مُرْضِعَاتِكِ. بِالْوُجُوهِ إِلَى الأَرْضِ يَسْجُدُونَ لَكِ، وَيَلْحَسُونَ غُبَارَ رِجْلَيْكِ، فَتَعْلَمِينَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي لاَ يَخْزَى مُنْتَظِرُوهُ» (سفر إشعياء 49: 23).

يتكرّر موتيف تقبيل الأقدام في إحدى أشهر قصص الكتاب المقدّس، حين دعا سمعان الفريسيّ يسوعَ للعشاء، وعندها قامت على خدمته امرأة

خاطئة: «وَوَقَفَتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ مِنْ وَرَائِهِ بَاكِيَةً، وَابْتَدَأَتْ تَبُلُّ قَدَمَيْهِ بِالدُّمُوعِ، وَكَانَتْ تَمْسَحُهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا، وَتُقَبِّلُ قَدَمَيْهِ وَتَدْهَنُهُمَا بِالطِّيبِ» (إنجيل لوقا 7: 38). رفض سمعان القيام بالمثل، ربّما لأنّه أدرك المضامين القويّة لذلك السلوك، فغضب يسوع ووبّخه قائلاً: «أَتَنْظُرُ هذِهِ الْمَرْأَةَ؟ إِنِّي دَخَلْتُ بَيْتَكَ، وَمَاءً لأَجْلِ رِجْلَيَّ لَمْ تُعْطِ. وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ غَسَلَتْ رِجْلَيَّ بِالدُّمُوعِ وَمَسَحَتْهُمَا بِشَعْرِ رَأْسِهَا. قُبْلَةً لَمْ تُقَبِّلْنِي، وَأَمَّا هِيَ فَمُنْذُ دَخَلْتُ لَمْ تَكُفَّ عَنْ تَقْبِيلِ رِجْلَيَّ. بِزَيْتٍ لَمْ تَدْهُنْ رَأْسِي، وَأَمَّا هِيَ فَقَدْ دَهَنَتْ بِالطِّيبِ رِجْلَيَّ. مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَقُولُ لَكَ: قَدْ غُفِرَتْ خَطَايَاهَا الْكَثِيرَةُ» (إنجيل لوقا 7: 44–47).

يجدر بنا هنا التأكيد مرّة أخرى، على أنّ هذه السلوكيّات هي نوع من التذلّل، لطلب خدمة من كائن أقوى. يسوع، وكأنّه يشدّد على هذه النقطة تحديداً، ذكّر المرأةَ أمام الفريسيّين بالعقاب الأبديّ الذي كان بانتظارها، لولا استعراض الخضوع الذي نفّذته: «فَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: إِيمَانُكِ قَدْ خَلَّصَكِ، اِذْهَبِي بِسَلاَمٍ» (إنجيل لوقا 7: 50).

من استعراضات المرتبة في حفلة العشاء الإنجيليّة هذه، ننتقل إلى تلك التي تظهر في ساحات المعارك، حيث تدور أقسى أشكال التنافس بين الذكور. سنبدأ مع أوديسيوس، الذي رمى رمحه ودرعه مستسلماً، ثمّ خلع خوذته، وقبّل ركبتي ملك الأعداء. يروي حديث نبويّ (الحديث هو نصّ يروي أقوال، وأفعال، النبيّ محمّد)، كيف قام ابن عمّ للنبيّ بتقبيل قدمي هذا الأخير معلناً استسلامه، بعد أن قاتل ضدّه في المعارك: «يا رسول الله، هذا أبو سفيان ابن عمّك، اغفر له»، فقَبِل النبيّ وساطة عبّاس وقال: «غفرتُ له، عسى أن يغفر الله له كلّ ما فعله»، ثمّ التفتَ إلى عبّاس وقال: «إنّه أخونا»... ثمّ قال عبّاس: «لقد قبّلتُ قدميه (أي قدمي محمّد) المبارَكتين، وهو جالس على ظهر جمله».

في مثال آخر عن تقبيل الأقدام في الإسلام، يُروى أنّ النبيّ انزعج من عمر بن الخطّاب، فقام عمر بتقبيل قدميه كي يهدّئ غضبه، وهو يتضرّع طالباً العفو: «ثمّ وقف عمر قائلاً يا رسول الله، قد رضينا بالله معيناً، وبك نبيّاً،

وبالإسلام ديناً، وبالقرآن هداية، اغفر لنا يرضَ عنّا الله»، وكرّر عمر تضرّعه، إلى أن سامحه النبيّ.

الخضوع من خلال الاستسلام العقائديّ

رأينا كيف يشترك الآيب والرجال والآلهة بعضهم مع بعض، بالأنماط غير الشفهيّة من سلوكيّات الهيمنة والخضوع. البشر، بمقدرتهم الهائلة على التفكير التجريديّ، طوّروا إيديولوجيّات تعزّز التراتبيّة الهرميّة، كتلك التي في الدوغما الدينيّة. مهما بدت تلك الإيديولوجيّات سامية ظاهريّاً، فإنها تخدم طموحَ الذكور البدائيَّ بالهيمنة، كما يعمل الرجال على ترسيخها من خلال التلويح باستعمال العنف. بعبارة أخرى، يعبّر البشر عن خضوعهم، من خلال الالتزام المطلق بالإيديولوجيا دون قيد أو شرط، كما يعبّرون عن هيمنتهم بخلق تلك الإيديولوجيا في المقام الأوّل، أو من خلال تعزيزها. بالنسبة إلى المؤسّسات الدينيّة الكبرى، يُضاف التحكّم بالإيديولوجيا إلى ترسانة السلطات الهائلة التي تتمتّع بها أصلاً، ممّا يسمح لها بحشد جيوش ضخمة، والسيطرة على اقتصاد هائل، ومناطقِ نفوذ قد تكون عابرة للقارّات. الرجال الذين يتربّعون على عرش هذه السلطة، يحوّلون السيطرة الإيديولوجيّة إلى قانون، أي أنّهم في حقيقة الأمر يشرّعون التحكّم بعقول الجماهير.

«الحقّ الإلهيّ للملوك» هو مثال عن الهيمنة الإيديولوجيّة، وينصّ على أنّ الملك لا يرتكب أيّ خطأ على الإطلاق، نظراً لأنّ الربّ بذاته منحه سلطاته الدنيويّة. بالتالي، أيّ تحدٍ لسياسة لملك أو إيديولوجيّته السياسيّة أو حتّى سلوكه، يُعَدّ انتهاكاً للدين، وسيُعاقَب من ارتكبه من قبل أقوى ذكر في الكون. المؤيّدون لحقّ الملك الإلهيّ، غالباً ما يقتبسون النصوصَ الدينيّة المقدّسة كمبرّرات، على سبيل المثال: «بِي تَمْلِكُ الْمُلُوكُ، وَتَقْضِي الْعُظَمَاءُ عَدْلًا. بِي تَتَرَأَّسُ الرُّؤَسَاءُ وَالشُّرَفَاءُ، كُلُّ قُضَاةِ الأَرْضِ» (سفر الأمثال 8: 15-16)، «لِتَخْضَعْ كُلُّ نَفْسٍ لِلسَّلاَطِينِ الْفَائِقَةِ، لأَنَّهُ لَيْسَ سُلْطَانٌ إِلاَّ مِنَ اللهِ، وَالسَّلاَطِينُ الْكَائِنَةُ هِيَ مُرَتَّبَةٌ مِنَ اللهِ، حَتَّى إِنَّ مَنْ يُقَاوِمُ السُّلْطَانَ يُقَاوِمُ

تَرْتِيبَ اللهِ، وَالْمُقَاوِمُونَ سَيَأْخُذُونَ لأَنْفُسِهِمْ دَيْنُونَةً» (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 13: 1-2).

يزخر تاريخ المسيحيّة الطويل، بأمثلة عديدة عن تشريع السلطة الإيديولوجيّة، كقانون «العصمة البابويّة»، وهو دوغما صاغتها الكنيسة الكاثوليكيّة في مجلس الفاتيكان الأوّل عام 1870م، تنصّ على أنّ التعاليم الدينيّة التي يصدرها البابا معصومة عن الخطأ، لأنّها منقولة عن الربّ مباشرة، وبالتالي لا تقبل الدحض. من خلال دوغما العصمة البابويّة هذه، تسنّى للبشر الاستحواذ على سلطة أشبه بسلطة الآلهة، فكما مرّ معنا قبل قليل، أمرت المراسم البابويّة الملوكَ بالركوع، وتقبيل قدمي البابا.

لطالما تمّ استغلال مفهوم الهرطقة -بما يتعلّق بالعصمة البابويّة- كوسيلة لضمان استمرار التراتبيّة الدينيّة. تُعرَّف الهرطقة على أنّها فكرة، أو موقف، يتعارض مع الدوغما أو يتحدّاها، أمّا الدوغما فهي عقيدة دينيّة راسخة، لا يجوز الاختلاف معها أو الانحراف عنها. على أرض الواقع، تتحدّى الهرطقة تحريمَ الاعتراض على العصمة البابويّة، أو على الحقّ الإلهيّ للملوك، وخلال تاريخ الأديان الطويل، تحوّلت الجهود الهادفة إلى حظر الهرطقة -بما تمثّله من تحدٍّ وعصيان لهيمنة الملوك والقادة الدينيّين- إلى قانون فُرِضَ بتطبيق عقوبة الإعدام.

أوّل مسيحيّ أُدينَ بتهمة الهرطقة كان بريسيليان أسقف أفيلا، الذي أعدمته السلطاتُ الرومانيّة عام 385م. وردت في لائحة الاتّهامات المدنيّة التي وُجِّهَت له، تهمة ممارسة السحر، والسماح للنساء بالانضمام إلى الرجال أثناء الصلاة، والصيام في أيّام السبت، وغيرها. تذكّروا أنّ الدوغما الدينيّة للمنتمين إلى جماعة ما، تمثّل دائماً الدِين الحقّ، أمّا ممارساتُ الذين لا ينتمون إليها، فتُعَدُّ «نوعاً من السحر». بعد خمسة عشر قرناً، لاقى كايتانو ريبول المصير ذاته عام 1876م، فأُعدِم بتهمة الهرطقة على يد الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة. ريبول كان أستاذ مدرسة إسبانيّاً، ارتكب خطيئة بتدريس طلّابه عقيدةَ الربوبيّة Deism، وهي فلسفة دينيّة ترفض الاعتماد على السلطاتِ

الدينيّة، والأديانِ المُنزَلة (أي فكرة أنّ الربّ أملى النصوص المقدّسة على الرجال، كالباباوات والملوك). تمثّل الربوبيّة من زوايا كثيرة تهديداً مباشراً لفكرة نيابة المسيح على الأرض، وهيمنةِ الكنيسة على الجماهير الخاضعة.

انطلقت محاكم «التفتيش» (أو «التحقيق بالضلالات الهرطوقيّة» Inquisitio Haereticae Pravitatis) في القرن الثاني عشر، وهي حملة ضخمة مُنظَّمة نفّذتها السلطات القضائيّة الكنسيّة، بهدف مكافحة الهرطقة. خلال ماراثون عدم التسامح الذي دام قروناً، اغتالت الكنيسة مئات الآلاف من المتّهمين بالهرطقة، أو شوّهتهم، أو أخضعتهم للتعذيب، لكنّ الكاثوليكيّين لا ينفردون بإعدام الناس وقتلهم في هذا السياق، فالبروتستانت بدورهم أعدموا المهرطقين، ومعظمهم بالطبع كانوا من الكاثوليكيّين. بالمثل، اعتبر اليهودُ الأرثوذوكس كلّ من ينحرف عن مبادئ الإيمان اليهوديّ مهرطقاً، كما تراشقت الطوائف الإسلاميّة المتناحرة باتّهامات مماثلة، وأشهر مثال على ذلك التناحر بين الطائفتين السنيّة والشيعيّة، فكلٌّ منهما مستعدّة لتفجير أفراد الطائفة الأخرى إلى أشلاء، بغية إثبات أنّهم مهرطقون.

حظرُ قراءة النصوص الدينيّة، هو وسيلة أخرى لفرض الخضوع العقليّ. عبر تاريخها الطويل، منعت الكنيسة الكاثوليكيّة جماهير المؤمنين من قراءة الكتاب المقدّس، فقد كتب البابا إنوسنت الثالث عام 1199م: «يجب ألّا نتهوّر بشرح ألغاز الإيمان لأيّ شخص. في الحقيقة، لن يفهمها أحد عادة، إلّا المؤهّلون لذلك بما يملكونه من ذكاء ومعرفة. النصوص المقدّسة عميقة للغاية، لدرجة أنّ الموهوبين والمتعلّمين يلاقون صعوبة في فهمها، وليس الأمّيين أو من لا ينتمون إلى الكهنوت فحسب».

لاحظوا الممانعة القويّة للتخلّي عن السلطة في صميم كلمات البابا، ممّا يجبر المؤمنين على الاعتماد على التفسير البابويّ للنصوص. مَنعُ حملان الربّ من قراءة كلماته، هو ممارسة نقلها الغزاة الإسبان إلى أمريكا، إذ حُرِّمَت قراءة النصوص المقدّسة على السكّان الأصليّين، ممّا سمح للكنيسة بتنصيرهم انتقائيّاً، وبالتالي إخضاعهم بسهولة لسيطرتها الإيديولوجيّة،

وإجبارهم على الركوع أمام مذبحها العالي. فضلاً عن ذلك، كانت اللغة الرسميّة لإقامة القدّاس هي اللاتينيّة، رغم أنّ الرعيّة لا تفهمها -بمن في ذلك المستعمرون الإسبان أنفسهم- ممّا رسّخ الاعتماد على الكهنة، ووسّع سحرهم كمترجمين لتوجيهات الربّ. وهكذا، تمّ استغلال المرتبة الدينيّة للتحكّم بالوصول إلى النصوص المقدّسة، وهو ما تحوّل في نهاية المطاف إلى وسيلة للحفاظ على تلك المرتبة.

لا المعرفة بحدّ ذاتها، ولا التشكيك بها، هما فقط ما عرّض الشخص للعقاب، فحتّى نشر المعرفة كان ممنوعاً. إحراق الكتب هو وسيلة موثوقة لتحقيق تلك الغاية، عُدَّ بمنزلة تسلية شعبيّة في المسيحيّة خلال القرون الوسطى، كما مارسته حركة الطالبان في أفغانستان بحماس في العصر الحديث. القرآن -وهو أحد الكتب القليلة، التي يدفع إحراقها الناسَ إلى ارتكاب المذابح- يحفل بقائمة طويلة من العقوبات ضدّ التفكير الحرّ، ويخصّ بالعقاب الأقسى أولئك الذين يشكّون بكلمة الله (كما كتبها الرجال من أصحاب السلطة)، وما يلي هو مجرّد عيّنة صغيرة:

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ» (سورة البقرة 162-162)، ولاحظوا اللاأنسنة هنا: «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ» (سورة البقرة 171)، «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» (سورة البقرة 175-176)، «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» (سورة آل عمران 10)، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ بَلِ اللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ» (سورة آل عمران 149-151).

تتدخل العقوباتُ ضدّ حريّة التفكير في صميم بنية القانون الدينيّ، وهي عقوبات تجعل أيّ شخص يتردّد إزاء اعتناق رأي مخالف، أو الجهر به، خاصّة إن كان مؤمناً بالعقاب الإلهيّ. نلاحظ ذلك مراراً وتكراراً في العهدين القديم والجديد، على الرغم من أنّ يسوع هو رجل بشّرَ بالرحمة، والمودّة، والحبّ، والإحسان، وغيرها من المبادئ الإنسانيّة، لكنّه أدرك قدرة «الخوف» على تحفيز الرجال، لذلك لم يترفّع عن اللجوء إلى التهديد بقمع أيّ تحدٍّ لإيديولوجيّته: «مَنْ رَذَلَنِي وَلَمْ يَقْبَلْ كَلاَمِي فَلَهُ مَنْ يَدِينُهُ. اَلْكَلاَمُ الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ هُوَ يَدِينُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ» (إنجيل يوحنّا 12: 48)، «إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يَثْبُتُ فِيَّ يُطْرَحُ خَارِجًا كَالْغُصْنِ، فَيَجِفُّ وَيَجْمَعُونَهُ وَيَطْرَحُونَهُ فِي النَّارِ، فَيَحْتَرِقُ» (إنجيل يوحنّا 15: 6).

فضلاً عن ذلك، سلطة المسيح الإيديولوجيّة كذكر مهيمن، تمتدّ إلى ممثّليه. استناداً إلى إنجيل لوقا، كلّف المسيح حوارييه بنشر كلمته في العالم، وستتعرّض المجتمعات التي انطلقوا لتنصيرها إلى عواقب خطيرة، إن لم تقبل بهم: «وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يَكُونُ لِسَدُومَ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ حَالَةٌ أَكْثَرُ احْتِمَالاً مِمَّا لِتِلْكَ الْمَدِينَةِ» (إنجيل لوقا 10: 12)، تذكّروا أنّ الربّ أهلك سكّان سدوم جميعهم، بأن أنزل عليهم مطراً كبريتيّاً أحرقهم (سفر التكوين 19: 24-25).

سينصبّ غضبُ جيوش الربّ على الخاطئين، أو أولئك الذين لا يمتثلون للمبادئ الأخلاقيّة التي وضعها: «يُرْسِلُ ابْنُ الإِنْسَانِ مَلاَئِكَتَهُ فَيَجْمَعُونَ مِنْ مَلَكُوتِهِ جَمِيعَ الْمَعَاثِرِ وَفَاعِلِي الإِثْمِ، وَيَطْرَحُونَهُمْ فِي أَتُونِ النَّارِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ. حِينَئِذٍ يُضِيءُ الأَبْرَارُ كَالشَّمْسِ فِي مَلَكُوتِ أَبِيهِمْ. مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ. أَيْضًا يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ كَنْزًا مُخْفىً فِي حَقْل، وَجَدَهُ إِنْسَانٌ فَأَخْفَاهُ. وَمِنْ فَرَحِهِ مَضَى وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ وَاشْتَرَى ذلِكَ الْحَقْلَ» (إنجيل متّى 13: 41-43). توخّياً للإنصاف، لم يرتكب المسيح أبداً أفعالاً استبداديّة كهذه خلال حياته، فإحراق المهرطقين أحياء، هي ممارسة ابتدعها أتباعه بعد قرون عديدة من وفاته، خاصّة إبّان حقبة محاكم التفتيش.

بأيّ حال، المسيح (أو أسطورة المسيح) لم ينسَ أن يوظّف التهديد بالعنف والعذاب، لحثّ الآخرين على اعتناق إيديولوجيّته، وبالتالي توسيع هيمنته. القبّعات الكبيرة، القامة المنتصبة، والتواصل البصريّ المباشر، هي كلّها أدلّة غير منطوقة، وظيفتها نقل التهديد ذاته، ابتغاء للنتيجة نفسها: الخضوع.

عندما نقوم بتفكيك قيمة الحجم وسلوكيّاتِ الهيمنة التي أسقطها البشر على الله، سنردّها إلى موقعها ضمن السجل العتيق لسيكولوجيا الإنسان وأشباه البشر. بهذه الطريقة، قد نبدأ بفهم الأسباب التي تدفع الرجال لممارسة العنف الدينيّ، والإخضاع الفكريّ، خاصّة في الأديان التي يقودها ذكر مهيمن. لقد طوّر أسلافنا من الرئيسيّات تكيّفات، ساعدتهم على تجنّب تحدّي هيمنة الذكور الأقوى، والأضخم حجماً. ورث البشر عنهم هذه النزعة، وأدخلوا قواعد الهيمنة والخضوع ذاتها إلى نسيج ثقافاتهم الدينيّة، فاستعان المستبدّون في تحالفهم مع الآلهة الذكور المهيمنين، ببنى الخوف التطوّريّة، واستغلّوا تلك الحوافز من أجل ترهيب وإذلال من هم أدنى مرتبة، وأولئك الذين لا ينتمون إلى الجماعة. علوم التطوّر قد تساعدنا على أن نفهم بشكل أفضل لماذا نتواطأ مع أنظمة السلطة الظالمة، وعلى أن ننأى بأنفسنا عن إظهار الخضوع الإجباريّ كاستجابة للحجم والسلطة، خاصّة عندما يتسبّب خضوعنا بالعذاب والظلم.

***

الفصل السابع

سوءُ التكيّفِ، والخضوعُ إلى الألوهيّة

على الرغم من أنّهم لم يقدّموا عزاء كافياً إلى أولئك الذين يعانون من الاكتئاب السريريّ، فإنّ علماء السيكولوجيا التطوّريّة طرحوا نظريّة هامّة، مفادها أنّ أعراض الاكتئاب المختلفة (ضعف الحوافز، التشاؤم، قلّة النشاط البدنيّ... إلخ) أسهمت في تلاؤم أسلافنا مع البقاء، بتمهيد الطريق لهم للاستسلام أمام الأفراد الأقوى والأشدّ هيمنة، أو الأشدّ خطراً. ظاهرة الاكتئاب تفرض تداعيات على مستوى بنى السلطة الدينيّة والسياسيّة، خاصّة بالنسبة للرجال الذين يدّعون أنّهم يمثّلون الآلهة، سواء كانوا ملوكاً – آلهة، أو رؤساء، أو أئمّة، أو باباوات، أو أمراء حرب، أو مبشّرين إنجيليّين من أصحاب الملايين، فجميعهم ينتفعون من الشلل الذي يسبّبه الخضوع الاكتئابيّ.

ترتيبُ النَقْر

تقترح أبحاث السيكولوجيا التطوّريّة، أنّ الاكتئاب قد يكون نمطاً من أنماط التكيّف، استناداً إلى براهين كثيرة، أحدها هو «وبائيّات الاكتئاب» أي معدّل انتشاره: الاكتئاب هو أشيع مرض نفسيّ حول العالم، بما في ذلك الولايات المتّحدة الأمريكيّة، حيث يبلغ معدّل ظهوره هناك 17% تقريباً، أي أنّ واحداً من كلّ خمسة أمريكيّين سيعاني من نوبة اكتئاب كبرى، مرّة واحدة على الأقلّ خلال حياته. تسهم الجينات بدور هامّ في ظهور الاكتئاب، لكنّ

معدّل انتشاره العالي هو أكبر بكثير ممّا نتوقّعه من طفرات جينيّة تحدث بالصدفة. يلخّص عالِم النفس والأنثروبولوجيا الطبيّة دانيال ويلسون ما سبق، على النحو التالي: «ببساطة، الجينات الشائعة إلى درجة تسمح لها بالتطوّر من خلال الاصطفاء الطبيعيّ، تفعل ذلك فقط بسبب ما تقدّمه من فوائد للسلالة التي تحملها، حتّى ولو أدّى التعبير عنها إلى نمط ظاهريّ مَرَضيّ حاليّاً».

قد يبدو لنا وصفُ مرض نفسيّ شائع بأنّه «تكيّف» نوعاً من التناقض، لكن تذكّروا أنّ الطبيعة «لا تبالي» كم ستكون التجربة الشخصيّة بغيضة، طالما أنّها تخدم البقاء. العنصر الرئيسيّ لفهم لماذا يقدّم الاكتئاب فائدة من منظور البقاء، هو فهم العلاقة ما بينه وبين المرتبة الاجتماعيّة. وجد علماء السيكولوجيا التطوّريّة، أنّ الاكتئاب عند الحيوانات الاجتماعيّة يرتبط بموقعها ضمن «ترتيب النَّقر»، وهو مصطلح أدخله عالم الأحياء النرويجيّ ثورليف شجيلديروب - إب عام 1935، لوصف كيف تحافظ الدجاجات على مرتبتها من خلال العدوانيّة الاستراتيجيّة، أي بأن تقوم كلٌّ منها بنقر الأخريات الأدنى منها مرتبة على التوالي. لاحظ شجيلديروب - إب أنّ الدجاجة تصاب غالباً باكتئاب واضح، عندما تتدنّى مرتبتها: «بعد أن تتعرّض الدجاجة للهزيمة مباشرة، تنخفض روحها المعنوية للغاية، وتصبح ذليلة، جناحاها متدليّان ورأسها في التراب، كما تصاب بالشلل، رغم غياب أيّ علّة جسديّة حقيقيّة».

في عام 1967، لاحظ عالم السيكولوجيا التطوّريّة جون برايس نمطاً يشبه الاكتئاب، عند أفراد المكاك الطويل الذيل الأدنى مرتبة، ووضع «نظريّة الاكتئاب التطوّريّة» التي فرضتْ نفسها بقوّة، وتنصّ على أنّ الاكتئاب هو وسيلة قديمة لتنظيم المرتبة والتنافس الاجتماعيّ بين الحيوانات (بما فيها البشر)، كما أنّها تحفّز الفرد مؤقّتاً على الاستسلام للأقوى. استناداً إلى برايس، فرضيّة الاكتئاب كنمط من أنماط التنافس الاجتماعيّ، تطرح ثلاث وظائف بالمحصّلة لذلك «الاستسلام»:

1- وظيفة تنفيذيّة: تمنع الفرد من المجابهة، بتثبيط السلوكيّات العدوانيّة التي قد ينتهجها ضدّ خصومه، أو ضدّ من يفوقونه مرتبة.
2- وظيفة التواصل: تنقل إشارة «لستُ تهديداً» إلى الخصم.
3- وظيفة التسهيل: إذ إنّها تضع الفرد في حالة من «اليأس» عمليّاً، ممّا يشجّعه على القبول بنتيجة المنافسة، وإبداء سلوك يعبّر عن استسلامه الطوعيّ.

تتوافق نظريّة برايس، مع ما نعرفه عن مسيرة التطوّر: تورّطُ الفردِ في مواجهة مع من هم أقوى منه، هو طريقة سريعة لإزاحته من الحوض الجينيّ، أمّا تعبيره عن استسلامِه وقبولِه بمرتبة أدنى، وأنّه لا يمثّل تهديداً، فهو وسيلة فعّالة تنقذه من التعرّض إلى هجوم. يتحكّم الدماغ بهذه الاستراتيجيّة، ففي عالم عنيف كعالمنا، من المفيد أن يمتلك الفرد دماغاً مُبَرْمَجاً بشكل انتقائيّ، لكبح الدوافع التي تحفّز سلوكيّات قد تنتهي بالأذى، أو بالموت.

على العكس من الدجاج والمكاك، يصاب البشر بالاكتئاب عندما تتدنّى مرتبتهم لأسباب لا علاقة لها بالتنافس العنيف، كخسارة الوظيفة أو الطلاق أو الفشل الدراسيّ. تتدخّل الآليّات البيولوجيّة هنا، فقد أظهرت الأبحاث علاقة هرمون التستوستيرون مثلاً، بالاستحواذ على المرتبة: يترافق ارتفاع مستوياته مع مزاج أفضل، دافع جنسيّ أعلى، الفوز بالمنافسات، وتحفيز الفرد على دخول المنافسة مجدّداً إن تعرّض للهزيمة. على العكس من ذلك، يترافق انخفاض مستوياته مع المزاج الاكتئابيّ، والانسحاب من المنافسة، وانخفاض الدافع الجنسيّ. وجود آليّة هرمونيّة واحدة تتحكّم بكلّ من المزاج، والدافع الجنسيّ، والحافز للتنافس على المرتبة، يدعم فرضيّة برايس. من ناحية أخرى، تكون مستويات السيروتونين -الذي يلعب دوراً هامّاً في المزاج الإيجابيّ- أعلى عند الأفراد الأعلى مرتبة، وترتفع أكثر عندما يتلقّى هؤلاء الأفراد استعراضات الخضوع من الآخرين.

تساعدنا نظريّة برايس على فهم سبب ازدهار المؤسّسات الدينيّة، من خلال تشجيعها على سلوكيّات تقلّد أعراض الاكتئاب، وقد تساعدنا نظريّة

التطوّر على تفسير كفاءة الأديان في هذا المجال، خاصّة أنّها تعتمد على أنماط من الخضوع موجودة مسبقاً.

انعدامُ قيمة الفرد، وخطيئةُ الغرور

من الواضح أنّ بعض أعراض الاكتئاب، مفيدة على صعيد الخضوع. لشرح هذا، لا بدّ أوّلاً من فهم الأسس التطوّريّة للاعتداد بالذات.

يجادل الباحثون في نظريّة التطوّر، بأنّ «الاعتداد بالذات» هو مُشعِر أو مقياس مصمّم لتوجيه غايات التكيّف، وهو مقياس فائق الأهمّيّة على صعيد التراتبيّات الاجتماعيّة، إذ ينبغي أن يدرك الأفراد موقعهم في تلك التراتبيّات، وأن يختاروا سلوكيّات اجتماعيّة تتوافق معه، خاصّة فيما يتعلّق بالمنافسة الاجتماعيّة، كي لا يتحدّوا أفراداً أخطر أو أعلى منهم مرتبة، وكي لا يخضعوا إلى أولئك الأضعف أو الأدنى مرتبة. تقييم الذات إذن، سواء كان تقييماً عالياً أم منخفضاً، هو مشعر عاطفيّ يوجّه الاستراتيجيّة التي سنستعملها.

«احتمال الاحتفاظ بالموارد» هو مبدأ آخر هامّ له علاقة بالاعتداد بالذات، صاغه البيولوجيّ البريطانيّ جيفري باركر، لدراسة احتمال أن يفوز حيوان ما، في مواجهة يسخّر لها كلّ طاقته، فعند نشوب مواجهة، سيقوم الفرد بمقارنة «احتمال الاحتفاظ بالموارد» الخاصّ به مع نظيره عند الخصم، ممّا ينجم عنه تداعيات هامّة على صعيد التلاؤم مع البقاء، تتلخّص بألّا يضيّع هذا الفرد وقته وجهده بتحدّي الأقوياء، وألّا يخاطر بالتعرّض إلى الأذى. من ناحية أخرى، على حدّ قول عالمي الإيكولوجيا السلوكيّة جون كريبس ونيكولاس دايفس، توجيه الخيارات السلوكيّة اعتماداً على «احتمال الاحتفاظ بالموارد»، قد يساعد الفرد على «الخضوع للأقوى، وتحدّي الأضعف»، وهو ما يتطلّب مقارنة صفات الذات، مع صفات الخصم. تلك الصفات تشكّل أساس الاعتداد بالذات، الذي يخدم وظائف تحفيزيّة هامّة أخرى، إذ إنّ تقييم الذات تقييماً عالياً يحرّض سلوكيّات الهيمنة، أمّا انخفاض الاعتداد بالذات فيحرّض على الخضوع.

تدعم الأدبيّات العلميّة اعتبار الاعتداد بالذات مقياساً لتقدير «احتمال الاحتفاظ بالموارد»، فقد وجدت إحدى الدراسات على سبيل المثال، أنّ الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم أدنى مرتبة يلجؤون إلى سلوكيّات خاضعة، ويشعرون بالضيق عندما يتصرّفون بثقة. وجدت دراسة أخرى، أنّ المصابين بالاكتئاب يميلون غالباً إلى مقارنة أنفسهم مع من هم أفضل حالاً، واكتشفت وجود علاقة ما بين الاكتئاب وتقييم الذات السلبيّ على مقاييس المرتبة الاجتماعيّة.

غالباً ما يرى مرضى الاكتئاب أنفسهم مهزومين، عاجزين، دونيّين، أو بلا قيمة على الإطلاق، وكلّها تصوّرات للذات تتوافق مع السلوك الخاضع المستسلم. دليل «الجمعيّة الأمريكيّة لعلم النفس» الحاليّ، يصف هذه الأعراض على أنّها: «شعور بانعدام القيمة، أو شعور مفرط أو غير ملائم بالذنب». يتضمّن التواضع مشاعر (أو استعراضات) الدونيّة، والضعف، والتذلّل... إلخ، ويتمّ التعبير عنه وفق مجال متدرّج، يحتلّ نهايتَه القصوى تقييمُ المكتئب لذاته على أنّه عديم القيمة. يلعب التواضع أيضاً دوراً هامّاً في تنظيم التراتبيّات الاجتماعيّة، فقيمة الإنسان هي قيمة نسبيّة دائماً، تتأسّس من خلال مقارنتها مع غيره من البشر. بالتالي، الشعور بانعدام القيمة في سياق التراتبيّات الاجتماعيّة، يعني في الحقيقة أنّ الفرد هو «أقلّ قيمة» من شخص آخر ذي «قيمة أعلى»، ممّا يعني عادة أنّ هذا الأخير هو فرد مهيمن بشكل ما، أو بآخر. قد يظهر هذا الشعور بعد التعرّض للهزيمة فعلاً، أو كآليّة تحمي الفرد ببساطة من التعرّض للهزيمة بعد حساب «احتمال الاحتفاظ بالموارد»، لأنّه سيختار الاستسلام عوضاً عن التنافس.

تستجيب الرئيسيّات غير البشريّة إلى «احتمال الاحتفاظ بالموارد» المنخفض، بالانكماش على نفسها، وغضّ بصرها، وإبداء سلوكيّات الاستسلام الأخرى غير المنطوقة، أي بكلمات برايس: الرسالة التي تنقلها إشارات الخضوع هي «أنتَ أقوى منّي»، وهي من منظور حيوان لا يملك لغة، أقرب إلى قولنا «أنتَ رائع!».

يلجأ البشر بدورهم إلى استعراضات الخضوع تلك، لكنّهم يستعملون أيضاً عبارات المديح للاعتراف بالمرتبة العليا، فقد يخاطبون النبلاء على سبيل المثال بـ«سموّك»، «معاليك»، «جلالتك»، «حضرتك»، ويقومون في الوقت نفسه بتحقير ذاتهم بعبارات من قبيل: «أنا عاجز، مثير للشفقة، منحطّ، وديع... إلخ»، للتعبير عن تدنّي مرتبتهم، خاصّة أنّها عبارات تنقل حالة من الخضوع الفكريّ: التواضع مقابل الغرور، انخفاض تقييم الذّات مقابل الاعتداد بالذات... إلخ، كما أنّها مؤشّرات تتنبّأ بالسلوك الذي سيتبعه الفرد، كالاستسلام عوضاً عن التحدّي مثلاً.

باستعراض ما سبق من منظور التطوّر، فكرة أن البشر يجب أن يؤكّدوا على تواضعهم الدينيّ أمام كائن أسمى -خاصّة إن كان ذكراً مخيفاً- هي فكرة تشرح الكثير. التنافس على المرتبة يشكّل جزءاً أساسيّاً من حياة الرئيسيّات الاجتماعيّة (مرّ معنا كيف خضع الجميعُ إلى الأفراد الأقوياء خلال التاريخ التطوّريّ)، واستعراضات الخضوع المألوفة قد تسهّل على البشر، الاستسلامَ إلى الله من الناحية الشعوريّة. في الواقع، يبجّل البشر الآلهةَ، ويُذلّون أنفسهم أمامها لإظهار خضوعهم لها، تماماً كما يتصرّفون مع أقرانهم الأعلى مرتبة. هذا الإذلال قد يكون شفهيّاً، كما في الكليشيهات الشائعة كـ«الله عظيم، ونحن ضئيلون. الله منزّه، ونحن خاطئون»، وقد يتمّ بطرق غير شفهيّة: «وَعِنْدَ تَقْدِمَةِ الْمَسَاءِ قُمْتُ مِنْ تَذَلُّلِي، وَفِي ثِيَابِي وَرِدَائِي الْمُمَزَّقَةِ جَثَوْتُ عَلَى رُكْبَتَيَّ وَبَسَطْتُ يَدَيَّ إِلَى الرَّبِّ إِلهِي» (سفر عزرا 9: 5)، أو بطرق عاطفيّة: «تَوَاضُعُ الرُّوحِ مَعَ الْوُدَعَاءِ خَيْرٌ مِنْ قَسْمِ الْغَنِيمَةِ مَعَ الْمُتَكَبِّرِينَ» (سفر الأمثال 16: 19).

التواضع هو تجربة مخصّصة بالدرجة الأولى، لأولئك الذين يحتلّون المواقع الدنيا على سلّم التراتبيّة الهرميّة. لذلك، لا عجب أنّه يحظى بقيمة هائلة في مختلف الديانات، ويُمدَح بوصفه علامة على الإخلاص الروحانيّ، فكلّ الأديان حول العالم تزخر بإشارات إلى أهمّيّة التواضع وتحضّ عليه: «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ

قَالُوا سَلامًا» (سورة الفرقان 63). بالإضافة إلى ذلك، كما نتوقّع من إله مرسوم على صورة ذكر الرئيسيّات المهيمن، تصف النصوصُ المقدّسة التواضعَ كوسيلة لصدّ العدوان: «يُقَاوِمُ اللهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَمَّا الْمُتَوَاضِعُونَ فَيُعْطِيهِمْ نِعْمَةً» (رسالة يعقوب 4: 6)، ويقول الله: «قد تذلّلوا فلا أُهْلِكُهم بل أعطيهم قليلاً من النجاة» (سفر أخبار الأيّام الثاني 12: 7).

جدليّاً، الغرور هو نقيض التقييم المنخفض للذات، ويتطلّب بالتعريف شعوراً بقيمة الذات، كما أنّه إحدى الخطايا السبع المميتة[3]، التي تُعَدُّ كلٌّ منها فعلاً يتحدّى القواعد التي أرساها إله ذكر مهيمن. الغرور –كبقيّة الخطايا الستّ الأخرى– يفرض تداعيات هامّة على صعيد المرتبة، والتلاؤم مع البقاء. يحظى التواضع المطلق بتقدير الأرستقراطيّة المتديّنة، ورجالِ الدولة، والله (ناهيكم عن ذكور الأنواع الأخرى من الرئيسيّات)، بينما يُعَدُّ الغرور خطيراً من وجهة نظر الذين يتبوّؤون مناصب عليا، لذلك لا يتسامحون معه. بالتالي، يُحظَر على الأفراد الأدنى مرتبة –سواء من الرجال أو الرئيسيّات– التواصلُ البصريّ المباشر، أو رفع أصواتهم، أو الوقوف منتصبي القامة.

يوصَف الله بأنّه كليّ القدرة، ممّا لا يتماشى مع عدائه للغرور، الذي تشدّد عليه النصوص المقدّسة: «مَكْرَهَةُ الرَّبِّ كُلُّ مُتَشَامِخِ الْقَلْبِ. يَدًا لِيَدٍ لاَ يَتَبَرَّأُ» (سفر الأمثال 16: 5)، وكما يفعل الرجال الأقوياء بالضبط، يعاقب الله المغرورين من أتباعه عقاباً قاسياً: «وَأُعَاقِبُ الْمَسْكُونَةَ عَلَى شَرِّهَا، وَالْمُنَافِقِينَ عَلَى إِثْمِهِمْ، وَأُبَطِّلُ تَعَظُّمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَضَعُ تَجَبُّرَ الْعُتَاةِ. وَأَجْعَلُ الرَّجُلَ أَعَزَّ مِنَ الذَّهَبِ الإِبْرِيزِ، وَالإِنْسَانَ أَعَزَّ مِنْ ذَهَبِ أُوفِيرَ» (سفر إشعياء 13: 11–12)، وها هو مثال آخر عن قسوة العقوبة، التي ستطال من يصرّون على الغرور: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَعَ ذلِكَ لاَ تَسْمَعُونَ لِي، أَزِيدُ عَلَى

3- حسب اللاهوت الكاثوليكيّ، الخطايا السبع المميتة أو الخطايا الكاردينالية هي سبع رذائل تنجم عنها خطايا أخرى، وسلوكٌ غير أخلاقيّ. عدّدها أوّلاً البابا غريغوري الأوّل في القرن السادس الميلاديّ، ثمّ عدّلها القديس توما الإكويني في القرن الثالث عشر، وهي: الغرور، الطمع، الشهوة، الحسد، الشراهة، الغضب، والكسل. المترجمة

تَأْدِيبَكُمْ سَبْعَةَ أَضْعَافٍ حَسَبَ خَطَايَاكُمْ فَأُحَطِّمُ فَخَارَ عِزِّكُمْ، وَأُصَيِّرُ سَمَاءَكُمْ كَالْحَدِيدِ، وَأَرْضَكُمْ كَالنُّحَاسِ فَتَفْرَغُ بَاطِلًا قُوَّتُكُمْ، وَأَرْضُكُمْ لاَ تُعْطِي غَلَّتَهَا، وَأَشْجَارُ الأَرْضِ لاَ تُعْطِي أَثْمَارَهَا، وَإِنْ سَلَكْتُمْ مَعِي بِالْخِلاَفِ، وَلَمْ تَشَاءُوا أَنْ تَسْمَعُوا لِي، أَزِيدُ عَلَيْكُمْ ضَرَبَاتٍ سَبْعَةَ أَضْعَافٍ حَسَبَ خَطَايَاكُمْ» (سفر اللّاويّين 26: 18–21). عدم رضا الله عن الغرور، هو ثيمة تتكرّر في العهد القديم. قصّة الملك هيرودس مأساويّة على نحو خاصّ، فبعد أن رفض الخضوع للربّ، هزمه أحد الملائكة، من ثمّ التهمته الديدان حيّاً (سفر أعمال الرسل 12: 23).

ينتهج القرآن مقاربة مماثلة للغرور: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» (سورة الأعراف 146)، «إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ» (سورة النحل 23)، «قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ» (سورة الزمر 72). بوصفه قائداً ذكراً، لا يتسامح الله مطلقاً مع الحالات الشعوريّة التي تؤدّي إلى اغتصاب مكانه، لذلك أعدّ جهنّم لأولئك المغرورين. الغرور إذن يستدعي غضب الربّ، أمّا التواضع فيدرأه، فضلاً عن أنّه وسيلة لاستجداء حمايته. ناقشنا فيما سبق أهمّيّة الحماية في بيئة تعجّ بالمفترسين الخطرين، وكيف أنّها ضروريّة لصدّ القوى الخارجيّة، ودرء غضب الإله الذكر نفسه، الذي يطالب أتباعه بالاستسلام. لذلك، قد يسجد المؤمن أمام الله، ويتوسّل مغفرته، كما ناقشنا في الفصل السادس.

قد يبلغ الترويج الدينيّ للخضوع حدوداً متطرّفة، تتمثّل بإيذاء النفس أو إماتة الجسد دينياً. من وجهة نظر المتضرّعين، إماتة الجسد هي فرصة للتعبير عن دونيّتهم أمام آلهتهم الذكور (أو من يمثّلونهم). على سبيل المثال، يقوم أفراد بعض الطوائف الشيعيّة بجلد أنفسهم بالسلاسل، وضرب أجسادهم بالسيوف والسكاكين، تخليداً لذكرى استشهاد الإمام الحسين بن علي (626–680م)، وهو حفيد للنبيّ محمّد، ضحّى بحياته في سبيل الله خلال الحرب المقدّسة.

كبقيّة استعراضات الخضوع، يُعَدّ أذى النفس وسيلة لدرء الغضب

الإلهيّ استباقياً. خلال العصور الوسطى في أوروبا، انتشرت حركات «الجَلْد بالسياط»، وهدفت إلى القضاء على الطاعون أو التنبّؤ بنهاية العالم. القدّيس دومينيك (1170–1221م) كان يجلد نفسه كلّ ليلة بسلاسل حديديّة، للتكفير عن خطايا العالَم كلّه أمام الربّ، وفي العصر الحديث، يجلد أفراد طائفة «التائبون» في نيو مكسيكو أنفسهم بالسياط إلى أن تدمى ظهورهم، أو يصلبون أنفسهم في محاكاة لتضحية المسيح، كي يسترضوا الربّ.

لا بدّ أنّ تلك الطقوس تترافق مع درجة من النشوة، تعيد إحياء مشاعر عتيقة من ماضينا التطوّريّ الغابر، كما أنّها تُغْرِق الدماغَ بنواقل عصبيّة قويّة كالأندورفينات Endorphins (موادّ كيميائيّة تشبه المورفين) تضخّم التجربةَ، لكن لو ظهرت تلك السلوكيّات في سياق مختلف، لتمّ نقل من يمارسها على الفور، وبالقوّة، إلى غرفة الطوارئ النفسيّة في المستشفى.

كارولين بِيْنَم، وهي مؤرّخة أمريكيّة مختصّة بأديان العصور الوسطى، كتبت عن ممارسات الزاهدين الكاثوليكيّين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، التي بلغت حدّاً متطرّفاً، اضطرّت بسببه الكنيسة الكاثوليكيّة أخيراً إلى حظرها كلياً: «المناشدات التي أطلقتها الكنيسةُ آنذاك مطاليةً بالعقلانيّة والباطنيّة، كانت ردّاً على ممارسات الزهد المتطرّفة، كوضع أصفاد حديديّة، أو بتر أجزاء من الجسد، أو فرك الجروح بالقمل، أو القفز داخل فرن مشتعل، أو قيام الشخص بشنق نفسه»، فضلاً عن أنّ تناول القيح الذي ينزّ من قرحات المجذومين، كان وسيلة مُفضَّلة لاستعراض التقوى والزهد!

قد تتسبّب خسارة القتال من أجل المرتبة بألم عميق للخاسر، ومن خلال تسبّب الشخص بالألم لنفسه، سيوفّر عناء القيام بذلك على الإله الذكر المهيمن، وسيعبّر بطريقة مأساويّة عن خضوعه لذلك الإله، في آن واحد. تحقيرُ الذات يصبح مفهوماً أكثر، إن آمن الفرد فعلاً بأنّ الله مستعدّ لتطبيق العقوبات التي يهدّد بها في النصوص المقدّسة.

أخيراً، في حالات الاكتئاب الشديد، يسير الانتحار وتدنّي تقدير الذات يداً بيد. غالباً ما تُحرّم الأديان الانتحار، كما أنّ الأبحاث تشير عموماً إلى

تدنّي معدّلاته بين المؤمنين الملتزمين. مع ذلك، قد تبلغ إماتة الجسد حدَّ الانتحار، في نمط متطرّف من تحقير الذات، موثّق طيلة تاريخ الأديان. طائفة السيركميليون Cercumcellion، هي طائفة مسيحيّة ظهرت في بدايات القرن الرابع الميلاديّ في شمال إفريقيا، آمن أتباعها بأنّ الانتحار هو استشهاد، لذلك كانوا يقومون بالقفز عن حافّة جرف، أو رمي أنفسهم في النار المشتعلة، أو دَفْع المال لرجال آخرين كي يقتلوهم، أو تهديدهم بالقتل إن رفضوا القيام بذلك، وغالباً ما كان انتحارهم عقاباً ذاتيّاً على ارتكاب الخطيئة. مؤخّراً، دخلت حالات من الانتحار الجماعيّ المشؤوم التاريخَ، كما في عام 1978 حين انتحر تسعمئة وثمانية عشر أمريكيّاً من أتباع حركة «معبد الشعوب»، بابتلاع السيانيد في غويانا، بناء على أوامر زعيمهم جيم جونز (ذكر مهيمن). بالمثل، أقدم أربعة وسبعون فرداً من أفراد حركة «المعبد الشمسيّ» على الانتحار، بعد أن تبرّع بعضهم بما يزيد على مليون دولار لقائدهم جوزيف دي مامبرو (ذكر مهيمن). في حركة «بوّابة السماوات»، قام بعض المؤمنين الذكور بإخصاء أنفسهم طواعيّة قبل أن ينتحروا، كي يصعدوا على متن مركبة فضائيّة، من المفترض أن تقلّهم إلى بُعد آخر.

من البديهيّ أنّ الأشخاص الأسوياء لا يُخْصون أنفسهم، ولا يتناولون القيح الذي ينزّ من قرحات المجذومين، ولا يفركون جراحهم بالقمل، ولا يقفزون إلى داخل الأفران، ولا يشوّهون أنفسهم، ولا يقدمون على الانتحار! حتّى من المنظور الدينيّ، كلّ ما سبق هو سلوكيّات مَرَضيّة، يمثّل معظمها سوء تكيّف على الصعيد التطوّريّ، لأنّ قيام الفرد بقتل أو إخصاء نفسه سيزيحه مباشرة من الحوض الجينيّ، كما أنّ السلوكيّات الأخرى التي ينجم عنها أذى للنفس، ستعرّض وجوده في ذلك الحوض للخطر. مع ذلك، بالنسبة إلى أولئك الذين تمّ تشجيعهم على الاعتقاد بأنّهم لا يساوون شيئاً أمام الله، أو أولئك الذين يعيشون في خوف دائم من عقابه، قد تكون تلك السلوكيّات نوعاً من إظهار الخضوع المثير للشفقة أمام حاكم قويّ مرعب.

انعدام المتعة

هناك عَرَضٌ آخر من أعراض الاكتئاب، ذو أهمّية خاصّة بالنسبة للمتديّنين، وهو انعدام الشعور بالمتعة Anhedonia، الذي يُعرَّف على أنّه فقدان القدرة على الاستمتاع، وتتأثر به غالباً الشهوة لكلّ من الجنس والطعام بآن واحد. انعدام الشعور بالمتعة يصيب كلّ أجناس الكائنات الحيّة، خاصّة بعد تعرّضها لهزيمة اجتماعيّة، ويحفّزها على الاستغناء عن ممارسة الجنس وتناول الطعام، لمصلحة الأفراد الأكثر هيمنة.

الدوافع التطوّريّة الأساسيّة المتعلّقة بالجنس والطعام، تعدّ من الخطايا السبع المميتة (الشهوة والشراهة)، وهو ما يربط القانون الدينيّ، مع الأنماط البدائيّة من تجيير الموارد لمصلحة ذكر قويّ.

I- الجنس وخطيئة الشهوة

يشير الباحثان في مجال العلوم التطوّريّة السريريّة، بول جيلبرت ومايكل ماغواير، إلى أنّ الحيوانات تؤثّر بعضها على مشاعر بعض وعلى سلوكها، من خلال إرسال الإشارات وتلقّيها. من منظور التنافس على التزاوج، تطرح تلك الإشارات تداعيات هامّة بالنسبة للبقاء، فالثقة العالية بالنفس أثناء التنافس على الموارد ذاتها، قد تجعل الأفراد المهيمنين خطرين، سواء ذكور المكاك والشمبانزي، أو الملوك، أو أمراء الحروب، أو رجال الدين، فجميعهم ميّالون إلى مواجهة خصومهم الجنسيّين بعنف مدمّر. بالمقابل، الامتناع عن ممارسة الجنس (كالابتعاد عن إناث الذكر المهيمن على سبيل المثال)، هو وسيلة لتجنّب اشتباك غير ضروريّ، قد يكون مميتاً أحياناً.

إحدى الإشارات التي يستخدمها الفرد لإعلام من هم أعلى مرتبة منه، بانسحابه من المنافسة الجنسيّة، هي التعبير عن شعوره بالخزي من ممارسة الجنس (أو الشعور بالذنب، وهو تعبير أشدّ خصوصيّة عن الخزي). تبيّن الدراسات أنّ الشعور بالخزي يرتبط بالاكتئاب، والإحساس بالدونيّة، والسلوكيّات الخاضعة، وأنّ إظهاره (من خلال غضّ البصر، الإطراق

بالرأس، الاختباء... إلخ) هو سلوك استرضائيّ يعبّر عن الخضوع. الأفراد المهيمنون أقدرُ على تحريض الشعور بالخزي في نفوس الأفراد الأدنى مرتبة، كما أنّهم يستغلّونه لخدمة مصالحهم الشخصيّة. آليّات الشعور بالخزي، والمرتبة، والسلطة، والقمع الجنسيّ، واضحة للغاية في وصف علاقة الله مع الخاضعين له. على سبيل المثال، يوبّخ الله (الذي يطالب بحقوق جنسيّة حصريّة) مملكة إسرائيل على طيشها الجنسيّ: «إِذَا طَلَّقَ رَجُلٌ امْرَأَتَهُ فَانْطَلَقَتْ مِنْ عِنْدِهِ وَصَارَتْ لِرَجُل آخَرَ، فَهَلْ يَرْجعُ إِلَيْهَا بَعْدُ؟ أَلاَ تَتَنَجَّسُ تِلْكَ الأَرْضُ نَجَاسَةً؟ أَمَّا أَنْتِ فَقَدْ زَنَيْتِ بِأَصْحَابٍ كَثِيرِينَ! لكِنِ ارْجِعِي إِلَيَّ، يَقُولُ الرَّبُّ، اِرْفَعِي عَيْنَيْكِ إِلَى الْهِضَابِ وَانْظُرِي، أَيْنَ لَمْ تُضَاجَعِي؟ فِي الطُّرُقَاتِ جَلَسْتِ لَهُمْ كَأَعْرَابِيٍّ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَنَجَّسْتِ الأَرْضَ بِزِنَاكِ وَبِشَرِّكِ» (سفر إرميا 3: 1–2)، ثمّ يعاقبها بالجفاف لأنّها مارست الزنا مع آلهة أجنبيّة: «فَامْتَنَعَ الْغَيْثُ وَلَمْ يَكُنْ مَطَرٌ مُتَأَخِّرٌ. وَجَبْهَةُ امْرَأَةٍ زَانِيَةٍ كَانَتْ لَكِ. أَبَيْتِ أَنْ تَخْجَلِي» (سفر إرميا 3: 3). يفترض المقطع ضمناً أنّ الشعور بالعار وبالخزي، هو ما نتوقّعه من إسرائيل بعد أن خانت إلهها جنسيّاً، ويبيّن العقوبات الخطيرة التي يفرضها الله على الزنا. في نهاية المطاف، يغفر الربّ لمملكة إسرائيل، لكنّه يطالبها بإعلان ندمها: «اِذْهَبْ وَنَادِ بِهذِهِ الْكَلِمَاتِ نَحْوَ الشِّمَالِ، وَقُلِ: ارْجِعِي أَيَّتُهَا الْعَاصِيَةُ إِسْرَائِيلُ، يَقُولُ الرَّبُّ. لاَ أُوقِعُ غَضَبِي بِكُمْ لأَنِّي رَؤُوفٌ، يَقُولُ الرَّبُّ. لاَ أَحْقِدُ إِلَى الأَبَدِ. اِعْرِفِي فَقَطْ إِثْمَكِ أَنَّكِ إِلَى الرَّبِّ إِلهِكِ أَذْنَبْتِ، وَفَرَّقْتِ طُرُقَكِ لِلْغُرَبَاءِ تَحْتَ كُلِّ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ، وَلِصَوْتِي لَمْ تَسْمَعُوا، يَقُولُ الرَّبُّ» (سفر إرميا 3: 12–13).

بالمثل، في رسالته إلى أهل رومية، يكتب القدّيس بولس أنّ الربّ يبغض من يعبدون الأوثان، ويتركهم ليلاقوا مصيرهم بسبب أفعالهم الجنسيّة المخزية: «لذلك أسلمهم الله أيضاً في شهوات قلوبهم إلى النجاسة لإهانة أجسادهم بين ذواتهم» (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 1: 24)، لكنّ الخاطئين لم يشعروا بالخزي كما يُفترَض بهم، واستحقّوا غضب الربّ: «ولكنّك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضباً في يوم

الغضب واستعلان دينونة الله العادلة، الذي سيجازي كلَّ واحدٍ حسبَ أعماله» (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 2: 5-6).

بتأطير الجنس على أنّه إساءة مشينة ضدّ الربّ، لا عجب أنّ الأديان تعمل على تضخيم الشعور بالخزي، والذنب الجنسيّ. بيّن استبيان شمل تسعة آلاف وخمسمئة أمريكيّ، أنّ المؤمنين الملتزمين يشعرون بالذنب الجنسيّ أكثر من الملحدين، وتربّع المورمونيّون على صدارة الشعور بالذنب تجاه ممارسة الجنس، تلاهم مباشرة طائفة شهود يهوه، ثمّ الخمسينيّون Pentecostal، وطائفة «مجيئيّو اليوم السابع» Seventh – day Adventists، والمعمدانيّون Baptists، بينما احتلّ اللاأدريّون والملحدون المراتب الأخيرة. بالإضافة إلى ذلك، قال 22.5% من الأشخاص الذين ترعرعوا في بيئة عائليّة شديدة التديّن، إنّهم تعرّضوا للإخزاء أو الاحتقار بسبب ممارستهم الاستمناء (مقارنة مع 5.5% فقط من أولئك الذين نشؤوا في بيئة أقلّ تديّناً)، وقيل للبعض منهم، إنّهم سيحترقون في نار جهنّم جزاء فعلتهم تلك، كما تعرّض آخرون للضرب بسبب انخراطهم في المتعة الشخصيّة. أفادت نسبة ساحقة بلغت 79.9% من الذين ترعرعوا في منازل متديّنة، عن شعورهم بالذنب بعد ممارسة أفعال جنسيّة معيّنة، أو لمجرّد الشعور بالرغبة الجنسيّة، مقارنة مع 26.3% من الذين ترعرعوا في منازل علمانيّة. بيّنت الدراسة ذاتها أيضاً، أنّ المشاركين المتديّنين الذين انقلبوا إلى ملحدين فيما بعد، لاحظوا تحسّناً في الرضا الجنسيّ.

القمع الجنسيّ الذي تفرضه الأديان، يتولّد بالدرجة الأولى من فكرة أنّ بعض السلوكيّات الجنسيّة، تثير غضب الربّ، فالأديان الإبراهيميّة تصف الله على أنّه يبغض كلاً من العلاقاتِ الجنسيّة خارج إطار الزواج، المثليّة الجنسيّة، البغاء، الجنس الفمويّ، الجنس الشرجيّ، الاستمناء، الملابس الفاضحة، بل حتّى الأفكار الجنسيّة. يتبع اللاهوت المسيحيّ تكتيكاً خاصّاً لطرد الأفكار المحرّمة من الوعي، يستند إلى مفهوم مفاده أنّ مجرّد التفكير بفعل جنسيّ يعادل ممارسته: «قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ لاَ تَزْنِ، وَأَمَّا أَنَا

فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيَهَا، فَقَدْ زَنَى بِهَا فِي قَلْبِهِ» (إنجيل متّى 5: 27–28).

في بعض الطوائف، يحرّم الله الممارسات الجنسيّة كلّها، ما عدا تلك الأساسيّة اللّازمة لتكاثر أتباعه عبر الأجيال (والذين لا يمكن له الاستغناء عنهم)، ويتوقّع من المؤمن الملتزم أن يتخلّى عن ممارسة الجنس، كعلامة على خضوعه. الامتناع عن ممارسة الجنس كما أسلفنا، هو سلوك شائع عند الرئيسيّات، يهدف إلى استرضاء الذكر المهيمن.

من منظور التطوّر، قد يكون نبذ ممارسة الجنس مؤقّتاً نوعاً من التكيّف، أي إعلان الاستسلام لفرد أقوى من أفراد الجماعة (بعبارة أخرى: أن تبقى على قيد الحياة اليوم، كي تمارس الجنس غداً). أمّا على صعيد الصحّة، فقد يكون ذلك مؤشّراً على مرض سريريّ. نحن مُبَرْمَجون للابتعاد عمّا يثير الألَمَ الجسديّ، أو المشاعرَ المؤلمة كالخزي والعار، وتجنّب السلوكيّات المسبّبة لذلك. على ضوء هذه النقطة، أنا أجادل هنا أنّ هذه المشاعر قد تكون مَرَضيّة، لأنّها ببساطة تعيق الإحساس بالمتعة، ففي عالم يحفل بقائمة طويلة من المنغّصات والمعاناة (الجوع، العطش، الحرّ الشديد، البرد القارس، الأمراض، الأذيّات الجسديّة، موت من نحبّ... إلخ)، سيكون التخلّي عن المتعة الجنسيّة أو إفسادها بسبب الشعور بالذنب، تقشّفاً يهدف إلى خلق ردّ فعلٍ اكتئابيّ. في الحقيقة، عدم ممارسة نشاطات ممتعة قد يطيل الاكتئاب أو يفاقمه، كما أنّ علاج الاكتئاب يتضمّن غالباً مشاركة المصاب المنتظمة في نشاطات ممتعة (بما فيها ممارسة الجنس)، وهو ما يقدّم فائدة ملموسة على صعيد الشفاء.

قد تبلغ استعراضات نبذ الجنس حدّاً متطرّفاً، كغيرها من أنماط تحقير الذات دينيّاً. طيلة آلاف السنين، كان بتر الأعضاء التناسليّة وسيلة لإظهار الولاء لله، وغايته واضحة للغاية من منظور التطوّر. في الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين، نقرأ عن العهد المشهور بين إبراهيم والربّ، وكيف نفّذه إبراهيم بختان نفسه –أي عن طريق فعل يدلّ على الخضوع بأقصى

حالاته- وهو ما تحوّل في نهاية المطاف إلى عقيدة محوريّة مُقدَّسة في الديانة اليهوديّة، لكنّه يعكس في الوقت نفسه التحالفات التي تعقدها الرئيسيّات باستمرار، مع الذكور المهيمنين. نحن هنا أمام ذكر أدنى (إبراهيم)، يعبّر عن خضوعه لذكر مهيمن (الربّ)، باستعراض سلوك من سلوكيّات الخنوع الجنسيّ (إيذاء عضوه التناسليّ). مقابل ذلك، يساعد الربُّ إبراهيم بالاستيلاء على منطقة نفوذ (أرض كنعان)، وعلى مرتبة أعلى («وَمُلُوكٌ مِنْكَ يَخْرُجُونَ»)، وبتحقيق نجاح ملموس على صعيد التكاثر (ابنه إسحاق). في مناسبة أخرى (سفر الخروج 4: 24-26)، يعزم الربّ على قتل موسى، لكنّ زوجته صفّورة تنقذه بأن تختن ابنها بسكّين من الصوّان، وترمي غرلته الدامية تحت قدمي موسى، فيعفو الربّ عنه بعد أن أرضاه فعل الاستسلام ذاك. مرّ معنا في الفصول السابقة، كيف يفرض ذكرُ الرئيسيّات الغاضب هيمنتَه باستهداف الأعضاء التناسليّة لخصومه، وهي طريقة فعّالة لإزاحتهم من المنافسة الجنسيّة. يُسَرُّ الربُّ في المثال السابق، بفعل رمزيّ يمثّل بتر الأعضاء التناسليّة، كوسيلة تؤكّد انحدار موسى إلى مرتبة جنسيّة أدنى. منطقيّاً، يمكن للربّ أن يطالب بأذن موسى، أو شفته، أو شعره، لكنّه -كما نتوقّع- يفضّل غرلته.

تتدنّى حساسيّة القضيب الجنسيّة بعد إجراء الختان، نظراً لاستئصال القلفة الغنيّة بالنهايات العصبيّة، وبالتالي ستتناقص المتعة الجنسيّة، وهو ببساطة ما يتمنّاه الذكور المهيمنون لخصومهم الجنسيّين. ربّما ساهمت القلفة بوظيفة تطوّريّة متجذّرة في التنافس على التزاوج، إذ يشير الباحث سي. جي. ويلسون إلى أنّ ذكور الرئيسيّات أحاديّة التزاوج monogamous لا يمتلكون قلفة، على عكس ذكور الرئيسيّات الشبقة، الذين يملكون أيضاً العديد من الأجزاء الإضافيّة المختلفة، (أشواك، ممصّات، تراكيب متحرّكة تشبه الملاعق، حواف مرنة)، والتي تتوضّع في نهاية القضيب، وتزيد من قدرة نطافهم على تخصيب البويضة، مقارنة بنطاف الخصوم. باختصار، إن كانت القلفة تكيّفاً تطوّريّاً، يهدف إلى زيادة قدرة الذكر على التنافس جنسيّاً

مع الذكور الآخرين، استئصالها سيخدّر الحساسيّة الجنسيّة، ويُقلّل فرص نجاحه في المنافسة.

في مثال آخر مشابه، قام رجال الأزتك القدماء بوخز أعضائهم التناسليّة بأشواك الصبّار، أو بالشوكة الذيليّة للشفنين[4]، تكريماً لآلهتهم الذكور. إن أغمي على أحد الشباب أثناء ذلك الطقس، يُعدّ ذلك دليلاً على فشله بالحفاظ على بتوليّته. قام رجال المايا بدورهم بوخز أعضائهم التناسليّة، كي ينزف منها الدم تكريماً للإله توهيل.

من نافل القول إنّ الخصاء من أجل الربّ هو المثال الأشدّ تطرّفاً، لأنّه يلغي القدرة على التكاثر نهائياً. قام شعب زابوتك Zapotec (أعداء الأزتك) مثلاً، بإخصاء أطفال طبقة النخبة، كي يخدموا الآلهة ككهنة مبتدئين. بعض الطوائف المسيحيّة الباكرة نصحت بالخصاء، كوسيلة للتضحية بـ«الإرادة» في سبيل الله، وهي مسألة أقلقت الكنيسة، لأنّ هذه التضحية المتطرّفة قلّلت من جاذبيّة المسيحيّة، في عيون الذكور المرشّحين لاعتناقها. أخيراً، حظرت الكنيسة ممارسة الخصاء رسمياً، في المجلس الكنسيّ الأوّل في نيقيا عام 325م.

السكوبتسي Skoptsy، هي طائفة مسيحيّة عاشت في الإمبراطوريّة الروسيّة، تؤمن بأنّ آدم وحوّاء قاما بغرس قطع من الفاكهة المحرّمة في أجساد أفرادها، نبتت منها الأثداء والخصى. للتخلّص من هذه «الخطيئة الأصليّة»، يخضع الرجال والنساء لاستئصال الأثداء، وللخصاء بنوعيه: «الخَتم الأصغر» الذي يتمّ فيه استئصال الخصيتين فقط، و«الختم الملكيّ» الذي تُستأصل فيه الخصيتان والقضيب. لإجرائه، يخضع رجال سكوبتسي لعملية تدعى «المعموديّة الناريّة»، يتمّ فيها كيّ كيس الصفن بقضبان حديديّة حامية، ممّا يخرّب الخصيتين. قد يلجؤون أيضاً إلى تقنيات أخرى، كاستئصالهما بالسكاكين والشفرات (وهم يغنّون: قام المسيح)، أو فتلهما إلى أن تتخرّب الحويصلات المنويّة، فتسقط الخصيتان ضمن كيس الصفن،

4- Stingray: نوع من الأسماك المسطحة الشبيهة بالقرص، لها ذيل طويل يحمل في نهايته شوكة لاسعة، حادّة وسامّة. المترجمة

وتضمران في نهاية المطاف. بتر الأعضاء الجنسيّة الأنثويّة هو طقس دينيّ آخر، نستشفّ منه كيف يحاول الذكر أن يتحكّم بجنسانيّة الأنثى، إذ تخضع نساء سكوبتسي إلى استئصال الحلمتين، أو الثديين كليّاً، مع استئصال الشفرين الكبيرين والصغيرين والبظر أحياناً.

قبيلة دوغون في مالي، تقدّم مثالاً آخر: يؤمن أفرادها أنّ إلههم الذكر «آما» خلق الأرض من قطعة طين، على شكل جسد أنثويّ أعضاؤه التناسليّة أشبه بمستعمرة نمل، لها جزء بارز في المتصف (البظر) يشبه تلّة النمل الأبيض. عندما حاول «آما» أن يضطجع ويجامع الأرض، أعاقه البظر الرمزيّ، فقام باستئصاله، لذلك تخضع فتيات دوغون اليوم لطقس استئصال البظر والأشفار، على يد حدّاد القبيلة. بغضّ النظر عن الميثولوجيا، استئصال البظر يقلّل المتعة الجنسيّة عند المرأة، وهذا التحكّم القاسي بجنسانيّة الأنثى يبلغ أبعاداً كارثيّة، إذ تقدّر منظمة الصحّة العالميّة أنّ حوالي مئة وأربعين مليون امرأة وفتاة حول العالم، خضعن إلى عمليّة استئصال الأعضاء التناسليّة الظاهرة.

تمارس العديد من الطوائف الإسلاميّة تلك العمليّة، ورغم أنّ البعض منها أصدر فتوى لمنعها، فإن البعض الآخر يدعمها بوصفها وسيلة للحفاظ على العفّة، وعلى الولاء الجنسيّ المطلق للزوج المسلم. نحن أمام حالة نموذجيّة هنا، فدائماً ما يتمّ إدغام الحدود بين رغبات الرجال ورغبات آلهتهم الذكور، وتتحوّل الشهوة الأنثويّة المتقلّبة إلى تهديد خطير لتلاؤم الرجال مع البقاء على صعيد التكاثر، يوازي إلى حدّ ما شهوة الرجل باعتبارها خيانة للإله المهيمن. مؤخراً، قام آية الله كاظم صدّيقي الإيرانيّ بتحذير أتباعه، من أنّ عدم التزام النساء باللباس المحتشم (أي الحجاب الإسلاميّ التقليديّ)، يقودهنّ إلى العلاقات خارج إطار الزواج، وهو ما يسبّب الزلازل. لا يسعنا إلّا الافتراض بأنّ الزلازل، هي تعبير عن سخط الله.

II- الطعام وخطيئة الشراهة

«وَضَعْ سِكِّينًا لِحَنْجَرَتِكَ إِنْ كُنْتَ شَرِهًا» (سفر الأمثال 23: 2).

فضلاً عن فقدان الشهوة الجنسيّة، يسبّب الاكتئاب فقدان الشهيّة للطعام،

وهو عَرَض يتوافق مع فرضيّة أنّ الاكتئاب يندرج ضمن التنافس الاجتماعيّ، باعتباره وسيلة تحثّ الفرد على إعطاء طعامه لفرد آخر أقوى منه، وهو ما بدأ كتطوّر بيولوجيّ، لكنّه ما زال موجوداً في الطقوس الدينيّة حتّى اليوم.

الهدف الرئيسيّ للتنافس على الموارد في العالَم البيولوجيّ، هو الطعام، لأنّ استعمال أيّ مورد آخر يتطلّب الأكل أوّلاً. في المملكة الحيوانيّة، يتخلّى الأفراد الأدنى مرتبة عن طعامهم للفرد المهيمن إن طالبهم بذلك، ثمّ يتسلّلون بتذلّل، ويكتفون بأكل البقايا. كثيراً ما تُشاهَد الثدييّات ذات المرتبة العليا (كالأسود والذئاب والضباع)، وهي تسلب الفرائس من الأفراد الأدنى مرتبة. بالمثل، تطرد الرئيسيّاتُ المهيمنة الأفرادَ الأدنى مرتبة، من مواقع الطعام الرئيسيّة. ذكر الشمبانزي المهيمن مثلاً يتغذّى في أعالي الأشجار، حيث الفواكه أكثر وأغنى بالسكّريّات، وعندما ينشب القتال على الطعام، ينسحب ذكور الشمبانزي الأدنى مرتبة، إمّا بالنزول إلى الأجزاء الأفقر بالفواكه في الأسفل، أو بمغادرة الشجرة كليّاً. يسرق الشمبانزي الأعلى مرتبة اللحومَ من الآخرين عادة، كما يتلقّى كميّة أكبر من اللحوم من الأفراد الأدنى مرتبة. إذن، عندما يواجه الفرد خطر نشوب نزاع على الطعام من الصعب أن يربحه، ستكون استجابته الأمثل هي التخلّي عن مصدر الطعام، كي لا يخاطر بالتعرّض إلى الأذى أو الموت.

كي نضع ما سبق في سياق دينيّ، دعونا نتذكّر قصّة سفر التكوين، وهي قصّة محوريّة في الميثولوجيا اليهوديّة - المسيحيّة، يطرد فيها الربُّ آدمَ من جنّات عدن، بعد أن يأكل من ثمار الشجرة المحرّمة. ترمز الفاكهة المحرّمة تقليديّاً إلى المعرفة، وهي نقطة سأتطرّق إليها بعد قليل. أهميّة هذه القصّة من منظور التطوّر واضحة للغاية، بل شديدة البساطة: إنّها تصف ذكراً مهيمناً (الربّ)، يطرد فرداً خاضعاً (آدم)، من منطقة نفوذه (جنّة عدن)، لأنّه تجرّأ على التطفّل على موارد الطعام المحظورة (ثمار شجرة المعرفة). تيرتوليان (160-225م)، وهو أحد أهمّ اللّاهوتيّين المسيحيّين الأوائل -يُلقَّب بمؤسّس اللّاهوت المسيحيّ الغربيّ- عرّف هذه الخطيئة في البداية على

أنّها «الشراهة»، وهي إحدى الخطايا السبع المميتة. تقتبس المؤرّخة كارولين بِنَم عن القدّيس نيلوس الأكبر، وهو لاهوتيّ بارز آخر من القرن الخامس الميلاديّ، ما يلي: «الشهيّة للطعام حرّضت العصيانَ، والاستمتاعُ بالطعم هو ما طَرَدنا من الفردوس. الطعام الفاخر يُبهج الأمعاءَ، لكنّه يخلق دودة الفجور التي لا تنام». استناداً إلى العديد من الطوائف المسيحيّة، الخطيئة الأصليّة أطلقت متواليّة أبديّة من العذاب، لكلّ جيل من أجيال البشر والحيوانات، وجعلت الحياة الأبديّة مستحيلة دون تدخّل الربّ. يقول الكتاب المقدّس إنّ الله عاقب آدم وحوّاء عقاباً قاسياً، كما نتوقّع من ذكر مهيمن أن يفعل: «وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ. وَقَالَ لآدَمَ: لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ» (سفر التكوين 3: 16–19). في هذا المشهد التوراتيّ البدائيّ، ينخرط الربّ في نزاع أساسيّ، أي في منافسة عنيفة على الطعام، فعندما تحدّى آدمُ تحكّمَ الربّ بموارد الطعام، قام بنفيه، من ثمّ أخضع النساء للدونيّة والألم، وفرض على الرجال الكدح مدى الحياة. من خلال إعادة البشر (شديدي الوعي بذاتهم) إلى التراب، وضعهم الله وجهاً لوجه أمام فناء الذات الذي يرعبهم، وأجبرهم على الاعتماد عليه كي يحميهم من الموت. القصّة كما تُروى تقترح أنّ الطعام فائق الأهمّيّة بالنسبة للربّ، وكذلك التخلّي عن الطعام من أجله، رغم وصفه بأنّه أبديٌّ وكليُّ القدرة، لا يكترث بالطعام ولا يحتاجه للبقاء.

تشدّد الممارسات الدينيّة على التخلّي عن موارد الطعام، فالتقديمات الغذائيّة للآلهة شائعة في مختلف أديان العالم، وغالباً ما تُقدّم لطلب خدمة من الآلهة أو لتلقّي بركاتها، كما يرد في العهد القديم: «مَذْبَحًا مِنْ تُرَابٍ تَصْنَعُ لِي وَتَذْبَحُ عَلَيْهِ مُحْرَقَاتِكَ وَذَبَائِحَ سَلاَمَتِكَ، غَنَمَكَ وَبَقَرَكَ. فِي كُلِّ الأَمَاكِنِ

الَّتِي فِيهَا أَصْنَعُ لاسْمِي ذِكْرًا آتِي إِلَيْكَ وَأُبَارِكُكَ» (سفر الخروج 20: 24). بما أنّ الإله الإبراهيميّ المهيمن لا يحتاج من الناحية البيولوجيّة والجسديّة، إلى الطعام الذي يتخلّى عنه البشر، لا يسعنا إلّا أن نشكّك بالغاية من تلك التقديمات. مع ذلك، جوع الربّ هائل، لا تشبعه إلّا وليمة فاخرة، وها هو الإله التوراتيّ يطالب بتشكيلة واسعة من المأكولات: الثيران، الأكباش، الحملان، وتقديمات من الحبوب والشراب (سفر عزرا 7: 17)، الحمام واليمام (إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني: 24)، الخراف والماعز والقطعان (سفر أخبار الأيّام الثاني 7: 5)، أحشاء ودهن الطرائد البرّيّة (سفر اللّاويّين 3: 3)، الثيران (سفر العدد 7: 17)، وزيت الزيتون (سفر اللّاويّين 9: 4). من المثير للسخريّة، أنّ المسيحيّين انتقدوا انغماس الطبقة الأرستقراطيّة الرومانيّة بالملذّات إبّان عصر المسيح، بينما تمتّع إلههم بشهيّة عارمة!

الصيام هو طريقة أخرى للتخلّي عن موارد الطعام، ويزخر الكتاب المقدّس بأمثلة عديدة عنه، باعتباره إشارة لاسترضاء الربّ. حاليّاً، هناك أسباب متعدّدة للصيام بعيداً عن المعتقدات الدينيّة، كالقيام بحمية غذائيّة، أو تطهير الجسد، أو تحضيراً للعمليّات الجراحيّة، أو كاحتجاج سياسيّ، أمّا الأمثلة على الصيام في الكتاب المقدّس، فكلّها تعنى بإظهار الخضوع، إذ يصوم الورع كي يتلافى غضب الربّ، أو كي يتضرّع إليه ابتغاء للحماية، أو للحصول على خدمة. على سبيل المثال، أمر النبيّ يوئيل قومه بالصيام لدرء غضب الله، وهو في هذه الحالة سرب من الجراد: «وَلكِنِ الآنَ، يَقُولُ الرَّبُّ، ارْجِعُوا إِلَيَّ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ، وَبِالصَّوْمِ وَالْبُكَاءِ وَالنَّوْحِ لَعَلَّهُ يَرْجعُ وَيَنْدَمُ... فَيُبْقِيَ وَرَاءَهُ بَرَكَةً، تَقْدِمَةً وَسَكِيبًا لِلرَّبِّ إِلهِكُمْ» (سفر يوئيل 2: 12-14). هذا المقطع يلخّص بصراحة العلاقة ما بين حالة الاكتئاب (أي البكاء والنواح)، والخضوع، والتخلّي عن الطعام. عندما هدّد الربّ بتدمير مدينة نينوى التي تعبد الأصنام، لجأ أهلها إلى الصيام وارتداء المسوح كنوع من عقاب الذات، بل ومضوا أبعد من ذلك، ففرضوا الصيام على حيواناتهم، وألبسوها المسوح أيضاً، فاستجاب الربّ لهم وعفا عن مدينتهم

(سفر يونان 3: 6-10). الصيام هو وسيلة لاسترضاء الله عندما يغضب، بسبب عدم إخلاص الفرد له: «ثُمَّ قَامَ عَزْرَا مِنْ أَمَامِ بَيْتِ اللهِ وَذَهَبَ إِلَى مُخْدَعِ يَهُوحَانَانَ بْنِ أَلْيَاشِيبَ. فَانْطَلَقَ إِلَى هُنَاكَ وَهُوَ لَمْ يَأْكُلْ خُبْزًا وَلَمْ يَشْرَبْ مَاءً، لأَنَّهُ كَانَ يَنُوحُ بِسَبَبِ خِيَانَةِ أَهْلِ السَّبْيِ» (سفر عزرا 10: 6)، كما يتكرّر هذا الأمر في سفر التثنية، بنجاح على ما يبدو: «ثُمَّ سَقَطْتُ أَمَامَ الرَّبِّ كَالأَوَّلِ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، لاَ آكُلُ خُبْزًا وَلاَ أَشْرَبُ مَاءً، مِنْ أَجْلِ كُلِّ خَطَايَاكُمُ الَّتِي أَخْطَأْتُمْ بِهَا بِعَمَلِكُمُ الشَّرَّ أَمَامَ الرَّبِّ لإِغَاظَتِهِ لأَنِّي فَزِعْتُ مِنَ الْغَضَبِ وَالْغَيْظِ الَّذِي سَخِطَهُ الرَّبُّ عَلَيْكُمْ لِيُبِيدَكُمْ. فَسَمِعَ لِيَ الرَّبُّ تِلْكَ الْمَرَّةَ أَيْضًا» (سفر التثنية 9: 18-19).

سيتخلّى الورع عن طعامه لله، لقاء ما يلي:

- كي يضمن الحماية والنجاة من قطّاع الطرق: «وَنَادَيْتُ هُنَاكَ بِصَوْمٍ عَلَى نَهْرِ أَهْوَا لِكَيْ نَتَذَلَّلَ أَمَامَ إِلهِنَا لِنَطْلُبَ مِنْهُ طَرِيقًا مُسْتَقِيمَةً لَنَا وَلأَطْفَالِنَا وَلِكُلِّ مَالِنَا» (سفر عزرا 8: 21).

- لوقف دمار أورشليم: «أَنَا دَانِيآلَ فَهِمْتُ مِنَ الْكُتُبِ عَدَدَ السِّنِينَ الَّتِي كَانَتْ عَنْهَا كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَى إِرْمِيَا النَّبِيِّ، لِكَمَالَةِ سَبْعِينَ سَنَةً عَلَى خَرَابِ أُورُشَلِيمَ. فَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى اللهِ السَّيِّدِ طَالِبًا بِالصَّلاَةِ وَالتَّضَرُّعَاتِ، بِالصَّوْمِ وَالْمَسْحِ وَالرَّمَادِ» (سفر دانيال 9: 2-3).

- للحماية من الأمراض: «أمّا أنا ففي مَرَضِهم كان لبَاسِي مسحاً. أذللتُ بالصوم نَفْسي، وصَلَاتي إلى حضني ترجع» (المزمور 35: 13).

- الانتصار في الحروب الضارية: «فَصَعِدَ جَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكُلُّ الشَّعْبِ وَجَاءُوا إِلَى بَيْتِ إِيلَ وَبَكَوْا وَجَلَسُوا هُنَاكَ أَمَامَ الرَّبِّ، وَصَامُوا ذلِكَ الْيَوْمَ إِلَى الْمَسَاءِ، وَأَصْعَدُوا مُحْرَقَاتٍ وَذَبَائِحَ سَلاَمَةٍ أَمَامَ الرَّبِّ... وَسَأَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الرَّبَّ... قَائِلِينَ: أَأَعُودُ أَيْضًا لِلْخُرُوجِ لِمُحَارَبَةِ بَنِي بَنْيَامِينَ أَخِي أَمْ أَكُفُّ؟ فَقَالَ الرَّبُّ: اصْعَدُوا، لأَنِّي غَدًا أَدْفَعُهُمْ لِيَدِك دفعاً» (سفر القضاة 20: 26-28). نظرياً، كلّ الطوائف الإبراهيميّة تتبنّى طقوساً للصيام، يتعلّق العديد منها بالتكفير عن الخطايا، فالصيام في كلٍّ من يوم كيبور اليهوديّ، وصوم

الأربعين المسيحيّ، ورمضان الإسلاميّ، يرتكز إلى الكفّارة والخضوع من منظور الأديان الثلاثة الكبرى.

بأخذ علاقته مع الاكتئاب بعين الاعتبار، سنفهم لماذا يترافق الصيام كخضوع، مع كراهيّة الذات أو أذى النفس. خلال العصور الوسطى في أوروبا، وهي فترة ازدهر فيها الزهد، مارس المسيحيّون أنماطاً عديدة من الصيام، بلغت حدوداً متطرّفة في أغلب الأحيان. صام الورعون مثلاً للتكفير عن خطيئة آدم الأصليّة، فكتب القدّيس فرانسيس الأسيزي: «جسدي هو أعظم أعدائيّ»، و«علينا أن نكره جسدنا، بسبب خطاياه وآثامه». من وجهة نظره، تضمّنت تلك الكراهية تجويع الجسد وجَلْده كوسيلة للتوبة، والإشارة إلى جسده بـ«الأخ الحمار». بتوسيع مجاز «حيوان الكدح»، كتب القدّيس فرانسيس دي بونافنتير أنّ الجسد «يجب أن يُرْهَق بالعمل الشاقّ، وأن يُجْلَد كثيراً بالسوط، وأن يتغذّى على القليل من الطعام». القدّيسة كاثرين دي سْينّا (1347-1380م)، والقدّيسة تيريزا دي آڤيلا (1515-1582م) -وهما طبيبتان عظيمتان في تاريخ المسيحيّة- لجأتا إلى تحريض التقيّؤ عمداً، بإقحام أغصان وسيقان النباتات في بلعوميهما. استناداً إلى الأساطير، العديد من النسّاك والناسكات كانوا قادرين على العيش من دون طعام على الإطلاق، في محاولة منهم أن يتوبوا إلى الله، بما في ذلك بنِڤِنوتا بوجاني المبارَكة، إليزابيث آشلر الصالحة، القدّيسة ليدوينا دي شيدام الهولنديّة، والقدّيس نيكولاس ڤون فلو شفيع السويد. من نافل القول إنّ العديد من النسّاك ماتوا خلال محاولتهم التقرّب من الربّ، بالامتناع عن تناول الطعام.

بلغت معدّلات الموت بسبب تجويع النفس، مستويات جنونيّة في العصور الوسطى، لكنّها لم تختفِ في العصور الحديثة. تحقير الذات من أجل الربّ، وتجويع النفس حتّى الموت، هما سلوكان مَرَضِيّان، يهدفان إلى إلغاء قيمة الذات سعياً لاسترضاء كائن أقوى. الكنيسة المسيحيّة استغلّت الصيام والعزوبيّة، ورفعتهما إلى مستوى النشوة الدينيّة، لكنّ التخلّي عن

الطعامِ أو ممارسةِ الجنس لتهدئة غضب كائن مهيمن، هو سلوك يعود بجذوره إلى السافانا البدائيّة.

تناقص المقدرة على التفكير

من أعراض الاكتئاب الأخرى، التي يصفها دليل الجمعيّة الأمريكيّة لعلم النفس: «تناقص المقدرة على التفكير أو على التركيز، أو التردّد». هذا العَرَض يمثّل سوء تكيّف، لكنّ وظيفته المثبّطة قد تقدّم منفعة على صعيد البقاء في ظروف معيّنة مؤقّتة، فالفرد المتردّد لن يُقدِم على تصرّف مندفع متهوّر يعرّضه للخطر، كأن يتحدّى أفراد جماعته الأقوى أو الأعلى مرتبة. أكّدت الأبحاث حول الاكتئاب عند الإنسان، وجودَ علاقة ما بين التردّد والتثبيط والمرتبة، وبيّنتْ أنّ الخلل المعرفيّ[5] يسبقه غالباً تراجعُ الوظائف النفسيّة الحركيّة (تناقص القدرة على الحركة، أو على القيام بأفعال معيّنة)، كما كشفت الأبحاث التي أجريت على الحيوانات، عن أنّ تعرّضها لهزيمة اجتماعيّة قد يسبّب لها خللاً معرفيّاً واكتئاباً.

يشير عالما البيولوجيا التطوّريّة بول واتسون وبول آندروز، إلى أنّ الاختلالات المعرفيّة المختلفة المترافقة مع الاكتئاب، هي عموماً ذات طبيعة تجريديّة وغير اجتماعيّة، لكنّ الأشخاص المصابين بالاكتئاب، يميلون غالباً إلى الإفراط بالتركيز على المعلومات الاجتماعيّة، وهم في الواقع أفضل من غيرهم ببعض الوظائف المعرفيّة المتعلّقة بالمجتمع. يجادل العالمان أنّ هذا الفرق قدّم منفعة على صعيد البقاء، تتمثّل بالدرجة الأولى بالسماح للفرد المكتئب بالتركيز على المشاكل الاجتماعيّة، والتقليل من تشتّت انتباهه بالمهام العقليّة الأخرى. بالإضافة إلى ذلك، الدقّة بحساب «احتمال

5- cognitive deficit: مصطلح يستخدم للإشارة إلى وجود خلل على صعيد مجموعة من الوظائف المعرفيّة (التفكير، المحاكمة المنطقيّة، التذكّر... إلخ)، وهو ليس محصوراً بمرض واحد فقط، بل قد يكون جزءاً من مجموعة واسعة من الأمراض، وقد يكون مؤقّتاً أو دائماً، وتختلف شدّته وأعراضه من حالة إلى أخرى. المترجمة

الاحتفاظ بالموارد» فائقة الأهمّيّة، لأنّ مبالغة الشخص بتقدير قدرته على القتال مثلاً بالمقارنة مع غيره، قد تكون مميتة. يلفت العالمان النظرَ أيضاً إلى أنّ المكتئبين يميلون إلى أن يكونوا أكثر واقعيّة فيما يتعلّق بإمكانيّاتهم، وهو ما يمثّل «رأسَ مالٍ» قيّماً أثناء عمليّة اتّخاذ القرار حول نزاع ما. من غير الواضح إلى أيّ درجة لعب الاختلال المعرفيّ المترافق مع الاكتئاب، دوراً على صعيد التكيّف، سواء بما يتعلّق بالكبح أو المرتبة الاجتماعيّة أو تحويل انتباه الفرد إلى مهمّات ذهنيّة موجّهة اجتماعيّاً، وإلى أيّ درجة يمثّل هذا الخلل «فشلاً في النظام» أو مَرَضاً حقيقيّاً، وما زلنا بحاجة إلى المزيد من الأبحاث حول ذلك. أنا أجادل هنا بأنّ الخلل المعرفيّ، هو مجاز يعبّر عن نقص شائع في المعرفة، ويبدو صائباً برأيي بما أنّ الذكاء والمعرفة قد يُستخدَمان للتشكيك في شرعيّة السلطة، أو التخطيط للقيام بفعل ما ضدّ الأقوياء. بعبارة أخرى، الجهلُ يؤدّي بكفاءة وظيفة الخلل المعرفي ذاتها، أي إبقاء الشخص بعيداً عن النزاعات التي لا يمكن له أن ينتصر فيها.

وفقاً للرواية اليهوديّة - المسيحيّة، أكلُ التفّاحة من شجرة المعرفة، حكمَ على البشر بالعذاب والعوز، وأجبرهم على الكدح لتأمين الطعام كي يبقوا على قيد الحياة، وحوّلهم إلى فانين. التفّاحة هي حرفيّاً نوع من الطعام، والتفسير الشعبيّ يقترح أنّها ترمز للجنسانيّة أيضاً، لكنّ شجرة المعرفة التي قُطِفَتْ منها، تقدّم للبشر مستوى من الفهم مخصّصاً فقط للإله (أو الآلهة): «وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا» (سفر التكوين 3: 22-23). نحن هنا أمام إله ذكر مهيمن، يطرد من منطقة نفوذه رجلاً خاضعاً له، لأنّه حصل على معرفة قد تهدّد مرتبة ذلك الإله (أي خلوده في هذه الحالة). المعرفة كتهديد، هي ثيمة ركّز عليها المفكّرون المسيحيّون عبر العصور، يروي جون ملتون مثلاً في الملحمة الشعريّة «الفردوس المفقود» -التي تُعدّ من أهمّ الأعمال في الأدب الإنجليزيّ- كيف سقط البشر من

النعمة، ويكتب عن التهديد الذي تمثّله المعرفة: لكنّ المعرفة هي كالطعام، يلزمها / أن تكون زاهدة تهزمُ الشراهةَ / كي تعرف بعض ما يحتويه العقل / الإفراط بها يطمس كلّ شيء آخر / وسرعان ما تتحوّل الحكمة إلى حماقة / كما يتحوّل الغذاء إلى غازات.

لطالما خشي المفكّرون المسيحيّون من المعرفة، يُذكَر أنّ القدّيس توما الإكوينيّ يقول: «أنا رجلُ كتابٍ واحد» (أي الكتاب المقدّس)، ملمّحاً على ما يبدو إلى أنّ الكتب الأخرى مشكوك بها. المصلح العظيم مارتن لوثر هاجم «المنطقَ» غاضباً: «المنطق هو عاهرة الشيطان الكبرى، وهي عاهرة بغيضة بطبيعتها ومعناها. إنّها بائعة هوى، إنّها بائعة الهوى التي يوظّفها الشيطان، إنّها بائعة هوى يغطّيها القيح والجذام، ولا بدّ أن تدوسها الأقدام وتدمّرها هي وحكمتها، ولا بدّ أن تغرق في المعموديّة... لطّخوا وجهها بالروث كي تتقبّح.... تلك العاهرة تستحقّ أن تُنفى إلى أقذر مكان في المنزل... إلى المراحيض».

لطالما عُدَّ امتلاكُ معارف غير مسيحيّة، إثماً بالنسبة للمسيحيّين. مفهوم المعرفة كخطيئة هذا، يتغلغل حتّى في التفكير المسيحيّ المعاصر، الذي يستخدم تعبير «الدنيويّ» كمرادف للمعرفة الآثمة، عوضاً عن اعتباره صفة تستحقّ التقدير، خشية أن تقود المعرفة -كالعادة- إلى عدم الإيمان، لذلك لا بدّ أن تحظى النصوص المقدّسة بالأولويّة على بقيّة مصادر المعرفة.

قد يمنع الخللُ المعرفيّ الشخصَ المكتئب، من مواجهة الخصوم الأقوى منه. بالمثل، قد يعطب الدِينُ الجماهيرَ، وينجح بمنعها من التحرّك ضدّ بُنى القوى المهيمنة. إحدى أكثر الطرق كفاءة لخلق خلل معرفيّ، هي إيقاف تدفّق المعلومات بكلّ بساطة، فالكتب غير المرغوب بها قد تُحرَق، أو تخضع للرقابة، أو تُحظَر كلياً. في عام 1559م، أصدرت الكنيسة الكاثوليكيّة قائمة بالكتب الممنوعة Index Librorum Prohibitorum، كي تحجب عن عقول العامّة نصوصاً علميّة معيّنة، وكتباً اعتبرتْها لا أخلاقيّة، وترجماتِ الكتاب المقدّس إلى اللغات المحليّة (كما ذكرتُ في الفصل السادس،

نصوص «الآخر» الدينيّة، والأشخاص العاديّون الذين يقرؤون الكتاب المقدّس، عدّوا خَطِرين). حُدِّثت القائمة عدّة مرات خلال القرون اللّاحقة، إلى أن ألغاها البابا بول السادس عام 1966. رغم ذلك، ما زال القانون الكنسيّ يحتفظ بحقّ فرض الرقابة على كتب معيّنة، أو بمنح **imprimatur**، أي الإذن بالنشر.

لا يدهشنا غياب المعارف الدينيّة المستمرّ بين المسيحيّين، إن أخذنا بعين الاعتبار تقاليد المنع والرقابة التي طبّقتها الكنيسة، حتّى على الكتاب المقدّس. «منتدى مركز بيو للأبحاث حول الدِين والحياة العامّة» أجرى مسحاً تناول ثلاثة آلاف وأربعمئة واثني عشر أمريكيّاً، ووجد أنّ الملحدين واللّاأدريّين يحتلّون المراتب العليا فيما يتعلّق بالمعارف الدينيّة، متفوّقين بذلك على اليهود، المورمون، الكاثوليكيّين، والطوائف البروتستانتيّة المختلفة بما فيها الإنجيليّة. هذه النتيجة تثير عدّة أسئلة مهمّة، منها: إن امتلك المؤمن الملتزم معرفة أكبر بشؤون الدِين، هل سيقبل بالخضوع الدينيّ؟

استطاعت المسيحيّة أن تفرض مستويات أسطوريّة من الرقابة، وما زالت بعض الطوائف الإسلاميّة تطبّق رقابة مماثلة، بأسلوب القرون الوسطى. خذوا كمثال المخرج والكاتب الهولنديّ ثيودور ڤان كوخ، الذي اغتاله عام 2004 مسلم متطرّف هولنديّ من أصول مغربيّة، بعد أن أنتج فيلماً مثيراً للجدل عن معاملة النساء في الإسلام. يوحي اغتياله بأنّ التفكير بتساوي حقوق المرأة مع الرجل، يولّد إشارات تهديد قويّة ضدّ الثقافات التي تركّز على تحكّم الذكور جنسيّاً بالأنثى.

في مثال ثانٍ عن الرقابة الإسلاميّة، أثارت صحيفة يولاندس - بوستن Jyllands - Posten الدانماركيّة جدلاً، بنشرها كاريكاتيراً للنبيّ محمّد في إحدى افتتاحيّاتها. ادّعت الصحيفة أنّها نشرت الكاريكاتير، كي تحفّز النقاش حول الرقابة الذاتيّة في الإسلام، الذي يعتبر تصوير النبيّ محمّد بمنزلة هرطقة. اندلعت احتجاجات عنيفة في العديد من بلدان العالم الإسلاميّ آنذاك، وقُصِفَت سفارة الدانمارك في باكستان بالقنابل، كما أُحرِقَت مقرّاتها

في كلّ من سوريا ولبنان وإيران، وقُتِل مئات الضحايا حول العالم بسبب ردود الفعل على الكاريكاتير.

استناداً إلى الهيئات التي تُعنى بحريّة الصحافة والتعبير، تتبوّأ الدول الإسلاميّة اليوم الصدارة بالنسبة للرقابة، ويسودها تعصّب دينيّ صارم، إذ يحظر معظمها كلّ ما يطرح فريضة مناقضة لعقائد الثقافة الإسلاميّة والقرآنيّة السائدة، فضلاً عن أنّ بعضها يفرض على الشعب جهلاً مطبقاً بما يحدث في العالَم الخارجيّ، لكنّ الحال لم يكن هكذا دائماً. في السابق، كان الإسلام أهمّ المناصرين لحريّة الفكر في العالم، ومنبعاً للشعر والفنّ والموسيقى والطبّ والفلسفة والرياضيّات والتكنولوجيا، بينما كانت أوروبا المسيحيّة غارقة في العصور المظلمة. يجادل العديد من المؤرّخين أنّ الشعوب الإسلاميّة أنقذت المعارف الكلاسيكيّة الإغريقيّة من الضياع، من ثمّ أعادتها إلى أوروبا، وهو ما مهّد الطريق لظهور النهضة الأوروبيّة. فضلاً عن ذلك، انتشرت مراكز علميّة ضخمة في أرجاء العالم الإسلاميّ، رحّبت بالمعارف على اختلافها، كبيت الحكمة في بغداد الذي عُدّ أهمّ مركز فكريّ في العالم آنذاك، وفيه تمّت ترجمة مخطوطات كُتِبَت في أقاصي الأرض. في ذلك العصر، كان التسامح الدينيّ علامة واسمة للإسلام، كما أنّ القادة المسلمين، أسّسوا مكتبات شخصيّة ضخمة، عوضاً عن استغلال وقتهم بفرض الرقابة على المعارف. يقال إنّ الخليفة المأمون في بغداد، كان يطلب من القادة الأجانب أن يرسلوا له كتباً من مكتباتهم كبادرة احترام، ويدفع ما يعادل وزن الكتاب المُتَرجَم ذهباً، إن كان جديراً بإثراء مكتبته. فيما بعد، وبتأثير من الحماس الدينيّ، سارت معظم المجتمعات الإسلاميّة على خطى المسيحيّة، وبدأت تعاقب الفضول الفكريّ بالذبح.

كيف حصل ذلك؟ يشير بعض المحلّلين إلى الوضع الاقتصاديّ، بينما يشير آخرون إلى تدنّي مستوى التعليم، وكلتاهما فرضيّتان ناقصتان، فالعديد من الهجمات الانتحاريّة نفّذها رجال ينتمون إلى الطبقات الثريّة والمثقّفة.

علينا هنا أن نعود إلى القرآن بحثاً عن السبب، أي إلى الآيات الكثيرة التي تتوعّد غير المؤمنين: «أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (سورة البقرة 114)، «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا» (سورة النساء 56).

في نهاية المطاف، قد يكون العنف وسيلة أقلّ كفاءة من إيقاف تدفّق المعلومات. في مقارنة مثيرة للاهتمام بين السعودية وإسبانيا (التي حكمها المسلمون ذات يوم)، نجد أنّ عدد الكتب التي ترجمها العالَم الإسلاميّ بأسره إلى اللغة العربيّة، منذ القرن التاسع عشر وحتّى اليوم، يساوي عدد الكتب التي تُتَرجَم إلى الإسبانيّة في إسبانيا خلال عام واحد فقط. يترافق هذا الحرمان المعرفيّ، مع دفع الجماهير الجاهلة إلى «تنظيمات المدارس المتطرّفة»، على حدّ قول عالِم الأعصاب والناشط المدنيّ سام هاريس. تدفّقُ المعلومات إلى تلك المدارس محدود للغاية، وتغيب عنه بشكل خاصّ كتابات المفكّرين الأحرار العالميّين. في بيئة كهذه، كيف للمرء أن يتعرّف إلى منظور مختلف؟!

سواء باللجوء إلى العنف أو الحظر، يتطلّب الحدُّ من تدفّق المعرفة والتحكّمُ بالمشهد الإيديولوجيّ مجهوداً ضخماً، لكنّ الفوائد المتوقّعة هائلة، خاصّة الموارد الماديّة. باتّباع أسلوب الآيب المهيمن، قام الرجال الذين يتبوّؤون موقع السلطة الدينيّة، بتسخير التهديد بإله ذكر مهيمن (أي العقاب في المطهر، أو في الجحيم) لحثّ أتباعهم على الخضوع، والاستيلاء على مواردهم الماديّة. في مثال شهير، قامت الكنيسة الكاثوليكيّة حتّى بدايات القرن السادس عشر، ببيع «صكوك الغفران» إلى المؤمنين الذين يشترونها كي تُغفَر خطاياهم، أي للنجاة من الجحيم أو تقليل الفترة التي سيقضونها في المطهر. تلك التجارة كانت من حيث المبدأ صفقة فاسدة، تهدف إلى تحقيق ربح شخصيّ، أو تمويل مشاريع معيّنة كالحملات الصليبيّة، أو بناء كاتدرائيّات فارهة، أشدّها بذخاً على الإطلاق كانت قلعة الڤاتيكان المزخرفة بالذهب والفريسكو، التي نافست بأبّهتها قصور الملوك

والسلاطين على مرّ العصور، وبُنِيَت على حساب الكاثوليكيِّين الورعين الذين عاشوا في فقر مدقع.

الرشوة السماويّة إذن، هي استراتيجيّة راسخة لطالما لجأت إليها الكنيسة الكاثوليكيّة، كي تستولي على السلطة. تاريخيّاً، تمّ وهب الأراضي والثروات إلى الكنيسة، من قبل أولئك المتلهّفين لضمان مكان لهم في الفردوس. يروي ويل ديورانت، كيف فُرِضَ على مالكي الأراضي (من غير المنتمين إلى طبقة رجال الدين) في العصور الوسطى دفع «ضريبة العُشْر»، أي دفع عُشْرِ دخلهم أو إنتاجهم السنويّ إلى الكنيسة المحليّة. يقوم قسٌّ بجمع تلك الأعشار، ووظيفته هي «اللعنُ لأجل العُشر»، أي أن يحرم من المناولة كلّ من يتهرّب من الدفع، أو يتلاعب بالمبلغ المطلوب. فُرِض على مالكي الأراضي كذلك أن يهبوا الكنيسة مالاً عند موتهم، وخوّلت الكنيسة القساوسةَ رسميّاً الإشراف على تحرير وصيّة المحتضر، وبكلمات ديورانت: «عُدَّت الهبات وتوريث الكنيسة، وسيلةً فعّالة لتضخيم عذاب المطهر». نتيجة المضاربة بأرواح الرعيّة، أصبح رجال الكهنوت بدينين، وتلذّذوا بالطعام الدسم والنبيذ الفاخر، واستولوا على مِلكيّات شاسعة، وإقطاعيّات أشبه بنظام عبوديّة مُعَدَّل، يكدح فيها «أقنان» مُجبَرون على العمل لمصلحة صاحبِ المِلكيّة، سواء في حقوله أو غاباته أو مناجمه، ولربّما امتلكت كاتدرائيّة واحدة، أو دير واحد، آلافَ الإقطاعيّات. فيما يلي، يصف ديورانت مقدار الثروة المتراكمة، التي استحوذ عليها رجال الكهنوت بتلك الطريقة: «أسقف لانغر امتلك المقاطعة بأكملها، دير سانت مارتن في تورز حكم ما ينوف على عشرين ألف إقطاعيّة، أسقف بولونيا امتلك حوالي ألفي إقطاعيّة، وكذلك دير لورش، أمّا دير لاس ويلغاس في إسبانيا فقد حكم أربعاً وستين بلدة». وهكذا، نجحت الكنيسة الكاثوليكيّة بالتلاعب بخوف المؤمن من العذاب الأبديّ، كي تتحكّم بالسلطة والثروة حول العالَم، على حساب أتباعها الخاضعين.

برأيي الشخصيّ، تلك القابليّة للانصياع هي دليل على الخلل المعرفيّ

بين العامّة، تسبّبه قوانين ارتكزت على آليّة تطوّريّة (الخضوع)، تطوّرت بدورها للالتفاف على آليّة أخرى (كشف المحتالين)، كما مرّ معنا سابقاً.

لا يقتصر نجاح تلك الخدعة، على جماهير العصور الوسطى الجاهلة! اليوم، تلجأ شبكات التلفزة الأمريكيّة، والمبشرّون الإنجيليّون الذين يظهرون في برامجها، إلى تكتيك البيع تحت تأثير الإلحاح الشديد، للاستيلاء على ثروات مشبوهة، تُستَغَلُّ للتأثير على السياسيّين، وبناء كنائس تكلّف ملايين الدولارات في مواقع باهظة الثمن، علماً أنّ الكنائس في أمريكا معفاة من الضرائب. بالاعتماد على استراتيجيّة التبادل المباشر، التي لجأ إليها أسلافهم في العصور الوسطى، أي مقايضة المال بالحظّ الجيّد، أو بالصحّة، أو بالخلاص... إلخ، يُجبِر هؤلاء الرجالُ (والنساءُ أحياناً) المشاهدين على إفراغ حساباتهم المصرفيّة، وهم يردّدون بوقاحة كليشيهات من قبيل: «يريد منكَ يسوع أن ترسل نقودك»، ويَعِدُونَهم ببركات أفضل وأكبر، كما ينظّمون برامج تلفزيونيّة يقومون فيها بإشارة من يدهم، بـ «شفاء» ممثّلين يدّعون أنّهم مصابون بالصرع أو بالتأتأة. جَمَعَ العديدُ من أولئك الإنجيليّين / التلفزيونيّين ثرواتٍ هائلة -منازل فارهة مزوّدة بمدرج خاصّ للطائرات، سيّارات فخمة، وماسات ضخمة لزوجاتهم- باستيلائهم على النقود التي تعتاش منها عجائز مشدوهات أمام شاشات التلفاز، يأملن بحياة سهلة في الآخرة.

عندما نفكّك الخضوع الدينيّ إلى عناصره الأوليّة، سنجد أنّ نقاط التشابه بينه وبين الاكتئاب لا تقبل الشكّ، وسنكتشف ما ينجم عنه من تداعيات على مستوى اختلال الوظائف، والمعاناة الشخصيّة، والخطر على النفس، وكلّها علامات تدلّ على مرض سريريّ، لكنّ الدِين يقنّع أعراضَ الخضوع الاكتئابيّ، بل ويدّعي في بعض الحالات، أنّه يقايض المعاناة الناجمة عنه باتّحاد شهوانيّ مع الربّ. هذه التجربة التي تلامس رغبتنا التطوّريّة بالانتماء إلى ذكور مهيمنين، تتمتّع بجاذبيّة خاصّة، فضلاً عن أنّ الحالات المتطرّفة من تحقير الذات أو أذى النفس، قد تنتشر وتبلغ مستويات وبائيّة، تماماً كممارسات الزهد التي وصفناها في العصور الوسطى. نحن نملك اليوم

المعارف التي تساعدنا على شرح الأنماط التطوّريّة التي ترتكز عليها ثقافاتنا الدينيّة، كما أنّنا قادرون على خلقِ مسافة تباعد للتفكير، والتوصّلِ إلى قرارات صائبة، فيما يتعلّق بالسلوكيّات التي ينجم عنها أذى للنفس، أو تلك التي تخدم بنى السلطة الاستبداديّة، وكلّها سلوكيّات تنبع من الخضوع الدينيّ.

***

الفصل الثامن

سمعةُ الرجالِ والأيبِ والآلهة

«ضَرْبَةُ السَّوْطِ تُبْقِي حَبَطًا، وَضَرْبَةُ اللِّسَانِ تَحْطِمُ الْعِظَامَ»

• (سفر يشوع بن سيراخ 28: 21)

منشأ السمعة

قد يجرّ الشمبانزي خصمَه، أو يرفسه، أو يضربه، أو يقفز عليه، فيحطّم عظامه أو يسبّب له نزيفاً داخلياً. لربّما يعضّه بأسنانه القادرة على تمزيق اللحم، ويمزّق وجهه أو أعضاءه التناسليّة، أو يقضم أصابعه. الأفراد الأدنى مرتبة، هم غالباً من يتلقّى الحصّة الكبرى من هذا العنف، فكما مرّ معنا سابقاً، تترافق هيمنة الذكر مع امتيازات وجوائز عظيمة، بما فيها عدد أكبر من الإناث وكمّيّة أكبر من الطعام، لكنّها تعني في الوقت نفسه عدم معاناة الآلام الناجمة عن الخضوع.

تحقيق الهيمنة إذن يحمل العديد من الفوائد، لكنّ خسارتها مرعبة! عندما يُزاح الذكر ألفا عن موقعه، فإمّا أن يُقتَل مباشرة، أو أن يتعرّض للضرب المبرّح من قبل كلّ أولئك الذين هيمن عليهم ذات يوم، وغالباً ما يُدفَع قسراً إلى أدنى التراتبيّة الهرميّة، وقد يُجبَر أحياناً على العيش في أطراف

المجموعة، ممّا يجعله أكثر عرضة للهجوم من قبل الغرباء. تلك الأنماط واضحة عند الرئيسيّات غير البشريّة، فضلاً عن أنّ الرجال المهيمنين يلاقون المصير ذاته إن خسروا مرتبتهم. عبر التاريخ، تعرّض القادة الذكور الذين فقدوا مناصبهم إلى النفي، أو التعذيب، أو الإعدام أمام العامّة (أحياناً مع أفراد عائلتهم جميعهم)، وهاكم بعض الأمثلة الشهيرة: يوليوس قيصر (روما)، نيكولا تشاوشيسكو (رومانيا)، صدّام حسين (العراق)، ومعمّر القذّافي (ليبيا). لذلك، عند مقارنة الخسائر الباهظة الناجمة عن فقدان المرتبة، مع الجوائز المذهلة التي يغدقها الموقع ألفا، لا عجب أنّ الذكر ألفا يملك دافعاً أقوى من غيره للحفاظ على هيمنته.

وضعيّة الجسد، هي إحدى الأدوات المهمّة لتحقيق ذلك. كغيره من الرئيسيّات، يتّخذ ذكر الشمبانزي المهيمن وضعيّة تهدف إلى بثّ الرعب في قلوب الآخرين: ينفش فراءه، يكشف عن أسنانه، يصرخ، يتأرجح بين الأغصان، يقذف الحجارة هنا وهناك، يحطّم الأغصان، يضرب جذوع الأشجار، وأحياناً يدقّ على تنكات الكيروسين الفارغة، التي يسرقها من مخيّمات علماء الرئيسيّات، ويُصدِر ضجّة هائلة. هذه الاستعراضات تتمّ أمام الجميع، وتشير إلى مرتبته المهيمنة بالنسبة لأفراد جماعته عموماً، كما تذكّر الأفراد الأدنى مرتبة بالسلوكيّات المتوقّعة منهم، كالخضوع، الاسترضاء، الولاء، والتخلّي عن الموارد لمصلحته. إن كانت استعراضات الذكر ألفا مخيفة بما يكفي، فقد تُضخِّمُ حجمَ الخسائر التي ستنجم عن تحدّيه في عيون الأفراد الخاضعين. باختصار، استراتيجيّات الهيمنة تعمل على إبقاء سلطة الذكر ألفا حاضرةً دائماً، في أذهان أفراد جماعته.

فيما يلي وصف لتلك الظاهرة عند الشمبانزي، استناداً لعالِمَين بارزَين من علماء الرئيسيّات، هما ريتشارد رانغام ودايل بِترسون: ينهض الذكر ألفا المهتاج باكراً، وغالباً ما يوقظ بقيّة أفراد المجموعة باستعراضاته المبالغ بها. لا ينجم سلوكه عن دافع للعنف بحدّ ذاته، بل عن مجموعة من المشاعر، تُعَنْوَن عند البشر إمّا بـ«الكبرياء»، أو بصفة أخرى أشدّ سلبيّة، وهي

«الغرور». النقطة الرئيسيّة هنا، هي أنّ استعراضات الهيمنة تنقل معلومات عن الصراع الشاقّ من أجل البقاء، في بيئة اجتماعيّة معقّدة. اشتهارُ الفرد بالضراوة هو أداة أساسيّة للحفاظ على الهيمنة، أمّا السلوكيّات الآنفة الذكر، كالغضب وتحطيم صفائح الكيروسين... إلخ، فتهدف إلى بناء سمعة الذكر، لذلك يركّز على ممارستها بشكل متكرّر.

صيتُ الهيمنة يتضمّن ما هو أكثر من اتّخاذ وضعيّة معيّنة، فقد يتمّ الحفاظ عليه أحياناً بواسطة أفعال عدائيّة عشوائيّة لا مبرّر لها، وأحياناً بردود فعل انتقاميّة. إن قام أحد الأفراد بتحدّي سلطة الذكر ألفا -أو لمّح مجرّد تلميح إلى ذلك- سيقوم الذكر ألفا غالباً بمهاجمته على الفور، و«تحجيمه» أمام بقيّة أفراد الجماعة، ممّا يذكّرهم بثمن التمرّد. إن عُقِدَت تحالفات ضدّ الذكر ألفا، سيتعرّض حلفاءُ الذي يحاول اغتصاب سلطته بدورهم إلى الهجوم كعقاب لهم، أوّلاً لإعلان أنّ عدم الخضوع غير مقبول على الإطلاق، وثانياً للتأكيد على أنّ التحالف ضدّه سيُعاقَب بانتقام عنيف. بعد أن يتمّ الإعلان عن هذا المبدأ، سيترسّخ في أذهان أفراد المجموعة، ويكسب الذكر ألفا صيتاً بأنّه لا يقمع المتمرّدين فحسب، بل أيّ تحالف يُعقَد ضدّه. تمتاز هذه النقطة بأهميّة خاصّة، نظراً لأن التحالف بين أفراد المجموعة هو ما يطيح بالذكر ألفا عن عرشه، غالباً باللجوء إلى العنف.

الضغط لتحقيق الهيمنة ليس وظيفة خاصّة بالذكور حصراً، فقد تتأطّر المنافسة بين الإناث أيضاً في بعض الحالات من خلال العنف. تُشتَهر أنثى المكاك على سبيل المثال بالعدوانيّة، وتنفرد عن بقيّة الرئيسيّات بأنّها تنخرط في حروب ضارية مع إناث المجموعات الأخرى، وذلك لسبب مهمّ، استناداً إلى داريو ماستريبييري الذي يناقش فيما يلي الفوائد والخسائر التي تفرضها الحرب: «عندما تلتقي إناث المجموعات المختلفة، وتتقاتل فيما بينها للمرّة الأولى، فهي لا تتقاتل من أجل وجبة واحدة، بل من أجل السُلطة. السلطة لا تتعلّق بهذه الوجبة أو تلك، بل بكلّ الوجبات التي ستتناولها الإناث طيلة الحياة».

أودّ التأكيد هنا على نقطتين. أوّلاً، تترتّب تداعيات هامّة على التنافس من أجل المرتبة، تؤثّر على الحيوانات الاجتماعيّة التي تملك ذاكرة نشطة، فيما يتعلّق بمواقع بقيّة أفراد جماعتها على سلّم التراتبيّة الهرميّة، وكذلك على القواعد التي تفرضها تلك المواقع النسبيّة. ثانياً، قد تعمل السمعة كـ «ذاكرة للمرتبة الاجتماعيّة» على صعيد التطوّر. يلفت ماستريبييري انتباهنا إلى حقيقة أنّ تداعيات التنافس على المرتبة، هي تداعيات دائمة في المجتمعات ذات التراتبيّة المستقرّة من منظور الهيمنة.

بعض التراتبيّات الهرميّة عند البشر ثابتة، وتدوم لأجيال عديدة، بينما يتغيّر البعض منها باستمرار. مع ذلك، التنافس على الهيمنة موجود فيها كلّها، وبغية الظفر بها أو المحافظة عليها، يتّخذ البشر وضعيّات محدّدة، ويشنّون هجوماً، سواء في الملاعب، أو السجون، أو الرياضة، أو في ضواحي المدن، أو في عالم الأعمال والشركات، أو المجال الأكاديميّ، أو الأديان، وفي أيّ سياق اجتماعيّ نتخيّله. كما هو الحال عند بقيّة أنواع الرئيسيّات، يتّخذ الفرد المهيمن وضعيّة يشاهدها الباقون، الذين يستجيبون له إمّا بتبجيله، أو بتحدّيه للاستيلاء على مكانته.

يوظّف البشر وذكور الرئيسيّات الأخرى، استعراضات القوّة الجسديّة لبناء سمعتهم، لكنّ البشر يستغلّون أيضاً مقدرتهم اللغويّة المتطوّرة، ويكرّسون جزءاً هامّاً من اللغة لنقل معلومات تتعلّق بالتنافس، والمرتبة الاجتماعيّة، والسلطة. اللغة تعمل بطريقة فريدة من نوعها، لأنّها تنقل المعلومات الاجتماعيّة عبر الزمن والجغرافيا، ممّا يسمح بانتشارها عبر شبكات اجتماعيّة أوسع، وبشكل أرسخ. الكلمة المكتوبة توسّع النطاق الذي تبلغه السمعة أكثر فأكثر، كما تنقل مضامينها التحقيريّة وإنذاراتها، إلى القانون المدنيّ والشريعة الدينيّة، وإلى عقول من ينصاعون إليهما.

نظراً لتداعياتها الهامّة على صعيد البقاء والتكاثر، يولي البشر أهميّة فائقة للسمعة، خاصّة أنّهم حيوانات اجتماعيّة يعتمد بقاؤها إلى حدّ بعيد على علاقاتها بالآخرين.

الرجال

إن كان البشر فعلاً أخطر الحيوانات على وجه الأرض، كما يقترح الفيلسوف ديفيد ليفنغستون سميث، فالفضل راجع إلى سلوك الرجال. من خلال الذكاء واستعمال الأسلحة، نقل الرجال التنافسَ العنيف إلى حدود قصوى صاعقة. تاريخ الحروب يكشف عن آلاف السنين من قتل الخصوم، وتعذيبهم، وإخضاعهم للإرهاب النفسيّ، باستعمال وسائل مروّعة تحيّر العقل. إن أردنا أن نفهم شرور الحروب، يجب أن يأخذ بحثنا بعين الاعتبار سيكولوجيا «سمعة الذكر»، التي تُقدَّم غالباً على أنها الكبرياء، أو الشرف، أو الكرامة، أو الاحترام، أو التبجيل، أو التقديس... إلخ. على غرار أسلافهم من الرئيسيّات، تتعلّق سمعة الرجال غالباً بقضايا التلاؤم مع البقاء، كالرتبة الاجتماعيّة، والقدرة على القتال، والتحكّم بمناطق النفوذ، والتنافس على التزاوج.

كما يفعل الشمبانزي، يقوم الرجال باستعراضات غير شفهيّة لإظهار هيمنتهم. قد يرتدون داخل البارات مثلاً قمصاناً بلا أكمام تكشف عن عضلاتهم، ويتكلّمون بصوت عالٍ، ويومئون بشكل مبالغ به، بقصد إرسال إشارات الهيمنة إلى الرجال الآخرين. تفتح اللغة قنوات أوسع للتعبير عن المرتبة، ولعلّ المثال الأوضح على الإطلاق هو ألقاب الرجال المهيمنين، فألقاب الفاتحين الأقوياء الذين حكموا تاريخ العالم، تنقل معلومات وفيرة عن مستوى هيمنتهم وتفوّقهم في القتال. الإسكندر الأكبر (ملك مقدونيا) لم يُلقَّب بالعظيم Alexander the Great لأنه راقص بارع، بل لأنّه فاتح عظيم. الألقاب الأخرى، لا تدع مجالاً للشكّ: إيفان الرهيب (قيصر روسيا)، إسماعيل السفّاح (المغرب)، ڤلاد المُخَوْزِق (رومانيا)، ألفونسو المُحارِب (ألفونسو الأوّل ملك آراغون)، نيكولاس الدمويّ (القيصر نيكولاس الثاني الروسيّ)... إلخ، كما تكنّى العديد من القادة الذكور بلقب «الشجاع»، كألفونسو الثالث وألفونسو الرابع ملكي البرتغال، وسليم الأوّل سلطان الإمبراطوريّة العثمانيّة، أو بلقب «الفاتح» كألفونسو الأوّل البرتغاليّ،

جيمس الأوّل ملك آراغون، وليام الأوّل الإنجليزيّ، فضلاً عن القادة العسكريّين الإسبان جميعهم إبّان استعمار العالَم الجديد. تلك الألقاب تعكس سمعة ضارية، وترسّخها عبر الزمن.

تعكس ألقاب الرجال أيضاً، هيمنتهم على مناطق النفوذ. كان الرومان أوّل من منح ألقاباً تُعرَف بألقاب النصر، وفق المناطق التي احتلّها القادة المنتصرون، فلقّبوا الجنرال سيبيو بـ «سيبيو آفريكانوس» أي سيبيو الإفريقيّ، بعد أن هزم هنيبعل واستولى على قرطاجة. من ألقاب النصر الرومانيّة الأخرى: نوميديكوس Numidicus (النوميديّ)، إيزوريكوس Isauricus (الإيـزوريّ)، كريتيكوس Creticus (الكريتيّ)، غوثيكوس Gothicus (القوطيّ)، جيرمانيكوس Germanicus (الجرمانيّ)، وبارثيكوس Parthicus (البارثيّ). قد تعبّر ألقاب النصر أيضاً عن هيمنة حاملها على الشعب المقيم في منطقة نفوذ معيّنة، شارلمان ملك الفرانك على سبيل المثال، تلقّب بـ Dominator Saxonorum (أي المهيمن على الساكسونيّين).

اكتساب صيت يوحي بالعنف، يقدّم مزايا على صعيد التلاؤم مع البقاء. خذوا كمثال إسماعيل السفّاح، الذي يُشاع أنّه امتلك خمسمئة خليلة، وأنجب ثماني مئة وثمانية وثمانين طفلاً. بما أنّ السمعة تترافق مع تداعيات هامّة على صعيد البقاء، وبما أنّ الاصطفاء الطبيعيّ برمج الذكورَ على الانخراط في تنافس عنيف على التزاوج، تخيّلوا إذن عواقب الوقوف أمام إسماعيل السفّاح، ونعته بـ «الجبان» أمام أتباعه! أوتوماتيكيّاً، سيقطع رقابكم أمام الجميع ويرتوي من دمائكم، لإثبات سمعته كسفّاح. خَدْشُ سمعة الرجل كمهيمن سيولّد العنف، إن كان ذلك الرجل في موقع يسمح له بالحفاظ على سمعته بتلك الطريقة.

السمعة مهمّة أيضاً، بالنسبة للرجال المعاصرين. في كوريا الشماليّة مثلاً، تلطيخ صورة أو سمعة القائد كيم جونغ الثاني، يُعاقَب بالسجن أو بالإعدام. من المثير للفضول أنّ نظام العقوبات في كوريا الشماليّة (الذي يرتبط بالتلاؤم العامّ مع البقاء) يمتدّ عبر النسب الجينيّ، أي أنّ أطفال السجين سيرثون

عقوبته. بالمثل، إن أهان أحدهم ملكَ الأردن، فقد يتعرّض إلى عقوبة السجن مع الأشغال الشاقّة لمدّة ثلاث سنوات، وهي عقوبة حقيقيّة واجهها عدد من الأشخاص مؤخّراً. تذكر لورا بتزيغ في دراستها، أنّ من يهين الزعيم في جزر ساموا، يُربَط أمام فرن مشتعل (يرمز إلى أنّ المذنب سيشوى كالخنزير)، ويُجبَر على أكل براز البشر كما يفعل الخنزير (اللّاأنسنة)، وبقيت هذه العقوبة موثّقة في سجلّات المحاكم حتّى عام 1981. من منظور الرجل العاديّ، يشرح عالما السيكولوجيا التطوّريّة الكنديّان، مارتن دايلي ومارغو ويلسون، ما يلي:

لا تحرّض الإهانة الصغيرة بحدّ ذاتها ردَّ فعل عنيف، إن كانت محصورة في الزمان والمكان، ولا بدّ من فهمها في سياق اجتماعيّ أوسع، يشمل السمعة، الكرامة، المرتبة الاجتماعيّة، والعلاقات الدائمة. في أرجاء العالَم، يُصنِّفُ الرجال بين رفاقهم إمّا بأنّهم «نوع يمكن التلاعب به»، أو «نوع لا يقبل بأيّ خطأ»، إمّا كرجال يعنون ما يقولون، أو كرجال يتباهون مجرّد مباهاة جوفاء، إمّا كرجال يمكن لك أن تتجاذب أطراف الحديث مع خليلاتهم دون خوف، أو كرجال لن ترغب بالعبث معهم، لكن في معظم الأوساط الاجتماعيّة، يصون الرجل سمعته جزئيّاً من خلال التهديد باستخدام العنف.

الانتقام، هو وسيلة توحي بأنّ ذلك التهديد حقيقيّ. تتوقّع العديد من الثقافات أن يسعى الرجال للانتقام، إن تعرّضوا لتهديد أو إساءة، وعندها تكافئهم بالتكريم والبرستيج والسلطة، لكنّها تحتقرهم إن لم يقوموا بذلك، وتَصِمهم بالخزي والعار والضعف. لا تقتصر العواقب في هذه الحالة على رأي الآخرين السلبيّ، لأنّ صيت الضعف بحدّ ذاته، سيشجّع أفراد الجماعة على مهاجمة ذاك الذي لا يسعى للانتقام، وهي نقطة يدركها الرجال وذكور الرئيسيّات تماماً.

بما أنّ «عدم الانتقام» يُعَاقَب تلقائيّاً، لذلك يعلق الذكور في مصيدة العداوات الدمويّة اللّانهائيّة، حين يجرّ كلّ انتقامٍ ردَّ فعل انتقاميّ آخر، وهكذا دواليك. خضعت هذه الظاهرة إلى دراسة معمّقة، خاصّة ضمن ما يُطلق عليها اسم «ثقافة الشرف»، أي ثقافة المجتمعات التي تولي شرفَ الرجل أهميّة

فائقة. تاريخياً، دعم جنوب الولايات المتّحدة الأمريكيّة ثقافة، يتقاتل فيها الرجال حتّى الموت دفاعاً عن شرفهم، ووجدت الأبحاث أنّهم ما يزالون متحمّسين حتّى اليوم، للردّ بعنفٍ على الإهانات التي تخدش الشرف، مقارنة برجال الولايات الأخرى. أهميّة السمعة لا تتعلّق فقط بالمنطقة الجغرافيّة، بل ترتبط بالدرجة الأولى بتنافس الرجال على المرتبة. ينوّه ستيفن بنكر إلى أنّ العديد من الرجال البارزين في تاريخ أمريكا، انخرطوا في منافسات عنيفة بداعي «الشرف»، كوزير الخزانة ألكساندر هاملتون، الذي قُتِل في مبارزة بالمسدّس على يد نائب الرئيس آرون بور، والرئيس آندرو جاكسون الذي ربح في مواجهتين مماثلتين، وحاول أن يحرّض عدّة مبارزات أخرى.

بين أيدينا أيضاً، أدبيّات ثريّة حول ثقافة الشرف التي تعتنقها عصابات المدن. على غرار القادة التاريخيّين المهيمنين، الذين تعكس ألقابُهم مراتبَهم ومناطقَ النفوذ التي استولوا عليها، تتلقّب العصابات أيضاً بأسماء المناطق التي تسيطر عليها. فيما يلي، يروي عالم الاجتماع آندرو باباكريستوس شهادة «ميلو»، وهو قائد متوسّط المرتبة في عصابة «تو - سكس - نايشن» الناشطة في ضواحي شيكاغو. «تو - سكس» تشير هنا إلى الشارع السادس والعشرين، حيث نشأت العصابة: «إنّها ضاحيتنا، فهمتَ؟ ولا خيار أمامنا إلّا أن ندافع عنها. إن تراجعنا، سنخسر كلّ شيء. سيعتقد الجميع أنّنا مجرّد حفنة من أولاد العاهرة المخنّثين... كيف نسمّي أنفسنا تو - سكس، إن لم نسيطر على هذه الزاوية؟! نحن نسيطر عليها دائماً، ومن دونها، على ماذا سنحصل؟! لا شيء! الأفضل لكَ أن تنضمّ للكشّافة إن لم تسيطر على منطقة ما».

تشير شهادة ميلو هنا إلى صفة مهمّة من صفات الانتماء للمجموعة، وهي أنّ المجموعات التي تعمل وفق إيديولوجيا الذكر المهيمن، ستفوز بمكانة عالية بين المجموعات الأخرى، وفقاً للأسلوب ذاته الذي يتبعه الرجل «كفرد» بين بقيّة الرجال. لذلك، كما ينوّه باباكريستوس: «تتحوّل النزاعات الفرديّة إلى نزاعات على مستوى العصابة كلّها، لأنّ المجموعة

تعتبر أيّ إهانة لأحد أفرادها بمنزلة إهانة للجميع، وهو شعور ينمّي التلاحمَ داخل الجماعة، كأداة لمحاربة الأخطار الخارجيّة».

توسيع هذا المفهوم يعني بالدرجة الأولى، أنّ العصابات، القبائل، الدول، الولايات، بل وحتّى الأمم، تتفاعل فيما بينها ضمن المشهد الجيوسياسيّ، بالأسلوب ذاته كالرجال / الأفراد الذين يدافعون عن سمعتهم كـ«قبضايات». تتولّد إيديولوجيّات من قبيل «شرف الأمّة» بسهولة من تلك الاستراتيجيّات الذكوريّة، كما أنّ السلوكيّات المتّبعة داخل المجتمع الدوليّ، تحمل الملامح نفسها لرجلين يستعدّان للاشتباك في منافسة عنيفة، وقد تجد الأمم نفسها -كالأفراد تماماً- محاصرةً، بسبب العواقب التي قد تنجم عن التراجع. المؤرّخ والكاتب السياسيّ الألمانيّ هاينريتش ڤون تريتشكه (1843-1896)، كتب الملاحظة التالية عن الأمم، مستعملاً مصطلحات سيكولوجيا الذكور: «عندما يُهان اسم الدولة، فمن واجبها أن تنتقم. إن لم تحصل على اعتذار فوريّ -وهو أحد طرق استرجاع الشرف- ستنشب الحرب لا محالة، مهما بدا السبب هامشيّاً، لأنّ الدولة يجب أن تبذل ما في وسعها، للحفاظ على الاحترام الذي تحظى به في المجتمع الدوليّ».

ملاحظة ڤون تريتشكه تتكرّر في الحلبة الجيوسياسيّة، ووزير الخارجيّة السابق هنري كسنجر على سبيل المثال، كتب في مذكّراته: «لا يمكن لصانع الخطط الاستراتيجيّة الجادّ، أن يسمح لنفسه بالانسياق وراء الموضة الرائجة، المتمثّلة بتفنيد البرستيج أو الشرفِ أو المصداقيّة»، ممّا يقترح أنّ «الشرف» كان دافعاً هامّاً للاستمرار في حرب ڤيتنام. في الواقع، قبل أسبوع واحد فقط من إرسال مئات آلاف الجنود الأمريكيّين إلى ڤيتنام، أعلن الرئيس ليندون بي جونسون للشعب الأمريكيّ: «شرف أمّتنا على المحكّ في جنوب شرق آسيا، وسندافع عنه». ما تزال سياسة شنّ الحرب مرتكزة إلى قضيّة «الشرف»، على سبيل المثال، صرّح نائب وزير الدفاع بول ولفوفيتز بما يلي حول الحرب على العراق: «أعتقد أنّ حجمَ الجرائم التي ارتكبها

ذلك النظام، وصورَ الناس وهم يُسقِطون تمثالاً ويحتفلون بوصول القوّات الأمريكيّة، ولّدت شعوراً بالخزي في المنطقة كلّها». تذكّروا أنّ الشعور بالخزي (كنقيض للكبرياء)، يفرض تداعيات هامّة على صعيد المكانة. الإهانات التي تستهدف الشرف وتخلق شعوراً بالخزي، قد تحرّض على العنف، ولذلك تولي الاستراتيجيّات العسكريّة أهمّيّة كبرى لمعرفة الثقافة المحلّيّة، لأنّها قد تكشف خريطة من الألغام الاجتماعيّة المحتملة.

يجب أن نأخذ بالحسبان أيضاً أنّ الإهانات التي تمسّ شرف الذكر، قد تأخذ أشكالاً عديدة نظريّاً، لكنّها تمرّ دائماً عبر القنوات الداروينيّة الموجودة. يشير المؤرّخ برترام وايات - براون إلى أنّ عرض ذلك الڤيديو لصدام حسين بعد إلقاء القبض عليه، والذي يقومون فيه بفحص لحيته بحثاً عن القمل، كان محاولة متعمّدة لسربلته بالعار في ثقافة يُعَدُّ فيها مجرّد لمس اللحية لمسة خفيفة، إهانة كبرى لشرف الرجل (ناقشنا أهمّيّة اللحية فيما سبق). بكلّ تأكيد، أثار ذلك الڤيديو حفيظة البعثيّين والسنّة والإسلاميّين الأجانب، وحرّضهم على الانتقام بعنف. يجادل وايات - براون أيضاً بأنّ السفير الأمريكيّ بول بريمر، عندما قام بحلّ الجيش العراقيّ والبيروقراطيّة البعثيّة، ألحق إهانة بالرجال العراقيّين بسبب حرمانهم من القدرة على حماية نسائهم:

«على صعيد آخر، لم يقم بريمر بإذلال عدد كبير من الرجال فحسب، بل حرمهم كذلك من قدرتهم على حماية نسائهم من الاعتداء والاغتصاب الشائن. حماية العِرض -أي شرف النساء- تُلهِب حميّة الذكور العراقيّين إلى حدّ الهوس، لأنّ المرأة في الثقافة الشرق أوسطيّة تتوضّع في صميم حقوق مِلكيّة الذكر. انتشرت في بغداد إشاعات -بغضّ النظر إن كانت صحيحة، أم لا- عن قيام الجنود الأمريكيّين باصطحاب النساء العراقيّات، لممارسة الجنس معهنّ، أو اغتصابهنّ، في الدبّابات ومدرّعات هامفي. بغضّ النظر أيضاً عن هويّة المغتصِب، إهانة المرأة بتلك الطريقة تعني الخزي لها، ولأبنائها. في معظم أرجاء الشرق الأوسط، يشعر الأقارب بأنّهم

ملزمون بقتل ضحيّة الاغتصاب لاسترجاع شرف العائلة، أيّاً كانت الأعذار المُخفِّفة».

يناقش وايات - براون بعد ذلك، أنّه قبل شهرين من هجمات الحادي عشر من أيلول على مركز التجارة العالميّ، أرسل المشاهدون العرب إلى مذيع قناة الجزيرة فيصل القاسم، فاكساً يتضمّن رأيهم بأسامة بن لادن: «على ضوء استسلام العرب الرهيب، وتحقير أنفسهم أمام أمريكا وإسرائيل، يتوحّد العديدون حول هذا الرجل الذي يشفي غليلهم، ويسترجع بعضاً من شرفهم السياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ الضائع». يدّعي وايات - براون أيضاً، أنّ انسحاب الولايات المتّحدة الأمريكيّة من الصومال الإسلاميّة، شجّعَ الإرهابيّين (تذكّروا هنا المخاطر الاستراتيجيّة للتراجع، التي تحدّثنا عنها في بداية الفصل)، وفقاً لما صرّح به ابن لادن: «نحن نجد أنّ الأمريكيّين لا يملكون قوّة تُذكَر... أمريكا انسحبت وهي تجرّ ذيلها مهزومة خائبة مندحرة، دون أن تهتمّ بشيء».

الرئيس جورج دبل يو بوش، الذي ادّعى أنّ الربّ أمره باجتياح العراق، وصف تلك الحرب بالحملة الصليبيّة، وهو ما كان بمنزلة صفعة للكثيرين في العالم الإسلاميّ، نظراً لما ترافقت معه الحملات الصليبيّة الغابرة من مذابح، واغتصاب، واستبداد. بدوره، ردّ ابن لادن بالهجوم على «شرف» الأمريكيّين: «إن رفض الأمريكيّون الإصغاء لنصيحتنا... إذن اعلموا أنّكم ستخسرون هذه الحرب الصليبيّة التي بدأها بوش، تماماً كالحملات الصليبيّة السابقة التي أذلّكم فيها المجاهدون، فهربتم إلى دياركم مجلّلين بالعار».

بجهد بسيط، يمكننا أن نكتشف قائمة طويلة من ثنائيّة الخزي / الشرف في خطابات الأمم. بأيّ حال، لعلّ التعرّف إلى الطريقة التي تعبّر فيها القوانين الدينيّة عن الشرف يخدم بحثنا أكثر، فكما يميّز الرجال «شرف الأمّة»، ويولونه قيمة كبرى، ويخوضون الحروب في سبيله، كذلك يتقاتلون للدفاع عن الشرف «الذكوريّ» لآلهتهم.

ينشغل الله بصيته المخيف، سائراً على خطى ذكور الرئيسيّات. يتمّ ارتكاب العنف للدفاع عن سمعة الله التي تأخذ صيغاً مختلفة، كاسمه أو شرفه أو احترامه أو تقديسه أو تبجيله... إلخ، وغالباً ما يتمّ ذلك باتّباع الأنماط ذاتها التي تتبعها الرئيسيّات، بغية الانتقام والتحكّم بممارسة الجنس والحفاظ على موقعها الاجتماعيّ، على الرغم من أنّ كينونة أبديّة كليّة القدرة يجب ألّا تهتمّ شخصياً، بأيّ من الشؤون السابقة المتعلقّة بالتلاؤم مع البقاء. فضلاً عن ذلك، قرّر الرجال أنّ من ينتقدهم سيتعرّض للعقاب، والأديان بدورها حرّمت انتقاد الله، وفرضت ذلك باستخدام العنف والوحشيّة.

إحدى طرق إسباغ الشرعيّة على سلطة الربّ، هي تحريم التشكيك بالعقائد الدينيّة التي تدعمها. بما أنّ دماغنا تطوّر في بيئات اجتماعيّة تتطلّب منّا الخضوع للرجال المهيمنين، لذلك يدفعنا كلّ من الخوف والاحترام أوتوماتيكياً إلى عدم التشكيك بسلطتهم. كي نفهم هذه النقطة، علينا أن «نجعل الطبيعيّ يبدو غريباً»، يجادل ريتشارد داوكنز على سبيل المثال:

«الاعتقاد الشائع في مجتمعاتنا -وهو اعتقاد يقبل به الجميع، بمن فيهم غير المتديّنين- هو أنّ الإيمان الدينيّ عرضة للإهانة، ويجب أن تتمّ حمايته بواسطة جدار فائق السماكة من الاحترام، يختلف جذريّاً عن الاحترام الذي يكنّه الإنسان لما عداه».

إنّها وجهة نظر ذكيّة! احترام الأديان يعني غالباً عدم التشكيك بالعقائد التي تقوم عليها، لكن توجد أسباب وجيهة تدفعنا إلى تمحيص الدين، بوصفه مشروعاً بشريّاً لا يختلف عن سواه. إن أخذنا بعين الاعتبار ميل الأديان إلى استخدام العنف، لا يوجد سبب منطقيّ يمنعنا من مناقشتها، بل إنّ هذا النقاش هو واجب أخلاقيّ. سأضيف هنا أنّ هناك شكلاً من أشكال الاحترام يكنّه البشر للرجال الأقوياء، يشبه تماماً احترام الأديان، وتحيط به أيضاً «جدران فائقة السماكة» على حدّ قول داوكنز. استكشاف الأديان

يهدّد بتعرية حقائق قائمة بغيضة، لكنّه أيضاً يلعب على وتر سيكولوجيّتنا التطوّريّة، التي يتجذّر في أعماقها خوفنا من الرجال الأقوياء، واحترامنا لهم. لكلٍّ من الخوف، والاحترام، والحذر، صلة وثيقة بدعم سمعة الله، كسمعة الرجال على السواء.

على غرار الرجال، يهتمّ الله بنشر سمعته ككينونة عنيفة في أرجاء مملكته، ويبني صيتَ عَظَمته بأسلوب الرجال المهيمنين، كبطرس الأكبر والإسكندر الأكبر وغيرهما، أي باللجوء إلى القتل: «أَنِّي هذِهِ الْمَرَّةَ أُرْسِلُ جَمِيعَ ضَرَبَاتِي إِلَى قَلْبِكَ وَعَلَى عَبِيدِكَ وَشَعْبِكَ، لِكَيْ تَعْرِفَ أَنْ لَيْسَ مِثْلِي فِي كُلِّ الأَرْضِ. فَإِنَّهُ الآنَ لَوْ كُنْتُ أَمُدُّ يَدِي وَأَضْرِبُكَ وَشَعْبَكَ بِالْوَبَاءِ، لَكُنْتَ تُبَادُ مِنَ الأَرْضِ، وَلكِنْ لأَجْلِ هذَا أَقَمْتُكَ، لِكَيْ أُرِيَكَ قُوَّتِي، وَلِكَيْ يُخْبَرَ بِاسْمِي فِي كُلِّ الأَرْضِ» (سفر الخروج 9: 14-16).

كالرجال أيضاً، لا يتسامح الله مع أيّ تهديد لسمعته، وهو ما توضّحه الوصيّة الثالثة: «لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلًا، لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلًا» (سفر الخروج 20: 7). الكلمات التي تقال ضدّ الله، أو التي تقلّل من احترامه، أو تُعتبر إهانة له، أو لا تبجّله بما يكفي، حُرِّمَتْ فيما بعد، وعُدَّت نوعاً من التجديف، أي جريمة عقوبتها الموت. يروي الكتاب المقدّس قصّة شجار بين رجلين، جدّف أحدهما «فَجَدَّفَ ابْنُ الإِسْرَائِيلِيَّةِ عَلَى الاسْمِ وَسَبَّ» (سفر اللاويّين 24: 11)، فجُلِبَ المجدّف إلى موسى، الذي تولّى مهمّة أن يبيّن للناس كيف يريدهم الله أن يردّوا على تلك الإهانة، بتهشيم رأس الجاني بالحجارة: «أَخْرِجِ الَّذِي سَبَّ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ، فَيَضَعَ جَمِيعُ السَّامِعِينَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى رَأْسِهِ، وَيَرْجُمَهُ كُلُّ الْجَمَاعَةِ وَكَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: كُلُّ مَنْ سَبَّ إِلهَهُ يَحْمِلُ خَطِيَّتَهُ وَمَنْ جَدَّفَ عَلَى اسْمِ الرَّبِّ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ. يَرْجُمُهُ كُلُّ الْجَمَاعَةِ رَجْمًا. الْغَرِيبُ كَالْوَطَنِيِّ عِنْدَمَا يُجَدِّفُ عَلَى الاسْمِ يُقْتَلُ» (سفر اللاويّين 24: 14-16).

يُعرَف عن إله العهد القديم، بأنّه يقتل الأطفال حرصاً على سمعته. هذا الاهتمام بالسمعة له أبعاد أخرى على صعيد التطوّر، فكما تروي القصّة،

يقتلُ داودُ أوريّا كي يمارس الجنس مع زوجته، وهي خطوة طمّاعة لم تحظ بموافقة الربّ باعتباره ذكراً مهيمناً، لذلك ينتقم بقتل الطفل الذي أنجبه داود من أرملة أوريّا. من الجدير بالذكر، أنّ الربّ لم يمانع على ما يبدو قيام داود بقتل أوريّا، بقدر ما أزعجه استيلاؤه على الزوجة وإنجاب طفل منها. يعمل الذكور المهيمنون عادة على احتواء الطموحات الجنسيّة للأفراد الأدنى مرتبة، وهو ما نستشفّه من قدوم النبي ناثان إلى داود، كي يحذّره ممّا سيفعل الله به انتقاماً لتشويه سمعته: «غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ بِهذَا الأَمْرِ أَعْدَاءَ الرَّبِّ يَشْمَتُونَ، فَالابْنُ الْمَوْلُودُ لَكَ يَمُوتُ. وَذَهَبَ نَاثَانُ إِلَى بَيْتِهِ، وَضَرَبَ الرَّبُّ الْوَلَدَ الَّذِي وَلَدَتْهُ امْرَأَةُ أُورِيَّا لِدَاوُدَ فَثَقِلَ، فَسَأَلَ دَاوُدُ اللهَ مِنْ أَجْلِ الصَّبِيِّ، وَصَامَ دَاوُدُ صَوْمًا، وَدَخَلَ وَبَاتَ مُضْطَجِعًا عَلَى الأَرْضِ.... وَكَانَ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ أَنَّ الْوَلَدَ مَاتَ» (سفر صموئيل الثاني 12: 14-18).

لاحظوا أنّ ردّ فعل داود الأوّل، كان إظهار دونيّته من خلال إعطاء طعامه للربّ. في النهاية، يقتل الربُّ طفلَ داود بمرض ما، أي أنّه يعاقب داود على الزواج بالأنثى المسروقة، وهو مثال واضح عمّا ذكرناه سابقاً، من قيام الذكور المهيمنين بقتل ذريّة خصومهم. من ناحية أخرى، ينبغي التأكيد على أنّ الله اتّخذ تلك الخطوة الوحشيّة، كي لا يلعن أعداؤه اسمَه بسبب ما ارتكبه داود. كلٌّ من الرجال والآيب على حدّ سواء، يصبحون عدوانيّين عندما تُقدَّم المساعدةُ لخصومهم، كما أنّ الرجال يصبحون عنيفين عندما تأخذ تلك المساعدة صيغة تشويه السمعة، والربّ في المثال السابق يقوم بالفعل ذاته، فيقتل الطفل كي يحمي صيته ككينونة مرعبة. يصبّ كلّ ذلك القتل في نهاية المطاف، ضمن حقيقة أنّ التجديف يعكس انشغال ذكر الرئيسيّات الدائم بسمعته كمهيمن، وهو ما انعكس أيضاً على صورة الإله الذكر المهيمن.

أدرك المسيح بدوره، أهمّيّة صيت الذكر. يقال إنّه عندما أعاد البصر إلى رجل أعمى، بدأ الفرّيسيّون بتلطيخ سمعته، مدّعين أنّه شفى الرجلَ بقوّة بعلزبول رئيس الشياطين، فردّ عليهم المسيح مهدّداً: «لِذلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ

خَطِيَّةٍ وَتَجْدِيفٍ يُغْفَرُ لِلنَّاسِ، وَأَمَّا التَّجْدِيفُ عَلَى الرُّوحِ فَلَنْ يُغْفَرَ لِلنَّاسِ. وَمَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ يُغْفَرُ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَنْ يُغْفَرَ لَهُ، لاَ فِي هذَا الْعَالَمِ وَلاَ فِي الآتِي» (إنجيل متّى 12: 31-32). لقد تحدّى الفريسيّون شرعيّة كنيسة المسيح بحدّ ذاتها، عندما اتّهموه بأنّ الشيطان يقف خلف أعماله، وهي تهمة لا تُغتفر. بتأمّل المستقبل الذي يصفه سفر الرؤيا، لا يسعنا إلّا الافتراض بأنّ «الآتي» هو عالم يحفل بالانتقام الغاضب. إن كان المسيح -أو مسيح الأسطورة بالأحرى- ينوي حقّاً تنفيذ ذلك الانتقام أم لا، هو سؤال سيبقى إلى الأبد موضع تخمين. كلّ ما بوسعنا تأكيده، هو أنّ الرجل الذي صوّره الكتاب المقدّس يقرّع الفريسيّين، كان مدركاً تماماً لأهميّة السمعة، ومستعداً للدفاع عنها.

بالمقارنة بين الملوك المهيمنين وأتباعهم، يحظى شرف الذين يتبوّؤون المناصب العليا بقيمة أعلى بكثير، من تلك التي تعزى لأولئك الأدنى مرتبة. لذلك، لم يُعدَم كيم جونغ الثاني بتهمة الافتراء، ولم يُطالَب زعماء ساموا بأكل البراز... إلخ. تعبّر العقائد الدينيّة عن هذا التباين بوضوح، باستلهام المقطع السابق من إنجيل متّى على سبيل المثال، سمح القدّيس توما الإكويني لنفسه بإسقاط اهتمامات الرجل على الله، فصرّح أنّ إهانة لله هي جريمة أسوأ من قتل الإنسان لأخيه الإنسان: «من الواضح أنّ التجديف -وهو خطيئة تُرتكب بحقّ الله مباشرة- هو جريمة أعظم من القتل، لأنّ القتل خطيئة يرتكبها الإنسان ضدّ جاره». سمعة الله غير الماديّة إذن، أثمن من حياة الإنسان.

مفهوم العقاب الإلهيّ كان سلاحاً دائماً في جعبة المسيحيّة، خاصّة يوم الدينونة، الذي يُعَدُّ تهديداً أبديّاً لأولئك الذين يتجاهلون متطلّبات الإيمان، كما لم يتورّع المسيحيّون في بعض العصور، عن معاقبة المجدّفين بأنفسهم. تشتهر محاكم التفتيش الإسبانيّة مثلاً، بتعذيب المجدّفين بواسطة تشكيلة متنوّعة من الأدوات الساديّة، وربّما قُطِع لسان المجدّف، أو ثُقِبَ بقضيب حديديّ. بالإضافة إلى ذلك، نُفِيَ المجدّفون أو سُجِنوا أحياناً، وكثيراً ما

تمّ جلدهم أمام العامّة بسوط متشعّب، كما أُجبَر بعض اليهود ممّن ارتكبوا خطيئة التجديف على ارتداء لجام، في عقوبة تشبه ما يُطبَّق في جزر ساموا. الفرق هنا، هو أنّ اليهوديّ المجدِّف يتحوّل مجازاً إلى بغل، لا إلى خنزير. تمتاز المسيحيّة أيضاً بتاريخ طويل من إعدام المجدّفين، لكنّ المرّة الأخيرة التي طُبِّقت فيها هذه العقوبة في إنجلترا كانت عام 1697، عندما أُعْدِم الشاب توماس آيكنهيد ذو العشرين ربيعاً، بتهمة إنكار حقيقة العهد القديم، والتشكيك بمعجزات المسيح.

مرّة أخرى، سأذكّر بأنّ تصوير الله وهو يتباهى، أو يطالب بالاحترام، أو يغار من الاحترام الذي يبديه أتباعه للآخرين، هو أسلوب يستند إلى سيكولوجيّتنا التطوّريّة، ويتولّد عن التنافس بين الرجال. قد تفسّر هذه النقطة لماذا تخلق الأديانُ شخصيّاتٍ متنافسة، وتقدّم من خلالها إيديولوجيّات متصارعة (الله مقابل الشيطان مثلاً)، كي تساعد الناس على فهم المبادئ الدينيّة المجرّدة، اعتماداً على سيكولوجيا مصمّمة أصلاً لفهم التنافس بين الرجال. من دون تلك الشخصيّات النموذجيّة، ستصبح المبادئ الدينيّة عسيرة على الفهم، ولن تحرّض الاستجابة الشعوريّة ذاتها في نفوس الناس، أي أنّ المفاهيم «العديمة الشكل»، يجب أن تُقَوْلَبَ إلى هيئة بشريّة. يهوه مثلاً، وكأنّه زعيم قبيلة يهوديّة، واجه العديد من الخصوم الذكور، كبعل وشمش وملكوم والكثير من آلهة مصر. بغية ترسيخ هيمنة الربّ، ادّعى البعض أنّ تلك الشخصيّات هي مجرّد أصنام جوفاء، وليست آلهة، لكنّ الكتاب المقدّس يؤكّد على امتداد صفحاته بأنّها آلهة حقيقيّة، تنقلب تلقائيّاً إلى خصوم يهدّدون الله –وربّما يهدّدون شعبه– تماماً كما يهدّد الذكور بعضهم بعضاً إلى ما لا نهاية، عبر تاريخ تطوّر الإنسان. سنرى يهوه هنا، وهو يدافع عن سمعته ضدّ أعدائه اللدودين هؤلاء، ويشدّد كما يفعل الرجال بالضبط على عدم احترام الآلهة الأخرى، أو عبادتها، أو تكريمها، أو الاعتراف بها من قبل الخاضعين له.

لا ينفرد اليهود والمسيحيّون، بخلق ثقافة الشرف المتمحور حول

الربّ. في الإسلام أيضاً، ونظراً لأصوله اليهوديّة، نشاهد محاولة محمومة للدفاع عن سمعة الله. بأيّ حال، لا يشترط القرآن أن يطبّق المسلمون عقوبة محدّدة ضدّ التجديف، لأنّ الله هو من سيطبّقها بنفسه: «وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ» (سورة التوبة 74). من الجدير بالذكر أنّ القرآن في الحقيقة، يحثّ على التسامح مع الآراء المعارضة، وهو ما يتناقض تناقضاً صارخاً مع السلوكيّات الانفعاليّة، التي ينتهجها بعض الإسلاميّين المتطرّفين اليوم: «اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ» (سورة ق: 39).

رغم وجود العديد من التفسيرات المتناقضة للشريعة الإسلاميّة –وهي مجموعة أعراف مستلهمة من القرآن– فإنّ موقفها يختلف عمّا سبق، إذ إنّها تبيح للمسلم القيام بجلد المجدّف، أو بتر أعضائه، أو قطع رأسه. بعض الإسلاميّين المتشدّدين يتسلّحون بالشريعة، ويتصرّفون كأنّ سمعة إلههم تتطلّب منهم الدفاع عنها بشراسة، كما يفعل الإنسان الفاني أمام هجوم جسديّ، فيقومون بقتل أولئك الذين يقلّلون برأيهم من احترام الله. خلال السنة التي أتممتُ فيها كتابة هذا الكتاب، سمحت كلٌّ من السعوديّة، أفغانستان، باكستان، اليمن، وغيرها من البلدان الإسلاميّة، بقتل المجدّفين، إمّا تحت راية الشريعة الإسلاميّة، أو بناء على قوانين مشتقّة منها (كما في باكستان).

التعريف الحاليّ للتجديف في الإسلام المعاصر، يشبه حملات صيد الساحرات في أوروبا، ويشكّل صدمة للتفكير العقلانيّ. في عام 2007 على سبيل المثال، أُدينَتْ مدرِّسةٌ بريطانيّة هي جيليان غيبون بتهمة التجديف في السودان، على خلفيّة قضيّة «الدبدوب» المشهورة. جريمتها كانت السماح لتلامذة صفّها بإطلاق اسم «محمّد» على دمية دبدوب، ممّا أثار غضب الإسلاميّين المتشدّدين. اندفع حوالي عشرة آلاف متظاهر إلى شوارع

الخرطوم، يتسلّح بعضهم بالسيوف والمناجل، وطالبوا بإعدام غيبون. لحسن حظّها، نجت من الموت بعد أن حُكِم عليها بالسجن لفترة وجيزة، من ثمّ تمّ ترحيلها من البلاد. بالمقابل، فقد الكثيرون حياتهم في أرجاء العالم الإسلاميّ، على خلفيّة اتّهامات مماثلة بإهانة الذات الإلهيّة، على الرغم من أنّ العديد من تلك الاتّهامات زائفة، ففي قضيّة غيبون مثلاً تبيّن أنّ التلامذة سمّوا الدبدوب تيمّناً بزميل لهم، لا بالنبيّ محمّد.

للأسف، غالباً ما يحقّق الساخطون أهدافهم. حين قام القسّ المتشدّد تيري جونز في فلوريدا، بإحراق مصحف لإغاظة المسلمين، اقتحم الغوغاء مقرّ الأمم المتّحدة في مزار شريف في أفغانستان، وقتلوا سبعة موظّفين، من ثمّ اندلعت مظاهرات احتجاج في قندهار، خلّفت تسعةَ قتلى وأكثر من ثمانين جريحاً. جريمة قتل موظّفي الأمم المتّحدة الأبرياء، الذين لا تربطهم أيّ علاقة مع ذلك القسّ المغمور في فلوريدا، هي جريمة لا طائل منها، لكنّها توضّح الجانب القاتم اللّاعقلانيّ للإيمان الدينيّ. فضلاً عن ذلك، سمعة الله أهمُّ هنا من حياة البشر، على حدّ قول توما الإكوينيّ. في شباط 2012، أحرق عدد من ضبّاط حلف الناتو سهواً عدّة مصاحف، في قاعدة باغرام الجويّة في أفغانستان. اندلعت أحداث الشغب على الفور، وخرج المسلمون في مظاهرات قاموا خلالها بإحراق المباني، وراح ضحّيتها ثلاثون أفغانيّاً وأربعة جنود أمريكيّين. قال أحد المتظاهرين للمراسلين الصحفيّين، أمام بوّابة القاعدة الجوّيّة: «لقد أحرقوا القرآن الكريم... وهذا يعني أنّهم أحرقوا إيماننا وشرفنا وحياتنا».

بعد شهر من تلك الحادثة، انطلق أحد الجنود الأمريكيّين من قاعدة باغرام إلى إحدى قرى قندهار، وقتل بدم بارد ستّة عشر مدنيّاً بريئاً، بمن فيهم تسعة أطفال. بالمقارنة بين الحادثتين، كانت ردود فعل الشعب الأفغانيّ باهتة تجاه هذه المجزرة المروّعة. عندما سُئِلَ الملّا خالق داد، وهو أحد أفراد المجلس المسؤول عن التحقيق بالحادثة، لماذا لم تغصّ شوارعُ أفغانستان هذ المرّة، بالمتظاهرين والحرائق والقتل الانتقاميّ، كما حدث

حين أُحرِقَت المصاحف قبل شهر، أجاب جواباً لا يُصدَّق: «كيف لكم أن تقارنوا تدنيس القرآن الكريم، مع استشهاد مدنيّين أبرياء؟! الغاية الوحيدة من حياتنا كلّها هي الدِين». ردود الأفعال على إهانة اسم الذكر المهيمن (كما في قضيّة الدبدوب)، أو إهانة أقواله (كما عند إحراق المصاحف)، تدلّ على أنّ الأديان هي ثقافات تتمحور حول الشرف، تماماً كثقافات شوارع شيكاغو، وجنوب الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وغابات غومبي المطريّة.

يتداخل الشرف مع نسيج المشاعر الدينيّة على نحو وثيق، وهذا أحد أسباب جاذبيّة الجهاد المسلّح في عيون المسلمين الشباب، والكثير من القادة الإسلاميّين يلقّنون أتباعهم، بأنّ الجهاد هو السبيل الوحيد لتحقيق الكرامة والشرف. هناك أمثلة مشابهة في تاريخ المسيحيّة، في أزمنة كان القتل فيها باسم المسيح أو الموت من أجله، عملاً يعود على المرء بالشرف الرفيع، خاصّة إبّان الحملات الصليبيّة، لكنّ الإسلام المعاصر يفترق عن اليهوديّة والمسيحيّة، بأنّه ما زال متشبّثاً بقوّة بإيديولوجيّات العصور الوسطى تلك. ما تزال «جرائم الشرف» تخطف أرواح النساء، بحجّة إهانة أزواجهنّ أو آبائهنّ أو أخوتهنّ، وما تزال هناك حشود هائجة مستعدّة للقتل من أجل دبدوب، وما يزال هناك انتحاريّون يشنّون هجمات بالقنابل، ويُمدحون لأنّهم استعادوا شرف المسلمين. لا مفرّ من الاستنتاج بأنّ كرامة الذكر في عيون الكثير من المسلمين، هي كرامة هشّة، وكذلك الحال بالنسبة للكرامة الذكوريّة التي يتمّ إسقاطها على الإسلام.

المشاعر المتطرّفة موجودة أيضاً بين المسيحيّين المعاصرين، ويعبّر الكثير منها عن دوافع بدائيّة للغاية. المحامية والمعلّقة السياسيّة الأمريكيّة آن كولتر، كتبت ما يلي تعقيباً على أحداث الحادي عشر من أيلول: «يجب أن نجتاح بلدانهم، وأن نقتل قادتهم، ونجبرهم على اعتناق المسيحيّة. عندما بحثنا عن هتلر وضبّاطه وعاقبناهم، لم نتمسّك بالشكليّات، بل دككنا المدن الألمانيّة بالقنابل وقتلنا المدنيّين. تلك كانت حرباً، وهذه حرب أيضاً».

استجابة آن كولتر تعكس آراء العديد من المفكّرين المسيحيّين، وتثبت

أنّ المرأة تلجأ أحياناً، إلى استراتيجيّة الانتقام النموذجيّة التي يتبعها الذكور عادة (وهي استراتيجيّة ناجحة بالنسبة لإناث المكاك كما رأينا). المشكلة الوحيدة على المدى البعيد، هي أنّ النزاع المسلّح من أجل السمعة يتفاقم بسرعة فائقة، لكنّه يخمد ببطء. النزاع حول الشرف جعل من المسيحيّة والإسلام عدوَّين لدودَين طيلة قرون، وحرّض تاريخاً طويلاً من السلوكيّات الاستبداديّة في كلٍّ منهما.

سنغالي في التبسيط، لو تجاهلنا حقيقة أنّ الذكور المهيمنين مضطرّون لبناء سمعة توحي بأنّهم جديرون بالثقة والتعاون، إن أرادوا الاحتفاظ بالسلطة على المدى الطويل، على الرغم من أنّ الصيت المخيف ضروريّ بالنسبة لهم في الوقت ذاته. هذه الملاحظة صحيحة عند الرئيسيّات غير البشريّة، فالشمبانزي الذكر ألفا مثلاً قد يتعرّض لعقاب جماعيّ، على يد أفراد جماعته الأدنى مرتبة، إن أفرط باستخدام العنف، والطغاة بدورهم قد يحرصون على اكتساب صيت التعاون: بالإضافة إلى ألقاب السفّاح، والمُخَوْزِق، وغيرهما، نجد ألقاباً كالعادل (الملك تشارلز الرابع الفرنسيّ، الملك دونالد الثالث الإسكوتلنديّ، إيفان الثاني الروسيّ)، أو المُنْصِف (جيمس الثاني في آراغون، لويس الثامن الفرنسيّ). هل استحقّ هؤلاء الرجال ألقابهم تلك أم لا، هو سؤال مختلف.

بالمثل، من مصلحتنا اعتبار الله جديراً بالثقة، وأنّه يتعاون معنا، وكثيراً ما نسبغ عليه صفات يتمنّاها كلّ امرئ في حليفه: «هُوَ الصَّخْرُ الْكَامِلُ صَنِيعُهُ. إِنَّ جَمِيعَ سُبُلِهِ عَدْلٌ. إِلهُ أَمَانَةٍ لاَ جَوْرَ فِيهِ. صِدِّيقٌ وَعَادِلٌ هُوَ» (سفر التثنية 32: 4). ينتهج الإسلام مقاربة مماثلة، فيصف الله في القرآن على أنّه أرحم الراحمين، وأعدل العادلين، وأكرم الكرماء، وغالباً ما تُلحَق هذه الأوصاف باسمه المنطوق مباشرة، فضلاً عن أنّ تصويره على أنّه عادل، وقويم، ومنصف، هو منظور تعتنقه العديد من التقاليد الدينيّة، يرتبط مع قواعد الإيثار التبادليّ التي تمّ إسقاطها على الإله.

مع ذلك، تستمرّ أنماط العنف المتمحورة حول سمعة الله، ولا بدّ

من كشف هندستها البشريّة. لم يُسقط الرجال الأقوياء قواعدهم على الله فحسب، بل اقتنصوا السلطة من خلال فرض التماهي ما بين سمعة الله، وسمعتهم الشخصيّة: «لاَ تَسُبَّ اللهَ، وَلاَ تَلْعَنْ رَئِيسًا فِي شَعْبِكَ» (سفر الخروج 22: 28). صاغ الرجال هذا التماهي، بغية التعامل مع الدوافع الداروينيّة، كالهيمنة: «جَمِيعُ الَّذِينَ هُمْ عَبِيدٌ تَحْتَ نِيرٍ فَلْيَحْسِبُوا سَادَتَهُمْ مُسْتَحِقِّينَ كُلَّ إِكْرَامٍ، لِئَلاَّ يُفْتَرَى عَلَى اسْمِ اللهِ وَتَعْلِيمِهِ» (رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس 6: 1)، والتحكّم الجنسيّ: «لِكَيْ يَنْصَحْنَ الْحَدَثَاتِ أَنْ يَكُنَّ مُحِبَّاتٍ لِرِجَالِهِنَّ وَيُحْبِبْنَ أَوْلاَدَهُنَّ. مُتَعَقِّلاَتٍ، عَفِيفَاتٍ، مُلاَزِمَاتٍ بُيُوتَهُنَّ، صَالِحَاتٍ، خَاضِعَاتٍ لِرِجَالِهِنَّ، لِكَيْ لاَ يُجَدَّفَ عَلَى كَلِمَةِ اللهِ» (رسالة بولس الرسول إلى تيطس 2: 4-5).

وكي لا ننسى، كلُّ جرائم القتل التي ارتُكِبَت للدفاع عن اسم الله، نفّذها الرجال، وبأسلوب من يدافعون عن سمعتهم الشخصيّة. من نافل القول إنّ تلك الجرائم تعزّز سلطة ومكانة الرجال، وسمعتهم المخيفة، وتضمن لهم الحصول على مكاسب تطوّريّة. غالباً ما يصاب المتديّن وغير المتديّن على السواء، بالصدمة إزاء تلك الفظائع، وتختلط الصدمة مع الحيرة عندما نفكّر بأنّها جرائم عنيفة تُنفَّذ بحقد ودون رحمة، وأنّها لا تمتّ إلى العصر الحديث بصلة.

من خلال علوم التطوّر، سنفهم لماذا يغالي الربّ بالانشغال بسمعته، وكيف يستند ذلك إلى إرثنا الغابر، المتمثّل بالتنافس بين ذكور الرئيسيّات على التزاوج، وقد نبدأ بفهم عقليّة الرجال المستعدّين للقتل دفاعاً عن شرف الله، وعقليّة أولئك الذين يحرّمون التجديفَ تحت طائلة الموت. كي نستأصل العنف الدينيّ الذي يتمّ دفاعاً عن اسم الله، ينبغي علينا ألّا ننصاع لهيمنة الذكر، بل أن نفحص موقعها في أدياننا، ونفرض عليها حدوداً ملائمة.

***

الفصل التاسع

مملكةُ الربّ

«الأمر يتعلّق بـ: الأسلاف والذريّة، فنحن الذريّة ونحن الأسلاف. الذريّة والأسلاف، DNA الخاصّ بنا، دمنا، لحمنا وعظمنا... كلّها تتركّب من فلزّاتٍ، ومعادنٍ، وسوائل الأرض. نحن الأرض. نحنُ، فعليّاً وحرفيّاً ومجازيّاً: الأرض».

• جون ترودل، ناشط في سبيل حقوق سكّان أمريكا الأصليّين

برهن العلمُ على أنّنا نتركّب فعلاً من عناصر الأرض، أي من معادنها وسوائلها، لكنّ الحياة تتطلّب طاقة قابلة للاستعمال. الطاقة هي ما يجعل موادّ الأرض قادرة على القيام بالوظائف التي تتطلّبها الحياة، وهي ما يحافظ على تماسك الكائنات الحيّة، ويمنع تحلّلها إلى عناصر تعود إلى الأرض، طالما بقيت العضويّة على قيد الحياة. كلّ أشكال الحياة تستمدّ تلك الطاقة من الشمس، ويعتمد البشر بدورهم على طاقة الشمس التي اقتنصتْها النباتاتُ والحيوانات، ممّا يجعلهم حقّاً شمساً وأرضاً.

طاقة الشمس الصالحة للاستخدام التي تصل إلى الأرض، هي طاقة محدودة، لذلك تتنافس عليها الكائنات الحيّة. «منطقة النفوذ» هي مفهوم

عالميّ، تقوم الكائنات الحيّة المُستهلِكة للطاقة بإسقاطه على الفراغ الجغرافيّ، كي تحدّد حقّها باستخدام مصادر الطاقة الموجودة ضمن حدود معيّنة، وتتنافس فيما بينها كي تظفر بذلك الحقّ.

في هذا الفصل، سنناقش مفهوم منطقة النفوذ، لا بوصفها منطقة جغرافيّة محدّدة فحسب، بل من خلال التنافس على الموارد الحيويّة الموجودة ضمنها. عندما نقارب النصوص المقدّسة حرفيّاً، سنواجه تناقضات عديدة هنا أيضاً، أهمّها مفهوم الإله الإبراهيميّ بحدّ ذاته، لأنّه يولي منطقة النفوذ اهتماماً بالغاً، رغم وجوده ضمن مستوى أثيريّ خاصّ، دون أن يحتاج إلى الأرض أو إلى إنتاجها كي يعيش. الإجابة النهائيّة على هذا الانشغال بالحياة، تعود بنا مجدّداً إلى تاريخنا التطوّريّ.

ترسيمُ حدودِ منطقة النفوذ

كي نفهم الخاصيّة الحيوانيّة المتأصّلة في منطقة النفوذ الإلهيّة، لا بدّ من أن نعود إلى أصولنا كرئيسيّات، وسنبدأ بترسيم حدود منطقة النفوذ، وهو سلوك تمارسه مختلف أجناس الكائنات الحيّة، إمّا بالاعتماد على الأصوات، كغناء العصافير وزعيق القردة، أو استعراضات التهديد المرئيّة، أو الرائحة، كرائحة البول، أو زرق الطيور، أو الروائح الأخرى التي تفرزها غدد متخصّصة. قد يطوف الذكور (وأحياناً الإناث) حول منطقة نفوذهم، ويدافعون عنها بالقوّة إن لزم الأمر. في معظم الأحيان، واسماتُ الحدود والاستعراضاتُ التي يلجأ إليها الكائن الحيّ، لترسيم حدود منطقة نفوذه، تجنّبه الانخراط في مواجهات عنيفة مكلفة، لأنّها تُعَدُّ بمنزلة إنذار يحذّر الخصوم من الاقتراب. قد يتجاهل الخصم تلك الواسمات، ويغزو منطقة نفوذ غيره على الرغم من المخاطر التي ستعترضه، طمعاً بالاستحواذ على الموارد من ماء وطعام وإناث. عندما ينشب النزاع، وينتصر المعتدي، سيعيد رسم حدود المنطقة المستولى عليها على أنّها مِلكه، ويطمس آثار المالكين السابقين كلّها.

السعي إلى تحديد منطقة النفوذ، هو صفة متأصّلة عند البشر. حاليّاً، هناك مئة واثنان وتسعون بلداً في العالم، كلّها لها حدود مرسومة، يراقبها ويدافع عنها رجال مسلّحون، ونساء مسلّحات أحياناً. تتميّز البلدان بعضها عن بعض بالراية الوطنيّة، وهي علامة بصريّة تنقل معلومات حول الهيمنة، والتحكّم بمنطقة النفوذ، والولاءِ داخل الجماعة. يغصّ العلم الأمريكيّ بمعانٍ رمزيّة من هذا القبيل: خطوط حمراء وبيضاء، ترمز إلى المستعمرات الثلاث عشرة التي تمرّدت ضدّ هيمنة المملكة المتّحدة، كي تظفر بالسيطرة الذاتيّة على مناطق نفوذها، إضافة إلى خمسين نجمة، ترمز إلى مجموعة من مناطق النفوذ، التي تتشارك جميعها اليوم الولاءَ ضمن جماعة واحدة، خاصّة على صعيد التحالف ضدّ الأعداء الخارجيّين. العلم الأمريكيّ، ينقل رسالة رمزيّة مفادها: «هكذا ربحنا، وهذا هو الولاء الذي يجمعنا ضدّ الغاصبين». الأعلام الوطنيّة إذن تحذّر الغرباء عادة، كما أنّها لعبت دوراً مركزيّاً عبر العصور في الحملات العسكريّة، واستُعمِلَت كأداة لتحديد المناطق المستولى عليها في الحروب. فضلاً عن ذلك، الأعلام مقدّسة، يثير تدنيسُها الغضبَ وأحياناً العنف، تماماً كما يحصل عند تدنيس الرموز الدينيّة.

لا يفاجئنا استخدام الرموز الدينيّة للأهداف ذاتها كالأعلام، لأنّها شكل أبكر من ترسيم الحدود، يعلن الهيمنة على مناطق نفوذ معيّنة، بما فيها تلك المكتسبة أثناء الحروب. إبّان الغزو الإسبانيّ الدمويّ للأمريكتين، غرز الفاتحون الإسبان الصلبانَ في أرجاء العالم الجديد، في إعلان صريح عن الاستحواذ على الأراضي لمصلحة الكنيسة الكاثوليكيّة، فعند احتلال مدينة ما، كانوا يقومون بشكل ممنهج بتحطيم الأصنام، وهدمِ معابد السكّان الأصليّين، من ثمّ يغرزون الصلبان ويشيّدون الكاتدرائيّات على أنقاضها، ويملؤونها بالأيقونات الكاثوليكيّة، وكلّ ذلك بغية الإعلان إعلاناً صريحاً للأمم المستعمَرة، عن هيمنة الإله الذكر الجديد. نظريّاً، تكرّر هذا في كلّ مجتمع من المجتمعات الأصليّة التي صادفوها، بدءاً من أبعد نقطة في القارّة الأمريكيّة الجنوبيّة، وصولاً إلى كاليفورنيا وأريزونا ونيو مكسيكو وتكساس.

خير مثال على ذلك، هو كاتدرائيّة مدينة مكسيكو الميتروبوليتانيّة، وهي أضخم وأقدم كاتدرائيّة في القارّتين الأمريكيّتين الشماليّة والجنوبيّة. بُنيَ هذا الصرح العملاق الحجريّ المُذَهّب، لإعلان تفوّق الربّ المسيحيّ على آلهة الأزتك المحليّة، بعد أن احتلّ الإسبان عاصمتهم تينوتشتيتلان. شُيِّدَت الكاتدرائيّة على أنقاض «المعبد الكبير» Templo Mayor الأزتكيّ بعد أن هدمه الفاتحون -وهو معبد مكرّس لآلهة الحرب والمطر- وباستخدام حجارته. كثيراً ما تباهى الإسبان بقوّة إلههم أمام مبعوثي الحضارات التي أخضعوها، وأنذروا الهنود بضرورة أن يخشوا الإله المسيحيّ، وأن يخضعوا له، ويعبدوه عوضاً عن آلهتهم المحليّة جميعها، كما قدّموا لهم الصليب على أنّه علامة الإله (الذكر) العَلِيّ.

لم يكن الغزاة الإسبان بلا شكّ، أوّل من دمّر علامات الآلهة المحليّة وطمَس آثارها. قبلهم بعصور، أمر يهوه القبائلَ اليهوديّة بحظر كلّ المظاهر الدينيّة المحليّة للشعوب المهزومة: «بَلْ تَهْدِمُونَ مَذَابِحَهُمْ، وَتُكَسِّرُونَ أَنْصَابَهُمْ، وَتَقْطَعُونَ سَوَارِيَهُمْ» (سفر الخروج 34: 13). الإسلام ليس استثناء، فأفراد الجماعات المتشدّدة يتبعون النمط ذاته في عصرنا الحاليّ. منحوتات بوذا باميان وسط أفغانستان، هي تماثيل بوذا الأضخم والأقدم في العالم، والتي نُحِتَت في القرن السادس الميلاديّ في خاصرة جبل ضمن مدينة باميان، وهي مدينة قديمة تقع على طريق الحرير، كانت مركزاً بوذيّاً مزدهراً فيما مضى. عندما احتلّ الغزاة المسلمون المنطقة في القرن السابع الميلاديّ، تركوا التماثيل على حالها دون أن يمسّوها، لكن بعد ألف عام، عندما وصل الطالبان إلى السلطة، وفرضوا الشريعة الإسلاميّة (وهي مجموعة من المبادئ الدينيّة، تتبنّى هيمنة ذكوريّة مفرطة)، اعتبروا المنحوتات العملاقة -التي تمثّل ذكراً بطبيعة الحال- تهديداً خطيراً، وقاموا بتفجيرها بواسطة الديناميت والصواريخ، رغم المناشدات التي انهالت عليهم من أنحاء العالم. نُقِل عن الملّا محمّد عمر، أحد قادة طالبان، ما يلي: «يجب أن يفتخر المسلمون بتحطيم الأصنام. لقد دمّرناها بفضل الله

تعالى». من منظور التطوّر، الدين الذي يتمحور حول إله ذكر مهيمن، والذي يقدّمه نبيّ ذكر مسيطر، يجب أن يسعى لتدمير كلّ ما يمثّل آلهة ذكوراً غيره.

بالمثل، في تموز 2012، أسفرت الحرب الطائفيّة في مالي عن انتصار «حركة التوحيد والجهاد الإسلاميّة في غرب إفريقيا»، وحليفتها حركة «أنصار الدِين». بعدها بفترة وجيزة، تناول أفراد أنصار الدين المطارقَ والمعاول، وانطلقوا لتدمير سبعة مدافن أثريّة مدرجة على لائحة التراث العالميّ في تمبوكتو، شُيِّد بعضها في القرن الرابع عشر. تلك المدافن كانت مكرّسة لأولياء محلّيّين (ذكور)، وحكماء غابرين (ذكور)، لكنّها أثارت قلق الميليشيات فأعلنتها «حراماً»، أي أنّها تسيء لله، ودمّرتها بما تحتويه من كنوز ثقافيّة.

تُنصَب الرموز الدينيّة، وتُهدَم، لإعلان الهيمنة على مناطق النفوذ، بالأسلوب ذاته الذي تُستعمَل فيه الرايات الوطنيّة، لكنّ الرموز الدينيّة تمضي شوطاً أبعد بالنسبة للتعبير عن السلطة، وذلك بتضخيم هيمنة الذكر من خلال الله، كوسيلة لردع الغزاة المحتملين. بعبارة أخرى، قد يكون الرجال المهيمنون شرسين، لكنّ الإله الذكر المهيمن قادر على سحقهم كأنّهم نمل، وهو تهديد لا يُستهان به من وجهة نظر المؤمنين. بما أنّ البشر يتحدّرون من أسلاف، نجحوا بردع الغزاة من خلال التحالف مع ذكور أقوياء، لذلك أصبح ادّعاء التحالف مع كائن ذي قوّة عظمى أمراً بديهيّاً، خاصّة عندما يُصوَّر ذلك الكائن على أنّه رجل مهيمن، يعمل وفق قواعد التطوّر المألوفة.

منطقة النفوذ هي قضيّة محوريّة في سرديّة سفر التكوين، أي العقيدة التأسيسيّة للأديان الإبراهيميّة الثلاثة. هذه السرديّة توظّف الأنماط العتيقة ذاتها لاستحواذ الذكر على منطقة النفوذ، فنحن هنا أمام ذكر مهيمن (الله)، يحكم منطقة نفوذ غنيّة بالموارد (جنّة عدن)، ثمّ يظهر ذكر أدنى مرتبة (آدم)، يتحدّى قواعد الذكر المهيمن السارية في منطقة نفوذه، عندما يسرق الطعام (فاكهة شجرة المعرفة). كما ناقشنا سابقاً، هناك تفسيرات عديدة لسبب وجود الثمرة المحرّمة، وكلّها ذات أهميّة تطوّريّة، فالثمرة توصَف على أنّها

الطعام، أو الجنس، أو المعرفة، أو ادّعاء سلطةِ الله: «بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ» (سفر التكوين 3: 5). يكفي القول إنّ الذكور المهيمنين، يفضّلون عادة أن يتحكّموا بكلّ هذه الامتيازات، وهنا يُعاقَب الذكر الأدنى مرتبة (آدم) بالآلام وبالموت (تحويله إلى فانٍ يعادل قتله)، نظراً لانتهاكه الحدود. منطقيّاً، كان من الممكن أن يسرد سفر التكوين، قصّةً مختلفة تماماً عن مفهوم الهيمنة الذكوريّة السائد عند الحيوان، لكن إن قمتم بإزالة أقواس التنصيص من العبارات السابقة، ستكتشفون أنّ القصّة ذاتها قد تحدث بكلّ بساطة بين أفراد الشمبانزي في غابات غومبي. الثيمة المحوريّة الأخرى في كلّ من المسيحيّة والإسلام، هي التنافس بين الله وإبليس على مناطق النفوذ. تروي القصّة، أنّ إبليس -كآدم- طُرِدَ من منطقة نفوذ الله، لأنّه طمع بالاستيلاء على عرشه، وها هو الآن قابع في منطقة نفوذ فقيرة، هي أعماق الجحيم، لكن كأيّ خصم لا يُستهان به، يتحيّن إبليس فرصة تسمح له بتحدّي الله مرّة أخرى.

الإله المشغول بمناطق نفوذه، يهتمّ كذلك بالمناطق التي يسيطر عليها الرجال المهيمنون الذين يمثّلونه. العهد القديم حافل بإشارات إلى مناطق النفوذ، ففي العهد بين موسى وإلهه في سفر الخروج، يعقد ذكر مهيمن (الله)، اتّفاقاً مع مرؤوسيه (الإسرائيليّين)، يتعهّدون فيه بأنّهم سيطيعون وصيّته بعدم التحالف مع خصومه الذكور، كآلهة كنعان مثلاً. بالمقابل، يعدهم الذكر المهيمن (الله) بأنّه سيستولي على منطقة نفوذ ويهبها لهم، ويطرد المقيمين المنافسين منها، ويحميها من الخصوم المحتملين: «اِحْفَظْ مَا أَنَا مُوصِيكَ الْيَوْمَ. هَا أَنَا طَارِدٌ مِنْ قُدَّامِكَ الأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ»، «فَإِنِّي أَطْرُدُ الأُمَمَ مِنْ قُدَّامِكَ وَأُوَسِّعُ تُخُومَكَ، وَلاَ يَشْتَهِي أَحَدٌ أَرْضَكَ حِينَ تَصْعَدُ لِتَظْهَرَ أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ» (سفر الخروج 34: 11، 24).

بعد موت موسى، يعهد الله بالسلطة إلى ابنه يشوع، ويمنح من خلاله المزيد من مناطق النفوذ إلى القبائل الإسرائيليّة الأولى، كما يدافع عن هذه

المناطق ضدّ الخصوم: «كُلَّ مَوْضِعٍ تَدُوسُهُ بُطُونُ أَقْدَامِكُمْ لَكُمْ أَعْطَيْتُهُ، كَمَا كَلَّمْتُ مُوسَى مِنَ الْبَرِّيَّةِ وَلُبْنَانَ هذَا إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ نَهْرِ الْفُرَاتِ، جَمِيعِ أَرْضِ الْحِثِّيِّينَ، وَإِلَى الْبَحْرِ الْكَبِيرِ نَحْوَ مَغْرِبِ الشَّمْسِ يَكُونُ تُخْمُكُمْ. لاَ يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. كَمَا كُنْتُ مَعَ مُوسَى أَكُونُ مَعَكَ. لاَ أُهْمِلُكَ وَلاَ أَتْرُكُكَ تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ، لأَنَّكَ أَنْتَ تَقْسِمُ لِهذَا الشَّعْبِ الأَرْضَ الَّتِي حَلَفْتُ لآبَائِهِمْ أَنْ أُعْطِيَهُمْ» (سفر يشوع 1: 3–6). استمرّ الربّ بوهب الأراضي ليشوع حتّى أواخر أيّامه، ونصَرَه في غزواته التي أطاح خلالها بالحكّام الذكور المهيمنين، واستولى على أراضيهم، ورسم حدوداً لمناطق نفوذه الجديدة بدقّة عالية: «وَشَاخَ يَشُوعُ. تَقَدَّمَ فِي الأَيَّامِ. فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: أَنْتَ قَدْ شِخْتَ. تَقَدَّمْتَ فِي الأَيَّامِ. وَقَدْ بَقِيَتْ أَرْضٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا لِلامْتِلاَكِ. هذِهِ هِيَ الأَرْضُ الْبَاقِيَةُ: كُلُّ دَائِرَةِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، وَكُلُّ الْجَشُورِيِّينَ مِنَ الشِّيحُورِ الَّذِي هُوَ أَمَامَ مِصْرَ إِلَى تُخُمِ عَقْرُونَ شِمَالاً تُحْسَبُ لِلْكَنْعَانِيِّينَ أَقْطَابِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ الْخَمْسَةِ: الْغَزِّيِّ وَالأَشْدُودِيِّ وَالأَشْقَلُونِيِّ وَالْجَتِّيِّ وَالْعَقْرُونِيِّ، وَالْعُوِّيِّينَ. مِنَ التَّيْمَنِ كُلُّ أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ، وَمُغَارَةُ الَّتِي لِلصَّيْدُونِيِّينَ إِلَى أَفِيقَ إِلَى تُخْمِ الأَمُورِيِّينَ. وَأَرْضُ الْجِبْلِيِّينَ، وَكُلُّ لُبْنَانَ نَحْوَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، مِنْ بَعْلِ جَادَ تَحْتَ جَبَلِ حَرْمُونَ إِلَى مَدْخَلِ حَمَاةَ. جَمِيعُ سُكَّانِ الْجَبَلِ مِنْ لُبْنَانَ إِلَى مِسْرَفُوتَ مَايِمَ، جَمِيعُ الصَّيْدُونِيِّينَ. أَنَا أَطْرُدُهُمْ مِنْ أَمَامِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. إِنَّمَا اقْسِمْهَا بِالْقُرْعَةِ لإِسْرَائِيلَ مُلْكًا كَمَا أَمَرْتُكَ. وَالآنَ اقْسِمْ هذِهِ الأَرْضَ مُلْكًا لِلتِّسْعَةِ الأَسْبَاطِ وَنِصْفِ سِبْطِ مَنَسَّى» (سفر يشوع 13: 1–6).

في كلّ من الأمثلة السابقة، يستند يهوه –الإله الذكر المهيمن– إلى متتالية من السيناريوهات التطوّريّة، ويعد أتباعه بمناطق النفوذ لقاء استسلامهم وخضوعهم وولائهم، فها هو يعدهم بأراضٍ خضراء خصبة مليئة بالخيرات، يرويها مطرُ الجنّة، لكنّه يأمر الإسرائيليّين بعدم القيام باستعراضات خضوع أمام الآلهة الأخرى، وإلّا قتلهم جميعهم بالجفاف والمجاعات: «فَاحْفَظُوا كُلَّ الْوَصَايَا الَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا الْيَوْمَ لِكَيْ تَتَشَدَّدُوا وَتَدْخُلُوا وَتَمْتَلِكُوا الأَرْضَ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِرُونَ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكُوهَا، وَلِكَيْ تُطِيلُوا الأَيَّامَ عَلَى الأَرْضِ

الَّتِي أَقْسَمَ الرَّبُّ لآبَائِكُمْ أَنْ يُعْطِيَهَا لَهُمْ وَلِنَسْلِهِمْ، أَرْضٌ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً، لأَنَّ الأَرْضَ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِكَيْ تَمْتَلِكَهَا لَيْسَتْ مِثْلَ أَرْضِ مِصْرَ الَّتِي خَرَجْتَ مِنْهَا، حَيْثُ كُنْتَ تَزْرَعُ زَرْعَكَ وَتَسْقِيهِ بِرِجْلِكَ كَبُسْتَانِ بُقُول. بَلِ الأَرْضُ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِرُونَ إِلَيْهَا لِكَيْ تَمْتَلِكُوهَا، هِيَ أَرْضُ جِبَال وَبِقَاع. مِنْ مَطَرِ السَّمَاءِ تَشْرَبُ مَاءً أَرْضٌ يَعْتَنِي بِهَا الرَّبُّ إِلهُكَ. عَيْنَا الرَّبِّ إِلهِكَ عَلَيْهَا دَائِمًا مِنْ أَوَّلِ السَّنَةِ إِلَى آخِرِهَا فَإِذَا سَمِعْتُمْ لِوَصَايَايَ الَّتِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا الْيَوْمَ لِتُحِبُّوا الرَّبَّ إِلهَكُمْ وَتَعْبُدُوهُ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ وَمِنْ كُلِّ أَنْفُسِكُمْ أُعْطِي مَطَرَ أَرْضِكُمْ فِي حِينِهِ: الْمُبَكِّرَ وَالْمُتَأَخِّرَ. فَتَجْمَعُ حِنْطَتَكَ وَخَمْرَكَ وَزَيْتَكَ وَأُعْطِي لِبَهَائِمِكَ عُشْبًا فِي حَقْلِكَ فَتَأْكُلُ أَنْتَ وَتَشْبَعُ فَاحْتَرِزُوا مِنْ أَنْ تَنْغَوِيَ قُلُوبُكُمْ فَتَزِيغُوا وَتَعْبُدُوا آلِهَةً أُخْرَى وَتَسْجُدُوا لَهَا، فَيَحْمَى غَضَبُ الرَّبِّ عَلَيْكُمْ، وَيُغْلِقُ السَّمَاءَ فَلاَ يَكُونُ مَطَرٌ، وَلاَ تُعْطِي الأَرْضُ غَلَّتَهَا، فَتَبِيدُونَ سَرِيعًا عَنِ الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ الَّتِي يُعْطِيكُمُ الرَّبُّ» (سفر التثنية 11: 8–17).

كي ألخّص ما سبق، سأذكّركم بأنّ البشر تطوّروا في بيئات اجتماعيّة، قام فيها الذكور الأقوياء غالباً بشقّ الطريق إلى مناطق نفوذ جديدة، وساعدوا أفراد جماعتهم بالاستيلاء على الموارد الماديّة الموجودة فيها، ودافعوا عنها ضدّ الغزاة الذكور الآخرين. تاريخيّاً، ساند الآلهة الذكور المرسومون على صورة البشر أولئك الرجال، وإن حاول أنثروبولوجيّ من المريخ وفق منظوره ككائن لا ينتمي إلينا، أن يدرس سلوك الاستحواذ على مناطق النفوذ، عند كلٍّ من القرود والأيب والبشر، سيكتشف بسهولة أنّ الإله التوراتيّ يتبع النمط ذاته، في الاستيلاء على تلك المناطق ووَهْبِها وحمايتها.

بأيّ حال، سلطة الله كآيب مهيمن هي أكبر بكثير من سلطة الرجال، لأنّه ما إن يحدّد منطقة نفوذه على مستوى الأرض، حتّى تتحوّل تلك المنطقة إلى «أرض مقدّسة»، وهو مفهوم تجسّده مدينة القدس –أكثر من أيّ مكان آخر في العالم– من منظور الأديان الإبراهيميّة، كما تترافق قداستها مع تقسيم منطقة النفوذ فيها إلى عدّة أجزاء، فالمدينة الحاليّة مقسّمة بين العقائد الإبراهيميّة الثلاث، وكلّ جزء منها يضمّ مزاراً يُعَدُّ الأقدس من نوعه، كقبّة

الصخرة بالنسبة للمسلمين، وهي البقعة التي يعتقدون أنّ محمّداً عرج منها إلى السماء، وكنيسة القيامة بالنسبة للمسيحيّين التي يعتقدون أنّ المسيح دُفِنَ فيها، أمّا اليهود فيقدّسون حائط المبكى وحجر الأساس (الحجر النفيس)، وهو باعتقادهم النقطة التي بدأ منها الله بخلق العالم كلّه، فضلاً عن أماكن مقدّسة أخرى، يتنافس عليها اليهود والمسلمون والمسيحيّون، ربحها كلٌّ منهم ثمّ خسرها عبر العصور، كقبر النبيّ داود الذي يسيطر عليه اليهود حالياً.

كغيرها من مناطق النفوذ البشريّة، تتمتّع الأراضي المقدّسة بأهميّة عمليّة تشي بمنشئها البشريّ. القدس تتوضّع استراتيجيّاً بين ثلاث كتل جغرافيّة عظمى، وعُدَّت قديماً معبراً بين آسيا وأوروبا وإفريقيا، نظراً لأنّها تربّعت على مركز الطرق التجاريّة البرّيّة والبحريّة، ما بين البحر المتوسط، والبحر الأحمر، والخليج العربيّ، والمحيط الهنديّ. في العصر الحاليّ، تقع القدس في نقطة مركزيّة، وسط أمم غنيّة بمصادر النفط والغاز الطبيعيّ. لا يفاجئنا إذن أنّه خلال آلاف السنين، كانت السيطرة على المنطقة طموحاً من طموحات الملوكِ الأقوياء، والسياسيّين (الذكور) المهيمنين، المستعدّين جميعهم للاستيلاء عليها بقوّة السلاح.

منطقة النفوذ، والحقُّ الجنسيّ الحصريّ

صراع البشر على مناطق النفوذ، للاستيلاء على ما فيها من موارد الطاقة (الغذاء، النفط... إلخ)، هو أمرٌ مفهوم. بدءاً من الغزوات الصغيرة التي شنّتها مجتمعات الصيد والالتقاط، إلى صراع الأمم المعاصرة للسيطرة على طرق التجارة والموارد الاقتصاديّة والنفط، نجد أنّ العلاقة بين الحرب والتنافس على الموارد واضحة، حتّى عندما تُقنّعها العزّةُ الوطنيّة، أو الإيديولوجيا، أو الدين، أو أي بروباغاندا أخرى تهدف إلى حثّ الجماهير على حمل السلاح. الطاقة هي جزء من القصّة، فقط لا غير. بالنسبة لكائنات حيّة مُقدَّرٍ لها أن تهرم وتموت، برمجتْها الطبيعةُ كي تتوالد وتنسخ نفسها إلى المستقبل، الصراعُ على مناطق النفوذ له علاقة بالجنس أيضاً. عند البشر، يكون الدافع

الجنسيّ لاستخدام العنف بغية السيطرة على مناطق النفوذ، أقلّ وضوحاً منه عند الحيوانات. لتمييزه، لا بدّ لنا هنا أيضاً من جعل الطبيعيّ يبدو غريباً، لذلك سنبدأ بدراسة سلوك الرئيسيّات غير البشريّة، من ثمّ ننتقل إلى الرجال، والآلهة التي صنعوها على صورتهم ومثالهم.

في الغابات المطريّة في سومطرة وبورنيو، يحيا الأورانجوتان في شبه عزلة. تعيش الإناث البالغات في مناطق نفوذ متداخلة جزئيّاً، تقع كلّها ضمن منطقة نفوذ الذكر المهيمن، الذي تتزاوج معه الإناث تفضيليّاً. الذكور شبه البالغين قادرون على التزاوج، لكن صفاتهم الجنسيّة الثانويّة (كالوسائد الشحميّة الضخمة في الوجنتين) تظهر متأخّرة، كي لا يلفتوا انتباه الذكر المهيمن العنيف. يعيش هؤلاء الذكور الصغار على أطراف مناطق الذكور الأضخم والأشدّ عدوانيّة، ويتنقّلون عادة من مكان إلى مكان. أحياناً، قد يتسلّل ذكر شبه بالغ إلى داخل منطقة نفوذ الذكر المهيمن، ويُجبِر الإناث على التزاوج معه، بطريقة يصفها علماء الرئيسيّات بأنّها أقرب إلى الاغتصاب. إطلاق صفة «اغتصاب» على ما يحصل، أثار بعض الجدل، لكنّ ملاحظات عالمة الرئيسيّات بيروته غالديكاس تحسم الأمر:

«يحصل الاغتصاب، حين يحاول الذكر أن يتزاوج (أو ينجح بذلك) مع أنثى، تقاوم محاولاته لإجبارها على أخذ وضعيّة تسمح له بولوجها. تتراوح مقاومة الأنثى في شدّتها ومدّتها، ما بين احتجاج واهن وجيز، يترافق مع صرخات قصيرة، ودفعِ الذكر بعيداً عنها، أو ضربِه على يده، إلى قتال عنيف يدوم فترة أطول، لا تنقطع خلاله مقاومة الأنثى، كما أنّها تصرخ صراخاً عالياً، وتعضّ الذكر عندما يتسنّى لها ذلك».

يحصل الاغتصاب أيضاً، عندما يهجم ذكر بالغ ناضج، على منطقة نفوذ ذكر آخر خلال غيابه. من الواضح أنّ السيطرة على منطقة النفوذ مهمّة من منظور أنثى الأورانجوتان، التي تمانع عادة (لكن ليس دائماً)، التزاوجَ مع ذكر لا ينتمي إلى المجموعة. تقدّر أبحاث الأنثروبولوجيّ جون ميتاني أنّ 90% من مجموع عمليات التسافد مع الذكر الناضج المهيمن في منطقة نفوذ

معيّنة، تتمّ برضا الأنثى، مقابل 34% من حالات التسافد مع ذكر لا ينتمي للمجموعة. بعبارة أخرى، 66% من حالات التزاوج عند الأورانجوتان، تُفرَض على الأنثى بالقوّة. عادة، يقوم الذكر البالغ بإطلاق صراخ طويل من الأكياس الحنجريّة[1]، بمنزلة تنبيه لخصومه الذكور كي يبقوا خارج حدوده. عندما يتجاهلون زعيقه الرنّان هذا، ستنشب منافسة قد تكون ضارية، ورغم أنّها غير مميتة عادة فإنها قد تسبّب أذيّات خطيرة، كالجروح وقلع العيون أو بتر الأصابع. عندما يطيح ذكر بالغ ناضج بآخر، سيربح حقّ الوصول جنسيّاً إلى الإناث الموجودات في منطقة نفوذ الذكر المهزوم.

بالمثل، يتقاتل البابون للسيطرة على مناطق النفوذ في الصحارى والهضاب والسافانا الإفريقيّة، التي ترسم مسرح المنافسة الوحشيّ، علماً أنّ الطبيعة وهبت البابون أنياباً طولها خمسة إنشات (أطول من أنياب الأسد). تتقاتل المجموعات المتنافسة على الموارد، كالمراعي الخصبة أو منابع المياه، وتمتاز المواجهات فيما بينها بالمطاردات والعنف وإسالة الدماء. في بعض الأحيان، تستهدف عصابات البابون البشرَ، إذ تهاجم قوافل السيّاح، وتفتح أبواب السيّارات وتقفز على نوافذها، وتسرق السندويشات وقطع البسكويت، التي يتخلّى عنها السيّاح الخائفون على الفور. إذن، الجنس ليس الدافع الوحيد خلف كلّ المنافسات، لكن لا تنسوا أنّ ذكور البابون يتقاتلون فيما بينهم أيضاً للاستيلاء على الإناث، وسرقتها من الذكور الآخرين خلال المعارك. يضيف الذكر المهيمن الإناث المسروقة إلى حريمه، ويحاول جاهداً أن يعزل هذا الحريم، ويقاتل بضراوة أيّ خصم ينوي سرقته.

يتقاتل ذكور الرئيسيّات الأخرى فيما بينهم للفوز بالامتياز الجنسيّ، وهو ما يحقّقونه من خلال التحكّم بمنطقة النفوذ. نلاحظ مستوى معقّداً

1- أكياس هوائيّة تشبه البطينات، موجودة عند العديد من الثدييّات، وواضحة للغاية عند الرئيسيّات. تتوضّع تحت الحنجرة، وتمتدّ إلى جانبي القصبة الهوائيّة، وصولاً إلى أعلى الصدر والإبطين في بعض الأنواع. وظيفتها غير محدّدة بدقّة، لكنّ الآيب يستطيع إصدار صرخات مديدة عالية، دون أن يخاطر بالتعرّض للإصابة بفرط التهوية، وذلك باستنشاق الهواء الموجود بداخلها. المترجمة

من الحرب المنظّمة عند الشمبانزي، وهو أحد الأجناس القليلة في مملكة الحيوان، التي تنخرط في مواجهات عنيفة على نطاق واسع، وتسود بينها تحالفات مُنظَّمة. الأجناس الأخرى التي تقوم بذلك هي النمل، الدلافين، الذئاب، الضباع، الأسود، والبشر. يعرف كلّ شمبانزي متى يتشكّل حلف الحرب، إذ إنّ المجموعة الصاخبة عادة تصمت صمتاً عميقاً متوتّراً، يوحي بشعور من الترقّب المشترك. بعدها، تنطلق كتيبة تتألّف حصريّاً من الذكور عادة، الذين يسيرون في صفّ واحد باتّجاه حدود المجموعة، بينما تأخذ أجسادهم وضعيّة نمطيّة خاصّة لا تُشاهد إلّا في هذه الحالة. عندما يصل الفريق إلى الحدود، يبدأ الذكور بفحص الأشجار، والبحث عبر الوديان، والإنصات إلى أصوات الأعداء. إن وجدوا ذكراً على انفراد، أو فريقاً أصغر حجماً، سيقومون فعليّاً بتمزيق الخصوم إلى أشلاء، فيدوسون عليهم، ويضربونهم، ويمزّقون وجوههم وأعضاءهم التناسليّة بأسنانهم، ويعضّونهم، وأحياناً يشربون حرفيّاً من دمائهم. إن صادفتهم أنثى مع صغارها، سيقتلون الصغار على الفور، وقد يقتلون الأنثى أحياناً، لكنّ الضحايا في معظم الحالات هم من المنافسين الذكور.

العلاقة بين الحرب المنظّمة والتزاوج، هي علاقة معقّدة نوعاً ما عند الشمبانزي. يجادل علماء الرئيسيّات أنّ «دوريّات الحراسة» تلك التي ينفّذها ذكور الشمبانزي، لا تندرج ضمن إطار التزاوج بحدّ ذاته، على اعتبار أنّ الذكور يهاجمون الإناث أحياناً، ولا يتزاوجون أبداً مع ضحاياهم. بأيّ حال، المجموعات التي تنجح بشكل ممنهج بقتل ذكور المجموعات الأخرى، ستوسّع مناطق نفوذها مع مرور الوقت، وتزيد عدد الإناث المتوافر بضمّ أخريات جديدات إليها. فضلاً عن ذلك، من النادر أن تتمّ مهاجمة الإناث، وعندما يحصل هذا، نلاحظ أنّ صفات الضحيّة المستهدفة لها علاقة باستراتيجيّة التكاثر، فالأنثى اليافعة في طور الخصوبة التي لا تعيل أطفالاً، ستعاني القليل من العنف، على عكس الأنثى غير الخصبة التي يرافقها صغارها. هذا النمط يرتكز غالباً على القيمة الإنجابيّة للأنثى، لأنّ الخيار

الأفضل على ما يبدو، هو نقل أنثى يافعة دون أطفال إلى المجموعة الأكبر (أي أنّها خيار أفضل للتزاوج مع مرور الوقت)، أمّا الأنثى الأكبر سنّاً التي يرافقها أطفالها، فقد تنافس أفراد المجموعة الجديدة على موارد الطعام، وقد يتحوّل أطفالها إلى خصوم محتملين في المستقبل. المجموعات التي تنجح بإبادة ذكور المجموعات الأخرى، تزيد عدد الإناث بين صفوفها بالاستحواذ على إناث المجموعات المهزومة، كما أنّ زيادة مساحة منطقة النفوذ عبر الغارات الناجحة، يرفع معدّلات التكاثر بين إناث المجموعة الغازية. بالإضافة إلى ما سبق، بيّنت الأبحاث أنّ معدّلات التزاوج تزداد بازدياد عدد «دوريّات الحراسة»، التي يقوم بها الشمبانزي.

من الجدير بالذكر أنّ الذكر ألفا في مجموعة الشمبانزي، وعلى عكس الذكور ذوي المراتب المتوسّطة والمتدنّية، لا يقوم بـ «دوريّة حراسة» إلّا فيما ندر، بل يفضّل عادة أن يحرس إناثه، لأنّه يربح أكثر من منظور التطوّر ببقائه على أرضه مع الإناث، عوضاً عن المخاطرة بحياته في الدوريّة. بالمثل، من النادر أن يذهب الرجال المهيمنون، كالملوك والجنرالات والرؤساء، إلى القتال المباشر جنباً إلى جنب الرجال الأدنى مرتبة في مجتمعاتهم.

باختصار، في الأجناس الأقرب إلينا جينيّاً، التي يتحالف أفرادها على العدوان المنظّم كما نفعل نحن، لا يمكن فصل الجنس عن التنافس العنيف على منطقة النفوذ. كي نتأكّد أنّ هذه السلوكيّات الغابرة التي تمارسها الرئيسيّات، ما تزال موجودة عند البشر، ما علينا إلّا أن نراقب حلبات الرياضات التنافسيّة، التي تعجّ بالعنف والجنس ومناطق النفوذ. خذوا على سبيل المثال كرة القدم الأمريكيّة، وهي كناية عن حرب بين الرئيسيّات من عدّة نواحٍ. نحن هنا أمام مجموعات من الذكور (اللّاعبين)، يعقدون تحالفات (الفريق)، كي يتنافسوا على الاستيلاء على منطقة نفوذ، يدافعون عنها بعدائيّة. هدف اللعبة هو اختراق خطوط دفاع الخصم، من ثمّ الاستيلاء على منطقته. كما في الحرب الحقيقيّة، يكسر الرجال عظامهم في هذه اللعبة، ويحقّقون المجد، وتزداد فرصتهم بممارسة الجنس، إمّا مع العضوات في

نادي المعجبين مثلاً، أو مع إناث شهيرات كالممثلات وعارضات الأزياء. يتقاضى اللّاعبون أجوراً ضخمة، وهذا انعكاس واضح للقيمة التي نسبغها على لعبة تعيد إحياء سيناريوهات غابرة، تدغدغ تصميمنا التطوّريّ. في تلك الملاعب التي يتحالف فيها الرجال لبسط هيمنتهم، سنرى مجموعات من الإناث في قمّة بهائهنّ الجنسيّ، جذّابات، شبه عاريات، يقمن حرفيّاً بالتهليل تشجيعاً للعنف. لماذا لا نرى «فريق مشجّعين» مؤلّفاً من الرجال، إلّا فيما ندر؟! لماذا يستحيل أن نرى فريق مشجّعات يرتدين أزياء على الطراز الفكتوريّ، أو فريقاً مؤلّفاً من نساء في سنّ الضهي؟! جنسانيّة أولئك المشجّعات متفجّرة، وأجسادهنّ الرياضيّة الرشيقة المنحوتة، تلمع في الزيّ المصمّم خصّيصاً لإبرازهنّ شبه عاريات. لا تنفرد كرة القدم الأمريكيّة بهذا، فالرياضات الأخرى كالملاكمة أو الفنون القتاليّة، تتبع بدورها التقليد ذاته، وتعرض إناثاً شبه عاريات يطفن حول الحلبة، قبل كلّ جولة من جولات الملاكمة الدمويّة، التي يتصارع فيها الرجال بأسلوب غابات غومبي. هذا المزج ما بين الإناث المتاحات جنسيّاً، والتنافس الذكوريّ، مألوفٌ للغاية، فضلاً عن أنّ التعبير الرياضيّ score (يسدّد هدفاً)، هو مجاز مستعمل في لغة الشارع الأمريكيّ الشعبيّة، للدلالة على ممارسة الجنس مع امرأة جديدة.

بنقل التنافس إلى خارج حدود الجماعة البشريّة، ستتبدّل المنافسة العنيفة من رمزٍ إلى قتلٍ حقيقيّ، ومن مجازٍ جنسيّ إلى اغتصاب جماعيّ، سائرةً على خطى إرث التنافس الغابر على التزاوج بين الذكور. ينتقد الكثيرون الادّعاء القائل إنّ الاغتصاب قدّم فوائد تطوّريّة للرجال، كما ينبغي أن نحذر المغالطات «الطبيعيّة»، أي الاعتقاد بأنّ الاغتصاب أمرٌ مقبول أو مُحَبَّذ، فقط لأنّه متجذّرٌ في ماضينا التطوّريّ. الاغتصاب، كالحرب بالضبط، بعيد كلَّ البعد عن هاتين الصفتين، كما أنّه فعل مشين أخلاقيّاً، ويستحقّ التمحيص دون تهاود.

في النزاعات المسلّحة كلّها تقريباً، يترافق القتال بالاغتصاب. جنكيز خان (يُترجَم اسمه إلى «سيّد العالَم»)، اجتاح آسيا وأوروبا وشمال إفريقيا

كالصاعقة، وسيطر على أضخم إمبراطوريّة متواصلة جغرافياً دون انقطاع في تاريخ البشريّة. ما هي الفلسفة، التي حرّضت أضخم عمليّة استيلاء على مناطق النفوذ في التاريخ؟: «تكمن السعادة في الانتصار على أعدائك، وسوقهم أمامك، والاستيلاء على أملاكهم، والتلذّذ بخيبتهم، واغتصاب نسائهم وبناتهم».

بعد معركة أوكيناوا أثناء الحرب العالميّة الثانية، تحدّثت التقارير عن قيام الجنود الأمريكيّين باغتصاب ألف وثلاثمئة وستّ وثلاثين امرأة، خلال الأيّام العشرة الأولى التي قضوها في مدينة كاناغاوا. عندما اجتاح الجيشُ اليابانيّ الصينَ خلال الحرب العالميّة الثانية، توقّف في مدينة نانكينغ، وأباد الرجال في مذبحة جماعيّة، ثمّ قام الجنود باغتصاب عشرات الآلاف من النساء الصينيّات، بمن فيهنّ الطفلات والمسنّات والحوامل. يقدّر البعض عدد الضحايا ما بين مئتي ألف إلى ثماني مئة ألف امرأة، لذلك سمّيت المذبحة بـ «اغتصاب نانكينغ».

تقدّر الإحصاءات أنّ الجيش الأحمر السوفياتيّ، اغتصب في برلين وحدها ما لا يقلّ عن مئة وثلاثين ألف امرأة، ويرتفع هذا الرقم إلى مليوني امرأة بالمجمل في أرجاء ألمانيا. أثناء الإبادة العرقيّة في رواندا، لم يقلّ حماس الرجال للاغتصاب عن حماسهم للقتل، فبعد أن صرّح أحد المسؤولين بأنّ «المرأة المستلقية على ظهرها، لا تنتمي إلى أيّ إثنيّة»، قام الرجال على الفور بأسرِ الفتيات، واغتصابهنّ في الحقول. البعض منهم خافوا من تقريع زوجاتهم، لذلك اغتصبوا الضحايا مباشرة وسط ساحة القتال في المستنقعات، دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء التواري عن أعين رفاقهم خلف نباتات البردي.

خلال الحرب الأهليّة في البوسنة، كان الاغتصاب سلاحاً هامّاً في يد الجماعات الإثنيّة المتحاربة على اختلافها. نظّم الصرب حملة اغتصاب جماعيّ هائلة، ضدّ النساء والفتيات البوسنيّات المسلمات، كجزء من عمليّة التطهير العِرقيّ، وكان حصول الحمل أحد أهدافهم المخطّط لها منذ البداية،

فمنعوا الضحايا من إجراء إجهاض، وأجبروهنّ على الاستمرار بالحمل حتّى موعد الولادة، وذلك كاستراتيجيّة لنشر جينات الصرب الشيتنك[2] ضمن العرق البوسنيّ.

حتّى الحروب الدينيّة لم تترفّع عن الاغتصاب! خلال حرب الثلاثين عاماً (1618–1648)، مزّق العنفُ الطائفيّ بين المسيحيّين القارّةَ الأوروبيّة، وتنافسَ الخصومُ بضراوة لبسط سيطرتهم على مناطق النفوذ في كلٍّ من سويسرا، باڤاريا، السويد، ألمانيا، هنغاريا، بوهيميا، وفرنسا، وانتشر الاغتصاب كالوباء خلال ذلك الصراع. علّق ويل ديورانت على حجم المأساة قائلاً: «حصلت الجيوش على طعامها بنهب الحبوب والفواكه والمواشي... واندفع الجنود للسرقة، تهيّجهم نشوة القتل والاغتصاب... حقّ الجنديّ بالاغتصاب، كان أمراً مسلّماً به»، وكما يعلّق ديڤيد سميث على جريمة الاغتصاب أثناء الحروب: «الأمثلة لا تُعَدّ ولا تُحصى». مجدّداً، نحن هنا أمام الأنماط العتيقة ذاتها من تنافس الذكور على التزاوج، والتي تبدو واضحة في قيام الرجال باجتياح مناطق نفوذ غيرهم، والانخراط في قتال عنيف، والاستيلاء على حقّ ممارسة الجنس مع الإناث المقيمات في مناطق النفوذ المستولى عليها.

الاغتصاب في الكتاب المقدّس

وصايا الربّ الواردة في الكتاب المقدّس، تركت بصمة خاصّة على المفهوم الغربيّ للأخلاق، كما أنّها متجذّرة في أعماق سيكولوجيّتنا الأخلاقيّة، وتنعكس على العديد من المعايير القانونيّة (كما في حالتي السرقة والقتل، والوصايا العشر). بالنسبة للبعض، الدِين والله مرادفان لما هو صائب أخلاقيّاً، لذلك، لعلّنا نتوقّع أنّ الإله اليهوديّ – المسيحيّ وممثّليه

2- Četnik: تشير هنا إلى الميليشيات الصربيّة القوميّة التي قاتلت ضدّ البوسنيين والكرواتيين، أثناء تفكيك يوغوسلافيا في بدايات التسعينيّات من القرن الماضي، وارتكبت مجازر وجرائم حرب. المترجمة

الباترياركيّين، سيرفضون الاعتداء الجنسيّ رفضاً قاطعاً، بما أنّه ينافي القوانين والأخلاق على امتداد العالم المسيحيّ، ولكن... لا! لقد ذكرت فيما سبق أمثلة عن حالات الاغتصاب التي سمح بها الربّ، لكنّنا سنُدهش عند معرفة كم يتكرّر الاغتصاب في حروب الكتاب المقدّس.

في سفر القضاة، يحاول رجال من سبط بنيامين أن يقتلوا رجلاً لاويّاً في جِبْعة (تلّة تقع في القدس، أو بالقرب منها)، وينتهي بهم الحال إلى اغتصاب خليلته جماعيّاً، من ثمّ قتلها (سفر القضاة 19: 25). الربّ هنا -كما يفعل الرجال تماماً- يعاقب المذنبين باغتصاب المنتميات إلى جماعتهم، لذلك يأمر الإسرائيليّين بالانطلاق إلى جبعة، وذبح سبط بنيامين (سفر القضاة 20: 21). ينفّذ الإسرائيليّون ما أُمِروا به، ويقتلون خمسة وعشرين ألف رجل، ثمّ يذبحون نساء بنيامين وأطفاله ومواشيه: «وَرَجَعَ رِجَالُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى بَنِي بَنْيَامِينَ وَضَرَبُوهُمْ بِحَدِّ السَّيْفِ مِنَ الْمَدِينَةِ بِأَسْرِهَا، حَتَّى الْبَهَائِمَ، حَتَّى كُلَّ مَا وُجِدَ. وَأَيْضًا جَمِيعُ الْمُدُنِ الَّتِي وُجِدَتْ أَحْرَقُوهَا بِالنَّارِ» (سفر القضاة 20: 48). ينجو ستمئة بنيامينيّ يفرّون إلى الغابات، لكنّهم جميعهم من الجنود الذكور. في لحظة ما، أدرك الإسرائيليّون أنّهم بقتل نساء سبط بنيامين، عرّضوا بقاء القبيلة الإسرائيليّة بأكملها للخطر على المدى البعيد، رغم أنّ بقاءها هو ما يسعون إليه في نهاية المطاف. لقد سبق أن قطعوا عهداً للربّ، بعدم تزويج بناتهم لسبط بنيامين، وهو ما أوقعهم في ورطة. بأيّ حال، اجتمع شيوخهم، وكان الحلّ واضحاً بالنسبة إليهم: تشكيل حلف حربيّ يجتاح جلعاد (يُعتقَد أنّها منطقة تقع شرقي نهر الأردن)، ويقتل الذكور والأطفال جميعهم في مذبحة كبرى، ويقتل النساء اللواتي مارسن الجنس من قبل جميعهنّ، ولا يُبقي إلّا على العذراوات كغنيمة حرب: «فَأَرْسَلَتِ الْجَمَاعَةُ إِلَى هُنَاكَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ رَجُل مِنْ بَنِي الْبَأْسِ، وَأَوْصَوْهُمْ قَائِلِينَ: اذْهَبُوا وَاضْرِبُوا سُكَّانَ يَابِيشِ جِلْعَادَ بِحَدِّ السَّيْفِ مَعَ النِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ، وَهذَا مَا تَعْمَلُونَهُ: تُحَرِّمُونَ كُلَّ ذَكَرٍ وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتِ اضْطِجَاعَ ذَكَر. فَوَجَدُوا مِنْ سُكَّانِ يَابِيشِ جِلْعَادَ أَرْبَعَ مِئَةِ فَتَاةٍ عَذَارَى لَمْ يَعْرِفْنَ رَجُلًا بِالاضْطِجَاعِ مَعَ

ذَكَرٍ، وَجَاءُوا بِهِنَّ إِلَى الْمَحَلَّةِ إِلَى شِيلُوهَ الَّتِي فِي أَرْضِ كَنْعَانَ» (سفر القضاة 21: 10-12).

تذكّروا أنّ ذكور الشمبانزي يتبعون الاستراتيجيّة ذاتها، بقتل الذكور والصغار والإناث المسنّات أحياناً، والإبقاء على الإناث اليافعات. بعدها، وهب الإسرائيليّون الأسيراتِ العذارى إلى من بقي من سبط بنيامين، لكنّ عددهنّ لم يكن كافياً. لتدارك ذلك، أمروا البنيامينيّين بنصب كمين في الحقول، أثناء مهرجان في شِيلُوهَ، واختطاف الذاهباتِ للاحتفال: «وَقَالُوا: مِيرَاثُ نَجَاةٍ لِبَنْيَامِينَ، وَلاَ يُمْحَى سِبْطٌ مِنْ إِسْرَائِيلَ، وَنَحْنُ لاَ نَقْدِرُ أَنْ نُعْطِيَهُمْ نِسَاءً مِنْ بَنَاتِنَا، لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَلَفُوا قَائِلِينَ مَلْعُونٌ مَنْ أَعْطَى امْرَأَةً لِبَنْيَامِينَ. ثُمَّ قَالُوا: هُوَذَا عِيدُ الرَّبِّ فِي شِيلُوهَ مِنْ سَنَةٍ إِلَى سَنَةٍ شِمَالِيَّ بَيْتِ إِيلَ، شَرْقِيَّ الطَّرِيقِ الصَّاعِدَةِ مِنْ بَيْتِ إِيلَ إِلَى شَكِيمَ وَجَنُوبِيَّ لَبُونَةَ، وَأَوْصَوْا بَنِي بَنْيَامِينَ قَائِلِينَ: امْضُوا وَاكْمُنُوا فِي الْكُرُومِ وَانْظُرُوا. فَإِذَا خَرَجَتْ بَنَاتُ شِيلُوهَ لِيَدُرْنَ فِي الرَّقْصِ، فَاخْرُجُوا أَنْتُمْ مِنَ الْكُرُومِ وَاخْطَفُوا لأَنْفُسِكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ امْرَأَتَهُ مِنْ بَنَاتِ شِيلُوهَ، وَاذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ بَنْيَامِينَ» (سفر القضاة 21: 17-21).

بلا شكّ، سيتحوّل الاختطاف في الحقيقة إلى اغتصاب جماعيّ، إذ لن توافق النساء جميعهنّ على ممارسة الجنس مع أولئك الذين قتلوا عائلاتهنّ، أو اختطفوهنّ، رغم وجود بعض الاستثناءات في الحالة الأخيرة.

يقدّم سفر العدد حكاية أخرى، عن الانتقام والمذابح والاغتصاب، إذ يأمر الربُّ موسى بالانتقام من المديانيّين (يُعتقَد أنّهم عاشوا في العقبة، على ساحل البحر الأحمر)، لأنّهم يعبدون آلهة أخرى كما يبدو. يزحف الإسرائيليّون إلى منطقة نفوذ المديانيّين، وينفّذون أوامر الربّ، فيقتلون الرجال جميعهم، ويأسرون النساء كغنائم: «وَسَبَى بَنُو إِسْرَائِيلَ نِسَاءَ مِدْيَانَ وَأَطْفَالَهُمْ، وَنَهَبُوا جَمِيعَ بَهَائِمِهِمْ، وَجَمِيعَ مَوَاشِيهِمْ وَكُلَّ أَمْلاَكِهِمْ، وَأَحْرَقُوا جَمِيعَ مُدُنِهِمْ بِمَسَاكِنِهِمْ، وَجَمِيعَ حُصُونِهِمْ بِالنَّارِ، وَأَخَذُوا كُلَّ الْغَنِيمَةِ وَكُلَّ النَّهْبِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ، وَأَتَوْا إِلَى مُوسَى وَأَلِعَازَرَ الْكَاهِنِ وَإِلَى جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالسَّبْيِ وَالنَّهْبِ وَالْغَنِيمَةِ» (سفر العدد 31: 9-12). بأيّ حال، ثار

غضب موسى.. لا بسبب المذابح والسرقات والنهب، بل لأنّ رجاله تركوا النساء على قيد الحياة، لذلك أمرهم بقتل كلّ الصِبية الذكور، وكلّ النساء غير العذراوات، والإبقاء على العذراوات فقط للانتفاع منهنّ: «فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلًا بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا. لكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لَكُمْ حَيَّاتٍ» (سفر العدد 31: 17–18). من ثمّ، أمر الربُّ موسى وكاهنَه أليعازر بتقسيم الغنيمة –المواشي، الحمير، واثنين وثلاثين ألف عذراء– بين الرجال الذين قاتلوا في المعركة، ورجال القبائل الأخرى، وتخصيص جزء منها كتقديمة للربّ، أُعطيَت في الواقع إلى أليعازر بوصفه ممثّلاً عنه، وإلى أعضاء من سبط لاوي الذين يتولّون خدمة معبد الربّ (سفر العدد 31: 25–41).

في الواقع، كان القتل والاغتصاب شائعين في العصر التوراتيّ، تماماً كما هو الحال في الحروب المعاصرة. عندما يغزو الإسرائيليّون منطقة نفوذ أحد خصومهم، ويرفض سكّانها الاستسلام، يأمرهم الربّ باحتلال المدينة، من ثمّ يعطيهم توجيهات لاقتسام الغنائم: «وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ، كُلُّ غَنِيمَتِهَا، فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ، وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. هكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ الْمُدُنِ الْبَعِيدَةِ مِنْكَ جِدًّا الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هؤُلاَءِ الأُمَمِ هُنَا، وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلاَ تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا» (سفر التثنية 20: 13–15). من ثمّ، تتوالى التعليمات دون خجل: «إِذَا خَرَجْتَ لِمُحَارَبَةِ أَعْدَائِكَ وَدَفَعَهُمُ الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى يَدِكَ، وَسَبَيْتَ مِنْهُمْ سَبْيًا وَرَأَيْتَ فِي السَّبْيِ امْرَأَةً جَمِيلَةَ الصُّورَةِ، وَالْتَصَقْتَ بِهَا وَاتَّخَذْتَهَا لَكَ زَوْجَةً» (سفر التثنية 21: 10–11). إذن، يأمر الكتاب المقدّس الرجالَ بشكل مباشر باحتلال منطقة نفوذ معيّنة، كي يستولوا على النساء اليافعات، وتصدر هذه الأوامر من فم الربّ شخصياً.

تأسّس الإسلام أيضاً على الاستحواذ على مناطق النفوذ، وعلى الطموح الجنسيّ، كما كان محمّد بدوره ذكراً مهيمناً كغيره من أنبياء اليهوديّة

-المسيحيّة، وامتلك العديد من الزوجات، سبى واحدة منهنّ على الأقلّ- ريحانة - أثناء غزوة بني قريظة، حين ذُبح رجال قبيلتها جميعهم، بمن فيهم زوجها. كان محمّد مخطِّطاً استراتيجياً بارعاً في الحروب، وحّد قبائل العرب الرحّل، التي تعبد آلهة متعدّدة في شبه الجزيرة العربيّة، تحت لواء إله واحد عَلِيٍّ، ووحّد مناطق النفوذ المختلفة في منطقة واحدة. استطاع محمّد أن ينجز ذلك كلّه بسرعة فائقة، ممّا أكسبه تقدير المؤرّخين وعلماء السياسة، لكنّه في الحقيقة لعب بورقتين تطوّريتين رابحتين: أوّلاً، سُبيَت النساء (مثل ريحانة) كغنائم في غزواته. ثانياً، وعدَ رجاله الذين يموتون في المعارك بفانتازيا ذكوريّة باذخة، هي الحدائق الغنّاء المليئة بعذراوات لا يهرمن أبداً: «إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا، حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا، وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا» (سورة النبأ 31-33)، وهي جائزة مغرية من منظور الرجال المبرمجين على تفضيل العدد، واليفع، والتيقّن من الأبوّة. لقد فهم محمّد على ما يبدو، الدوافعَ التطوّريّة عند الرجال.

بعد ما ينوف على ألف وأربعمئة عام، ما زلنا نرى مجموعات من الشباب، تلهب حميّتهم دوافع الذكر المهيمن التي تضمنها لهم أديانهم، ويتبعون الوسائل النمطيّة ذاتها، التي يتبعها ذكور الرئيسيّات أثناء التنافس. «الدولة الإسلاميّة» أو «داعش»، هي ميليشيا إسلاميّة راديكاليّة، يتركّز نشاطها في العراق وسوريا، شقّت طريقها بالعنف في بادية الشرق الأوسط، فقطعت رؤوس خصومها، وأسرت الآلاف من نسائهم وبناتهم. بعد أسرهنّ، قام أفراد داعش باغتصابهنّ، وبيعهنّ قسراً كزوجات أو كعبدات جنسيّات، وقتلوا اللواتي رفضن ذلك (العديد منهنّ حوامل)، كما أجبروا من ينتمين إلى أديان أخرى، كالأزيديّات، على اعتناق الإسلام.

في نيجيريا، تنشط جماعة إسلاميّة راديكاليّة أخرى، هي بوكو حرام، تطبّق الاستراتيجيّات ذاتها لتحويل نيجيريا إلى دولة إسلاميّة. ما بين عامي 2009-2014، قتلت بوكو حرام أكثر من خمسة آلاف مدنيّ، معظمهم من الذكور، واختطفت مئات النساء وطالبات المدارس. اسم الحركة Boko

Haram يُترجَم إلى: «التعليمُ الغربيّ خطيئةٌ»، ولقد رأينا كيف يهدّد التعليمُ الحكمَ الذكوريّ الاستبداديّ تهديداً مباشراً. لعلّ هذا التهديد ينبع جزئياً، من علاقته المباشرة باستقلال المرأة الغربيّة جنسيّاً، المتناقض تناقضاً صارخاً مع نمط الإسلام الذي يسعى أولئك الذكور اليافعون إلى نشره، ومع الهيمنة الجنسيّة الذكوريّة التي يطمحون إلى تحقيقها.

المطالبة بالأمّ – الأرض

كلّ الأمثلة السابقة، تبيّن أن سعي الرجال إلى الاستيلاء على منطقة نفوذ، سواء بصيغته الدينيّة أو العلمانيّة، قد يكون أمراً خطيراً، إلّا أنّ الأخطار تتعدّى العنف والمعاناة، فقد تتحوّل أجزاء من الأرض إلى جوائز أثناء تنافس الذكور على التزاوج، أو إلى ساحات قتال يربحون ويخسرون فيها الموارد الضروريّة للبقاء والتكاثر. الأرض هي نظام بيئيّ متداخل متوازن، يدعم كلّ أشكال الحياة الموجودة في المحيط الحيويّ[3] Biosphere، لكنّ أفعال الإنسان بمجملها بدأت بتدمير ذلك التوازن، خاصّة بسبب التنافس الذكوريّ على حيازة مناطق النفوذ. هذا صحيح بشكل خاصّ، عندما يحاول الرجال خلال سعيهم الذي لا يتوقّف للتنافس مع الرجال الآخرين، أن يتحكّموا بالموارد الطبيعيّة ويستهلكوها، ثمّ يسخّروها في نهاية المطاف لمصلحة استراتيجيّة «العدد» التكاثريّة. كما نتوقّع من تشريع دينيّ يرتكز على امتيازات الذكر المهيمن، ينتهج الكتاب المقدّس الأسلوب ذاته في علاقته بالعالَم الطبيعيّ. عندما تُسبَغ الشرعيّة الإلهيّة على ذلك الأسلوب، سينتقل إلى السياسة المجتمعيّة، ويصبح من الصعب فصلهما، ممّا يضع البشر وكلّ أشكال الحياة على السواء، في موقع بيئيّ متقلقل.

3- طبقة رقيقة من سطح الأرض تدعم الحياة، تمتدّ بضعة كيلومترات ضمن الغلاف الجويّ، وكذلك إلى الفتحات الهيدروحراريّة في أعماق المحيطات، وهي نظام بيئي عالميّ مكوّن من الأحياء جميعها على اختلافها، ومن العوامل غير الحيّة التي تستمدّ منها الطاقة والمغذّيات. المترجمة

كي نفهم دور الأديان في تدمير التوازن البيئيّ، لا بدّ من أخذ مناطق النفوذ بعين الاعتبار.

1- الأرض كنظام بيئيّ

النظام البيئيّ هو مجتمع ديناميكيّ من الكائنات الحيّة، التي تتفاعل مع الموادّ غير العضويّة الموجودة في الأرض. عادة، تنفصل الأنظمة البيئيّة بعضها عن بعض بحدود معيّنة، لكنّ العلماء عموماً متّفقون على أنّ الأرض بأكملها، هي عبارة عن نظام بيئيّ واحد. يدرس علماء البيئة أموراً من قبيل إنتاجيّة التربة، ودورة المغذّيات (كيف تتمّ معالجة المعادن وطاقة الشمس، عبر شبكة الكائنات الحيّة)، ومدى توازن واستدامة وظائف الأرض التي تهب الحياة للكائنات.

تلعب النباتات دوراً هامّاً في شبكة الحياة، لأنّها تقوم بالتركيب الضوئيّ، وتحوّل أشعّة الشمس إلى طاقة قابلة للاستخدام. من ثمّ، تستعمل الحيوانات العاشبة تلك الطاقة عندما تتغذّى على النباتات، وكذلك الحيوانات اللّاحمة التي تتغذّى بدورها على تلك العاشبة. فضلاً عن أنّ النباتات تستهلك غاز ثاني أكسيد الكربون، وتطلق غاز الأكسجين، وبالتالي تزوّد الحياة على الأرض بهواء صالح للتنفّس. باختصار، تلعب النباتات دوراً محوريّاً في المحيط الحيويّ.

لا يقلّ التراب أهمّيّة عن النباتات، فنحن نعرف اليوم أنّ الأرض الخصبة التي يبذل الرجال قصارى جهدهم للاستيلاء عليها، أشبه في الواقع بـ «ميغالوبوليس»[4] شاسعة من أشكال الحياة المجهريّة، التي يتداخل بعضها مع بعض. في كتابه «الإرث»، يعرّفنا العالِم والناشط البيئيّ الكنديّ ديڤيد سوزوكي، إلى سكّان التراب:

«ضمن ما يعادل ملعقة طعام من التراب، سنجد ما بين مئات الملايين إلى ثلاثة مليارات جرثوم، وحوالي المليون من الفطور والخمائر. هناك ما يشبه

4- Megalopolis: تدلّ على سلسلة من المدن المتجاورة المتّصلة، يتجاوز مجمل عدد سكّانها عشرة ملايين نسمة. المترجمة

حديقة حيوان من الكائنات المتنوّعة في التراب، بدءاً من الكائنات المجهريّة، كالفطريّات، البكتريا، الخمائر، الأوالي[5]، الروتيفرا[6]، والديدان الحَلَقيّة، مروراً بتلك التي نراها بالعين المجرّدة كلّ يوم، كالنمل الأبيض والدويبات، إلى أخرى أكبر حجماً كقمل الخشب، دودة الأرض، الخنافس، الحلزون، اليرقات، والنمل. وأخيراً، الكائنات التي تبدو عملاقة بالمقارنة مع ما سبق، كالخلد والأرنب والقوارض الأخرى. تقوم المجموعات على اختلافها، بتقديم خدمات متنوّعة تحافظ على حياة التربة، فالبكتريا والفطريّات تحلّل المواد العضويّة إلى بقايا، تبتلعها الديدان ثمّ تتبرّزها على هيئة موادّ تغذّي الأرض، كما أنّ تلك الديدان تتجوّل ضمن مقاطع شاسعة من التربة، وتسمح بالتالي للهواء والماء والموادّ العضويّة بالتغلغل إلى تركيبها».

كلّما تعمّقنا بدراسة علوم البيئة أكثر، فهمنا كيف تعمل مستويات النظام البيئيّ ضمن مجتمعات الكائنات الحيّة المختلفة، ومدى أهميّتها لاستمرار الحياة، كما أنّنا بدأنا مؤخراً بإدراك التأثيرِ المدمّر، الذي تخلّفه النشاطات البشريّة على النظام البيئيّ، فعندما يتضرّر أحد أجزاء هذا النظام، ستمتدّ التداعيات الناجمة عن ذلك إلى بقيّة الأجزاء.

قبل عدّة قرون، تنبأ عالم الاقتصاد البريطانيّ توماس مالتوس (1766–1834) –الذي أثّر تأثيراً عظيماً على أفكار داروِن– بأن تعداد أفراد مستعمرة كائن حيّ ما، سيبقى متوازناً بفعل البيئة. عندما يصبح عددُ الأفراد أكبر ممّا تسمح به الموارد المتوفّرة، سيتناقص حكماً بسبب المجاعة ونضوب الموارد، من ثمّ يبدأ النظام البيئيّ الذي يعيش فيه بالانتعاش والتجدّد.

عبر السنين، أثبتت نظريّة مالتوس صحّتها إلى حدّ بعيد، مع استثناء

5- Protozoa: كائنات وحيدة الخليّة تنتمي إلى صفّ حقيقيّات النوى. لها أشكال وأنواع عديدة (كالأميبا والبراميسيوم)، تعيش إمّا حياة حرّة أو طفيليّة، وتتغذّى على الكائنات الحيّة المجهريّة أو البقايا العضويّة. المترجمة

6- Rotifera: حيوان مجهريّ عديد الخلايا، يمتلك جوفاً وجهازاً هضميّاً له فم وشرج. أنواعه عديدة، ويعيش في الماء أو التربة الرطبة. المترجمة

وحيد هامّ: رغم أنّ البشر محكومون بالبيولوجيا، لكنّ مقدرتهم المتطوّرة على التعلّم وابتكار التكنولوجيا، كانت عاملاً غَيَّر قواعدَ اللعبة في العالم البيولوجيّ. تكيّفُ الكائنات الأخرى محدّدٌ من حيث المبدأ بالبقاء التفضيليّ، على عكس الإنسان الذي ابتكر تكنولوجيا تسمح له بالتكيّف خلال فترة وجيزة، فعوضاً عن الموت جوعاً على سبيل المثال، انفرد الإنسان بقدرته على التحكّم بإنتاج الغذاء، وذلك باللجوء إلى وسائل عديدة كالزراعة وتدجين الحيوانات.

قدّمت التكنولوجيا مزايا، على مختلف الأصعدة: اخترع البشر اللقاحات، عوضاً عن تطوير مناعتهم للأمراض ببطء جيلاً بعد جيل، واخترعوا الرماح والبارود والأسلحة النوويّة عوضاً عن تطوير أعضاء أجسادهم ببطء كأسلحة، وتعلّموا كيف يستعملون النار ويخيطون الثياب عوضاً عن تطوير فراء سميك، وهكذا دواليك. بالتالي، ازداد عدد البشر حول الكوكب دون كوابح، وبتسارع صاعق. كي نأخذ فكرة عن أبعاد هذا النمو، إليكم الاقتباس التالي من «القمّة العلميّة حول تعداد السكّان في العالَم»: «لقد استغرق جنسنا مئات آلاف السنين، كي يبلغ تعداداً مقداره عشرة ملايين نسمة، قبل عشرة آلاف عام فقط. ارتفع هذا الرقم إلى مئة مليون نسمة تقريباً قبل حوالي ألفي عام، وإلى مليارين ونصف المليار بحلول عام 1950. خلال فترة أقصر من متوسّط عمر الفرد الواحد، تضاعف الرقم السابق، وتخطّى عتبة خمسة مليارات ونصف المليار بحلول عام 1993».

في آذار 2012، ارتفع عدد سكّان الأرض إلى سبعة مليارات، وسيتضاعف هذا الرقم عدّة مرّات في المستقبل القريب. يحذّر علماء من مختلف الاختصاصات، بأنّ هذا النمو الأسّي[7] الذي لا يخضع إلى أيّ

7- في النموّ الأسّي تزداد قيمة المتغيّر المدروس بالتناسب مع قيمته الحاليّة، كأن يتضاعف باستمرار مثلاً، كما في المثال المشهور عن مزرعة الأرانب، التي يزداد عدد الأرانب فيها بمقدار الضعف كلّ شهر: نبدأ بأرنبين في الشهر الأوّل، ثمّ 4 في الشهر الذي يليه، ثمّ 8 ثمّ 16، ثمّ 32... وهكذا دواليك. المترجمة

ضوابط، سيستنزف الموارد الحيويّة المتاحة. البشريّة -رغم عبقريّتها- ليست منيعة على العمليّات المالتوسيّة. لقد نجحنا بالتحكّم بموارد العالم الطبيعيّة، لكنّ المحيط الحيويّ محدود، وكذلك موارده التي تهبنا الحياة. في عام 1798، توصّل مالتوس إلى نبوءة متشائمة عن مستقبل البشريّة، في كتابه الهامّ «مبادئ التكاثر السكّانيّ»:

«يفوق التكاثرُ السكّانيّ، قدرةَ الأرض على إنتاج الموارد اللّازمة لبقاء البشر. لذلك، لا بدّ أن يُبتلى الجنس البشريّ بشكل ما أو بآخر، بالموت قبل الأوان. رذائل هذا الجنس هي عوامل فعّالة، قادرة على إبادة السكّان. إنّها طلائع جيش عظيم من الدمار، غالباً ما تنهي المهمّةَ المخيفة بنفسها. إن فشلتْ في حرب الإبادة تلك، ستتقدّم عوضاً عنها تشكيلة مرعبة من المواسم الفقيرة، والأوبئة، والأمراض، والطاعون، وتحصد حياة الآلاف، بل عشرات الآلاف من البشر. إن لم ينجح ذلك، ستقع مجاعات هائلة محتومة، وبضربة واحدة قويّة منها، سيتناقص تعداد البشر إلى مستوى يتلاءم مع موارد الغذاء المتوافرة في العالم».

حتّى الآن، نجونا من توقّعات مالتوس المأساويّة، فقد سمحت لنا التكنولوجيا بمواكبة متطلّبات أعداد أضخم فأضخم من السكّان، لكنّ هذا أضاف عبئاً ثقيلاً متزايداً على المحيط الحيويّ. أساليبنا الزراعيّة خرّبت دورات النتروجين والفسفور، ولوّثت التربة والأنهار والبحيرات والمحيطات، وقضت على الأجناس الموجودة فيها. إدماننا على استخدام الوقود الحيويّ، أدّى إلى انبعاث مليارات الأطنان من الكربون، وانتقالها من الأرض إلى الغلاف الجويّ، فارتفعت حرارة الكوكب إلى درجة بدأ معها جليد القطبين بالذوبان. حاجتنا التي لا تشبع إلى المساحة، تسبّبت بقضم مساحات هائلة من الغابات، فخسرت الكثير من الكائنات الحيّة موطنها الطبيعيّ. الأهمّ من هذا وذاك، هو أنّ استهلاكنا مسؤول عن انقراض خمسين ألف جنس، من أجناس الكائنات الحيّة سنوياً. نحن نقطع الغابات، كي نشيّد المولات، والطرقات السريعة، ومواقف ركن السيّارات، والضواحي التي لا

توقّف عن التمدّد. نحن نخنق الكوكب حرفياً بالإسمنت، ممّا يعني أنّنا نقوم تدريجياً بإبادة النباتات التي توفّر لنا الهواء اللّازم للتنفّس. بأخذ كلّ العوامل السابقة مجتمعة، نجد أنّ سلوكيّاتنا الاستهلاكيّة كرئيسيّات، تمزّق شبكة الحياة التي ننتمي إليها، والتي نعتمد عليها كلياً من أجل بقائنا.

II- التنافس بين الذكور واستهلاك الموارد

يتزايد تعداد السكّان حول العالم، بتأثير من نموّ الاقتصاد العالميّ المعقّد، الذي تُلبّى متطلّباته باستخلاص الموارد من البيئة الطبيعيّة، لإنتاج البضائع والخدمات. لهذه الأسباب ولغيرها، النموّ الاقتصاديّ بشكله الحاليّ يهدّد الاستدامة البيئيّة. الهيئات التي تنظّم الاقتصاد، كالحكومات والقطاع الماليّ والشركات العابرة للقارّات، تتمسّك عموماً بالنموّ الاقتصاديّ، وتعارض أيّ تغيير على أنماط الإنتاج والاستهلاك القائمة. نظريّاً، الفلسفةُ التي تُبنى عليها السياسة الاقتصاديّة، إمّا أن تسرّع تأثيرَ النموّ الاقتصاديّ المدمّر للبيئة، أو أن تبطّئه، لكنّ نتائجها تصبح سلبيّة عندما تتأثّر بسيكولوجيا التنافس على التزاوج بين الذكور، وكي نفهم هذا، لا بدّ أن نحلّل كيف تطوّرت الاستراتيجيّات الذكوريّة النموذجيّة.

طيلة تاريخ البشريّة، كلٌّ من الحروب والإبادة جعل بقاء الذكور على قيد الحياة أمراً عسيراً. بالتالي، فهمُ الضغوطاتِ التي تولّد العنفَ الذكوريّ، سيساعدنا على إلقاء الضوء على المنطق الكامن خلف أنماط الاستحواذ على الموارد، فمن الحصافة أن يتبع الذكر في عالَم غير آمن كعالمنا، استراتيجيّةً تطوّريّة تعتمد على الاستحواذ على أكبر عدد ممكن من مناطق النفوذ، وإنجاب أكبر عدد ممكن من الأطفال، قبل أن يقتله ذكر آخر، آخذين بعين الاعتبار أنّ مناطق النفوذ توفّر الموارد الضروريّة للبقاء (الطعام و/ أو الثروة التي تضمن الحصول عليه دائماً)، والتي يستغلّها الرجال كوقود يغذّي استراتيجيّة «العدد» الشرهة، التي يتبعونها في التكاثر.

كي لا نلقي باللوم كلّه على الرجال، سأذكّر بالأبحاث التي أظهرت أنّ المرأة في مختلف الثقافات -سعياً إلى البقاء، والمرتبة، والاستقرار لها

ولأطفالها- تولي أهمّيّة كبرى، لاستحواذ الشريك المحتمل على الموارد. في بيئة يكون عددُ الذكور فيها أكبر من عدد الإناث، ويسود بينهم بالتالي تنافس أكبر على التزاوج، يميل الرجال إلى الادّخار بنسبة أقلّ، والاقتراض بنسبة أعلى، لتمويل نفقات فوريّة ضخمة، أي أنّهم يضحّون بمكسب ماليّ أضخم محتمل في المستقبل، كي يربحوا مكاسب فوريّة أصغر. بعبارة أخرى، كلّما ازداد معدّل التنافس على التزاوج بين الذكور، أصبح الرجال مستعدّين لتحمّل مخاطر ماديّة أكبر، بغية الاستحواذ على موارد قد ترفع معدّل نجاحهم في التزاوج على المدى القريب. فضلاً عن ذلك، عندما تكون نسبة الذكور أعلى، تتوقّع النساء أن يقوم الرجال بإنفاق مبالغ ماليّة أكبر، سعياً لكسب حظوتهنّ. ينجح الرجال المهيمنون أكثر من غيرهم بالاستحواذ على الموارد وإنفاقها، لذلك فهم أكثر كفاءة على صعيد المنافسة على التزاوج. نظريّاً، لا يوجد سقفٌ للفوائد التي تتيحها لهم الموارد العضويّة أو وسائطها، كالثروة الماديّة، أو المرتبة، أو السلطة... إلخ، على صعيد النجاح بالتكاثر، ولا للحوافز التي تدفعهم لتوسيع نموّهم الاقتصاديّ أكثر فأكثر.

عندما ننتهج المقاربة السابقة ذاتها على مستوى الأمم، سنكتشف صلات واضحة بين التنافس الذكوريّ، واستنزاف البيئة. درس الباحث برايان هَسْتد، كيف تؤثّر الثقافة الوطنيّة على التطوّر الاقتصاديّ المستدام، واكتشف في دراسته تلك التي شملت دولاً من مختلف أنحاء العالم، وجودَ أبعاد ثقافيّة تتنبأ بالعلاقة بين السياسة الاقتصاديّة، والاستدامة البيئيّة. تفاصيلُ بحثه مهمّة للغاية، خاصّة على صعيد مُتغيّرات التوقُّع، التي تردّد صدى إيديولوجيّات الهيمنة الدينيّة على ما يبدو. أوّلاً، درس هستد تأثير القيم الجندريّة على السياسة البيئيّة، باستخدام بُعْدٍ ذكوريٍّ / أنثويٍّ، يفرّق ما بين القيم الذكوريّة القائمة على التنافس والطموح والسلطة والفلسفة الماديّة، والقيم الأنثويّة التي تركّز على أهمّيّة العلاقات ونوعيّة الحياة، فوجد أنّ القدرة الاجتماعيّة والمؤسّساتيّة للعمل على استدامة البيئة، تتناقص في البلدان التي تميل لاعتناق القيم الذكوريّة، مقارنة مع تلك التي تميل إلى القيم الأنثويّة.

فحص هستد أيضاً «مسافةَ السُلطة»، وهي مفهوم يشير إلى «أيّ مدى يعتقد الأفرادُ الأقلّ نفوذاً في المؤسّسات والمنظّمات ضمن بلد ما، بأنّ السلطة موزّعة بشكل غير متكافئ، وإلى أيّ مدى يقبلون بذلك»، ووجد أنّه في الدول التي تكون فيها «مسافة السلطة» مرتفعة، ينخفض احتمال اتّباع سياسة اقتصاديّة بيئيّة مستدامة.

لا يفاجئنا أنّ التوجّهات الدينيّة في مجتمع معيّن، تختلف باختلاف «مسافة السلطة»، فالأديان في المجتمعات ذات «مسافة السلطة» المنخفضة، تؤكّد على المساواة بين المؤمنين، أمّا المجتمعات ذات «مسافة السلطة» المرتفعة، فتتميّز بوجود تراتبيّة دينيّة هرميّة. من الجدير بالذكر أنّ المجتمعات التي تسود فيها القيم الأنثويّة، تنتخب عدداً أكبر من النساء لتولّي المناصب السياسيّة، كما تميل الأديان فيها إلى التركيز على البشر، لا على الله أو الآلهة. هذا يوحي بأنّ القيم الأنثويّة، تترافق بمبادئ دينيّة وسياسيّة تتمحور حول المساواة، لا الهيمنة. تذكّروا أنّ الأديان تستند إلى إله ذكر مهيمن، يحثّ الرجال بدورهم على الهيمنة على الأرض، وتسخيرها لمصلحتهم (سفر التكوين 1: 28)، وعلى فرض رهبتهم على الكائنات الحيّة الأخرى كلّها، كي تخضع لهم خوفاً منهم: «وَلْتَكُنْ خَشْيَتُكُمْ وَرَهْبَتُكُمْ عَلَى كُلِّ حَيَوَانَاتِ الأَرْضِ وَكُلِّ طُيُورِ السَّمَاءِ، مَعَ كُلِّ مَا يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، وَكُلِّ أَسْمَاكِ الْبَحْرِ. قَدْ دُفِعَتْ إِلَى أَيْدِيكُ» (سفر التكوين 9: 2). بالتالي، يبدو أنّ السيكولوجيا الذكوريّة، بتأثيرها على الأديان التي ترسّخ سياسات الدول، تمجّد فروقات السلطة بين الرجال وبقيّة العالَم الطبيعيّ.

يجادل هستد أيضاً، بأنّ احترامَ السلطات في الدول ذات مسافة السلطة المرتفعة، يكبح النقاش حول القضايا الاجتماعيّة، بما فيها تلك المتعلّقة بالبيئة. مسافة السلطة المرتفعة ترتبط بـ«الأبويّة» paternalism، «وهي نظام يقدّم فيه أصحاب السلطة الخدماتِ للمرؤوسين، لقاء ولائهم»، وفي مثل هذه الأنظمة، «لا تُتّخَذ القراراتُ بناء على مصلحة المجتمع، بل بما يحقّق التوازنَ بين الخدمات المُقدَّمة للمرؤوسين، والولاء للرؤساء». بعبارة

أخرى، الأنظمة التي تعتمد على استمرار التحالف مع المهيمنين، تترافق مع تفاوت واسع في السلطة، ومع استنزاف البيئة.

بيّنت أبحاث أخرى، أنّ القدرة على تحقيق الاستدامة البيئيّة تتناقص في البلدان التي تمتاز بـ«مسافة سلطة» عالية، وسيادةِ القيم الذكوريّة، وانخفاضِ مستوى التعليم. تجادل تلك الأبحاث أنّ العلاقة السلبيّة ما بين مسافة السلطة والبيئة، مرتبطة بحقيقة أنّ استغلال السلطة (أو تسخيرها لغايات غير قانونيّة)، يتمّ دون أن يعترض عليه الأفراد الأدنى مرتبة. ليس صعباً أن نفهم كيف يقدّم التعليم قاعدة فكريّة للأفراد، كي يتَحَدّوا مسافَةَ السلطة، وأنّ الأديان التي تحرّم الشكّ -بالترويج لمفاهيم من قبيل «المعرفة المحرّمة»- قد تُستَغَلُّ لقمع أيّ اعتراض شعبيّ على عدم تكافؤ توزيع الموارد، أو استخدامها بطريقة غير عادلة.

فسّر الباحثون تأثير اعتناق القيم الذكوريّة كما يلي: «يشدّد الناس في الثقافات الأنثويّة على أهمّيّة القيم -كما تفعل المواطنات الإناث النموذجيّات- إذ إنّهم يؤكّدون على أهميّة العناية بالآخرين، والتعاون، ونوعيّة الحياة، أكثر من اهتمامهم بتحقيق الأهداف الفرديّة، ويميلون إلى الاعتناء بالموارد العامّة كالبيئة، وهذا أمر في غاية الأهمّيّة من منظور المصلحة العامّة لبقيّة أفراد المجتمع». أصحاب هذه النظريّة يردّدون شعوراً تعبّر عنه الحركة النسويّة البيئيّة Ecofeminism، التي يجادل أنصارها كالتالي: بما أنّ المرأة والبيئة كلتيهما تعرّضتا «للاستعمار والاستغلال» على يد الذكر المهيمن، لذلك فهما قادرتان بسهولة على تأسيس شعور بالتوحّد مع الطبيعة، وعلى تعزيز هذا الشعور، نظراً لأنّهما تخلقان الحياة وتحافظان عليها. المجازات الأنثويّة عن الأرض دامت مئات السنين، وهو ما يدعم النظريّة السابقة، على الأقلّ من منظور التوقّعات الجندريّة التي تطرحها. تكتب الفيلسوفة النسويّة إيفا فيدر كيتاي باقتدار، عن هذه المقارنات: «في تلك المجازات، يتواسط الرجل علاقته بالعالَم من خلال إعادة تقديمه على أنّه امرأة، من ثمّ ينقل مجازيّاً علاقته بالمرأة إلى علاقته مع العالَم. العديد من

تلك المجازات عابرٌ للثقافات، وعابرٌ للتاريخ، إذ يتحدّث الرجل عن اعتلاء الجبل كما لو أنّه يعتلي امرأة، أو عن اغتصاب الأرض، أو عن محراثه الذي يخترق الأرض الأنثى، كي يبذر بذرته هناك».

إن صحّ ذلك، أي إن كان الرجال فعلاً يؤطّرون علاقتهم بالبيئة الطبيعيّة معرفيّاً بأسلوب مجندر، إذن يمكننا أن نستهدف الذكورة النمطيّة، عندما نحاول أن نعكس التأثير المدمّر للبيئة، الناجم عن الاقتصادات البشريّة، وبما أنّ الأديان المرتكزة على التنافس الذكوريّ تؤثّر بدورها على البيئة، لذلك يمكن أن نستهدفها بالحلول أيضاً.

باختصار، خَلُصَت الأبحاث أعلاه إلى أنّ المجتمعات التراتبيّة التي يقودها الذكور، تميل لاتّباع أساليب تخرّب النظامَ البيئيّ حول العالَم. الآلهة التي تشدّد على السلطة والتحكّم والطاعة العمياء، تنتهج بدورها سلوكيّات تؤذي النظام البيئيّ العالميّ، لأنّها تشجّع الهيمنة على الطبيعة باتّباع أساليب مخرِّبة. هذا لا يعني أنّ الأديان تدمّر البيئة بشكل مباشر، لكن عندما تندمج الإيديولوجيّة المبنيّة على التنافس بين الذكور مع الدِين، يصبح الفصل بينهما صعباً، خاصّة عندما تتمّ حماية السلطة التراتبيّة (الذكوريّة) بأعراف تحرّم التشكيك فيها.

III- جشع الأديان: رؤية بديلة

بعض العقائد الدينيّة، مثل «هيمنة الإنسان»، و«صورة الربّ»، تنتهج مقاربة جذريّة صريحة بالهيمنة على العالَم الطبيعيّ. عقيدة «هيمنة الإنسان» تدّعي أنّ الله منحَ الرجلَ الحقّ بالهيمنة على العالم الطبيعيّ، واستغلالِ موارده، فأمره بما يلي: «وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ» (سفر التكوين 1: 28). عقيدة «صورة الربّ» تمنح الرجل حقّاً إلهيّاً بالاستبداد، باعتباره الكائن الوحيد في المحيط الحيويّ حول العالَم، الذي خُلِقَ مباشرة على صورة الربّ ومثاله. كلتا العقيدتين السابقتين تؤكّدان على مقاربة ذكوريّة نمطيّة للطبيعة، قوامها الاستهلاك

والسيطرة، لذلك لا مفرّ من أن تقدّسا فلسفة اقتصاديّة لا تهتمّ بالاستدامة. في نهاية المطاف، ستؤدي هذه الفلسفة لا محالة إلى الانفجار السكّانيّ.

الغزو الإسبانيّ لأمريكا، يقدّم مثالاً عن فلسفة السيطرة الاستهلاكيّة تلك. في عام 1598، قام الفاتح الإسبانيّ خوان دي أونات -ذاك الذي قطع أرجل خصومه الهنود الذكور في آكوما- بالاستيلاء رسمياً على أراضي نيو مكسيكو، مدّعياً أنّه يستحوذ عليها باسم الربّ الذكر المهيمن، وأسبغ على نفسه بالتالي مرتبة الربّ ذاتها، معلناً أن سلطة الموت والحياة بيده، وبسط ملكيّته على كلّ الموارد الموجودة في المناطق التي احتلّها:

«أعلنُ حيازتي وامتلاكي للأراضي كلّها، حيازة حقيقيّة وفعليّة، مدنيّة وطبيعيّة، مرّة واثنتين وثلاثاً، مرّة واثنتين وثلاثاً، مرّة واثنتين وثلاثاً، وبعدد المرّات التي يحقّ لي بها، أعلنَ أنّني أمتلك ريو دِل نورتي دون استثناءات ودون حدود، بما تحويه من جبال، أنهار، وديان، مروج، مراعٍ، ومياه. باسم الربّ، أعلنُ أيضاً ملكيّتي لكلّ الأراضي الأخرى، والقرى والمدن والبلدات والقلاع والبيوت الحصينة وغير الحصينة، غير المشادة في ممالك ومقاطعات نيومكسيكو، ولكلّ المناطق المجاورة والمتاخمة لها، وتلك التي قد تؤسّس في المستقبل، هي وكلّ ما تحويه من جبال، مياه، أنهار، مناطق صيد السمك، مراع، وديان، مروج، ينابيع، مناجم الذهب والفضّة والنحاس والزئبق والقصدير والحديد والأحجار الكريمة، الملح، الشَبَّة[8]، والبشر، وكلّ المواد الأخرى التي تنتجها تلك الأراضي، من أيّ نوع كانت وبأي كمّيّة أو حالة أو نوعيّة، إضافة إلى الهنود المحليّين في كلّ مقاطعة، وفي جميع المقاطعات. أعلن عن امتلاكي السلطات المدنيّة والقضائيّة، وسلطة الموت والحياة على السامي وعلى الوضيع، بدءاً من أوراق الأشجار في الغابات إلى أحجار ورمال الأنهار، ومن أحجار ورمال الأنهار

8- الشبّة أو حجر الشبّ alum: مركّب كيماوي يتكوّن من كبريتات البوتاسيوم والألمنيوم، معروف باستعمالاته العديدة مثل قطع النزيف، منع التعرّق، وإحداث تقبّض في المهبل. المترجمة

إلى أوراق الأشجار في الغابات... أيّها الصليب المقدّس، يا بوّابة الفردوس المقدّسة، ومذبح التضحيّة الوحيدة والأساسيّة بدم ولحم ابن الربّ، يا طريق القدّيسين ورمز مجدهم، افتحْ أبوابَ السماوات لأولئك الكافرين، أنشِئ الكنائس حيث يمكن أن يُقدَّم دم ولحم ابن الربّ، افْتحْها كي نسلك طريق السلام والأمان لتنصيرهم، وهَبْنا أنا وجلالة الملك حيازةَ هذه الممالك والمقاطعات بأمان. آمين».

لم يكتف الإسبان بالاستيلاء على ثروات «العالَم الجديد»، بل استخرجوها وشحنوها إلى إسبانيا بكمّيّات هائلة، فموّل التاج الإسبانيّ بواسطتها إقامة المزارع والمستعمرات، وتشييد الكنائس والكاتدرائيّات عبر الأمريكتين. فضلاً عن ذلك، استغلّ الغزاة النساء المقيمات في تلك الأراضي، فخلقوا قارّة بأكملها من الخلاسيين، أي أولئك الذين تمتزج في عروقهم دماء الإسبان والهنود.

من الجدير بالذكر، أنّ الإسبان لم ينفردوا بالجشع. الحضارات الكبرى التي أخضعوها، بما فيها المايا والإزتك والإنكا، كانت أيضاً مجتمعات إمبرياليّة يحكمها رجال مستبدّون، يُعَدُّون بمنزلة آلهة (أي أنّها مجتمعات ذات «مسافة سلطة» عالية)، قاموا بدورهم باحتلال أراضي المجتمعات الأضعف، ونهبوا ما تحويه من الذهب واليَشْم والذرة والشوكولاتة والفواكه والطرائد والنساء، فاستحوذوا على ثروات هائلة، لا تتناسب مع الفُتات الذي رموه لأتباعهم، من قمّة معابدهم الحجريّة. آلهة الحرب الذكور في مجتمعات أمريكا ما قبل وصول كولمبوس، أسبغوا الشرعيّة على قيام الحكّام بنهب ثروات الأرض، تماماً كما فعل الإله المسيحيّ من أجل الإسبان، ولو امتلكتْ حضاراتُ أمريكا الوسطى التكنولوجيا اللّازمة، لربّما قامت بتدمير البيئة اليوم، ووجّهت البلدوزرات وفقاً لتعاليم آلهتها الذكور.

عندما اقتحم كورتيز مدينة مكسيكو، وهدم المعابد الإزتكيّة واستبدلها بالكاتدرائيّات، قام أيضاً باستبدال حكّام الإزتك السياسيّين بقادة الكنيسة الكاثوليكيّة، ونصّب إلهاً ذكراً مهيمناً جديداً على المكسيكيّين. تحت راية

الإله المسيحيّ، ترك كلٌّ من كورتيز والكنيسة إرثاً ضخماً في مناطق شاسعة من القارّة، يسري على حدّ السواء في جينات العِرق الخلاسيّ، وفي أذهان من اعتنقوا الكاثوليكيّة. اليوم، تملك الكنيسة الكاثوليكيّة مساحات من الأراضي، أكبر ممّا تملكه أيّ شركة متعدّدة الجنسيّات في العالم. فوق تلك الأملاك الشاسعة، يعيش حاليّاً جيش من البشر، لا يطلقون على أنفسهم اسم «أبناء الربّ» عبثاً، وهذا كلّه لم يكن ليتحقّق لولا القوّة الدافعة المتجسّدة بسيكولوجيا الكنيسة الذكوريّة، المجبولة بالسلطة والطموح واشتهاء الثروات الماديّة.

بلا شكّ، لعبت تعاليم الكنيسة التي تحرّم منعَ الحمل، وتستغلّ استراتيجيّة «العدد» التطوّريّة الكلاسيكيّة، دوراً مهمّاً. هل ينبع هذا التحريم من اعتقاد الكنيسة، بأنّ الحياة تبدأ حقّاً في لحظة الإلقاح؟ كالعديد من الرجال المهيمنين الذين سبقوهم، حوّل قادة الكنيسة امتيازَ التكاثر إلى قانون، فحرّموا استعمال موانع الحمل، كي يضمنوا حصولهم على السلطة والذريّة والنموّ الاقتصاديّ. اليوم، مدينة مكسيكو هي المدينة الأكثر اكتظاظاً في العالم الغربيّ، والأرض تحتها ترزح تحت تعداد سكّانها الهائل. كما أنّ الحوض الذي بُنيَت عليه يغور حرفيّاً، بسبب استنزاف المياه الجوفيّة التي تجري تحته. البرازيل، وهي أمّة كاثوليكيّة ورعة أخرى، تضمّ مدناً تعاني من الانفجار السكّاني المرعب، وارتفاع معدّلات الجرائم العنيفة، والفقر المدقع، فضلاً عن أنّها تدعم سياسة اقتصاديّة تجتثّ غابات الأمازون المطريّة (التي تولّد معظم الأكسجين اللّازم لتنفّس الكوكب)، لإطعام مواطنيها الذين يتزايدون باستمرار. بمساعدة الأديان، تدفع السيكولوجيا الذكوريّة الجنسَ البشريّ باطّراد إلى النهاية المالتوسيّة.

التنافس بين الذكور، الذي يتداخل فيه الدِين والاقتصاد معاً، لم يبدأ مع الغزوات الإسبانيّة، بل كان موجوداً خلال مختلف الحقب التاريخيّة. عندما تجتمع هذه العوامل الثلاثة معاً، تنتج معادلة تسبّب الانفجار السكّانيّ. عقيدة «القَدَر المتجلّي» Manifest Destiny على سبيل المثال،

صاغت سياسة الحكومة الأمريكيّة التوسعيّة، خلال سعيها لاحتلال المناطق الغربيّة من القارّة الأمريكيّة الشماليّة. في مقال نشرته صحيفة ديموكراتيك ريڤيو Democratic Review عام 1845 (ورد فيه مصطلح «القدر المتجلّي» للمرّة الأولى)، اقترن التوسّع غرباً مع «تحقيق قدرنا المتجلّي بالانتشار في القارّة التي وهبتها السماء لنا، كي يتطوّر شعبنا المليونيّ الذي يتضاعف عدده سنويّاً، تطوّراً حرّاً»، والسماء هنا تشير بالطبع، إلى يد الربّ التي أرشدتهم.

فضلاً عن ذلك، تنشط الأديان الإبراهيميّة حتّى اليوم، في صياغة سياسة تدعم حقّ الذكر بالتكاثر. في عام 2012، أصدر الرئيس باراك أوباما قانوناً يقضي بأن تقوم شركات الضمان الصحيّ، بتغطية نفقات وسائل منع الحمل. أثار هذا القانون احتجاج الطوائف الدينيّة الأمريكيّة، ممّا أدّى إلى انعقاد جلسة استماع في الكونغرس، تناقش مدى انتهاك ذلك القانون لمبادئ الحريّة الدينيّة. رغم التأثير الواضح لسياسة منع الحمل على حياة النساء، كانت لجنة الكونغرس المذكورة مؤلّفة من قادة دينيّين ذكور فقط، بمن فيهم أسقف كاثوليكيّ، وقسّ لوثريّ، وبروفيسور إنجيليّ وآخر معمدانيّ متخصّصان بالفلسفة الأخلاقيّة، وحاخام يهوديّ. رفض رئيس اللجنة دارِل إيسا طلباً بانضمام امرأة إليهم، فغادرت عضوة الكونغرس المُنتدَبة كارولين مالوني جلسةَ الاستماع، بعد أن صرّحت: «نظرتُ إلى اللجنة، ولم أرَ عضواً واحداً يمثّل عشرات ملايين النساء في هذا البلد. أين النساء؟!».

من المهمّ أن نؤكّد مرّة أخرى، على أن مواقفنا السياسيّة العامّة تتأثّر بشدّة بالإيديولوجيّات المرتبطة ببيولوجيا التكاثر، حتّى ولو لم يكن هذا التأثير مباشراً، فإمّا أن تدفعنا إيديولوجيّاتنا قدماً بسرعة فائقة، أو أن تحرفنا إلى مسار مليء بالمعاناة. صورة الله كذكر مهيمن، التي أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من فلسفة الأديان الإبراهيميّة، تنبع من الفائدة التي تقدّمها. قصّة هذا الربّ بدأت في عصر قام الرجال الأقوياء، بارتكاب المذابح والسرقات

والاغتصاب، أثناء سعيهم إلى السلطة، وفي هذه البيئة الوحشيّة، من المفيد وجود إله ذكر قويّ يحميك في المعركة، ويكافئك بالنساء، ويسخّر كلّ أشكال الحياة على الأرض لك، بوصفها موارد تستغلّها في استراتيجيّات التكاثر على المدى القصير.

يتفرّد البشر بأنّهم خُلِقوا على صورة الله ومثاله، لذلك انفصلوا عن بقيّة أشكال الحياة. هذا التباعد كما مرّ معنا في دراستنا لسيكولوجيا داخل الجماعة / خارج الجماعة، سهّل علينا تدمير الطبيعة، لكنّ التقسيمات التي نفرضها ما بين أنفسنا والعالَم الخارجيّ، هي في الحقيقة تقسيمات زائفة، والإيديولوجيّات التي تروّج لها غير مستقرّة على المدى البعيد. فيما يلي اقتباس من نقاش ديڤيد سوزوكي وهيئة «الأمم الأولى» للسكّان الأصليّين التي يعمل معها في كندا، والتي تعتنق فلسفة أخلاقيّة بدأ العلم الحديث بالتركيز عليها: لقد بيّنوا لي أنّه لا وجود «للبيئة» هناك، و«نحن» هنا. لقد خُلِقنا من الأرض، ومن الهواء الذي نتنفّسه، ومن الماء الذي نشربه، ومن الطعام الذي نأكله، والشمس هي مصدر الطاقة في أجسامنا. نحنُ البيئة، لذلك كلّ ما نفعله بالبيئة ينعكس علينا مباشرة.

هذه الإيديولوجيا، تتناقض تناقضاً صارخاً مع «هيمنة الإنسان»، و«صورة الربّ». على الرغم من أنّ هيئة الأمم الأولى مصيبة في إدراكها، بأنّ أشكال الحياة على الكوكب تعتمد بعضها على بعض اعتماداً حقيقيّاً، لكنّني أشكّ بأن هذا النوع من المشاعر، سيترسّخ في سيكولوجيّتنا الجمعيّة بطرق علمانيّة فقط. العواطف تحرّك البشر، لكنّها تنضوي ضمن نطاق الدِين بشكل رئيسيّ، لا ضمن نطاق التجريد العلميّ والفلسفيّ البارد. نظراً للدمار المتزايد في المحيط الحيويّ، وانتشار العنف على نطاق واسع، لا بدّ من اعتناق عقيدة دينيّة وأخرى علمانيّة في آن واحد، تدرك كلٌّ منهما اعتماد الكائنات الحيّة بعضها على بعض، بغية الحفاظ على استدامة الحياة كما نعرفها. هذا يتطلّب منا التخلّي عن وجهات النظر المتمحورة حول الدوافع التطوّريّة للرجال المهيمنين، وعن تاريخهم الطويل المتمثّل باستعمار مناطق

النفوذ واستغلال نسائها وأراضيها، للحصول على مكاسب مادية قصيرة الأمد على صعيد التكاثر. التغيير يبدأ بخطوة أولى أساسيّة، وهي تمييز تلك الأنماط.

***

الفصل العاشر

إصلاحُ الذات

«لاَ تَحْسِدِ الظَّالِمَ وَلاَ تَخْتَرْ شَيْئًا مِنْ طُرُقِهِ»

• (سفر الأمثال 3: 31).

سوزان. بي. أنطوني، المرأة العظيمة التي قادت حركة حقوق النساء في القرن التاسع عشر، قالت ذات مرّة: «أنا لا أثق بأولئك الذين يعرفون بدقّة ماذا يريدهم الله أن يفعلوا، لأنّ هذا يعني دائماً تحقيق رغباتهم الشخصيّة». تاريخيّاً، كان الرجال غالباً هم من يدّعون معرفة ماذا يريد الله، كما أنّهم ورثوا رغباتهم عن أسلافنا من ذكور الرئيسيّات. الله، تلك الكينونة الخالدة كليّة القدرة، يُصوَّر على نحو غريب بأنّه يمتلك الرغبات ذاتها، ويطالب بالحصول على الإناث ومناطق النفوذ، وهي صورة استغلّها الرجال من أصحاب السلطة لإضفاء الشرعيّة على غاياتهم، فضلاً عن أنّهم سعوا بعزم للتحكّم بالدوافع الاجتماعيّة (كالخوف، والخضوع، والطاعة العمياء)، اللّازمة للسيطرة على الموارد. حذا الله حذوهم، وها هو يتوقّع من المؤمنين به أن يركعوا أمامه، وأن يخافوه ويطيعوه، وأن يتخلّوا عن حقّهم بالشكّ. الأهمّ من هذا وذاك، يدّعي الرجال بأنّ هذا الإله الذكر المهيمن، سيساندهم عندما يرتكبون جرائم فظيعة، بما فيها الاغتصاب، وقتل الزوجات والأطفال، والإبادة الجماعيّة.

بالاستناد إلى دراسات وليام جيمس، أكّدتُ عبر صفحات هذا الكتاب على أهمّيّة «جعل الطبيعيّ يبدو غريباً»، لإدخال البصيرة على عمليّة تبدو لنا طبيعيّة وأتوماتيكيّة، لدرجة أنّها تتمّ في معظم الحالات، من دون أن ندركها على نحو واعٍ. بما أنّ نموذج الإله ألفا، هو نموذج غريزيّ بالنسبة لدماغ الرئيسيّات، ويُطبّق بشكل انعكاسيّ على التراتبيّات الهرميّة الدينيّة، لذلك كان لا بدّ لي من تأليف هذا الكتاب. هناك عدّة حلول مُقترَحة للمشاكل الناجمة عن الإله ألفا، لكنّ صورته متجذّرة في أعماق سيكولوجيا التطوّر، إلى حدّ لا يمكننا معه أن نعرف ما إذا كانت تلك الحلول ستحصد التأييد على نطاق عالميّ. الخطوة الأساسيّة نحو تحقيق ذلك، هي أن نعرّي بشجاعة ذكر الرئيسيّات المهيمن، الذي يحرّك خيوط الله كأنّه دمية. إنّها خطوة تتّجه لفحص أعماق الذات بصدق، بفضل علوم التطوّر، وقد تساعدنا على بناء أديان وأخلاقيّات علمانيّة، تتّسم بمزيد من الرحمة والتعاطف.

سيكولوجيا الآخر

لقد درسنا عبر صفحات هذا الكتاب، شكلين مختلفين من أشكال العنف الدينيّ. الأوّل هو ذاك الذي يمارسه الذكور المهيمنون ضدّ أتباعهم، كي يحصلوا على جوائز تطوّريّة، أمّا الشكل الثاني فهو ذاك الذي يمارسه أفراد الجماعة، ضدّ المتديّنين الذين لا ينتمون إليهم، أي ضدّ الأفراد من خارج الجماعة. لعلّ التحدّي الأكبر الذي يواجهنا، حين نحاول أن نمتنع عن ممارسة الشكل الثاني، هو تحدٍّ مترسّخ في «سيكولوجيا الآخر» التطوّريّة، وهي دافع اجتماعيّ انعكاسيّ مترسّخ في أعماق سيكولوجيّتنا. لقد تطوّر البشر خلال معظم تاريخهم في مجموعات صغيرة، تعتمد على الصيد والالتقاط، وتتنافس مع المجموعات الأخرى على الموارد. الأفراد الذين توصّلوا إلى التعاون مع أفراد قبيلتهم -جزئيّاً من خلال التعصّب المشترك ضدّ الغرباء- حصدوا منافع بارزة على صعيد البقاء، بعكس أولئك الذين لم يقوموا بالمثل. هناك أدلّة عديدة، تدعم الفرضيّة القائلة إنّ مفاهيمنا المشوّهة

عن العدالة الأخلاقيّة (كمحاباة من ينتمون إلى جماعتنا)، قد تكون ناجمة عن الاصطفاء الطبيعيّ. علم «المعرفة الأخلاقيّة» هو فرع علميّ ينمو باطّراد، ويلقي الضوء على هذا التحيّز لمصلحة أفراد الجماعة، كما يكشف بوضوح عن أنّ العقليّة القَبَليّة لم تختفِ بعد، بل على العكس تماماً، ما زالت متغلغلة بقوّة في فلسفتنا الأخلاقيّة وسياساتنا الوطنيّة وأدياننا، وهي تخلق تعصّباً غير واعٍ وغير منطقيّ، يبلغ ذروته في العدوانيّة ضدّ الغرباء. هذا التعصّب يظهر انعكاسيّاً، ممّا يدلّ على أنّه جزء من سيكولوجيا عتيقة.

في الحقيقة هي سيكولوجيا قديمة للغاية، لدرجة أنّنا نتشارك بها مع أجناس الرئيسيّات الموجودة حاليّاً. تكتب جاين غودال، في عملها الكلاسيكيّ «شمبانزي غابات غومبي»: «نتيجة للمزج الفريد من نوعه، ما بين روابط الانتماء القويّة التي تجمع الذكور البالغين، والموقف العنيف المفرط في العدوانيّة، تجاه الأفراد الذين لا ينتمون للجماعة، من الواضح أنّ الشمبانزي بلغ مرحلة تداني إنجازات البشر، على مستوى التدمير، والوحشيّة، والنزاعات المُخطّط لها، ما بين الجماعات المختلفة». بالنسبة للبشر، جادل أفلاطون مثلاً بأنّه أثناء الحروب، يجب على الإغريقيّين ألّا يأسروا مواطنيهم، وألّا يحرقوا بيوتهم أو يخرّبوا حقولهم، بل أن تُطبَّق هذه الممارسات حصراً ضدّ الإثنيّات الأخرى. تنهل الأديان غالباً من الغريزة ذاتها، كي تخلق نصوصاً تروّج في آن واحد للتحيّز ضدّ من لا ينتمون إلى الجماعة، ولمصلحة الانتماء إليها، بما في ذلك التعاون بين أفرادها على العدوان. رغم ذلك، هناك العديد من النقاط الإيجابيّة في الأديان، كحسّ الانتماء، وإضفاء معنى للوجود، والشعور بالتوازن العاطفيّ. نصوص الأديان الإبراهيميّة تُبرِز أفضلَ صفات البشريّة، كالتراحم والعدل والصدق والنزاهة، وفيما يلي قائمة أوسع:

- العهد القديم (سفر الخروج): «أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ» (20: 12)، «لاَ تَقْتُلْ» (20: 13)، «لاَ تَسْرِقْ. لاَ تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ» (20: 15-16)، «وَلاَ تَضْطَهِدِ الْغَرِيبَ وَلاَ تُضَايِقْهُ، لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ.

لاَ تُسِيء إِلَى أَرْمَلَةٍ مَا وَلاَ يَتِيمٍ» (22: 21-22)، «لاَ تُحَرِّفْ حَقَّ فَقِيرِكَ فِي دَعْوَاهُ» (23: 6).

- العهد الجديد (رسالة بطرس الرسول الأولى): «فَاطْرَحُوا كُلَّ خُبْثٍ وَكُلَّ مَكْرٍ وَالرِّيَاءَ وَالْحَسَدَ وَكُلَّ مَذَمَّةٍ» (2: 1)، «وَالنِّهَايَةُ، كُونُوا جَمِيعًا مُتَّحِدِي الرَّأْيِ بِحِسٍّ وَاحِدٍ، ذَوِي مَحَبَّةٍ أَخَوِيَّةٍ، مُشْفِقِينَ، لُطَفَاءَ غَيْرَ مُجَازِينَ عَنْ شَرٍّ بِشَرٍّ أَوْ عَنْ شَتِيمَةٍ بِشَتِيمَةٍ، بَلْ بِالْعَكْسِ مُبَارِكِينَ، عَالِمِينَ أَنَّكُمْ لِهذَا دُعِيتُمْ لِكَيْ تَرِثُوا بَرَكَةً» (3: 8-9)، «كُونُوا مُضِيفِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِلاَ دَمْدَمَةٍ» (4: 9)، «فَلاَ يَتَأَلَّمْ أَحَدُكُمْ كَقَاتِلٍ، أَوْ سَارِقٍ، أَوْ فَاعِلِ شَرٍّ، أَوْ مُتَدَاخِلٍ فِي أُمُورِ غَيْرِهِ» (4: 15).

- القرآن: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا» (سورة البقرة 83)، «وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (سورة البقرة 195)، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ» (سورة النساء 29)، «لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ» (سورة النساء 114)، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا» (سورة النساء 135)، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللَّهَ» (سورة المائدة 8).

الاقتراحات والقوانين والقواعد السابقة، بسيطة ورحيمة وصائبة أخلاقياً، وسمحت لمجموعات ضخمة من البشر حول العالم بأن يتعاونوا معاً، ويخلقوا هويّات خاصّة بالجماعة، وإحساساً بالواجب الأخلاقيّ المشترك. رغم ذلك، من المهمّ التأكيد مرّة أخرى، على أنّ هذه الالتزامات تنطبق غالباً على أعضاء الجماعة فقط. القيم الأخلاقيّة المختلفة، كالخير والتراحم والإحسان والعدل... إلخ، بما فيها تلك المتمحورة حول الدين، تتلاشى عندما تتجاوز حدود العديد من الجماعات البشريّة. هنا أيضاً، سنجد عقائد

دينيّة تتطرّق إلى هذه النقطة: «قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ» (سورة القصص 17)، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» (سورة التوبة 123)، «يَا ابْنِي، اخْشَ الرَّبَّ وَالْمَلِكَ. لاَ تُخَالِطِ الْمُتَقَلِّبِينَ» (سفر الأمثال 24: 21)، «وَكُلُّ مَنْ لاَ يَعْمَلُ شَرِيعَةَ إِلهِكَ وَشَرِيعَةَ الْمَلِكِ، فَلْيُقْضَ عَلَيْهِ عَاجِلاً إِمَّا بِالْمَوْتِ أَوْ بِالنَّفْيِ أَوْ بِغَرَامَةِ الْمَالِ أَوْ بِالْحَبْسِ» (سفر عزرا 7: 26).

توسيع التراحم الدينيّ كي يتجاوز حدود الجماعة، ما يزال تحدّياً هائلاً. جادل المفكّرون العظماء لمصلحة هذه الرؤيا، فقد كتب تشارلز داروِن على سبيل المثال: «عندما يتقدّم الرجل في مسيرة الحضارة، وتتّحد القبائل الصغيرة في مجتمعات أكبر، سيملي المنطق البسيط على كلّ فرد، ضرورة توسيع حواسّه الاجتماعيّة، وتوسيع تعاطفه كي يشمل أفراد أمّته جميعهم، حتّى ولو لم يعرفهم شخصيّاً. عندما يبلغ هذه النقطة، لن يبقى أمامه إلّا حاجز اصطناعيّ واحد فقط، يمنعه من التعاطف مع كلّ الرجال، من كلّ الأمم والأعراق».

يوجد إذن أشخاص استثنائيّون، يتمكّنون بعد تمحيص عميق للذات، من الترفّع بأنفسهم عن التعريف الضيّق، الذي يجعل كراهيّة من لا ينتمون إلى الجماعة أمراً سهلاً ومُسَلَّماً به، أمّا تطبيق هذه البصيرة على المستوى الجمعيّ فهو مسألة مختلفة كليّاً، إذ إنّنا لا نلمسها كما ذكرتُ إلّا عند بعض العلماء والفلاسفة والمفكّرين، أي عند أولئك الذين أمضوا زمناً طويلاً في تأمّل الذّات، وتشريح أسس المعرفة البشريّة. باختصار، النأي بالنفس عن تأثير الغرائز يتطلّب جهداً جبّاراً، وتدريباً طويلاً. هل يمكن للتفكير بفهم المرء لذاته، أن يتحقّق بالدرجة ذاتها على مستوى جماهير العالم من المتديّنين الملتزمين؟ وإن تحقّق ذلك، فهل سيتمّ من خلال العقيدة الدينيّة؟ تناولت الهندوسيّة هذه النقطة في تعاليمها، فقالت إنّ الرجل الحكيم «يرى نفسه في الكلّ، ويرى الكلّ في نفسه»، لكنّها مشاعر نادرة بين أديان العالم الكبرى، كما أنّ أيدي الهندوسيّين أيضاً ملطّخة بدماء العنف والاضطهاد الدينيّ. إنّ

كان الهدف هو احترام حياة كلّ الناس، فلا شكّ أنّ بعض الاعتقادات الدينيّة اللّامنطقيّة تجسّد خطراً خاصّاً، مثلاً: «سيدخلني الله إلى الفردوس إن قتلتُ المسلمين»، أو «إن فجّرتُ نفسي وقتلتُ الكافرين، سيهبني الله عذراوات في الجنّة».

العنف ضدّ الغرباء، يظهر بمعزل عن الأديان. البشر، كغيرهم من الحيوانات، ليسوا بحاجة إلى الدِين كي يشكّلوا روابط بين أفراد الجماعة، أو كي يهجموا على الجماعات الأخرى، كما أنّهم ينقسمون حسب العِرق، الإيديولوجيا الدينيّة، الهويّة القوميّة، اللغة، الجغرافيا، الشارع الذي يسكنونه، بل حتّى الفرق الرياضيّة التي يشجّعونها. يُشتَهر البشر أيضاً، بأنّهم يقتلون أولئك الذين يعيشون خارج حدودهم، ولا يحتاجون إلى الدِين كي يبرّروا لماذا يعتبرون الجماعة التي ينتمون إليها، أسمى أخلاقيّاً من غيرها. هذا التعصّب يعكس تاريخاً تطوّريّاً طويلاً من المنافسات، التي يربح فيها أحد الأطراف كلّ ما يخسره الآخر، كما يحدث مثلاً عندما تتقاتل قبيلتان على موارد محدودة. من المؤكّد أنّ تلك المنافسات كانت قوّة دافعة للاصطفاء التفضيليّ، ممّا يعني أنّنا مهيّؤون بيولوجيّاً لاعتناق التعصّب بمختلف أشكاله، بما أنّه ساهم ببقاء أسلافنا في مرحلة ما. عندما نفهم هذا، سنكتشف أنّ الأديان ليست وحدها المسؤولة عن العنف الدينيّ، بل إنّ المذنب الحقيقيّ هو «التطوّر»، فالأديان هي مجرّد واسم من واسمات الاختلاف، تماماً كالسياسات وعصابات الشوارع والفرق الرياضيّة.

رغم ذلك، يتّسم العنف الدينيّ بمجد خاصّ. الدِين قادر على تغليف العنف بنشوة غامضة، بل وروحانيّة أحياناً، تعمل قوّتها وبديهيّتها في نهاية المطاف، على تبرير كراهيّة من لا ينتمون للجماعة. إن تابعتم -لسوء حظّكم- ڤيديوهات تنظيم القاعدة، حين يقوم المتطرّفون الإسلاميّون بقطع رأس «كافر» أمريكيّ أمام الكاميرا، وهم يهلّلون «الله أكبر»، إذن فأنتم تعرفون ذلك الإحساس بـ«العظَمَة» المثير للاشمئزاز! نظريّة التطوّر

تساعدنا على أن نفهم لماذا تبدو تلك التجارب غريزيّة، ولماذا تتمتّع بكلّ تلك القوّة العاطفيّة. أحد الأسباب هو أنّ تفعيل نموذج الإله ألفا، يؤدي إلى استثارة مراكز دماغيّة عتيقة، كانت تتفعّل في الماضي عندما نتحالف مع ذكر أقوى، وننتشي بقوّته المدهشة. فضلاً عن ذلك، عندما يُصوَّر إله ما على أنّه ذكر مهيمن من ذكور الرئيسيّات، ستتجلّى أمام أتباعه شخصيّةٌ تلاقي صدى في غرائزهم كي يتبعوها إلى القتال، وعندما يقفون جنباً إلى جنب هذا الذكر القويّ، سيشعر المؤمنون بمزيد من الثقة في المعركة، تماماً كما شعر أسلافهم من الرئيسيّات طيلة ملايين السنين، في السافانا الإفريقيّة المتوحّشة.

أنا لا أجادل هنا بأنّ العداوة بين المجموعات البشريّة، تتطلّب دائماً وجود ذكر مهيمن. في الحقيقة، أنا أعتبر تأثير الذكر المهيمن، بكلّ قواه وحدوده، سؤالاً مفتوحاً يتطلّب المزيد من الأبحاث والتفكير. تبيّن لنا كتب التاريخ، مقدرة الذكور الأقوياء الهائلة، على التلاعب بالجماعات البشريّة، وكيف استغلّوا تأثيرهم كي يُشعلوا نار التعصّب الغريزيّ في نفوس أتباعهم، ضدّ من لا ينتمون إلى جماعتهم، ممّا سرّع العنف ضدّ الغرباء، وعزّزه. حصد أولئك الرجال فوائد جمّة من النزاعات مع المجموعات الأخرى، فضلاً عن جوائز تطوّريّة كبرى، كالاستحواذ على مناطق النفوذ والإناث وغيرها. الرجال الذين برعوا بالتحكّم بالمعلومات، وبالخطاب السياسيّ، وبالإيديولوجيا الدينيّة، كانوا أكثر كفاءة بإثارة الارتياب بالقبائل الأخرى، والتحريض على كراهيّتها، فضلاً عن حرصهم على تحويل قتلِ أنصار خصومهم الذكور وآلهتهم، إلى برهان على الولاء للجماعة، على سبيل المثال: «فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ» (سورة التوبة 5)، «سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ» (سورة آل عمران 151). الرجال المهيمنون المنشغلون بالحفاظ على مرتبتهم، قد يحوّلون الشكّ بالإله الذي لعب دوراً

هاماً في تبوّئهم السلطة، إلى خيانة عظمى، أي إلى جريمة داخل الجماعة تستحقّ العقاب، بل الموت أحياناً: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً، أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا» (سورة النساء 150–151). بلا شكّ، يمكن للرجال أن يستحوذوا على السلطة وأن يحافظوا عليها، دون الاستعانة بحليف روحانيّ، لكنّ خَلْقَ ذكر عَلِيٍّ يدعم ارتقاءهم إلى السلطة، سيساعدهم على ترسيخها. نحن هنا أيضاً أمام شبح آخر من أشباح ماضينا، فنحن البشر مهيّؤون سيكولوجياً لعدم التحدّي، وعدم التشكيك.

هناك نصوص مقدّسة، يُقال إنّها مستوحاة من إله ذكر مهيمن، تصف نوعاً من الاستقلاليّة الفرديّة ضدّ التيّار السائد داخل الجماعة، مثلاً: «لاَ تَتْبَعِ الْكَثِيرِينَ إِلَى فِعْلِ الشَّرِّ، وَلاَ تُجِبْ فِي دَعْوَى مَائِلاً وَرَاءَ الْكَثِيرِينَ لِلتَّحْرِيفِ» (سفر الخروج 23: 2)، لكنّها قليلة العدد، تضيع ما بين بحر هائج من الأوامر التي تحثّ على كراهيّة الغرباء (أو غير المؤمنين، أو غير الملتزمين... إلخ)، وما بين مقاطع أخرى لا حصر لها، يصوغ فيها إله ذكر مهيمن مثالاً عنيفاً لأتباعه، كإله العهد القديم الذي يقتل أطفال مصر الفرعونيّة في مذبحة جماعيّة (سفر الخروج). حذفُ «سيكولوجيا الآخر» من العهد القديم ومن القرآن، سيحيل هذين النصّين إلى مِزَق.

قدرة «سيكولوجيا الآخر» على التدمير هائلة! بفضل أدمغتنا الكبيرة، نتملك نحن البشر قدرة لا تُضاهى على قتل أبناء جنسنا، فضلاً عن قدرتنا على اختراع أسلحة، قد تبيد كلّ أشكال الحياة في المحيط الحيويّ حول العالم، وهو ضرر جانبيّ يحدث على مستوى غير مسبوق تاريخياً، فضلاً عن الأخطار الأخرى التي تهدّد العالم الطبيعيّ. العقائد التي تتمحور حول الجينات الأنانيّة، كـ«صورة الربّ» و«هيمنة الإنسان»، تنكر أنّنا نشترك في أصل واحد مع ملايين الكائنات الحيّة، في هذا الكوكب الأزرق المدهش، وتغذّي إحساساً زائفاً بانفصالنا عن بقيّة المخلوقات،

أي أنّها تقوم بدفع كلّ أشكال الحياة إلى خارج المجموعة البشريّة، لكنّه انفصال وهميّ. هذه العقائد تهب امتيازات حصريّة للبشر في مساعيهم الدنيويّة، بما فيها حقّهم التفضيليّ (أو «واجبهم»، وفق بعض النصوص المقدّسة) بالتكاثر. اليوم، الشعوب الأسرع نموّاً في العالم، هي تلك التي تعيش في البلدان الأشدّ تديّناً، علماً أنّ الانفجار السكّانيّ، والدمار البيئيّ، والعنف، هي حلقة مفرغة، فالكثافة السكّانيّة ترتبط مع ارتفاع معدّل السلوكيّات الذكريّة المعادية للمجتمع، وهي بدورها سلوكيّات عنيفة في معظم الأحيان. إضافة إلى ذلك، عندما يتزايد عدد السكّان وتتقلّص الموارد المتاحة، تقفز غرائزنا القَبَليّة إلى الواجهة من جديد، فنعود إلى شنّ الحروب على جيراننا، كي نحافظ على بقائنا، كما فعلنا طيلة معظم تاريخنا. العقائد التي تصنّف العالَم الطبيعيّ خارج المجموعة البشريّة، وتدعم التكاثر السكّاني الذي لا تقيّده أيّ ضوابط، هي عقائد تهيّئ الظروف بغباء لتنامي العنف.

على الرغم من هيمنة الإنسان المدمِّرة، يعبّر الكتاب المقدّس بفصاحة أحياناً عن شعور بيئيّ متواضع، وصادق بيولوجيّاً في آن واحد: «أَنَّ مَا يَحْدُثُ لِبَنِي الْبَشَرِ يَحْدُثُ لِلْبَهِيمَةِ، وَحَادِثَةٌ وَاحِدَةٌ لَهُمْ. مَوْتُ هذَا كَمَوْتِ ذَاكَ، وَنَسَمَةٌ وَاحِدَةٌ لِلْكُلِّ. فَلَيْسَ لِلإِنْسَانِ مَزِيَّةٌ عَلَى الْبَهِيمَةِ، لأَنَّ كِلَيْهِمَا بَاطِلٌ» (سفر الجامعة 3: 19). نشر هذه الرسالة يتطلّب المزيد من العزم والثبات، كي نبتعد عن مسارنا الحاليّ المتّجه نحو الدمار البيئيّ، والعنف المتصاعد المترافق مع الانفجار السكّانيّ. كيف يمكن لنا إذن أن نقوّم أنفسنا، وننتهج مساراً لا يسبّب الكثير من الخراب؟!

الحلّ الأبسط، هو حظر الأديان. حتّى ولو كان هذا حلّاً أخلاقيّاً، ولن يعترض عليه أحد -وذلك غير صحيح- لكنّه لن ينجح على الأرجح. الحاجة إلى الدِين تعكس على ما يبدو هندسة دماغنا التطوّريّة، كما أنّ الجوائز العاطفيّة التي تقدّمها التجربة الدينيّة قويّة للغاية. ماذا إذن عن تبنّي أديان لا تدعو إلى العنف؟!

السِلميّة والمراقبة الانتقائيّة

تعدّ البوذيّة بديلاً عن الأديان الإلهيّة الميّالة للحروب، فصيغتها الأقرب للعلمانيّة تجذب غير المؤمنين بدورهم، لا بسبب مبادئها الأخلاقيّة المسالمة فحسب، بل بإدراكها للتداخل بين كلّ أشكال الحياة، وربّما بسبب الراحة الناجمة عن طقوسها. يعتقد علماء كثيرون، كروبرت رايت، أنّ ممارسة التأمّل البوذيّ الذي يركّز على الوعي بالذّات، قد يكون وسيلة للترفّع عن التحيّز الشعوريّ المتمحور حول الذات، الذي يلعب دوراً أساسيّاً في النزاعات البشريّة على ما يبدو. يتوضّع كلٌّ من الوعي بالذات، والتحرّر من تأرجح العواطف اللّاعقلانيّة، في صميم الفلسفة البوذيّة، التي تمتاز عن بقيّة الأديان الكبرى، بأنّها الأكثر تشديداً على اللّاعنف وعدم القتل. من الثيمات المحوريّة الأخرى في البوذيّة، إبقاء الذهن مشغولاً بالأفكار السلميّة والخيّرة، وإدراك أنّ الكائنات جميعها تشترك بمصلحة عامة، وأنّها تعتمد بعضها على بعض، سواء كانت كبيرة أم صغيرة، بشريّة أم غير بشريّة. يمتنع بعض الرهبان البوذيّين على سبيل المثال، عن المشي خارجاً بعد المطر، كي يتجنّبوا الدوس على الكائنات الواعية التي تتجمّع على سطح التربة آنذاك، كالحلزون أو الحشرات. هذه الاستراتيجيّة ليست عمليّة بالنسبة للجميع، لكن إن وضعنا الإيديولوجيّات التي تركّز على تواصلنا الداخليّ، ضمن إطار ممارسة التأمّل الملائمة، سنجد أنّها تتعارض كليّاً مع نزاع الإنسان مع أخيه الإنسان، ومع نزاع الإنسان مع المحيط الحيويّ بأكمله.

بأيّ حال، مدفوعين بطموح الرئيسيّات ذاته، يقوم الرجال بتشويه وتحريف العقائد جميعها، والبوذيّة ليست استثناء. خلال الألفيّة الأولى للميلاد، اندلعت النزاعات المسلّحة في أرجاء الصين ودامت مئات السنين، بقيادة رهبان بوذيّين طموحين. كغيرهم من الرجال الذين يعتنقون عقائد أخرى، تسلّم أولئك الرهبان مقاليد السلطة، وساقوا جيوشاً ضخمة إلى الحرب، بعد أن أعلنوا أنّهم «أبناء الآلهة»، أو الـ «مايتريا» Maitreya (أي أنّهم تقمّصوا البوذا الذكر، الآتي في المستقبل). لطّخ الرهبان المحاربون

في الصين تاريخ تلك الحقبة، واستغلّوا الوسائل ذاتها التي ناقشناها سابقاً للتلاعب بالجماهير. الراهب فاكينغ على سبيل المثال، قاد حملةً قوامها خمسون ألف رجل، واستغلّ الاستراتيجيّة الموثوقة نفسها التي يعتمد عليها الجهاد، أو الحروب الصليبيّة: إن قتل جنديٌّ رجلاً واحداً، يربح مباشرة الدرجةَ الأولى من البوديساتڤا bodhisattva (تعني الوجود المتنوّر)، أمّا إن قتل رجلين، فسيربح الدرجة الثانية، وهكذا دواليك. كلّما قتَل أكثر، سيقترب من القداسة.

كغيرها من التقاليد الدينيّة التي تصف تنافس الآلهة على الهيمنة، تدّعي بعض النصوص البوذيّة أنّ البوذا قام في إحدى حيواته السابقة، بذبح البراهمة بحجّة الهرطقة. في انشغال البوذا بالهرطقة، نلمح دوراً لسمعة الذكر المهيمن ضمن البوذيّة، تماماً كما في العقائد الإبراهيميّة، ونلمس أيضاً محاكمة أخلاقيّة تخدم المصالح الشخصيّة. لقد أُعدِم هؤلاء البراهمة المهرطقون بداعي «الشفقة»، بعد أن ارتكبوا إثمَ إهانة البوذا، فبعض العقائد البوذيّة تبيح قتل المجرم، إن كان ذلك سيحول بينه وبين ارتكاب خطيئة أخرى، أي أنّ القتل هو نوع من الاستشهاد الرحيم في هذه الحالة، لكنّه يعني قتل الآخر، لا موت من ينفّذه. بعبارة أخرى، «إن كنتُ سأذهب إلى الجحيم لأنّني قتلتُ هذا الرجل، فليكن! إذ لا يجب أن يُحكم عليه هو بالعذاب الأبديّ». بالمثل، بعض العقائد البوذيّة الأخرى، تنصّ على أنّ الملك لا يجلب لنفسه كارما سيّئة، عندما يَقتل البشر في المعارك، إن كان دافعه هو «النوايا الرحيمة» (كإنقاذ عدد أكبر من الكائنات الواعية، أو إنقاذ أطفاله... إلخ)، كما ينطبق هذا المبدأ على التعذيب أيضاً. إذن، سيكولوجيا داخل الجماعة / خارج الجماعة العمياءُ ذاتُها، موجودة حتّى في الأديان المتمحورة حول فكرة أنّ كلّ الكائنات الواعية في العالم، هي جزء من مجموعة واحدة عالميّة متداخلة.

يقدّم التاريخ البوذيّ العديد من الأمثلة الأخرى، عن الدوافع التي تحفّز الآيب المهيمن على التزاوج. الحاكم التيبتيّ سونغتسان غامبو كان ملكاً

محارباً، أسّس الإمبراطوريّة التيبتيّة، وأدخل الديانة البوذيّة إلى هضبة التيبت. كالعديد من الرجال في العصر التوراتيّ، استولى غامبو على السلطة لا بحدّ السيف فقط، بل بالاعتماد أيضاً على الروح الدينيّة المتجذّرة في الغزوات الجنسيّة. تقول الأسطورة إنّه هزم سرينمو، إلهة الأرض المحليّة (أو الشيطانة، حسب وجهة نظر من يروي القصّة)، وهي إلهة تتمدّد على هضبة التيبت بأكملها، وثبّت جسدها بالمسامير في اثنتي عشرة نقطة مختلفة. نصب الملك الطّموح «ستوبا» stupa في أرجاء التيبت، وهي عمارات دينيّة ضخمة تشبه الفالوس، ترمز إلى المسامير -وأشياء أخرى!- التي اخترقت جسد سرينمو. في المركز، ينتصب معبد جوكهانغ في لاسا، الذي يُعَدّ المكان الأقدس في البوذيّة التيبتيّة، ويمثّل «المسمار» الذي غُرِزَ في مهبل الإلهة. في مثال ثانٍ أوضح، تروي خرافة أخرى أنّ الإله البوذيّ الذكر هاياغريفا لاط بالإله الهندوسيّ رودرا، في فعل يرمز إلى الهيمنة الجنسيّة. إذن، نحن هنا مجدّداً أمام استحواذٍ على منطقة النفوذ، مشحون برؤى الغزوات الجنسيّة، يغلّف استراتيجيّة الرجل / ذكر الرئيسيّات المهيمن التي تلجأ إليها الآلهة، حتّى في البوذيّة التي تُعدّ أكثر أديان العالم سلميّة.

نستنتج ممّا سبق، أنّ البشر هم من يخلقون عقائد اللّاعنف والتراحم، وهم من يحرّفونها في الوقت ذاته، لكنّ المبادئ الأخلاقيّة التي ترتكز إليها البوذيّة قد تعلّمنا الكثير. نستطيع أن نملأ صفحات وصفحات، بمقولات بوذيّة تتعارض مع سيكولوجيا الآخر، ومع طمع الذكر ألفا في آن واحد: «لأنّنا جميعنا نتشارك كوكب الأرض الصغير هذا، علينا أن نتعلّم كيف نعيش في تناغم وسلام، معاً ومع الطبيعة. هذا ليس حلماً، بل ضرورة»، «الحياة ثمينة من وجهة نظر الجميع، انظر إلى الآخرين كما تنظر إلى نفسك، لا تقتل، ولا تحرّض الآخرين على القتل»، «إن أردتَ أن تكون سعيداً، لا تلجأ إلى العنف لإيذاء الكائنات الحيّة التي ترغب بدورها بالسعادة، وعندها ستجد سعادتك». برأيي الشخصيّ، لا توجد عقيدة دينيّة أشدّ أو أقلّ خبثاً من غيرها، ولا أقلّ أو أكثر إنسانيّة، إن كان المعيار المتّبع للمقارنة هو حجم

الدوغما الكليّ في هذا الاتجاه أو ذاك، لكنّ العقيدة البوذيّة بمجملها سلميّة بوضوح، ممّا يصعّب استغلالها على يد الرجال المستبدّين. فضلاً عن ذلك، يمكن أن نطبّق العديد من الممارسات البوذيّة -كالتأمّل- دون تبنّي أيّ نوع من أنواع الدوغما الدينيّة، أيّاً كانت.

بالمثل، هناك الكثير ممّا نتعلّمه من المبادئ الأخلاقيّة لكلّ من اليهوديّة، والمسيحيّة، والإسلام. إذن، السؤال المطروح هنا، هو: هل يوجد حلّ آخر أقلّ راديكاليّة من القضاء على الأديان كليّاً، أو من تبنّي تلك التي تحضّ فقط على اللّاعنف؟ هذا الحلّ، قد يعتنق تلقائيّاً التعاليم الداعمة للمجتمع في الأديان التوحيديّة الثلاثة معاً، لكن على المرء أن يكون فائق الانتقائيّة، كي ينجح بتلافي المقاطع التي تسبغ الشرعيّة على أبشع جرائم الإنسان. المشكلة هي أنّ الملوك - الآلهة حول العالم، لا يريدون أن يكون أتباعهم انتقائيّين، بل يفضّلون أن يحتفظوا بهذا الحقّ لأنفسهم. طيلة التاريخ، فرض الرجال الأقوياء تفسيرهم الخاصّ للنصوص الدينيّة، وحرصوا على أن تقبل الشعوب هذه التفسيرات كلّها كما هي، وفرضوا عقوبات على من يرفضونها. إليكم كمثال، قيام يسوع بالهجوم على ما يُعدُّ تفسيراً لقانون العهد القديم بأكمله: «فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ. فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هذِهِ الْوَصَايَا الصُّغْرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هكَذَا، يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَأَمَّا مَنْ عَمِلَ وَعَلَّمَ، فَهذَا يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ فَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّكُمْ إِنْ لَمْ يَزِدْ بِرُّكُمْ عَلَى الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ لَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (إنجيل متّى 5: 18-20).

بالنسبة للوصايا العشر، يذكّرنا سام هاريس بأنّ الوصايا من الأولى وحتّى الرابعة، تحظّر ممارسة أيّة عبادة أخرى غير اليهوديّة - المسيحيّة (كالهندوسيّة مثلاً)، كما تحظّر معظم الفنون الدينيّة، والتفوّه بعبارات من قبيل «لعنة الله عليك»، وكلّ أنواع العمل العاديّ يوم السبت، وذلك تحت طائلة الموت. بمعنى آخر، كي نحتفظ بالجيّد، نحن مجبرون على إبقاء

السيّئ، والادّعاء بأنّه يعجبنا!! إن قبلنا هذه الدوغما كما هي، سيخضع معظم الأمريكيّين للإعدام!

لا بدّ أنّ البوذا، قد أدرك خطورة القبول بالدوغما قبولاً مطلقاً أعمى، إذ يرد في أحد الأمثال البوذيّة: «رجل الدين يتجاوز الزمن. إنّه لا يتبنّى أيّة وجهة نظر، ولا ينتمي لأيّة طائفة. إنّه يفهم كلّ النظريّات الحاليّة، لكنّه لا يرتبط بأيٍّ منها». بالتالي، عدم اتّباع إيديولوجيا معيّنة -سواء دينيّة، أم علمانيّة- اتّباعاً أعمى، قد يكون ضرورياً للوصول إلى أخلاقيّات روحانيّة، أو علمانيّة، رحيمة. الانتقائيّة ليست سهلة التطبيق، خاصّة على مستوى المرؤوسين، فضلاً عن أنّ تنفيذها هو أمر في غاية الصعوبة، في ظلّ أنظمة كمحاكم التفتيش الإسبانيّة أو حركة طالبان، وبوجود رجال مسلّحين متأهّبين لاعتبار أيّ تفسير دينيّ يشذّ عن الدوغما السائدة، بمنزلة هرطقة.

توماس جيفرسون، أحد مهندسي انفصال الكنيسة عن الدولة في أمريكا، أدرك آنذاك مخاطر الدوغمائيّة، فحاول أن يستخلص من الكتاب المقدّس مجموعةً من التعاليم الدينيّة، أكثر أخلاقيّة وعقلانيّة، لذلك قام حرفيّاً بقصّ أجزاء من تعاليم يسوع الأخلاقيّة، وألصق بعضها ببعض، بعد أن حذف كلّ الإشارات إلى المعجزات، والخوارق، وما وراء الطبيعة. لاحقاً، وصف غايته في رسالة إلى جون آدامز، يعود تاريخها إلى 13 تشرين الأوّل 1813م، وهي رسالة جديرة بأن نقتبس منها مطوّلاً:

«لاستخلاص المبادئ النقيّة التي علّمها يسوع، علينا أن نعرّيها من الأغلفة الصناعيّة التي خنقها بها القساوسة، بعد أن حوّروها بطرق مختلفة، واستغلّوها كأدوات للحصول على الثروة والسلطة الشخصيّة... علينا أن نختصر كتابنا المقدّس إلى الأناجيل الأبسط، من ثمّ أن ننتقي من المختصرات كلماتِ يسوع فقط لا غير، ونبدّد الالتباس الذي فُرِض عليها، بسبب نسيان ما قاله يسوع، أو عدم فهمه، أو بسبب قيام القساوسة بفرض مفاهيمهم الشخصيّة على أنّها تعاليمه هو، وشرحِ ما لم يفهموه هم شخصيّاً، شرحاً غامضاً للآخرين. عندها، سنجد أن ما يبقى بين أيدينا هو أسمى، وأرحم،

نظام أخلاقيّ عرفته البشريّة. لقد قمتُ بما سبق لاستعمالي الشخصيّ، من خلال قصّ الآية تلو الآية من الكتاب المقدّس المطبوع، وترتيب ما بدا لي أنّه تعاليم يسوع الحقّة، وهي تعاليم يسهل تمييزها، كأنّها ماسات بين الروث».

من هذا المقطع، نستنتج أنّ جيفرسون فهم كيف يشوّه الرجالُ التعاليمَ الدينيّة، كي يستغلّوها بسهولة لخدمة مصالحهم الشخصيّة، وغاياتهم السياسيّة. من الواضح أيضاً أنّ بإمكاننا استخلاص الجواهر من الأديان كلّها، وكذلك الروث في الوقت ذاته، علماً أنّ الروث أشيع عندما تدخل سيكولوجيا الذكر المهيمن إلى الصورة. فرز الاختلافات هو المهمّة الأصعب، ولو نجحنا بأن نكون انتقائيّين، سنجد أن نبذ النواحي الإيجابيّة للأخلاقيّات الدينيّة يُعَدّ خسارة كبرى، نظراً لوجود قيم وأخلاقيّات قائمة بالفعل، سيساعدنا التركيز عليها انتقائياً على تحقيق ما يصفه روبرت رايت بأنّه: «تغذية بذور التنوير، المتأصّلةِ في أخلاقيّات قبائل العالم». عوضاً عن نبذ الدِين كليّاً، الحلّ الأسهل هو أن نطوّر مجموعة من الأخلاقيّات الدينيّة، تدعم القيم الإيجابيّة في المجتمع، وتتوجّه لكلّ أفراده، وتركّز على التراحم، فتعكس بالتالي صورة أشمل عن العالم الذي نعيش فيه حالياً، والذي أصبح متداخلاً ومتغيّراً ومدهشاً أكثر بكثير من ذي قبل.

بأيّ حال، السؤال الأهمّ الذي يُطرَح هنا هو: إن استطعنا التوصّل إلى دِين شامل، فهل من الممكن استخلاص إيديولوجيّته بشكل انتقائيّ، من الأديان الموجودة في العالَم حالياً؟ أقرّ بأنّني أشكّ بإمكانيّة تحقيق ذلك على مستوى العقائد الإبراهيميّة، لأنّ نصوصها المقدّسة تدمج تحريماً ضدّ الانتقائيّة، وضدّ حريّة التفكير، كما أنّ قواعد إلهها ذات نكهة شموليّة بارزة. فضلاً عن ذلك، مهما بدا الإيمان غير منطقيّ، فإن اجتثاثه صعبٌ للغاية: أفعى ناطقة، العذراء التي تبقى عذراء بعد أن تلد، قيامة الجسد، الرجال الذين يعيّنهم الربّ، المكافآت في الحياة الآخرة لقاء القتل في الحياة الدنيا... إلخ. بلا شكّ، لم تحظَ نسخة جيفرسون المعدلّة بشعبيّة واسعة، رغم مكانته ورغم شهرته.

يقترح بعض المفكّرين تبنّي نظام أخلاقيّ شامل يعتمد على العلم، ويطبّقه العالَم بأسره، وهو ما يطلق عليه الفيلسوف جوشوا غرين مصطلحَ «ما بعد الأخلاقيّات»، وأنا لا أسعى هنا إلى تعريف هذا النظام الأخلاقيّ الروحانيّ، أو العلمانيّ، المنشود، لأنّنا ببساطة لم نصل إليه بعد، كما أنّ الإيديولوجيّات الخيّرة لا تكفي بمفردها لردع الرجال الطموحين -الذين تساندهم ملايين السنين من التطوّر- عن محاولة إخضاع من حولهم، أو حشد أتباعهم إلى الحرب. قبل أن يأخذ أيّ نقاش جدّيّ مجراه، لا بدّ من هزيمة الميول الذكريّة للهيمنة أوّلاً، وحماية الحقّ بالنقاش والتخيّل، ولا بدّ من توافر شرطين أساسيّين على أقلّ تقدير لتحقيق ذلك، هما حريّة المعلومات، وفصل الكنيسة عن الدولة. أخيراً، قد نوفّر الدعم الضروريّ لهذا النوع من الحوار، من خلال تدريس مبادئ علم التطوّر، وتسخير الإدراك الذي سيتولّد عنه، كي نفهم بصورة أفضل دوافعنا لممارسة العنف باعتبارنا نوعاً من أنواع الرئيسيّات، وهذا حقٌّ من حقوقنا يجب أن يحظى بالحماية. من خلال فهم تطوّر عقلنا، سنصبح قادرين على خلق مجموعة من المبادئ الأخلاقيّة، التي لا تتلاءم مع الحياة في السافانا أو بين ملوك العصر التوراتيّ المتحاربين فحسب، بل تصلح لتطبيقها على مستوى مجموعة من الأمم التي تنمو وتزداد تداخلاً.

تشييد الجدار

حريّة التفكير، هي حقّ يفضّل الرجال المهيمنون الاحتفاظ به لأنفسهم. لذلك، إحدى أكثر الوسائل كفاءة لتمكين الشعوب، وحمايتها من الوقوع ضحيّة لمشيئة الديكتاتوريّين، سواء كانت مشيئة دينيّة أم لا، هي الحرص على حريّة تدفّق المعلومات، من وإلى عقول أفراد الشعب. حرّية المعلومات هي حجر الزاوية لإبقاء الحكومات -والرجال الذين يقودون هذه الحكومات- شفّافة ومسؤولة عن أفعالها، كما أنّها تمكّن الشعب من فضح الفساد، أي أنّ حريّة التعبير قد تساعدنا على ضمان أن تُطبّق قواعد الحكم علانيّة، ولمصلحة الشعب.

على العكس ممّا سبق، علّمنا التاريخ أنّ الرقابة خطيرة للغاية. الرقابة

تمنع ظهور الحقائق والأفكار، خاصّة تلك التي تلفت الانتباه إلى عدم المساواة في توزيع السلطة أو الثروة، أو إلى استغلالهما من قبل أولئك الذين يتبوّؤون مناصب قياديّة. الرقابة تبقي الشعوب جاهلة، وهو ما يرغب به الديكتاتوريّون. أدولف هتلر، الرجل المسؤول عن موت أحد عشر مليون إنسان، شنّ حملة هائلة لإحراق الكتب، أُحرِقت فيها كتب علميّة مختلفة (بما فيها مؤلّفات ألبرت آينشتاين) في أرجاء ألمانيا، كما منع العلماءَ اليهودَ وأولئك الذين عُدُّوا خطراً على الإيديولوجيّة النازيّة، من العمل ومن نشر مؤلّفاتهم. طُرِد أولئك العلماء من المجتمع الألمانيّ، جنباً إلى جنب العديد من الشعراء والروائيّين والفنّانين، إمّا بسحب الجنسيّة الألمانيّة منهم، أو بإرسالهم ليلقوا حتفهم في معسكرات الاعتقال.

يغصّ التاريخ بقصص مشابهة، جوزيف ستالين مثلاً، المسؤول عن إبادة ما لا يقلّ عن عشرين مليون إنسان، فرض رقابة كليّة على كلّ أشكال الميديا في الاتّحاد السوفياتيّ، فضلاً عن أنّه أدرك أهمّيّة سمعة الذكر المهيمن، لذلك حظر نشرَ أيّ نوع من الأدب، يصف هزيمةَ الجيش السوفياتيّ أو خوفَ الجنود. ممّا تعلّمناه، يبدو لنا واضحاً اليوم أنّ الرقابة هي في الحقيقة، شكل آخر من أشكال هيمنة الذكر، لكنّها خاصّة بالبشر، علماً أنّ أهمّ تكيّف حقّقه جنسنا كان قدرة عقلنا على معالجة المعلومات.

لا يشترط أن يكون القادة متديّنين، كي يلجؤوا إلى فرض الرقابة كأداة للهيمنة، كما لم يتورّع القادة الدينيّون بدورهم عن استعمال هذا التكتيك. البابوات، أعضاء محاكم التفتيش، الأئمة، الإنجيليّون... إلخ، جميعهم أنكروا حريّة المعلومات، إما بإحراق الكتب، أو بمنعها، أو بالتحكّم بطباعتها، فضلاً عن أنّهم ادّعوا الحقّ الحصريّ بتفسيرها، أو سمحوا بنشر كتاب واحد فقط. عانت حريّة التعبير من أذيّات مماثلة، وتناولنا في الفصول السابقة كيف أنّ الآراء التي تعارض النصوص المقدّسة، أو الآلهة، أو الرجال الذين يمثّلونها، تُجابه غالباً بالرقابة أو بالحظر، أو بما هو أسوأ: التعذيب والقتل.

يبلغ فكر القادة الدينيِّين ذروته، بتحويل الصمت إلى فضيلة (وتسميتها بـ: الإيمان)، وتحويل الشكّ إلى خطيئة (وتسميته بـ: الهرطقة). قد تُعتبر المعرفة بحدّ ذاتها خطيئة، كما تقترح السرديّة المحوريّة في قصّة آدم وحوّاء وشجرة المعرفة. أمّا «المنطق» الذي يوازي المعرفة، فقد يتحوّل بدوره إلى «عاهرة الشيطان الكبرى» باقتباس كلمات مارتن لوثر. يشترك الطغاة الدينيّون، والديكتاتوريّون العلمانيّون، بإدراكهم أنّ المعرفة تخلق شعوراً بالقوّة، ولعلّ هذه النقطة هي ما حثّت الرجال الطموحين، على جعل السرديّة الأساسيّة في الديانة الإبراهيميّة، متمحورة حول إله مزاجيّ رهيب، يبغض المعرفة، ولا يقبل الأسئلة، خاصّة تلك التي تتعلّق ببنية السلطة السائدة. أولئك الرجال يستغلّون تاريخنا التطوّريّ لمصلحتهم، وهو ما يحيلني إلى إحدى أهمّ طرق الوقاية من الاستبداد الدينيّ، أي فصل الكنيسة عن الدولة. يعبّر توماس جيفرسون بفصاحة عن هذه النقطة: «المؤسّسات الدينيّة التي تستغلّ سلطة الدولة لدعم نفسها، وتفرض وجهات نظرها على المنتمين للأديان الأخرى، أو على غير المؤمنين، تقوّض كلّ حقوقنا المدنيّة. فضلاً عن ذلك، قيام الدولة بدعم دِين قائم، يجعل رجال الكهنوت غير مبالين برعاياهم، ويقود إلى الفساد ضمن الدين بحدّ ذاته. لذلك، تشييد جدار فاصل ما بين الكنيسة والدولة، هو ضرورة مطلقة في المجتمع الحرّ».

في عام 1777م، وضع جيفرسون مسوّدة «قانون الحريّة الدينيّة» في ڤرجينيا، الذي كان طليعة التعديل الدستوريّ الأوّل. جيفرسون، وغيره من مناصري فصل الكنيسة عن الدولة، أدركوا تماماً كيف يقود تحكّمُ الدِين بالعقول إلى استغلال السلطة. يتناول جيفرسون هذه النقطة بالتفصيل: «لقد خلق الربُّ العقلَ حرّاً، وكلّ المحاولات للتأثير على العقل من خلال فرض الأعباء، أو العقوبات المؤقّتة، أو العجز المدنيّ، تؤدّي إلى انتشار النفاق والخسّة، وبالتالي إلى الابتعاد عن خطّة المؤلّف الإلهي لديننا، الذي على الرغم من كونه الربّ، سيّدَ العقل والجسد، لكنّه اختار ألّا ينفّذ خطّته بفرضها قسراً، لا على العقل ولا على الجسد، رغم أنّه قادر على ذلك بقوّته

العليّة، على عكس ما يفترض المشرّعون والحكّام دون ورع، مدنيّين كانوا أم كَنَسيّين، وهم أنفسهم مجرّد رجال خطّائين وغير مُلهَمين، ادّعوا الهيمنة على إيمان الآخرين، وعدّوا آراءهم الشخصيّة وطريقة تفكيرهم، بمنزلة الحقيقة الوحيدة العصماء، وفرضوها على الآخرين، ممّا أدّى إلى نشوء أديان زائفة، واستمرارها في معظم أرجاء العالم طيلة التاريخ. إجبار المرء على تقديم هبات مالية، بغية نشر آراء لا يؤمن بها، هو خطيئة واستبداد».

هناك مفارقة ساخرة واضحة في كلام جيفرسون، الذي يجادل بأنّ الربّ اختار ألّا يفرض الأديان بالقوّة، رغم قدرته على ذلك! هذه المفارقة تبيّن لنا مجدّداً، كيف يستحضر الرجال الأقوياء صورة معيّنة للربّ، كي يدعموا رغباتهم الشخصيّة. من الإنصاف القول إنّ معظم الآباء المؤسّسين كانوا ملحدين، أو لا أدريّين على أقلّ تقدير، وأنّ وجهات نظرهم حول التسامح الدينيّ كانت براغماتيّة إلى حدّ كبير. اختيار جيفرسون لكلماته، ينمّ عن محاولة لجذب المؤمنين إلى جهوده في القضاء على الاستبداد الدينيّ، كما أنّ أفكاره تتركّز حول منع كلّ أشكال الاضطهاد والعنف الدينيّ، الذي أراق الدماء في أوروبا خلال القرون السابقة للحقبة الثوريّة.

عوضاً عن إلغاء الدين كليّاً (كما حصل في الاتّحاد السوفياتيّ السابق)، أو فرض منظور دينيّ وحيد، قام جيفرسون ورفاقه بإرساء أسس فصل الكنيسة عن الدولة في أمريكا، من خلال مقاربة أكثر تسامحاً، مبنيّة حرفيّاً في آن واحد، على مبدأ حريّة المعتقدات والممارسات الدينيّة، وعدم تحيّز الدولة في القضايا الدينيّة. جيمس ماديسون، زميل جيفرسون في ثورته، قارب وجهة النظر تلك بشكل مباشر، فكتب: «لقد أُريقَت أنهارٌ من الدماء في العالَم القديم، بسبب محاولات التيّار العلمانيّ العبثيّة القضاءَ على النزاعات الدينيّة، وحَظْرَ كلّ الاختلافات بوجهات النظر الدينيّة، لكنّ الزمن كشف لنا عن العلاج الحقيقيّ: تخفيفُ السياسة المتصلّبة ذات المنظور الضيّق، أينما طُبّق، كان له تأثير بتخفيف المرض».

تلك التجربة الأمريكيّة، ما زالت تثير تساؤلات عميقة بعد أكثر من مئتي

عام. ينوّه ريتشارد داوكنز إلى أنّ «أمريكا هي دولة علمانيّة وفق القانون، لذلك تحوّل الدين إلى مؤسّسة حرّة»، ويوضّح كيف تتنافس الكنائس الأمريكيّة في السوق الروحانيّة، على الثروة وعلى المُصلّين. يمضي بعض المفكّرين أبعد من ذلك، ويقترحون أنّ الدين كمؤسّسة حرّة، خلقَ مستوى مرتفعاً غير عاديّ من التديّن في أمريكا. تختلف الأبحاث حول هذه النقطة، لكنّ القوّة الاقتصاديّة التي حقّقتها الكنائس العاملة في السوق الحرّ هذا، تستدعي بعض التمحيص. الكنائس، ورجال الدين (وأحياناً النساء) الذين يديرونها، جمعوا ثروات هائلة في أمريكا. سيفاجئنا عدد الإنجيليّين الأمريكيّين الذين يقبضون أجوراً تعادل مليون دولار، ويملكون منازل ثمنها ملايين الدولارات، ويركبون طائرات نفّاثة، كما يمارسون بكلّ تأكيد نفوذاً سياسيّاً. استناداً إلى «مركز بيو للأبحاث»، المجموعات الاستشاريّة الدينيّة –ومعظمها معفى من الضرائب– تُنفق ملايينَ الدولارات سنويّاً، في محاولة للتأثير على السياسة العامّة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. بالتالي، جدار الفصل ما بين الكنيسة والدولة الذي نصبه جيفرسون ورفاقه، مُهدَّد دائماً بأن يُخترق. حريّة التفكير، حريّة المعلومات، بل حتّى حريّة أن نفهم الأسس التطوّريّة لعقولنا، كلّها ستتعرّض للخطر عندما تُدغَم الحدود ما بين الكنيسة والدولة.

مجلس التعليم في ولاية تكساس هو حالة نموذجيّة، قد نعدّها هزليّة لو لم تكن مثالاً خطيراً على الرقابة، التي تمتزج هنا بالفصل غير الكفء ما بين الكنيسة والدولة (وهو الحال غالباً). المجلس المؤلّف بغالبيّته من مسيحيّين محافظين، حاول جاهداً طيلةَ سنوات، أن يفرض تعاليم «عقيدة الخلق» المسيحيّة في منهاج المدارس العامّة، وأن يفرض الرقابة على تدريس التطوّر، وأن يروّج لمعلومات زائفة عن صحّة الاصطفاء الطبيعيّ. رغم أنّ توماس جيفرسون يُعَدّ من أبرز الفلاسفة السياسيّين في التاريخ الأمريكيّ، ويُنْسَب له الفضل بكتابة إعلان الاستقلال، لكنّ المجلس حاول أن يمحو اسمه من منهاج التاريخ، ربّما لأنّه أيضاً مُبتكِر عبارة «فصل الكنيسة عن الدولة»! بعد حذف اسم توماس جيفرسون، من قائمة فلاسفة التنوير

الآخرين -جون لوك، توماس هوبز، ڤولتير، جان جاك روسو، وتشارلز دي مونتانيه- قام المجلس بإضافة جون كالڤن، اللاهوتيّ الذي أيّد اغتيال المهرطقين، وأعلن ذات مرّة: «لا وجود لحجاب يحجب عنّا الروح القدس، أسوأ من أن نثق بذكائنا». عندما تعرّض المجلس لانتقادات عديدة، أعادَ اسم جيفرسون مجدّداً إلى القائمة، لكنّه حذف مفردة «التنوير» من المنهاج!

بالإضافة إلى ما سبق، هاجم المجلس بشكل مباشر فصلَ الكنيسة عن الدولة، فعندما قدّم أحد أعضائه الديمقراطيّين اقتراحاً، لوضع معيار يسمح للتلاميذ بـ «فحص الأسباب التي جعلت الآباء المؤسّسين، يدافعون عن الحريّات الدينيّة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وذلك بمنع الحكومة من الترويج لأيّ دين، أو محاباته دوناً عن بقيّة الأديان»، جادل عضو جمهوريّ بأنّ «نيّة الآباء المؤسّسين، لم تكن فصل الكنيسة عن الدولة في أمريكا»، مدّعياً أنّ تصريحهم ذاك ليس «صحيحاً تاريخيّاً»، من ثمّ صوّت المجلس ضدّ المعيار المقتَرح. واقع أنّ انتهاكاً للتفكير الحرّ من هذا النمط يحدث في أمريكا المعاصرة، التي تحظى فيها حريّة التعبير وفصلُ الكنيسة عن الدولة بالحماية القانونيّة، هو بحدّ ذاته شهادة على أنّ الرقابة الدينيّة تتسلّل بمكر.

ردّاً على الاعتداء على الحقائق في التعليم، سأذكّركم بأنّ العلم هو أحد أفضل الوسائل لجمع معلومات غير متحيّزة. إنّه يسمح لنا باختبار الأفكار التي قد تبدو صحيحة -لكنّها ليست كذلك في الواقع- وبالابتعاد عن الافتراضات المضلّلة. فضلاً عن ذلك، يسمح لنا العلم بأن نشكّكَ بصحّة قناعاتنا الشخصيّة، وبالتالي فهو يقدّم خدمة لا غنى عنها للبشريّة، خاصّة على ضوء كلّ الافتراضات التي نضعها نحن البشر، اعتماداً على ما يبدو لنا غريزيّاً من الناحية العاطفيّة. العلم يكشف لنا عن تصميم أدمغتنا، وكيف يجعلُ هذا التصميم -رغم أنّه مدهش- عواطفنا وأفكارنا وسلوكنا عرضة للتحيّز.

على الرغم من تلطيخ سمعة علم التطوّر، على يد مجموعة ضخمة ثريّة متمكّنة اقتصاديّاً، من المسيحيّين المحافظين في أمريكا، لكنّه نافع للغاية، لأنّه يقدّم لمحة فريدة من نوعها عن الأسباب المطلقة لسلوك الإنسان،

خاصّة ذاك الذي تنجم عنه معاناة بشريّة (كالعنف الذي يحرّضه الدين).
أحياناً، قد يثبّطنا علم التطوّر للسبب ذاته تحديداً، أي لأنّه يجبرنا على إدراك أنّنا مؤهّلون تحت ظروف معيّنة، لارتكاب الفظائع بحقّ الآخرين، كما أنّ البعض يخشون من أنّ هذا الإدراك يقلّص حريّة الاختيار، لكنّنا لسنا مقيّدين بهندستنا التطوّريّة، بل قادرون على التغلّب عليها بذكائنا: استخدام موانع الحمل هو مثال كثيراً ما يورده علماء التطوّر، لأنّنا كسرنا بواسطته الحلقة ما بين تصميمنا التطوّريّ (أي أن نتكاثر)، ورغباتنا الخاصّة (أن نمارس الجنس). استخدام النظّارات، والواقيات الشمسيّة، هما مثالان آخران عن رفضنا الانصياع للجينات التي وهبتْنا إيّاها أمّنا الأرض.

جمال علوم التطوّر، يكمن في أنّها قادرة على توسيع مدى حريّاتنا القائمة. لو فهمنا ميولنا التطوّريّة، فقد نتّجه نحو خيارات أكثر عقلانيّة وإنسانيّة، كعدم الاستجابة مثلاً إلى نزعاتنا التدميريّة، بما فيها تلك الدفينة في صميم الدوغما الدينيّة، كالنصوص المقدّسة التي تصوّر الغرباء دائماً على أنّهم عديمو الأخلاق، أو خطرون، أو أشرار. عندما تخضع علوم التطوّر إلى رقابة السلطات الدينيّة، ستتلاشى مقدرتها على الإسهام بحوار مجتمعيّ أعمق وأشدّ تراحماً، لكنّها ستبقى مع ذلك قادرة على إذكاء مجموعة أخرى ملائمة من المعتقدات البشريّة، إنْ سُمح لها بالمشاركة في النقاش الدائر حول هويّتنا. كلّما فهمنا كيف، ولماذا، نميل نحن البشر إلى التصرّف كما نفعل الآن، ستزداد قدرتنا على تجاوز الحدود التي تعيقنا اليوم.

التعليم «العلميّ» القويّ والمحميّ، ليس متاحاً على نحو واسع كما ينبغي، كما أنّ العديد من الأنظمة التعليميّة حول العالم، لا تشجّع التدريبَ على التفكير التحليليّ والنقديّ، لكنّ هذا النمط تحديداً من التفكير النقديّ، أي الدافع لفحص كلّ شيء – بما في ذلك لماذا السماء زرقاء، ولماذا يكون الله عادة رجلاً كليّ القدرة يجب إرضاؤه– هو ما سيدعم في نهاية المطاف تطوّرنا الروحيّ والاجتماعيّ الدائم.

أوّل مبدأ من مبادئ التعليم، يجب أن يكون قيام المرء بتمحيص ما يعرفه

وما يفهمه، ساعياً إلى عدم التحيّز. هنا، يمكن للأخلاقيّات الدينيّة أن تتعلّم الكثير من الأخلاقيّات العلميّة، لأنّ العلم هو أداة غير متحيّزة، والعلماء (إن أجرَوا أبحاثهم على نحو صحيح) يسعون إلى تطبيق قواعد عدم التحيّز قدر الإمكان، كي لا يلوّثوا العلم بالتعصّب الشخصيّ. من نافل القول إنّ البشر قادرون على تلويث أيّ جهد بالتعصّب، وهو ما يعيه العلماء تماماً من خلال ممارستهم اليوميّة، لكنّ العلم يختلف عمّا عداه من أساليب المعرفة، بامتلاكه طرقاً عديدة لمقاومة ذلك الخطر. على النقيض منه، الأديان عموماً ضعيفة من منظور عدم التحيّز، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى أنّ الرجال المهيمنين، خلقوا آلهة على صورتهم ومثالهم، ممّا جعلها آلهة معصومة. في هذه المرحلة، لا بدّ أنّنا قد أدركنا المخاطر التي تطرحها وجهة النظر تلك، فإطاعة عقيدة لا يمكن التشكيك بها، ولا تقديم ما يعارضها، تعني أن يضع المرء نفسه بصراحة تحت رحمة السلوك الاستبداديّ. على العكس من ذلك، يقوم العلم على «قاعدة الدحض»، أي أنّه يطرح فرضيّات قد تكون خاطئة أو صحيحة، ثمّ يتأكّد من صحّتها بواسطة الملاحظة والتجريب، وينبذها فوراً إن تبيّن أنّها خاطئة. في جوهرها، تتطلّب قاعدة الدحض القدرة على الشكّ، أي أنّها تتناقض تناقضاً أساسياً مع مفهوم العصمة.

رغم أنّ العلم ما زال عرضة لنقاط ضعف الأشخاص الذين يدرسونه، فإنه ينطلق على الأقلّ من تواضع مقصود، فضلاً عن أنّه قادر على التكيّف، أمّا العقائد الدينيّة فمشكوك بقدرتها على ذلك. عندما تُطرَح نظريّة تُقدَّم عليها براهين متناقضة، من خلال البحث العلميّ غير المُقيّد، وعندما تُجمَع أدلّة تكفي للافتراض منطقياً بأنّها نظريّة خاطئة، سيتمّ نبذها على الفور، أي أنّ العلم مُنفَتِحٌ من حيث المبدأ على المعلومات الواردة. من ناحية أخرى، كلّ ما يحمل صفة «العصمة»، سواء الآلهة أو الرجال أو الأديان أو النصوص، يحظر عن عمد تصحيح المعلومات، ويجعل هذا معلوماً للجميع، كما يرتكز على يقين ذاتيّ مغرور بما يخصّ طبيعة الكون، والطريقة الصحيحة لإدارة شؤون البشر. لدى الأديان الكثير ممّا تقوله على صعيد الإنسانيّة، لكن -كما

هو حال التراتبيّات الهرمية عند الآيب، وعند البشر - التواضع لا يتناسب مع المرتبة، بل يتّجه إلى الأعلى دائماً، أي أنّ إظهار الخضوع لله ولرجال الدين المهيمنين هو واجب إجباريّ، أمّا إظهار الاحترام ولو بأبسط أشكاله تجاه الخاضعين، فأمر غير ضروريّ على الإطلاق!

لذلك، سأقترح مبدأ أخيراً لتبنّي حوار روحانيّ، يوسّع التواضع ليشمل المعرفة والتعليم والكائنات الأخرى. هذا التواضع قد يتبع المبادئ العلميّة الأساسيّة، أو التعاليم الدينيّة النادرة التي ترتكز على الفضول إزاء العالم، والانفتاحِ على تعلّم معلومات جديدة، آخذين بعين الاعتبار أنّنا لا نعرف كلّ ما ينبغي معرفته بعد. إنّها مقاربة انتهجها الفلاسفة العظماء عبر التاريخ، سقراط على سبيل المثال -وهو من أبرز المفكّرين في عصره- كان متلهّفاً لمعرفة حدود استطاعته على الفهم، فقال: «أعرف أنّني لا أمتلك الحكمة، سواء كانت يسيرة أم عظيمة». هناك الكثير غيره من الفلاسفة، والعلماء، والمؤرّخين، بل حتّى بعض القادة الدينيّين النادرين، ممّن أعتبرهم محاربين بروح عظيمة، لأنّهم تكبّدوا مخاطرة شخصيّة هائلة في صراعهم مع الجهل والتعصّب من خلال الفهم العقلانيّ، في محاولة لخلق عالم أكثر عقلانيّة وأكثر تراحماً.

الصحّة المجتمعيّة والاتّجاهاتُ المستقبليّة

تماشياً مع التواضع العلميّ، أنا أقرّ بوجود الكثير ممّا لم نفهمه بعد، عن علم الإيمان والممارسة الدينيّة، وبأنّ أسئلة عديدة ما تزال دون إجابة. بداية، بما أنّ التجربة الدينيّة تفعّل مراكز المكافأة في الدماغ، هل يمكن تحريض تلك التجربة بشكل مستقلّ، أي دون الخضوع إلى كينونة أقوى؟ أم أنّ «المقدرة الدينيّة» تطوّرت بشكل متداخل، مع تراتبيّات الهيمنة الهرميّة بين الرئيسيّات، بحيث لا يمكن فصل «النشوة الدينيّة» عن عبادة «الكينونة الأقوى» على الإطلاق؟ وإن استطعنا فصلهما حقّاً، فهل سيتمّ ذلك دوائيّاً، أم

بواسطة الهندسة الجينيّة، أم بممارسة «روحانيّات» معيّنة؟ قد يقدّم «التأمّل» حلاً، لكن من غير الواضح ما إذا كان مجزياً عاطفياً، كالشعور بالرهبة الذي ينتاب الرئيسيّات، بحضور كينونة «افتراضيّة» مهيمنة. هل ستكون تجربة التأمّل قويّة بما يكفي، كي تحلّ محلّ الأديان المعتمدة على الغزوات؟ هل يمكن للتعليم أن يدفع البشر إلى انتقاء المناحي الدينيّة الإيجابيّة فقط، من العقائد المختلفة التي تحثّ على التراحم، وعلى الوحشيّة، بآن واحد؟ أم أنّ مجموعة النصوص المقدّسة بحدّ ذاتها، تترك الباب مفتوحاً أمام الذكور المهيمنين في مجتمعات الرئيسيّات، كي يتسلّلوا ويستغلّوا دوافعهم التطوّريّة، تاركين وراءهم جثثاً وأحزاناً؟ لديّ العديد من الأسئلة، والعديد من الفرضيّات، لكنّنا بحاجة إلى فهم مستمدّ من البحث العلميّ الموضوعيّ.

سأطرح سؤالاً آخر، بدأت الإجابات عليه بالبزوغ لتوّها، وهو: هل أدّت العلمانيّة إلى تحسين حياة البشر على مستويات أخرى، غير التحرّر من القمع أو العنف على أيدي الذكور المهيمنين؟ كثيراً ما يجادل المتديّنون المحافظون بأنّ الصحّة المجتمعيّة[1] تعتمد على الإيمان بالله، بغية الحفاظ على النظام الأخلاقيّ، والانضباط الاجتماعيّ، والعدل. بأيّ حال، لعلّ من الأفضل أن نلقي نظرة على المجتمعات العلمانيّة، كي نستطلع أحوالها.

بالاقتباس عن أبحاث عالم الاجتماع فِل زوكرمان، يشير سام هاريس إلى أنّ البلدان الأكثر علمانيّة (كالدانمارك، السويد، النرويج، وهولندا) هي أفضل حالاً من معظم الدول المتديّنة، على صعيد مجموعة واسعة من مشعرات الصحّة المجتمعيّة، بما فيها: متوسّط العمر المتوقّع، معدّل وفيّات الرضّع، مستويات الجريمة، التعليم، الناتج القوميّ الإجماليّ، رعاية الطفولة، العدالة الاقتصاديّة، التنافس الاقتصاديّ، المساواة الجندريّة، الرعاية

1- يُعدّ المجتمع صحيّاً عندما يحصل جميع أفراده على فرص متكافئة، وعلى حقّ الوصول إلى كلّ المنتجات والخدمات المختلفة، الضروريّة للمواطنة الكاملة. معايير الصحّة المجتمعيّة متعدّدة، منها: الدور السياديّ للقانون، العدل في توزيع الثروات، ومشاركة الأفراد جميعهم في اتّخاذ القرارات. المترجمة

الصحيّة، الاستثمار في التعليم، معدّل الالتحاق بالجامعة، الوصول إلى الإنترنت، حماية البيئة، انخفاض معدّل الفساد، الاستقرار السياسيّ، وتقديم المساعدات إلى الأمم الفقيرة. توصّلت أبحاث أخرى إلى الاستنتاج ذاته، فأظهرت أنّ ارتفاع مستوى التديّن (بما في ذلك رفض المبادئ الداروينيّة) يترافق مع نتائج أضعف على مقاييس الصحّة المجتمعيّة، ممّا جعل الباحثين يعتقدون أنّ عدم الأمان الاجتماعيّ الاقتصاديّ، أو القلق الوجوديّ الذي يترافق مع الحياة في الدول الأقلّ ازدهاراً، قد يدفع الناس إلى اعتناق الإيمان الدينيّ كنوع من التكيّف. بعبارة أخرى، عندما لا يبدو البقاء مضموناً، تزداد جاذبيّة الراحة التي يوفّرها الدِين، رغم أنّها لا تحسّن شروط الحياة.

كلّ ما سبق يتوافق مع نتيجة الأبحاث، ومع تصوّر الله على أنّه «الرمز ألفا» الذي يقدّم الموارد والحماية من الموت، لكنّها قضيّة معقّدة، ولا بدّ من أن نفهم بدقّة الدور الذي تلعبه سيكولوجيا الذكر المهيمن في الاعتقاد الدينيّ. في البلدان العلمانيّة التي جرت فيها هذه الأبحاث، تتناقض العديد من المظاهر التي تجعلها مجتمعات صحّيّة، مع طموحات الذكر المهيمن، كارتفاع معدّل المساواة الجندريّة، المساواة الاقتصاديّة، التعليم، القبول الجامعيّ، الوصول إلى الميديا، وحماية البيئة. يفضّل ذكور الرئيسيّات المهيمنون أن يسيطروا على الأنثى، وأن يتحكّموا بها جنسيّاً، وهذا يعني بالنسبة للبشر انخفاض مستوى المساواة بين الجنسين. في المجتمعات التي يحكمها طغاة مستبدّون، المساواة الاقتصاديّة - الاجتماعيّة هي مجرّد حلم، ومعظم سكّانها يحاولون أن يتلاعبوا بكلّ مؤشّرات الثروة الاقتصاديّة - الاجتماعيّة، سواء كانت الأموال النقديّة، أم ثمرات الإنتاج، أم الفواكه على أشجار غومبي. تاريخيّاً، شكّلت المعرفةُ تهديداً دائماً للذكور المهيمنين، سواء نتجت عن التعليم، أو دخول المدارس، أو الوصول إلى الميديا.

حماية البيئة، تتعارض غالباً مع الإيديولوجيا الاقتصاديّة التي تؤيّد النموّ أيّاً كانت التكاليف، والتي تحرّضها استراتيجيّة التكاثر الشرهة عند الذكور. لذلك، قد يتعارض التديّن بحدّ ذاته مع الصحّة المجتمعيّة، لكنّنا

لا نستطيع التقليل من أهميّة تأثير الأديان السائدة في تلك الأمم، خاصّة الأديان الإبراهيميّة وإلهها الذكر المهيمن، الذي يمنح الرجالَ المهيمنين الذين يمثّلونه الحقَّ بقمع النساء، وجمع الثروة، والتحكّم بالعقول، وتدمير البيئة. من الممكن أيضاً أن نعزو انخفاض معدّلات الجريمة إلى سيكولوجيا الهيمنة، فالأبحاث تشير إلى أنّ الجرائم لا تنجم عن الفقر، وإنّما عن عدم المساواة بتوزّع الموارد الاقتصاديّة، وهذا بدوره نتيجة ثابتة تظهر عندما يتلاعب الذكور المهيمنون، بالجوائز التي تقدّمها التراتبيّة الهرميّة.

سأذكّركم مرّة أخرى بأنّ المسألة معقّدة، وبعدم وجود أبحاث كافية تتناول العلاقات السابقة، كما أنّ الأسئلة الأهمّ ما تزال دون إجابة. هل الرجال المهيمنون في الدول العلمانيّة، أقلّ قدرة على فرض الحكم الشموليّ، نظراً لعدم وجود إله ذكر مهيمن يساندهم؟ هل يساعد ارتفاع مستوى العلمانيّة، على تحرّر المواطنين من العقائد الدينيّة القائمة على الهيمنة والخضوع، ممّا يجعلهم بالتالي أكثر مناعة، أمام محاولة الرجال الطموحين التلاعب بالله كأنّه دمية؟ هل تقوم العلمانيّة بإنعاش التعليم أو مهارات التفكير النقديّ، التي تساعد الناس على مقاربة الأديان من خلال أسئلة واعية؟ لا مفرّ من استخلاص استنتاجات معيّنة هنا: يشعر الناس بأنّهم أقلّ ارتباطاً بالسلطات الدينيّة، في البلدان التي تقدّم برامج رعاية اجتماعيّة موسّعة، كانت سابقاً من صلاحيّات الكنيسة، التي لطالما عُدّت مسؤولة عن المصلحة العامّة، والتعليم، والرعاية الصحّيّة، والأيتام... إلخ، لكنّها خسرت موقعها بعد أن تحوّلت الجامعات إلى قلاع للمعرفة، وتطوّرت برامج رعاية اجتماعيّة تديرها الدولة العلمانيّة. نلاحظ أنّ الدول الأقلّ تديّناً، ذات الصحّة المجتمعيّة العالية، تتمتّع ببرامج الرعاية الاجتماعيّة الأفضل، وتديرها الدولة.

في كلّ تلك الدراسات، تبدو أمريكا ناشزة على صعيد العديد من المتغيّرات. تشير الأبحاث دائماً إلى انخفاض مستوى التديّن في البلدان المزدهرة اقتصاديّاً، ما عدا الولايات المتّحدة الأمريكيّة، التي تمتاز أيضاً

بالمعدّل الأعلى لعدم المساواة الاقتصاديّة، رغم أنّها دولة ثريّة. لا يفاجئنا أنّ مستوى التديّن ينخفض مع تزايد الثروة، حتّى في أمريكا، وبالعودة إلى عالِم السيكولوجيا التطوّريّة جون برايس، ونقاشه حول الخضوع المؤقّت كنوع من التكيّف المحتمَل، لا بدّ من أن نتساءل حول ما إذا كان الِدين في الولايات المتّحدة الأمريكيّة يمثّل استراتيجيّة، تهدف إلى وضع الطبقات الدنيا في «حالة استسلام ذهنيّ»، وإن كان هذا صحيحاً، إلى أيّ درجة تلعب النصوص المقدّسة دوراً في ذلك؟ تسود في المسيحيّة أفكار تشجّع على الاستسلام، انتظاراً للجائزة الكبرى فيما بعد، عندما يعود المسيح وينتزع الثروة من الملوك لمصلحة الورعين (ويدمّر الكوكب بأكمله في سياق ذلك)، فضلاً عن أنّ الضعفاء سيرثون الأرض فقط بمجرّد الانتظار... إلخ. هل تدفع هذه النصوص ومشابهاتها، البشرَ إلى قبول التفاوت الاقتصاديّ؟ هل تكبح ردود أفعالهم؟ في السويد، حيث معظم الناس ملحدون، تبلغ نسبة أجور المدير التنفيذيّ إلى أجور العامّة 13: 1، أمّا في أمريكا، حيث يؤمن ثمانون بالمئة من المواطنين بيوم الدينونة، فتبلغ تلك النسبة 475: 1.

على ما يبدو، يترافق التديّن في أمريكا أيضاً بالتمييز العنصريّ. هل لذلك علاقة بالإيمان بِدين يرتكز على إله وشعب مختار، ويحثّ على التطهير العرقيّ ضدّ أولئك الذين لا ينتمون إلى الجماعة؟ تاريخيّاً، كان المستوطنون الأمريكيّون متمرّسين باستغلال المسيحيّة، للهيمنة على الأعراق الأخرى، كالعبيد الإفريقيّين وسكّان أمريكا الأصليّين، الذين أُجبِروا على الركوع أمام الأوروبيّين وإلههم الذكر المهيمن. ما الدور الذي تلعبه النصوص المقدّسة التي تنصّ على الهيمنة العرقيّة، في التمييز العنصريّ المعاصر؟ فكّروا بالنصيحة التالية، التي يقدّمها الكتاب المقدّس للعبيد: «أيّها العبيدُ أطِيعوا سادتَكم حَسْبَ الجَسَد بخوفٍ ورعدةٍ في بَسَاطة قلوبِكم كما للمسيح» (رسالة بولس الرسول إلى أهل إفسس 6: 5)، «جميع الذين هم عبيدٌ تحت نيرٍ فليحسبوا سادتهم مستحقّين كلّ إكرامٍ لئلا يُفترَى على اسم الله وتعليمه» (رسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس 6: 1). الدول السليمة التي

وصفناها سابقاً، تتميّز بارتفاع مستوى المساواة الاقتصاديّة، ووجود برامج رعاية اجتماعيّة تشمل المواطنين جميعهم، بما فيها إجازات أمومة مدفوعة الأجر للنساء، ورعاية طبيّة شاملة، وضمان اجتماعيّ، ورواتب للمتقاعدين، أمّا الولايات المتّحدة الأمريكيّة، بثقافتها التي تشدّد على المسؤوليّة الفرديّة وريادة الأعمال، فتحدّ من تقديم الخدمات العامّة ورعاية المجتمع. يجادل الباحث المستقلّ غريغوريّ بول، بأنّ القوى الدينيّة السياسيّة المحافظة في أمريكا، تدعم تخفيف القيود على الأثرياء وتخفيض ضرائبهم، ويعلّق ساخراً: «اليمين المتديّن، وهو العدوّ الأوّل للداروينيّة، تحوّل إلى الطليعة القائدة لما يُعرف بالداروينيّة الاقتصاديّة - الاجتماعيّة». يشير بول أيضاً، إلى أنّ القوى ذاتها تروّج بنشاط للإحسان المرتكز على الإيمان، كبديل عن الخدمات الاجتماعيّة التي يجب أن تتولّاها الدولة، على الرغم من أنّ التجارب أثبتت أنّ الإحسان المدفوع بالإيمان، ليس أكثر كفاءة.

ما هي الفوائد التي حصدتها القوى الدينيّة المحافظة في أمريكا، من إبقاء العامّة معتمدين على الإحسان المرتكز إلى الإيمان؟ إنّه سؤال آخر مفتوح، لكنّ التاريخ الثقافيّ للهيمنة الدينيّة في أمريكا، استغلّ الإحسانَ الدينيّ كأداة لإبقاء الطبقات الدنيا في موقعها الاجتماعيّ. على سبيل المثال، تمّ إجبار العبيد الإفريقيّين والسكّان الأمريكيّين الأصليّين، على التخلّي عن الاكتفاء الذاتيّ والوسائل التي كانت تعيلهم سابقاً (باختطاف العبيد الأفارقة من بلدانهم الأصليّة، وإبادة الحيوانات التي يعتمد عليها السكّان الأصليّون والاستيلاء على أراضيهم). من ثمّ، تمّ وضعهم تحت نير الإحسان الإجباريّ الذي توزّعه الكنائس والحملات التبشيريّة، التي قدّمت الطعام والعقيدة المسيحيّة على حدّ سواء، من خلال التنصير الانتقائيّ والاعتماد على عقائد الخضوع السالفة الذكر بالدرجة الأولى. هذه الاستراتيجيّة ليست وليدة أمريكا، فنابليون قال ذات مرّة: لا يمكن أن يقوم المجتمع من دون عدم المساواة بالثروات، وعدم المساواة بالثروات لا يمكن أن يقوم من دون التديّن. عندما يموت رجل ما من الجوع إلى جانب رجل آخر سمين،

من المستحيل أن يقبل بذلك الفرق ما لم توجد سلطة تقول له «الله يريد ذلك. يجب أن يكون هناك أغنياء وفقراء في هذا العالم، لكن في الآخرة، وفيما يتعلّق بكلّ مسائل الأبديّة، هناك ترتيبات مختلفة». إلى أيّ درجة ترتبط عقائد الخضوع في المسيحيّة، مع التفاوت الشاسع في الثروات في أمريكا؟ ولماذا يميل الأثرياء الأمريكيّون إلى أن يكونوا أقلّ تديّناً؟ هل يجعلهم امتلاك السلطة، أقلّ هشاشة أمام عقائد الخضوع؟ وكيف يتمّ ذلك؟

أخيراً، قد يساعدنا «تمكين النساء» بتضييق الخناق على الذكور الأقوياء، الذين يحاولون تخريب القوّة المجتمعيّة للأمم. على الرغم من أنّ المرأة تنجذب إلى صفات الهيمنة عند الذكور، وتكافئ الذكر المهيمن بالجنس (لعلّه الحافز الأقوى الذي يدفع الذكور إلى الهيمنة)، لكنّ مدى تحكّم المرأة باحتياجاتها، يعتمد على مستوى استقلالها اقتصادياً عن الرجل. على سبيل المثال، المجتمعات التي لا تولي العفّة أهميّة خاصّة (العفّة هي شكل من أشكال التحكّم الجنسيّ بالأنثى)، كالدول الإسكندنافيّة التي تحتلّ الصدارة هنا مرّة أخرى، هي المجتمعات ذاتها التي تقدّم أفضل الخدمات الاجتماعيّة للنساء، كرعاية الأطفال المجانيّة، وإجازات الأمومة الطويلة المدفوعة الأجر، وغيرها من المزايا الأموميّة المتنوّعة. يشرح ديفيد باس هذا بقوله: «حيثما تتحكّم المرأة بمصيرها الاقتصاديّ، لن تطلب استثماراً كبيراً من الرجل، وبالتالي يصبح التنافس أقلّ، وتصبح المرأة حرّة برفض ما يفضّله الرجل... قد يولي الرجال في كلّ مكان، أهميّة كبرى للعفّة إن ضمنوا الحصول عليها، لكن ببساطة، لا يمكنهم في بعض المجتمعات أن يطالبوا العروس بها». مدى تأثير الدوغما الدينيّة بالسياسة العامّة المتعلّقة بجنسانيّة المرأة، وقوّتها الاقتصاديّة، هو سؤال مفتوح بدوره. فكّروا بقوّة الرسائل التي يطرحها الكتاب المقدّس، كما يرد في سفر التثنية، عندما يكتشف أحد الرجال بأنّ عروسه ليست عذراء، فيُسمَح له برجمها حتّى الموت على عتبة منزل أبيها (سفر التثنية 22: 13-21). في المجتمعات الصحّية المذكورة، توجد (أو من المفترض وجود) قيمة أخلاقيّة واضحة،

تعيد إلى المرأة حقّها بالتحكّم بجنسانيّتها، فضلاً عن دعم هذه الخطوة من خلال السياسة العامّة.

بأيّ حال، الرسالة التي نستخلصها من الأبحاث السابقة كلّها، هي أنّ انخفاض مستوى التديّن يترافق مع صحّة مجتمعيّة أفضل، وهو ما يتناقض كليّاً مع الجدل الذي يثيره المسيحيّون المحافظون في أمريكا، والذي يعيد إلى الأذهان مجدّداً العلل المجتمعيّة، الناجمة عن الأخلاقيّات القائمة على استرضاء نزوات الإله ألفا.

أفكار ختاميّة

أنا ممّن يعتقدون أنّ العلم لن يحلّ مكان الدين أبداً، أو على الأقلّ، ليس على مستوى عالميّ. على العكس من ذلك، أنا أكنّ تقديراً عميقاً للإحساس بـ «معنى الوجود»، الذي يقدّمه لنا إدراكنا بأنّنا جزء من شيء ما أعظم منّا، لكنّني أرفض الفكرة القائلة بأنّ هذا الشيء هو ذكر مهيمن ما - فوق طبيعيّ، وأنّنا خُلقنا على صورته، أو أنّنا مرتبطون به لأنّنا نتحدّر من صلبه، أو لأنّنا خاضعون له وفق نظام تراتبيّ. هذه الصفات تعكس محدوديّتنا كحيوانات تملك أدمغة مصمّمة لاستكشاف التراتبيّات الهرميّة الاجتماعيّة، كما أنّها لا تصمد أمام التمحيص الدقيق.

من ناحية أخرى، أنا أدرك كم يرعبنا الإقرار بأنّنا لسنا كائنات مميّزة يحميها الأمل بحياة أبديّة، وبأنّنا حيوانات تمتّ بصلة للآيب، وبأنّنا محكومون في نهاية المطاف بالفناء كبقيّة المخلوقات. مع ذلك، أنا كالعديد غيري من العلماء، أجد معنى في الرهبة والدهشة المترافقتين مع حقيقة أنّنا مرتبطون إلى حدّ بعيد، أكبر ممّا كنّا نظنّ، مع كلّ أشكال الحياة على هذا الكوكب، وأنّه ارتباط أعظم في الحقيقة منّا كأفراد. صدقاً، هذا الاكتشاف يدلّ على أنّنا لسنا ما نعتقده.

نحن لسنا كائنات راسخة في الزمن كما نتخيّل أنفسنا، بل جزء من تيّارات مستمرّة تتدفّق عبر أنهار الزمان والمكان، تيّارات من الأسلاف ومن

الجينات التي انتقلت منهم إلينا، وكلٌّ منّا هو مجرّد لحظة في تلك التيّارات. العلم يكشف لنا عن أنّ أجسادنا وأدمغتنا تقولَبَت من خلال برمجتنا الجينيّة، وأنّ إحساسنا بذاتنا ناجم عن نشاط أدمغتنا التي تُبنى تدريجيّاً، لا من خلال تجاربنا الخاصّة فحسب، بل من اتّحاد كلّ الأدمغة المفكّرة التي سبقتنا. لذلك، نحن نرى عبر عيون أسلافنا. كلٌّ منّا يقوم بأمور مختلفة، ويحبّ أشياء ويكره أخرى، ويفكّر بأمور ويطمح إلى أمور غيرها، في مزيج من كلّ الحيوات التي سبقت وجودنا، والتي تبدأ من تجربتنا الشخصيّة بالوجود، وتمتدّ عبر الأجيال.

من وجهة نظري، إدراك أنّنا نتحدّر من الآيب هو جزء ممّا سبق، وهو أمر استثنائيّ! لا ينبع إحساسي بالدهشة من ارتباطنا به فحسب، بل بكلّ أشكال الحياة على هذا الكوكب، وكذلك من إدراكي بأنّ كلّ كائن بشريّ، هو كون افتراضيّ من أشكال الحياة المتداخلة بحدّ ذاته.

الطرق التي يحرّض من خلالها العالَمُ الطبيعيّ الدهشةَ والغموضَ، لا تُعدُّ ولا تُحصى، ممّا يجعل حاجتنا إلى كينونة ما – فوق طبيعيّة، حاجة مشكوكاً بها. هذه المعجزة تتنامى فقط عندما ندرك موقعنا فيها، ونقبل به.

***

المراجع

الفصل الأول

1. The Pew Research Center, «The Global Religious Landscape,» December 18, 2012. http://www.pewforum.org/201218/12//global – religious – landscape – exec/ (accessed November 10, 2014).
2. B. M. Knauft, «Violence and Sociality in Human Evolution,» Current Anthropology 32, no. 4 (1991).
3. F. de Waal, «Integration of Dominance and Social Bonding in Primates,» Quarterly Review of Biology 61 (1986) (as cited in Knauft, «Violence and Sociality in Human Evolution»).
4. F. J. White, «Social Organization of Pygmy Chimpanzees,» Understanding Chimpanzees , ed. P. G. Heltne and L. A. Marquardt (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1989) (as cited in Knauft, «Violence and Sociality in Human Evolution»).
5. M. N. Muller and J. C. Mitani, «Conflict and Cooperation in Wild Chimpanzees,» Advances in the Study of Behavior 35 (2005).
6. N. A. Chagnon, Yąnomamö: The Fierce People , 3rd ed. (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1983).

7. J. Henrich and F. J. Gil – White, «The Evolution of Prestige: Freely Conferred Deference as a Mechanism for Enhancing the Benefits of Cultural Transmission,» Evolution and Human Behavior 22 (2001): 167.

8. Ibid., p. 165.

9. R. N. Bellah, Religion in Human Evolution: From the Paleolithic to the Axial Age (Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press, 2011); and W. Johnson and T. Earl, The Evolution of Human Societies, 2nd ed. (Stanford, CA: Stanford University Press, 2000).

10. R. Wright, The Evolution of God (New York: Little, Brown, 2009)

11. Ibid., p. 19.

12. S. Gaschet, The Klamath Indians of Southwestern Oregon (Washington, DC: US Government Printing Office, 1890) (as cited in ibid.).

13. L. Marshall, «!Kung Bushman Religious Beliefs,» Africa: Journal of the International African Institute 32 (1962) (as cited in Wright, Evolution of God).

14. Johnson and Earl, Evolution of Human Societies, and Wright, Evolution of God.

15. Wright, Evolution of God, p. 59.

16. S. L. Rogers, The Shaman: His Symbols and His Healing Power (Springfield, IL: Charles C. Thomas, 1982) (as cited in Wright, Evolution of God).

17. A. Watson, The Evolution of International Society (New York: Routledge, 1992), p. 26 (as cited in Wright, Evolution of God).

18. Wright, Evolution of God, p. 82.

19. Hammurabi, Code of Hammurabi (Rockville, MD: Wildside, 2009), p. 7.

20. J. Bottero, Religion in Ancient Mesopotamia (Chicago: University of Chicago Press, 2000) (as cited in Wright, Evolution of God).

21. Wright, Evolution of God, p. 88.

22. W. Durant, Our Oriental Heritage (New York: Simon and Schuster, 1935).

23. Ibid., p. 233.

24. Wright, Evolution of God, p. 139.

25. Johnson and Earl, Evolution of Human Societies

26. Wright, Evolution of God, p. 139.

27. Ibid.

28. Ibid

الفصل الثاني

1. J. Archer, «Does Sexual Selection Explain Human Sex Differences in Aggression?» Behavioral and Brain Sciences 32, nos. 3–4 (2009): 249–66.

2. N. A. Chagnon, Yąnomamö: The Fierce People, 3rd ed. (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1983).

3. D. M. Buss, «The Multiple Adaptive Problems Solved by Human Aggression,» Behavior and Brain Science 32, nos. 3–4 (2009): 271. This article is a commentary on Archer, «Does Sexual Selection Explain Human Sex Differences in Aggression?»

4. The deer and peacock analogies that I use came from my reading of D. M. Buss, «Multiple Adaptive Problems».

5. R. A. Fisher, The Genetical Theory of Natural Selection (Oxford: Oxford University Press, 1930).

6. F. de Waal, Chimpanzee Politics: Power and Sex among Apes (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1998), p. 25.

7. B. B. Smuts, Sex and Friendship in Baboons (New York: Aldine, 1985).

8. Ibid.; D. M. Buss, The Evolution of Desire: Strategies of Human Mating (New York: Basic Books, 1994).

9. J. S. Gillis and W. E. Avis, «The Male – Taller Norm in Mate Selection,» Personality and Social Psychology Bulletin 6, no. 3 (1980).

10. B. Pawlowski, R. I. M. Dunbar, and A. Lipowicz, «Tall Men Have More Reproductive Success,» Nature 403 (2000).

11. B. Pawlowski and G. Jasienska, «Women's Preferences for Sexual Dimorphism in Height Depend on Menstrual Cycle Phase and Expected Duration of Relationship,» Biological Psychology 70, no.1 (2005).

12. S. Pinker, How the Mind Works (New York: W. W. Norton, 1997).

13. F. A. Beach and L. Jordan, «Sexual Exhaustion and Recovery in the Male Rat,» Quarterly Journal of Experimental Psychology 8, no. 3 (1956).

14. R. P. Michael and D. Zumpe, «Potency in Male Rhesus Monkeys: Effects of Continuously Receptive Females,» Science 200, no. 4340 (1978).

15. Buss, Evolution of Desire.

16. Ibid., p. 78.

17.Ibid., p. 79.

18.D. M. Buss et al., «Sex Differences in Jealousy: Evolution, Physiology, and Psychology,» Psychological Science 3, no. 4 (1992); B. P. Buunk et al., «Sex Differences in Jealousy in Evolutionary and Cultural Perspective: Tests from the Netherlands, Germany, and the United States,» Psychological Science 7, no. 6 (1996); D. A. DeSteno and P. Salovey, «Evolutionary Origins of Sex Differences in Jealousy: Questioning the 'Fitness' of the Model,» Psychological Science 7, no. 6 (1996).

19.Buss, Evolution of Desire.

20.D. Singh and P. M. Bronstad, «Female Body Odour Is a Potential Cue to Ovulation,» Proceedings of the Royal Society of London B (2001) (as cited in Buss, Evolution of Desire).

21.W. S. Gangestad, R. Thornhill, and E. C. Garver, «Changes in Women's Sexual Interests and Their Partners' Mate – Retention Tactics across the Menstrual Cycle: Evidence for Shifting Conflicts of Interest,» Proceedings of the Royal Society of London B 269, no. 1494 (2002) (as cited in Buss, Evolution of Desire).

22.Buss, Evolution of Desire, p. 25.

23.W. D. Hamilton, «The Genetical Evolution of Social Behaviour I, II,» Journal of Theoretical Biology 7, no. 1 (1964).

24.M. E. Hauber and P. W. Sherman, «Self – Referent Phenotype Matching: Theoretical Considerations and Empirical Evidence,» Trends in Neurosciences 24, no. 10 (2001).

25.R. Dawkins, The Selfish Gene (Oxford: Oxford University Press, 1976).

26.J. Ackerman, Chance in the House of Fate: A Natural History of Heredity (New York: Mariner, 2001), p. 141.

27.L. Cosmides and J. Tooby, «Evolutionary Psychology: A Primer,» http://www.psych.ucsb.edu/research/cep/primer.html (accessed May 5, 2012).

28.Ibid.

29.O. Devinsky and G. Lai, «Spirituality and Religion in Epilepsy,» Epilepsy & Behavior 12, no. 4 (2008).

30.S. Baron – Cohen, A. M. Leslie, and U. Frith, «Does the Autistic Child Have a 'Theory of Mind?'» Cognition 21, no. 1 (1985).

31.Ibid.

32.D. Johnson and J. Bering, «Hand of God, Mind of Man: Punishment and Cognition in the Evolution of Cooperation,» Evolutionary Psychology 4 (2006).

33.P. Boyer, «Are Ghost Concepts 'Intuitive,' 'Endemic,' and 'Innate?'» Journal of Cognition and Culture 3 (2003).

34.B. G. Purzycki and R. Sosis, «The Extended Religious Phenotype and the Adaptive Coupling of Ritual and Belief,» Israel Journal of Ecology & Evolution 59, no. 2 (2013).

35.S. Guthrie, Faces in the Clouds (Oxford: Oxford University Press, 1993).

36.J. Teehan, In the Name of God: The Evolutionary Origins of Religious Ethics and Violence (Chichester, UK: Wiley – Blackwell, 2010).

37.J. L. Barrett, Why Would Anyone Believe in God? (Lanham, MD: AltaMira, 2004).

38.B. J. Scholl and P. Tremoulet, «Perceptual Causality and Animacy,» Trends in Cognitive Sciences 4, no. 8 (2000).

39.P. Boyer, Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought (New York: Basic Books, 2001).

40.C. F. Zink et al., «Know Your Place: Neural Processing of SocialHierarchy in Humans,» Neuron 58, no. 2 (2008).

41.A. Moors and J. de Houwer, «Automatic Processing of Dominance and Submissiveness,» Experimental Psychology 52, no. 4 (2005).

الفصل الثالث

1. D. L. Smith, The Most Dangerous Animal: Human Nature and the Origins of War (New York: St Martin's Griffin, 2007).

2. P. Shepherd, The Others: How Animals Made us Human (Washington, DC: Island/Shearwater, 1996), p. 29 (as cited in ibid.).

3. J. A. Byers, American Pronghorn: Social Adaptations & the Ghosts of Predators Past (Chicago: University of Chicago Press, 1997) (as cited in Smith, Most Dangerous Animal). 4. C. R. Darwin, «A Biographical Sketch of an Infant,» Mind: A Quarterly Review of Psychology and Philosophy 2, no. 7 (1877): 288.

5. S. Agras, D. Sylvester, and D. Oliveau, «The Epidemiology of Common Fears and Phobias,» Comprehensive Psychiatry 10, no. 2 (1969).

6. S. B. Hrdy, The Woman that Never Evolved (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999).

7. E. Marais, My Friends the Baboons (London: Blond and Briggs, 1975).

8. M. Hiraiwa – Hasegawa et al., «Aggression toward Large Carnivore by Wild Chimpanzees of Mahale Mountains National Park, Tanzania,» Folia Primatologica 47, no. 1 (1986).

9. R. B. Lee, The !Kung San: Men, Women and Work in a Foraging Society (New York: Cambridge University Press, 1979).

10.T. N. Headland and H. W. Green, «Hunter – Gatherers and Other Primates as Prey, Predators, and Competitors of Snakes,» Proceedings of the National Academy of Sciences USA 108, no. 52 (2011).

11.G. Pinch, Egyptian Mythology: A Guide to the Gods, Goddesses, and Traditions of Ancient Egypt (Oxford: Oxford University Press, 2002).

12.Euripides, Herakles , trans. Tom Sleigh (New York: Oxford University Press, 2001). 13. E. Becker, The Denial of Death (New York: Free Press, 1973), p. 26.

14.M. J. Landau et al., «Deliver Us from Evil: The Effects of Mortality Salience and Reminders of 911/ on Support for President George W. Bush,» Personality and Social Psychology Bulletin 30, no. 9 (2004).

15 . H. Fineman, «The Gospel According to George,» Newsweek, April 25, 2004, http://www.newsweek.com/gospel – according – george – 125363 (accessed September 20, 2011).

16.E. Becker, The Birth and Death of Meaning , 2nd ed. (New York: Free Press, 1971), p. 161.

17.«BBC Profile: Nicaraguan President Daniel Ortega,» BBC

, November 6, 2011, http://www.bbc.co.uk/news/world – latin – america – 15544315 (accessed February 20, 2012); H. Williams, «Violeta Barrios de Chamorro,» in Women in World Politics: An Introduction , by F. D'Amico, ed. P. R. Beckman (London: Bergin and Garvey, 1995).

18.A. C. Little et al., «Facial Appearance Affects Voting Decisions,» Evolution and Human Behavior 28 (2007); D. E. Re et al., «Facial Cues to Perceived Height Influence Leadership Choices in Simulated War and Peace Contexts,» Evolutionary Psychology 11, no. 1 (2013).

19.B. R. Spisak et al., «Warriors and Peacekeepers: Testing a Biosocial Implicit Leadership Hypothesis of Intergroup Relations Using Masculine and Feminine Faces,» PLoS ONE 7, no. 1 (2012).

20.A. Norenzayan and I. G. Hansen, «Belief in Supernatural Agents in the Face of Death,» Personality and Social Psychology Bulletin 32, no. 2 (2006).

21.M. Osarchuk and S. J. Tatz, «Effect of Induced Fear of Death on Belief in Afterlife,» Journal of Personality and Social Psychology 27, no. 58 (1973): 308–318; R. Willer, «No Atheists in Foxholes: Motivated Reasoning and Religious Ideology,» in Social and Psychological Bases of Ideology and System Justification , ed. J. T. Jost, A. C. Kay, and H. Thorisdottir (Oxford: Oxford University Press, 2009).

22.J. C. Buchan et al., «True Paternal Care in a Multi – Male Primate Society,» Nature 425, no. 6954.

23.C. Borries et al., «Males as Infant Protectors in Hanuman Langurs (Presbytis entellus) Living in Multi – Male

Groups: Defence Pattern, Paternity and Sexual Behaviour,» Behavioral Ecology Sociobiology 46 (1999).

24.Pope Benedict XVI, «Audience: What it means to call God 'Father,'» Official Vatican Network: Vatican Radio , http://www.news.va/en/news/audience – what – it – means – to – call – god – father (accessed July 12, 2013).

25.L. Parr and F. de Waal, «Visual Kin Recognition in Chimpanzees,» Nature 399 (1999). 26. S. Platek et al., «How Much Paternal Resemblance is Enough? Sex Differences in Hypothetical Investment Decisions, but not in the Detection of Resemblance,» Evolution and Human Behavior 24, no. 2(2003).

27.S. Platek et al., «Reactions towards Children's Faces: Resemblance Matters More for Males than Females,» Evolution and Human Behavior 23, no. 3 (2002).

28.A. Alvergne, C. Faurie, and M. Raymond, «Father–Offspring Resemblance Predicts Paternal Investment in Humans,» Animal Behaviour 78, no. 1 (2009).

29.M. J. E. Charpentier et al., «Message 'Scent': Lemurs Detect the Genetic Relatedness and Quality of Conspecifics via Olfactory Cues,» Animal Behaviour 80, no. 1 (2010).

30.T. Aquinas, Summa Theologica , vol. 1, pt. 1, trans. Fathers of the English Dominican Province (New York: Cosimo Classics, 2007).

31.Ibid., p. 470.

32.F. B. M. de Waal, «The Organisation of Agonistic Relations within Two Captive Troops of Java Monkeys (Macaca fascicularis),» Zeitschrift für Tierpsychologie 44 (1977); B. Chapais, «The Role of Alliances in

Social Inheritance of Rank among Female Primates,» in Coalitions and Alliances in Humans and Other Animals , vols. 29–59, ed. S. A. Harcourt and F. B. M. de Waal (Oxford: Oxford Science Publications, 1992); J. B. Silk, A. Samuels, and P. S. Rodman, «The Influence of Kinship, Rank, and Sex upon Affiliation and Aggression among Adult Females and Immature Bonnet Macaques (Macaca radiata),» Behaviour 78, no. 11981) 2/).

33.C. P. van Schaik and J. Janson, eds., Infanticide by Males and Its Implications (Cambridge: Cambridge University Press, 2000).

34.C. P. van Schaik and P. M. Kappeler, «Infanticide Risk and the Evolution of Male – Female Association in Primates,» Proceedings of the Royal Society B 264 (1997).

35.M. Daly and M. Wilson, «Some Differential Attributes of Lethal Assaults on Small Children by Stepfathers versus Genetic Fathers,» Ethology and Sociobiology 15, no. 4 (1984).

36.J. Pelikan, ed., Luther's Works (St. Louis: Concordia Publishing House, 1958).

37.D. P. Watts, «Reciprocity and Interchange in the Social Relationships of Wild Male Chimpanzees,» Behaviour 139, no. 22002) 3/).

38.D. P. Watts, «Grooming Between Male Chimpanzees at Ngogo, Kibale National Park. II. Influence of Male Rank and Possible Competition for Partners,» International Journal of Primatology 21, no. 2 (2000); K. Arnold and A. Whiten, «Grooming Interactions among the Chimpanzees of the Budongo Forest, Uganda: Tests of Five ExplanatoryModels,» Behaviour 140, no. 4 (2003).

39. D. P. Watts, «Coalitionary Mate Guarding by Male Chimpanzees at Ngogo, Kibale National Park, Uganda,» Behavioral Ecology and Sociobiology 44 (1998).

40. U. Gerloff et al., «Intracommunity Relationships, Dispersal Pattern and Paternity Success in a Wild Living Community of Bonobos (Pan paniscus) determined from DNA Analysis of Faecal Samples,» Proceedings of the Royal Society B 266, no. 1424 (1999); A. Widdig et al., «A Longitudinal Analysis of Reproductive Skew in Male Rhesus Macaques,» Proceedings of the Royal Society B 271, no. 1541 (2004); B. J. Bradley et al., «Mountain Gorilla Tug – of – War: Silverbacks have Limited Control over Reproduction in Multi–Male Groups,» Proceedings of the National Academy of Sciences 102, no. 6 (2005).

41. L. L. Betzig, Despotism and Differential Reproduction: A Darwinian View of History (New York: Aldine, 1986).

42. W. Burkert, Creation of the Sacred: Tracks of Biology in Early Religions (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996), p. 95.

43. W. Durant and A. Durant, The Age of Faith: A History of Medieval Civilization (Christian, Islamic, and Judaic) from Constantine to Dante, AD 325–1300, vol. 4 (New York: Simon and Schuster, 1950).

44. P. de Rosa, Vicars of Christ: The Dark Side of the Papacy (Dublin: Poolbeg, 2000).

45. Durant and Durant, Age of Faith.

46. B. R. Lewis, A Dark History: The Popes: Vice, Murder, and Corruption in the Vatican (New York: Metro, 2009).

47. Ibid.

48. W. Durant and A. Durant, The Age of Napoleon, vol. 11 (New York: Simon and Schuster, 1975).

49. C. Esdaile, Napoleon's Wars: An International History (New York: Penguin Group, 2007), p. 185.

50. A. Kamen, «George W. Bush and the G – Word,» Washington Post, October 14, 2005, http://www.washingtonpost.com/wpdyn/content/article/200513/10// AR2005101301688.html (accessed November 23, 2011).

51. J. Borger, «How Born – Again George Became a Man on a Mission,» The Guardian, October 6, 2005, http://www.theguardian.com/world/2005/oct/07/usa.georgebush (accessed November 23, 2011).

الفصل الرابع

1. D. C. Geary, J. Vigil, and J. Byrd – Craven, «Evolution of HumanMate Choice,» The Journal of Sex Research 41, no. 1 (2004).

2. D. Fossey, Gorillas in the Mist (New York: First Mariner, 1983).

3. F. de Waal, Chimpanzee Politics: Power and Sex among Apes (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1998), p. 163.

4. D. Maestripieri, Macachiavellian Intelligence: How Rhesus Macaques and Humans Have Conquered the World (Chicago: University of Chicago Press, 2007).

5. Ibid.

6. D. Maestripieri et al., «One – Male Harems and Female Social Dynamics in Guinea Baboons,» Folia Primatol 78 (2007).

7. J. J. Abegglen, On Socialization in Hamadryas Baboons (London: Associated University Presses, 1984); R. I. M. Dunbar, «The Social Ecology of Gelada Baboons,» in Ecological Aspects of Social Evolution: Birds and Mammals, ed. D. I. Rubenstein and R. Wrangham (Princeton: Princeton University Press, 1986).

8. D. Maestripieri et al., «One – Male Harems and Female Social Dynamics in Guinea Baboons;» L. Swedell and A. Schreier, «Male Aggression towards Females in Hamadryas Baboons: Conditioning, Coercion, and Control,» in Sexual Coercion in Primates: An Evolutionary Perspective on Male Aggression against Females, ed. M. Mueller and R. Wrangham (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2009).

9. A. F. Dixson, Primate Sexuality: Comparative Studies of the Prosimians, Monkeys, Apes, and Humans, 2nd ed. (Oxford: Oxford University Press, 2012).

10. T. Furuichi, «Agonistic Interactions and Matrifocal Dominance Rank of Wild Bonobos (Pan paniscus) at Wamba,» International Journal of Primatology 18 (1997).

11. T. Kano, «Male Rank Order and Copulation Rate in a Unit – Group of Bonobos at Wamba, Zaïre,» in Great Ape Societies, ed. W. C. McGrew, L. F. Marchant, and T. Nishida (Cambridge: Cambridge University Press, 1996).

12. F. de Waal, «The Brutal Elimination of a Rival among Captive Male Chimpanzees,» in Ostracism: A Social and Biological Phenomenon, ed. M. Gruter and R. D. Masters (Amsterdam: Elsevier, 1986).

13. C. Borries et al., «DNA Analyses Support the Hypothesis that Infanticide is Adaptive in Langur Monkeys,»

Proceedings of the Royal Society B 266 (1999); C. van Schaik and J. Janson, eds., Infanticide by Males and Its Implications (Cambridge: Cambridge University Press, 2000); C. Borries et al., «Males as Infant Protectors in Hanuman Langurs (Presbytis entellus) Living in Multi – Male Groups: Defence Pattern, Paternity, and Sexual Behaviour,» Behavioral Ecology andSociobiology 46 (1999). 14 . S. B. Hrdy, The Woman that Never Evolved (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999). 15. D. Bygott, «Cannibalism among Wild Chimpanzees,» Nature 238 (1974). 16 . M. B. Oliver and J. S. Hyde, «Gender Differences in Sexuality: A Meta – Analysis,» Psychological Bulletin 114 (1993) (as cited in Geary, Vigil, and Byrd – Craven, «Evolution of Human Mate Choice»).

17. G. D. Wilson, «Gender Differences in Sexual Fantasy: An Evolutionary Analysis,» Personality and Individual Differences 22 (1997) (as cited in Geary, Vigil, and Byrd – Craven, «Evolution of Human Mate Choice»).

18. B. J. Ellis and D. Symons, «Sex Differences in Sexual Fantasy: An Evolutionary Psychological Approach,» The Journal of Sex Research 27 (1990) (as cited in Geary, Vigil, and Byrd – Craven, «Evolution of Human Mate Choice»).

19. R. D. Clark III and E. Hatfield, «Gender Differences in Receptivity to Sexual Offers,» Journal of Psychology & Human Sexuality 2 (1989) (as cited in Geary, Vigil, and Byrd – Craven, «Evolution of Human Mate Choice»).

20. L. C. Miller, A. Putcha – Bhagavatula, and W. C. Pedersen, «Men's and Women's Mating Preferences: Distinct Evolutionary Mechanisms?» Current Directions in

Psychological Science 11 (2002) (as cited in Geary, Vigil, and Byrd – Craven, «Evolution of Human Mate Choice»).

21.B. J. Sagarin et al., «Sex Differences (and Similarities) in Jealousy: The Moderating Influence of Infidelity Experience and Sexual Orientation of the Infidelity,» Evolution and Human Behavior 2 (2003) (as cited in Geary, Vigil, and Byrd – Craven, «Evolution of Human Mate Choice»).

22.D. M. Buss et al., «Sex Differences in Jealousy: Evolution, Physiology, and Psychology,» Psychological Science 3 (1992); D. V. Becker et al., «When the Sexes Need Not Differ: Emotional Responses to the Sexual and Emotional Aspects of Infidelity,» Personal Relationships 11 (2004); S. M. Murphy et al., «Relationship Experience as a Predictor of Romantic Jealousy,» Personality and Individual Differences 40 (2006).

23.L. L. Betzig, Despotism and Differential Reproduction: A Darwinian View of History (New York: Aldine, 1986).

24.N. A. Chagnon, Yąnomamö: The Fierce People, 3rd ed. (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1983).

25.R. Hames, «Costs and Benefits of Monogamy and Polygyny for Yąnomamö Women,» Ethology and Sociobiology 17 (1996).

26.G. Simmons, «How to Sleep with Over 4,800 Women,» British GQ, March 21, 2012, http://www.gq – magazine. co.uk/comment/articles/2012–0321//gene – simmons – women – slept – with – dating – tips (accessed October 12, 2013).

27.D. M. Buss, The Evolution of Desire: Strategies of Human Mating (New York: Basic Books, 1994).

28. Betzig, Despotism and Differential Reproduction.
29. G. P. Murdock and D. R. White, «Standard Cross – Cultural Sample,» Ethnology 2 (1969).
30. Betzig, Despotism and Differential Reproduction, p. 2.
31. Ibid., p. 9.
32. F. G. Poma de Ayala, The First New Chronical and Good Government (Paris: Institut d'Ethnologie HRAF Translation, 1936), p. 77 (as cited in Betzig, Despotism and Differential Reproduction).
33. Betzig, Despotism and Differential Reproduction.
34. Ibid.
35. J. Roscoe, The Baganda: An Account of their Native Customs and Beliefs (London: Macmillan, 1911) (as cited in Betzig, Despotism and Differential Reproduction).
36. Betzig, Despotism and Differential Reproduction, p. 81.
37. W. G. Archer, The Loves of Krishna in Indian Painting and Poetry (Mineola: Dover, 2004).
38. E. H. Bryant, Krishna: A Sourcebook (New York: Oxford University Press, 2007).
39. T. Gruber, What the Bible Really Says about Sex: A New Look at Sexual Ethics from a Biblical Perspective (Worthington, OH: Tom Gruber, 2001).
40. Betzig, Despotism and Differential Reproduction.
41. T. W. Doane, Bible Myths and Their Parallels in Other Religions (New York: Truth Seeker, 1882).
42. L. Mealey, «The Relationship between Social Status and Biological Success: A Case Study of the Mormon Religious Hierarchy,» Ethology and Sociobiology 6, no. 4 (1985).

43.B. Nelson, «How Does Power Affect the Powerful,» New York Times, November 9, 1982,http://www.nytimes.com/198209/11//science/how – does – power – affect – the powerful. htmlhttp://www.nytimes.com/198209/11//science/how – does – power – affect – the – powerful.html (accessed September 2, 2014).

44.M. C. Langhorne and P. F. Secord, «Variations in Marital Needs with Age, Sex, Marital Status, and Regional Location,» The Journal of Social Psychology 4 (1955) (as cited in Buss, Evolution of Desire, p.27).

45.L. Cosmides and J. Tooby, «Evolutionary Psychology: A Primer,» http://www.psych.ucsb.edu/research/cep/primer.html (accessed May 5, 2012).

46.B. Pawlowski and G. Jasienska, «Women's Preferences for Sexual Dimorphism in Height Depend on Menstrual Cycle Phase and Expected Duration of Relationship,» Biological Psychology 70 (2005).

47.A. C. Little, B. C. Jones, and R. P. Burriss, «Preferences for Masculinity in Male Bodies Change across the Menstrual Cycle,» Hormones and Behavior 51, no. 5 (2007).

48.I. S. Penton – Voak et al., «Menstrual Cycle Alters Face Preference,» Nature 399 (1999); I. S. Penton – Voak and D. I. Perrett, «Female Preference for Male Faces Changes Cyclically: Further Evidence,» Evolution & Human Behavior 21 (2000).

49.S. W. Gangestad et al., «Women's Preferences for Male Behavioral Displays Change across the Menstrual Cycle,» Psychological Science 15, no. 3 (2004).

50.J. Havlicek, C. S. Roberts, and J. Flegr, «Women's Preference for Dominant Male Odour: Effects of Menstrual

Cycle and Relationship Status,» Biological Letters 1, no. 3 (2005).

51.D. A. Puts et al., «Men's Masculinity and Attractiveness Predict Their Female Partners' Reported Orgasm Frequency and Timing,» Evolution & Human Behavior 33, no. 1 (2011).

52.R. Thornhill, S. W. Gangestad, and R. Comer, «Human Female Orgasm and Mate Fluctuating Asymmetry,» Animal Behavior 50 (1995).

53.M. Daly and M. Wilson, «Evolutionary Psychology and Marital Conflict,» in Sex, Power, Conflict: Evolutionary and Feminist Perspectives, ed. D. M. Buss and N. M. Malamuth (Oxford: Oxford University Press, 1996).

54.D. M. Buss, «Preferences in Human Mate Selection,» Journal of Personality and Social Psychology 50, no. 3 (1986); D. M. Buss, «Sex Differences in Human Mate Preferences: Evolutionary Hypotheses Tested in 37 Cultures,» Behavioral and Brain Sciences 12 (1989); E. Hatfield and S. Sprecher, «Men's and Women's Preferences in Marital Partners in the United States, Russia, and Japan,» Journal of Cross – Cultural Psychology 26 (1995): 728–50; A. Feingold, «Gender Differences in Mate Selection Preferences: A Test of the Parental InvestmentModel,» Psychological Bulletin 112 (1992); M. B. Mulder, «Kipsigis Women's Preferences for Wealthy Men: Evidence for Female Choice in Mammals?» Behavioral Ecology and Sociobiology 27 (1990).

55.J. M. Townsend and G. Levy, «Effects of Potential Partners' Costume and Physical Attractiveness on Sexuality and Partner Selection,» Journal of Psychology 124 (1990).

56.W. G. Graziano, L. A. Jensen – Campbell, and S. G. West, «Dominance, Prosocial Orientation and Female Preferences: Do Nice Guys Really Finish Last?» Journal of Personality and Social Psychology 69 (1995).

57.H. L. Harrod, Renewing the Word: Plains Indian Religion and Morality (Tucson: University of Arizona Press, 1987).

58.E. A. Peers, Trans., The Life of St. Theresa of Avila (London: Sheed and Ward, 1979), pp. 192–93.

59.J. Lafrance, My Vocation is Love: Therese of Lisieux (Paris: Mediaspaul, 1994), p. 55.

60.BBC News, «Saudi Police 'Stopped' Fire Rescue,» March 15, 2002, http://news.bbc.co.uk/2/hi/1874471.stm (accessed October 22, 2012).

61.A. Bloom and C. Herrman, «The Road North,» http://www.pbs.org/frontlineworld/stories/nigeria/thestory.html (accessed October 22, 2012); Associated Press, «Mobs in Nigeria Set Fire to Office, Churches and Bystanders, Killing 50,» Los Angeles Times, November 22, 2002, http://articles.latimes.com/2002/nov/22/world/fg-nigeria22 (accessed April 4, 2012).

62.Buss, Evolution of Desire.

63.Ibid.

64.J. Goodall, Through a Window: My Thirty Years with the Chimpanzees of Gombe (New York: Mariner, 2010), p. 65.

65.M. Daly and M. Wilson, «Violence against Stepchildren,» Current Directions in Psychological Science 5, no. 3 (1996).

66.M. Daly and M. Wilson, «An Assessment of Some

Proposed Exceptions to the Phenomenon of Nepotistic Discrimination against Stepchildren,» Annales Zoologici Fennici 38 (2001).

67.R. A. Gutiérrez, When Jesus Came, the Corn Mothers Went Away: Marriage, Sexuality and Power in Mexico, 1500–1846 (Stanford: Stanford University Press, 1991).

68.Ibid., p. 76.

69.Ibid., p. 125.

70.Ibid., p. 123.

71.Ibid., p. 314.

72.Ibid., p. 70.

73.Ibid.

74.Ibid., p. 71.

75.Ibid., pp. 126–28.

76.Ibid., p. 131.

77.Ibid., p. 132.

78.Ibid., p. 134.

الفصل الخامس

1. A. Souther, «Warfare Analogy to Virus Infection,» http://www.ai.sri.com~rkf/designdoc/souther–analogy.txt (accessed November 20, 2011).
2. J. K. Choi and S. Bowles, «The Coevolution of Parochial Altruism and War,» Science 318 (2007).
3. S. Atran, Talking to the Enemy: Faith, Brotherhood, and the (Un)Making of Terrorists (New York: Harper Collins, 2010).

4. D. Grossman, On Killing: The Psychological Cost of Learning to Kill in War and Society (New York: Bay Back, 1995).

5. D. L. Smith, The Most Dangerous Animal: Human Nature and the Origins of War (New York: St. Martin's Griffin, 2007).

6. D. Hume, A Treatise on Human Nature (London: Penguin, 1985), p. 397 (as cited in Smith, Most Dangerous Animal).

7. Smith, Most Dangerous Animal, p. 188.

8. H. Sherwood, «The Palestinian Children—Alone and Bewildered—in Israel's Al Jalame Jail,» The Guardian, January 22, 2012, http://www.guardian.co.uk/world/2012/jan/22/palestinian – children – detained – jail – israel (accessed May 23, 2012).

9. W. Durant and A. Durant, The Age of Reason Begins: A History of European Civilization in the Period of Shakespeare, Bacon, Montaigne, Rembrandt, Galileo, and Descartes: 1558–1648 (New York: Simon and Schuster, 1961), p 554.

10. Ibid., p. 554.

11. Ibid.

12. J. Vaes, N. A. Heflick, and J. L. Goldenburg, «'We Are People:' Ingroup Humanization as an Existential Defense,» Journal of Personalityand Social Psychology 98, no. 5 (2010).

13. R. Trivers, «The Evolution of Reciprocal Altruism,» The Quarterly Review of Biology 46 (1971): 35.

14. W. Irons, «Religion as a Hard – to – Fake Sign of Commitment,» in Evolution and the Capacity for

Commitment, ed. R. M. Nesse (New York: Russell Sage Foundation, 2001), p. 298.

15.R. Sosis, «Religious Behaviors, Badges and Bans: Signaling Theory and the Evolution of Religion,» in Where God and Science Meet , ed. P. McNamara (Westport, CT: Praeger, 2006).

16.Ibid., pp. 66–7.

17.R. M. Seyfarth and D. L. Cheney, «Grooming, Alliances, and Reciprocal Altruism in Vervet Monkeys,» Nature 308 (1984); F. de Waal, Chimpanzee Politics: Power and Sex among Apes (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1998); F. de Waal, «Food Sharing and Reciprocal Obligations among Chimpanzees,» Journal of Human Evolution 18 (1989).

18.de Waal, «Food Sharing and Reciprocal Obligations among Chimpanzees».

19.de Waal, Chimpanzee Politics .

20.K. R. L. Hall, «Aggression in Monkey and Ape Societies,» in The Natural History of Aggression , ed. J. Carthy and F. Ebling (London: Academic Press, 1964) (as cited in D. Cummings, «Dominance, Status, and Social Hierarchies,» in The Handbook of Evolutionary Psychology , ed. D. M. Buss (Hoboken, NJ: Wiley, 2006).

21.R. O. Deaner and A. V. Khera, «Monkeys Pay – Per – View: Adaptive Valuation of Social Images by Rhesus Macaques,» Current Biology 15 (2005).

22.M. J. Boulton and P. K. Smith, «Affective Bias in Children's Perceptions of Dominance Relationships,» Child Development 61 (1990) (as cited in Cummings, «Dominance,

Status, and Social Hierarchies»); A. E. Russon and B. E. Waite, «Patterns of Dominance and Imitation in an Infant Peer Group,» Ethology & Sociobiology 2 (1991) (as cited in Cummings, «Dominance, Status, and Social Hierarchies»).

23. D. L. Cheney and R. M. Seyfarth, How Monkeys See the World (Chicago: University of Chicago Press, 1990); D. Maestripieri, Macachiavellian Intelligence: How Rhesus Macaques and Humans Have Conquered the World (Chicago: University of Chicago Press, 2007).

24. T. Nishida, «Alpha Status and Agonistic Alliances in Wild Chimpanzees (Pan troglodytes schweinfurthii),» Primates 24 (1983); J. Goodall, The Chimpanzees of Gombe: Patterns of Behavior (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1986).

25. Cummings, «Dominance, Status, and Social Hierarchies».

26. F. de Waal, «Exploitative and Familiarity – Dependent Support Strategies in a Colony of Semi – Free Living Chimpanzees,» Behavior 66 (1978).

27. C. Darwin, The Descent of Man (Amherst, NY: Prometheus Books, 1998).

28. D. Grossman, On Killing: The Psychological Cost of Learning to Kill in War and Society (New York: Bay Back, 1995).

29. S. Junger, War (New York: Hachette Book Group, 2010).

30. M. Miller and K. Taube, An Illustrated Dictionary of the Gods and Symbols of Ancient Mexico and the Maya (London: Thames and Hudson, 1993).

31. M. Leon – Portilla, Aztec Thought and Culture (Norman: University of Oklahoma Press, 1963).

32.Ibid., p. 163.

33.Miller and Taube, Illustrated Dictionary.

34.J. Teehan, In the Name of God: The Evolutionary Origins of Religious Ethics and Violence (Chichester, UK: Wiley – Blackwell, 2010).

35.Ibid., p. 149.

36.American Psychiatric Association, Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders, 5th ed. (Arlington, VA: American Psychiatric Association, 2013).

37.C. J. Ferguson, «Genetic Contributions to Antisocial Personality and Behavior: A Meta – Analytic Review from an Evolutionary Perspective,» The Journal of Social Psychology 150, no. 2 (2010).

38.L. Mealey, «The Sociobiology of Sociopathy,» in The Maladapted Mind: Classic Readings in Evolutionary Psychology, ed. S. Baron – Cohen (East Sussex, UK: Psychology Press, 1997): 169.

39.I. Ishaq, The Life of Muhammad (Oxford: Oxford University Press, 1955).

40.V. Bugliosi and C. Gentry, Helter Skelter: The True Story of the Manson Murders, 25th anniversary edition (New York: W. W. Norton, 1994).

41.Smith, Most Dangerous Animal, p. 100.

42.S. Wells, Drunk with Blood: God's Killings in the Bible (SAB Books, 2010).

43.W. Durant and A. Durant, The Age of Faith: A History of Medieval Civilization—Christian, Islamic, and Judaic—From Constantine to Dante: A. D. 325–1300, vol. 4 (New York: Simon and Schuster, 1950), p. 592.

44.C. W. Dugger, «Religious Riots Loom over Indian Politics,» New York Times, July 27, 2002, http://www.nytimes.com/200227/07//world/religious – riots – loom – over – indian – politics.html?pagewanted=all&src=pm (accessed October 20, 2011).

45.Wells, Drunk with Blood.

46.Ibid.

الفصل السادس

1. C. Darwin, The Descent of Man, and Selection in Relation to Sex (London: John Murray, 1871).
2. C. D. Watkins et al., «Taller Men are Less Sensitive to Cues of Dominance in Other Men,» Behavioral Ecology 21, no. 5 (2010).
3. C. F. Zink et al., «Know Your Place: Neural Processing of Social Hierarchy in Humans,» Neuron 58, no. 2 (2008).
4. A. Moors and J. De Houwer, «Automatic Processing of Dominance and Submissiveness,» Experimental Psychology 52, no. 4 (2005).
5. J. L. Isaac, «Potential Causes and Life–History Consequences of Sexual Size Dimorphism in Mammals,» Mammal Review 35 (2005); N. Owen – Smith, «Comparative Mortality Rates of Male and Female Kudu: The Costs of Sexual Size Dimorphism,» Journal of Animal Ecology 62 (1993).
6. S. Pinker, How the Mind Works (New York: W. W. Norton, 1997).
7. A. Case and C. Paxson, «Stature and Status: Height, Ability, and Labor Market Outcomes,» Journal of Political Economy 116, no. 3 (2008).

8. M. Vaz, S. Hunsberger, and B. Diffey, «Prediction Equations for Handgrip Strength in Healthy Indian Male and Female Subjects Encompassing a Wide Age Range,» Annals of Human Biology 29 (2002).

9. C. von Rueden, M. Guvren, and H. Kaplan, «The Multiple Dimensions of Male Social Status in an Amazonian Society,» Evolution and Human Behavior 29 (2008).

10. W. E. Hensley, «Height as a Measure of Success in Academe,» Psychology: A Journal of Human Behavior 30, no. 1 (1993).

11. B. Pawlowski, R. I. M. Dunbar, and A. Lipowicz, «Tall Men Have More Reproductive Success,» Nature 403 (2000).

12. R. D. Guthrie, Body Hot Spots: The Anatomy of Human Social Origins and Behavior (New York: Litton Educational, 1976).

13. B. J. Dixson and P. L. Vasey, «Beards Augment Perceptions of Men's Age, Social Status, and Aggressiveness, but not Attractiveness,» Behavioral Ecology 23, no. 3 (2012); N. Neave and K. Shields, The Effects of Facial Hair Manipulation on Female Perceptions of Attractiveness, Masculinity, and Dominance in Male Faces,» Personality and Individual Differences 45 (2008).

14. Dixson and Vasey, «Beards Augment Perceptions».

15. K. B. Starzyk and V. L. Quinsey, «The Relationship between Testosterone and Aggression: A Meta – Analysis,» Aggression and Violent Behavior 6, no. 6 (2001).

16. P. Schaff and A. C. Coxe, eds., Nicene and Post – Nicene

Fathers, First Series, vol. 3, St. Augustine: Expositions on the Psalms (New York: Cosimo Classics, 2007), p. 623.

17. A. Roberts, J. Donaldson, and A. C. Coxe, eds., Fathers of the Second Century: Hermas, Tatian, Athenagoras, Theophilus, and Clement of Alexandria (Buffalo, NY: Christian Literature Publishing Company, 1885); A. Roberts et al., Eds., Ante – Nicene Fathers: Translations of the Fathers Down to AD 325, Volume 2 (Buffalo, NY: Christian Literature Publishing Company, 1894), p. 286.

18. Ibid., p. 275.

19. E. Eckholm and D. Lovering, «Amish Renegades Are Accused in Bizarre Attacks on Their Peers,» New York Times, October 17, 2011, http://mobile.nytimes.com/201118/10//us/hair – cutting – attacks – stir – fear – in – amish – ohio.html (accessed April 24, 2012).

20. L. L. Betzig, Despotism and Differential Reproduction: A Darwinian View of History (New York: Aldine, 1986).

21. F. Patrick, The Primacy of the Apostolic See Vindicated (Baltimore, MD: Nabu, 1857).

22. W. Burkert, Creation of the Sacred: Tracks of Biology in Early Religions (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996).

23. F. de Waal, Chimpanzee Politics: Power and Sex among Apes (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1998), p. 78.

24. D. Morris, The Naked Ape: A Zoologist Study of the Human Animal (New York: Dell Publishing, 1967), p 146.

25. N. J. Emery, «The Eyes Have It: The Neuroethology,

Function, and Evolution of Social Gaze,» Neuroscience and Biobehavioral Reviews 24 (2000).

26. D. I. Perrett et al., «Social Signals Analyzed at the Single CellLevel: Someone's Looking at Me, Something Touched Me, Something Moved!» Journal of Comparative Psychology (1990); D. I. Perrett et al., «Visual Cells in the Temporal Cortex Sensitive to Face View and Gaze Direction,» Proceedings of the Royal Society B (1985).

27. R. Kawashima et al., «The Human Amygdala Plays an Important Role in Gaze Monitoring: A PET Study,» Brain 122 (1999).

28. J. C. Gomez, «Ostensive Behavior in Great Apes: The Role of Eye Contact,» in Reaching into Thought: The Mind of Great Apes , ed. A. E. Russon, K. A. Bard, and S. T. Parker (Cambridge: Cambridge University Press, 1996).

29. Betzig, Despotism and Differential Reproduction, p. 31.

30. Betzig, Despotism and Differential Reproduction.

31. de Waal, Chimpanzee Politics.

32. Homer, The Odyssey, trans. R. Fagles (New York: Penguin, 1997).

33. C. I. F. International Association, «Kissing of Hands and Feet of Awliya Allah, Shuyooks and Parents, http://www.cifiaonline.com/kissingofhandsfeet.htm (accessed October 21, 2012).

34. Ibid.

35. N. P. Tanner, Decrees of the Ecumenical Councils: From Nicea I to Vatican II (Washington, DC: Georgetown University Press, 1990).

36.H. Chadwick, Priscillian of Avila: The Occult and the Charismatic in the Early Church (Oxford: Oxford University Press, 1976).

37.J. M. Anderson, Daily Life during the Spanish Inquisition (New Haven, CT: Greenwood, 2002).

38.H. J. D. Denzinger, Enchiridion Symbolorum: The Sources of Catholic Dogma, 30th ed., trans. R. J. DeFerrari (St. Louis, MO: B. Herder, 1957).

الفصل السابع

1. J. Price et al., «The Social Competition Hypothesis of Depression,» British Journal of Psychiatry 164 (1994).
2. R. C. Kessler et al., «Lifetime Prevalence and Age – of – Onset Distributions of DSM – IV Disorders in the National Comorbidity Survey Replication (NCS – R),» Archives of General Psychiatry 62, no. 6 (2005).
3. K. Hodgson and P. McGuffin, «The Genetic Basis of Depression,» Current Topics in Behavioral Neuroscience 1 (2013).
4. D. R. Wilson, «Evolutionary Epidemiology: Darwinian Theory in the Service of Medicine and Psychiatry,» in Maladapted Mind: ClassicalReadings in Evolutionary Psychopathology, ed. S. Baron – Cohen (East Sussex, UK: Psychology Press, 1997), p. 43.
5. T. Schjelderup – Ebbe, «Social Behavior of Birds,» in A Handbook of Social Psychology , ed. C. A. Murchinson (Worchester, MA: Clark University Press, 1935), p. 966.
6. J. Price, «The Dominance Hierarchy and the Evolution of Mental Illness,» Lancet 290, no. 7509 (1967).

7. Price et al., «Social Competition Hypothesis of Depression,» p. 309–310.

8. O. P. Almeida et al., «Low Free Testosterone Concentration as a Potentially Treatable Cause of Depressive Symptoms in Older Men,» Archives of General Psychiatry 63, no. 3 (2008).

9. A. Mazur and T. Lamb, «Testosterone, Status, and Mood in Human Males,» Hormones and Behavior 14 (1980).

10. P. H. Mehta and R. A. Josephs, «Testosterone Change after Losing Predicts the Decision to Compete Again,» Hormones and Behavior 50 (2006).

11. R. O'Carroll and J. Bancroft, «Testosterone Therapy for Low Sexual Interest and Erectile Dysfunction in Men: A Controlled Study,» British Journal of Psychiatry 145 (1984).

12. Almeida et al., «Low Free Testosterone Concentration».

13. Mehta and Josephs, «Testosterone Change after Losing».

14. O'Carroll and Bancroft, «Testosterone Therapy».

15. M. McGuire et al., «Dysthymic Disorder, Regulation – Dysregulation Theory, CNS Blood Flow, and CNS Metabolism,» in Subordination and Defeat: An Evolutionary Approach to Mood Disorders and Their Therapy, ed. L. Sloman and P. Gilbert (New York: Lawrence Erlbaum, 2000).

16. L. A. Kirkpatrick and B. J. Ellis, «The Adaptive Functions of Self – Evaluative Psychological Mechanisms,» in Self – Esteem Issues and Answers: A Sourcebook of Current Perspectives, ed. M. H. Kernis (New York: Psychology Press; 2006), p. 335.

17.G. A. Parker, «Assessment Strategy and the Evolution of Fighting Behaviour,» Journal of Theoretical Biology 47, no.1 (1974).

18.P. Gilbert, J. Price, and S. Allan, «Social Comparison, Social Attractiveness, and Evolution: How Might They Be Related?» New Ideas in Psychology 13 (1995).

19.J. R. Krebs, N. B. Davies, An Introduction to Behavioral Ecology, 3rd ed. (Oxford: Blackwell Scientific Publications, 1993) (as cited inGilbert, Price, and Allan, «Social Comparison»).

20.P. Gilbert and S. Allan, «Assertiveness, Submissive Behaviour and Social Comparison,» British Journal of Clinical Psychology 33 (1994).

21.C. McFarland and D. T. Miller, «The Framing of Relative Performance Feedback: Seeing the Glass Half Empty or Half Full,» Journal of Personality and Social Psychology 66, no. 6 (1994).

22.S. Allan and P. Gilbert, «A Social Comparison Scale: Psychometric Properties and Relationship to Psychopathology,» Personality and Individual Differences 19, no. 3 (1995).

23.American Psychiatric Association, Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders, 5th ed. (Arlington, VA: American Psychiatric Association, 2013), p. 161.

24.J. Price, «Subordination, Self – Esteem, and Depression,» in Subordination and Defeat: An Evolutionary Approach to Mood Disorders and their Therapy, ed. L. Sloman and P. Gilbert (Mawah, NJ: Lawrence Erlbaum, 2000), p. 172.

25.«Asceticism – Western Asceticism – the Middle

Ages,» Science Encyclopedia, http://science.jrank.org/pages/8388/Asceticism – Western – Asceticism – Middle – Ages.html (accessed May 21, 2012).

26.C. W. Bynum, Holy Feast and Holy Fast: The Religious Significance of Food to Medieval Women (Berkeley: University of California Press, 1987), p. 85.

27.Ibid.

28.K. Dervic et al., «Religious Affiliation and Suicide Attempt,» American Journal of Psychiatry 161, no. 12 (2004).

29.K. Knight, ed., «The Donatists,» Catholic Encyclopedia, http://www.newadvent.org/cathen/05121a.htm (accessed December 16, 2012).

30.G. D. Chryssides, ed., Heaven's Gate: Post Modernity and Popular Culture in a Suicide Group (Burlington, VT: Ashgate, 2011).

31.J. M. Koolhaas et al., «Single Social Defeat in Male Rats Induces a Gradual but Long – Lasting Behavioral Change: A Model of Depression,» Neuroscience Research Communications 7 (1990).

32.P. Gilbert and M. T. McGuire, «Shame, Status and Social Roles: Psychobiology and Evolution,» in Shame: Interpersonal Behavior, Psychopathology and Culture, ed. P. Gilbert and B. Andrews (New York: Oxford University Press, 1998).

33.I. S. Bernstein, «Dominance: A Theoretical Perspective for Ethologists,» in Dominance Relations: An Ethological View of HumanConflict and Social Interaction, ed. D. R. Omark, F. F. Strayer, and D. G. Freedman (New York: Garland, 1980).

34.P. Gilbert, J. Pehl, and S. Allan, «The Phenomenology of Shame and Guilt: An Empirical Investigation,» British Journal of Medical Psychology 67, no. 1 (2011).

35.Gilbert and McGuire, «Shame, Status and Social Roles».

36.Ibid.

37.W. D. Ray and B. Brown, «Sex and Secularism: The Report,» http://ipcpress.com/index.php?id=42 (accessed December 16, 2012).

38.Ibid.

39.C. G. Wilson, «Male Genital Mutilation: An Adaptation to Sexual Conflict,» Evolution and Human Behavior 29 (2008): 151.

40.R. Wright, The Evolution of God (New York: Little, Brown, 2009).

41.M. Miller and K. Taube, An Illustrated Dictionary of the Gods and Symbols of Ancient Mexico and the Maya (London: Thames and Hudson, 1993).

42.Ibid.

43.P. Schaff and H. Wallace, eds., Nicene and Post – Nicene Fathers, Second Series, vol. 14 (New York: Cosimo Classics, 2007).

44.L. Engelstein, «From Heresy to Harm: Self – Castrators in the Civic Discourse of Late Tsarist Russia,» http://src – hokudai – ac.jp/sympo/94summer/chapter1.pdf (accessed November 22, 2012).

45.W. E. A. van Beek et al., «Dogon Restudied: A Field Evaluation of the Work of Marcel Griaule,» Current Anthropology 32, no. 2 (1991).

46.«Female Genital Mutilation,» World Health Organization, http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs241/en/index.html (accessed November 23, 2012).

47.A. Hough, «Extramarital Sex 'Causes More Earthquakes', Iranian Cleric Claims,» The Telegraph, April 19, 2010, http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/iran/7606145/Extramarital – sex – causes – more – earthquakes – Iranian – cleric – claims.html (accessed November 20, 2012).

48.M. N. Muller and J. C. Mitani, «Conflict and Cooperation in Wild Chimpanzees,» Advances in the Study of Behavior 35 (2005).

49.J. C. Mitani and D. Watts, «Demographic Influences on the Hunting Behavior of Chimpanzees,» American Journal of PhysicalAnthropology 109 (1999).

50.J. L. Gonzáles, The Story of Christianity, vol. 1, The Early Church to the Dawn of the Reformation (New York: Harper Collins, 2010).

51.Bynum, Holy Feast, Holy Fast, p. 36.

52.«Asceticism – Western Asceticism – the Middle Ages,» Science Encyclopedia, http://science.jrank.org/pages/8388/Asceticism – Western – Asceticism – Middle – Ages.html (accessed December 16, 2012).

53.Ibid.

54.Ibid.

55.Ibid.

56.American Psychiatric Association, Diagnostic and Statistical Manual, p. 161.

57.S. Lemelin and P. Baruch, «Clinical Psychomotor Retardation and Attention in Depression,» Journal of Psychiatric Research 32, no. 2 (1998): 81–8.

58.T. Yu et al., «Cognitive and Neural Correlates of Depression – Like Behaviour in Socially Defeated Mice: An Animal Model of Depression with Cognitive Dysfunction,» International Journal of Neuropsychopharmacology 14, no. 3 (2011).

59.P. J. Watson and P. W. Andrews, «Toward a Revised Evolutionary Adaptationist Analysis of Depression: The Social Navigation Hypothesis,» Journal of Affective Disorders 72 (2002).

60.J. Milton, Paradise Lost (New York: Hurd and Houghton, 1869), p. 202.

61.J. Maritain, The Three Reformers: Luther, Descartes, Rousseau (Westport, CT: Greenwood, 1970), p. 33.

62.«US Religious Knowledge Survey,» The Pew Forum on Religion and Public Life, http://www.pewforum.org/uploadedFiles/Topics/Belief_and_Practices/religious – knowledge – full – report.pdf (accessed December 16, 2012).

63.«Gunman Kills Dutch Film Director,» BBC News, http://news.bbc.co.uk/2/hi/europe/3974179.stm (accessed April 27, 2012).

64.J. Perlez & P. Z. Shaw. «Embassy Attack in Pakistan Kills at Least Six» New York Times, http://www.nytimes.com/200803/06//world/asia/03pakistan.html (accessed April 27, 2014); L. Polygreen, «Nigeria Counts 100 Deaths

Over Danish Caricatures,» New York Times, February 24, 2006, http://query.nytimes.com/gst/fullpage.html?res=9C06E5DF1F3EF937A15751C0A9609C8B63 (accessed April 27, 2014).

65.«10 Most Censored Countries,» Committee to Protect Journalists, http://cpj.org/reports/201210/05/ – most – censored – countries.php (accessed June 23, 2012).

66.J. al – Khalili, The House of Wisdom: How Arabic Science Saved Ancient Knowledge and Gave Us the Renaissance (New York: Penguin, 2010).

67.S. Atran, «Genesis of Suicide Terrorism,» Science 299, no. 5612 (2003).

68.«Arab Human Development Report,» United Nations Human Development Programme (New York: United Nations, 2002) (as cited in S. Harris, The End of Faith: Religion, Terror and the Future of Reason (New York: W. W. Norton, 2004)).

69.Harris, End of Faith, p. 133.

70.W. Durant and A. Durant, The Age of Faith: A History of Medieval Civilization–Christian, Islamic, and Judaic–from Constantine to Dante: AD 325–1300, vol. 4 (New York: Simon and Schuster, 1950), p. 765.

71.Ibid., p.766.

72.Ibid.

الفصل الثامن

1. J. Goodall, In the Shadow of Man (Boston: Houghton Mifflin, 1985).
2. D. Peterson and R. Wrangham, Demonic Males: Apes and the Origins of Human Violence (New York: Houghton Mifflin, 1996), p. 191.
3. F. de Waal, Chimpanzee Politics: Power and Sex among Apes (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1998).
4. D. Maestripieri, Macachiavellian Intelligence: How Rhesus Macaques and Humans Have Conquered the World (Chicago: University of Chicago Press, 2007), p. 72.
5. Ibid.
6. S. Pinker, The Language Instinct: How the Mind Creates Language (New York: Harper Collins, 1994).
7. D. L. Smith, The Most Dangerous Animal: Human Nature and the Origins of War (New York: St. Martin's Griffin, 2007).
8. «North Korea: Kim Jong – Il's Legacy of Mass Atrocity,» Human Rights Watch, December 19, 2011, http://www.hrw.org/news/201119/12//north – korea – kim – jong – il – s – legacy – mass – atrocity (accessedDecember 12, 2012).
9. D. Gavlak, «Jordan: 8 Activists Charged for Slandering King,» Associated Press, September 9, 2012, http://bigstory.ap.org/article/jordan – 8 – activists – charged – slandering – king (accessed December 12, 2012).
10. L. L. Betzig, Despotism and Differential Reproduction: A Darwinian View of History (New York: Aldine, 1986).

11.M. Daly and M. Wilson, Homicide (New Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2006), p. 128.

12.D. Cohen et al., «Insult, Aggression, and the Southern Culture of Honor: An 'Experimental Ethnography,'» Journal of Personality and Social Psychology 70, no. 5 (1996); R. E. Nisbett and D. Cohen, Culture of Honor: The Psychology of Violence in the South (Boulder, CO: Westview, 1996).

13.S. Pinker, How the Mind Works (New York: W. W. Norton, 1997).

14.A. V. Papachristos, «Murder by Structure: Dominance Relations and the Social Structure of Gang Homicide,» American Journal of Sociology 115, no. 1 (2009): 104.

15.Ibid., p. 80.

16.H. W. C. Davis, The Political Thought of Heinrich von Treitschke (London: Constable, 1914) (as cited by B. Wyatt – Brown, «The Changing Faces of Honor in National Crises: Civil War, Vietnam, Iraq, and the Southern Factor,» The Johns Hopkins History Seminar, Fall 2005, p. 1–2, http://www.humiliationstudies.org/documents/WyattBrownFacesHonor.pdf (accessed March 1, 2012)).

17.H. Kissinger, White House Years (New York: Simon and Schuster; 1979), p. 288.

18.H. Sidey, A Very Personal Presidency: Lyndon Johnson in the White House (New York: Atheneum, 1968) (as cited in Wyatt – Brown, «Changing Faces of Honor»).

19.B. Gertz and R. Scarborough, «Shaming Effect on Arab

World,» Washington Times, April 29, 2003 (as cited in Wyatt – Brown, «Changing Faces of Honor,» p. 27).

20. Wyatt – Brown, «Changing Faces of Honor».

21. Ibid., p. 30.

22. «Terror in America (30) Retrospective: A Bin Laden Special on Al – Jazeera Two Months before September 11 Bin Laden—The Arab Despair and American Fear,» Middle East Media Research Institute, December 21, 2001 (as cited by Wyatt – Brown, «Changing Faces ofHonor»).

23. «Transcript of Osama Bin Laden's October 2001 Interview with Al – Jazeera,» Al – Jazeera, http://www.againstbush.org/articles/article – 161251099125987.html (accessed October 30, 2012) (as cited in Wyatt – Brown, «Changing Faces of Honor» p. 35).

24. «Full Text of Bin Laden's 'Letter to America,'» Observer, November 24, 2002, http://www.theguardian.com/world/2002/nov/24/theobserver (as cited in Wyatt – Brown, «Changing Faces of Honor,» p. 35).

25. R. Dawkins, The God Delusion (Boston: Houghton Mifflin, 2006), p. 20.

26. T. Aquinas, Summa Theologica, vol. 1, pt. 1, trans. Fathers of the English Dominican Province (New York: Cosimo Classics, 2007).

27. N. C. Lea, A History of the Inquisition of Spain, vol. 4 (London: Macmillan, 1906).

28. M. F. Graham, Blasphemies of Thomas Aikenhead: Boundaries of Belief on the Eve of the Enlightenment (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2008).

29. «A Teddy Bear Nightmare in Sudan,» BBC News, http://

news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/8010407.stm (accessed March 12, 2012).

30.T. Shah and R. Nordland, «Protests Over Koran Burning Reach Kandahar,» New York Times, April 2, 2011, http://www.nytimes.com/201103/04//world/asia/03afghanistan.html (accessed March 20, 2012).

31.A. J. Rubin and G. Bowley, «Koran Burning in Afghanistan Prompts 3 Parallel Inquiries,» New York Times, February 29, 2012, http://www.nytimes.com/201201/03//world/asia/koran – burning – in – afghanistan – prompts – 3 – parallel – inquiries.html (accessed March 20, 2012).

32.S. Rahimi and A. J. Rubin, «Koran Burning in NATO Error Incites Afghans,» New York Times , February 21, 2012, http://www.nytimes.com/201222/02//world/asia/nato – commander – apologizes – for – koran – disposal – in – afghanistan.html (accessed March 20, 2012).

33.R. Nordland, «In Reactions to Two Incidents, a US – Afghan Disconnect,» New York Times, March 14, 2012, http://www.nytimes.com/201215/03//world/asia/disconnect – clear – in – us – bafflement – over – 2 – afghan – responses.html?pagewanted=all (accessed March 30, 2012).

34.A. Coulter, «This Is War: We Should Invade Their Countries,» National Review, September 13, 2001. http://old.nationalreview.com/coulter/coulter.shtml (accessed March 15, 2012).

35.F. de Waal, Chimpanzee Politics.

الفصل التاسع

1. B. Diaz del Castillo, The Discovery and Conquest of Mexico (New York: Farrar, Straus, and Giroux, 1956).

2. B. Macintyre, «The Dignified Reply to the War – Grave Vandals,» Times, March 6, 2012, http://www.thetimes.co.uk/tto/opinion/columnists/benmacintyre/article3341203.ece (accessed December 1, 2012).

3. «Ansar Dine Destroy more Shrines in Mali,» Al Jazeera, July 10, 2012, http://www.aljazeera.com/news/africa/2012201271012301347496/07/.html (accessed August 20, 2013).

4. I. Singleton and C. P. van Schaik, «The Social Organization of a Population of Sumatran Orangutans,» Folia Primatol 73 (2002).

5. B. Galdikas, «Orangutan Reproduction in the Wild,» in Reproductive Biology of the Great Apes , ed. C. E. Graham (New York: Academic Press, 1981), p. 288.

6. J. C. Mitani, «Mating Behaviour of Male Orangutans in the Kutai Game Reserve, Indonesia,» Animal Behaviour 33 (1985).

7. J. C. Mitani, D. P. Watts, and S. J. Amsler, «Lethal Intergroup Aggression Leads to Territorial Expansion in Wild Chimpanzees,» Current Biology 20, no. 12 (2010); M. N. Muller and J. C. Mitani, «Conflict and Cooperation in Wild Chimpanzees,» Advances in the Study of Behavior 35 (2005).

8. J. M. Williams, Female Strategies and the Reasons for Territoriality in Chimpanzees: Lessons from Three Decades of Research at Gombe (Minneapolis: University

of Minnesota, 1999) (as cited in D. Watts and J. C. Mitani, «Boundary Patrols and Intergroup Encounters in Wild Chimpanzees,» Behaviour 138 [2001]).

9. T. Nishida, M. Hiraiwa – Hasegawa, and Y. Takahata, «Group Extinction and Female Transfer in Wild Chimpanzees in the Mahale National Park, Tanzania,» Zeitschrift für Tierpsychologie 67 (1985).

10. K. Wolf and S. R. Schulman, «Male Response to 'Stranger' Females as a Function of Female Reproductive Value,» American Naturalist 123 (1984).

11. M. L. Wilson and R. W. Wrangham, «Intergroup Relations in Chimpanzees,» Annual Review of Anthropology 32 (2003).

12. J. Goodall et al., «Inter – Community Interactions in the Chimpanzee Populations of the Gombe National Park,» in The Great Apes, ed. D. Hamburg and E. McCown (Menlo Park, CA: Benjamin/Cummings, 1979); J. Goodall, The Chimpanzees of Gombe: Patterns of Behavior (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1986).

13. J. Williams, G. Oehlert, and A. Pusey, «Why do Male ChimpanzeesChimpanzees Defend a Group Range?» Animal Behaviour 68 (2004).

14. Watts and Mitani, «Boundary Patrols and Intergroup Encounters».

15. Ibid.

16. W. Rodzinski, A History of China (Oxford: Pergamon, 1979), p. 165 (as cited in D. L. Smith, The Most Dangerous Animal: Human Nature and the Origins of War (New York: St Martin's Griffin, 2007)).

17.P. Schrijvers, The GI War against Japan: American Soldiers in Asia and the Pacific during World War II (New York: New York University Press, 2002).

18.I. Chang, The Rape of Nanking: The Forgotten Holocaust of World War II (New York: Penguin, 1997).

19.A. Beevor, The Fall of Berlin 1945 (New York: Penguin, 2003).

20.J. Hatzfeld, Machete Season: The Killers in Rwanda Speak (New York: Farrar, Straus, and Giroux, 2005) (as cited in Smith, Most Dangerous Animal).

21.P. A. Weitsman, «The Politics of Identity and Sexual Violence: A Review of Bosnia and Rwanda,» Human Rights Quarterly (2008).

22.W. Durant and A. Durant, The Age of Reason Begins: A History of European Civilization in the Period of Shakespeare, Bacon, Montaigne, Rembrandt, Galileo, and Descartes: 1558–1648 (New York: Simon and Schuster, 1961), p. 527.

23.Smith, Most Dangerous Animal.

24.A. Grossman, «Single Islamic State Militant 'has Killed 150 Women and Girls' because They Refused to Marry Members of the Terrorist Group,» Daily Mail, December 18, 2014, http://www.dailymail.co.uk/news/article – 2878693/Single – Islamic – State – militant – killed – 150 – women – girls – refused – marry – members – terrorist – group.html (accessed December 20, 2014).

25.I. Watson, «Treated like Cattle: Yazidi Women Sold, Raped, Enslaved by ISIS,» CNN, November 7, 2014,

http://www.cnn.com/201430/10//world/meast/isis – female – slaves/ (accessed December 20, 2014).

26.«Boko Haram Insurgents Kill 100 People as They Take Control of Nigerian Town,» Guardian, July 19, 2014, http://www.theguardian.com/world/2014/jul/19/boko – haram – kill – 100 – people – take – control – nigerian – town (accessed December 20, 2014).

27.D. Suzuki, The Legacy: An Elder's Vision for Our Sustainable Future (Vancouver, BC: Greystone, 2010), p. 23.

28.T. Malthus, An Essay on the Principles of Population (Oxford: Oxford University Press, 2008).

29.Science Summit on World Population, «A Joint Statement by the 58 of the World's Scientific Academies,» Population and Development Review 20 (1994) (as cited in Suzuki, Legacy, p. 20).

30.Malthus, Essay on the Principle of Population, p. 61.

31.D. M. Buss, «Sex Differences in Human Mate Preferences: Evolutionary Hypotheses Tested in 37 Cultures,» Behavioral and Brain Sciences 12 (1989).

32.V. Griskevicius et al., «The Financial Consequences of Too Many Men: Sex Ratio Effects on Saving, Borrowing, and Spending,» Journal of Personality and Social Psychology 102, no. 1 (2012).

33.Ibid.

34.B. W. Husted, «Culture and Ecology: A Cross – National Study of the Determinants of Environmental Sustainability,» Management International Review 45, no. 3 (2005).

35.Ibid.

36.G. Hofstede, Culture and Organization: Software of the Mind (New York: McGraw Hill, 1997), p. 28 (as cited by Husted, «Culture and Ecology»).

37.G. Hofstede, «Dimensionalizing Cultures: The Hofstede Model in Context,» Online Readings in Psychology and Culture Unit 2 (2011).

38.Hofstede, «Dimensionalizing Cultures». 39 . Husted, «Culture and Ecology».

40.H. Park, C. Russell, and J. Lee, «National Culture and Environmental Sustainability: A Cross – National Analysis,» Journal of Economics and Finance 31, no. 1 (2007).

41.Ibid.

42.Ibid., pp. 113–14.

43.E. F. Kittay, «Woman as Metaphor,» Hypatia 3, no. 4 (1988): 1.

44.P. Horgan, Conquistadors in North American History (El Paso: Texas Western, 1982), pp. 225–26.

45.S. Brooks – Thistlethwaite, «Women's Religious Freedom Violated: Photo of All Male Birth Control Witnesses Tells the Viral Truth,» Washington Post, February 16, 2012, http://www.washingtonpost.com/blogs/guest – voices/ post/womens – religious – freedom – violated – photo – of – all – male – birth – control – witnesses – tells – the – viral – truth/201216/02//gIQAeyykIR_blog.html (accessed March 12, 2012); L. Bassett and A. Terkel, «House Democrats Walk Out of One – Sided Hearing on Contraception, Calling It an 'Autocratic Regime,'»

Huffington Post , February 16, 2012, http://www.huffingtonpost.com/201216/02//contraception – hearing – house – democrats – walk – out_n_1281730.html (accessed March 12, 2012).

46.D. Suzuki, «The Legacy of David Suzuki,» PRI's Environmental News Magazine, December 17, 2010, http://www.loe.org/shows/segments.html?programID=10 – P13 00051&segmentID=6 (accessed April 23, 2013).

الفصل العاشر

1. Sherr, Failure Is Impossible: Susan B. Anthony in Her Own Words (New York: Times Books, 1995), p. 255.
2. J. Goodall, «Gombe Chimpanzee Politics,» Primate Politics , ed. G. A. Schubert and R. D. Masters (Carbondale, IL: Southern Illinois University Press, 1991), p. 137.
3. Plato, The Republic, trans. Robin Waterfield (Oxford: Oxford University Press, 1993).
4. R. Sosis, «Religion and Intragroup Cooperation: Preliminary Results of a Comparative Analysis of Utopian Communities,» Cross – Cultural Research 34, no. 1 (2000).
5. C. Darwin, The Descent of Man (Amherst, NY: Prometheus Books, 1998).
6. R. Wright, The Moral Animal: Why We Are the Way We Are: The New Science of Evolutionary Psychology (New York: Vintage, 1995), p. 375.
7. P. Norris and R. Inglehart, Sacred and Secular: Religion and Politics Worldwide (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2004).
8. L. Mealey, «The Sociobiology of Sociopathy,» in The

Maladapted Mind: Classic Readings in Evolutionary Psychology, ed. S. Baron – Cohen (East Sussex, UK: Psychology Press, 1997).

9. R. Wright, «Why Can't We All Just Get Along? The Uncertain Biological Basis of Morality,» The Atlantic, http://www.theatlantic.com/magazine/archive/201311// why – we – fightand – can – we – stop/309525/ (accessed December 3, 2012).

10. P. Demieville, «Buddhism and War,» in Buddhist Warfare, ed. M. Jerryson and M. Juergensmeyer (Oxford: Oxford University Press, 2010).

11. Ibid.

12. Ibid.

13. Ibid.

14. Ibid., p. 42.

15. S. Jenkins, «Making Merit through Warfare and Torture According to the Ārya – Bodhisattva – gocara – upāyaviṣaya – vikurvaṇa – nirdeśa Sūtra,» in Buddhist Warfare, ed. M. Jerryson and M. Juergensmeyer (Oxford: Oxford University Press, 2010), p. 68.

16. B. Faure, «Afterthoughts,» in Buddhist Warfare, ed. M. Jerryson and M. Juergensmeyer (Oxford: Oxford University Press, 2010).

17. Dalai Lama, «Nobel Lecture, December 11, 1989,» Nobelprize.org, http://www.nobelprize.org/nobel_prizes/peace/laureates/1989/lama – lecture.html (accessed June 23, 2014).

18. The Buddha, The Dhammapada, trans. G. Fronsdal (Boston: Shambhala, 2006), p. 35.

19. Ibid., p. 36.

20. S. Harris, Letter to a Christian Nation (New York: Random House, 2006), p. 21.

21. It is uncertain whether these are the words spoken by the Buddha, but they, like many other proverbs, have become central tenets of Buddhism.

22. T. Jefferson, The Jefferson Bible: What Thomas Jefferson Selected as the Life and Morals of Jesus of Nazareth (Thousand Oaks, CA: Lakewood, 2011), p. 9.

23. Wright, «Why Can't We All Just Get Along?»

24. J. Greene, Moral Tribes: Emotion, Reason, and the Gap Between Us and Them (New York: Penguin, 2013).

25. N. Guetin, Religious Ideology in American Politics; A History (Jefferson, NC: McFarland, 2009).

26. C. H. Moehlman, The American Constitutions and Religion. Religious References in the Thirteen Colonies and the Constitutions of the Forty – Eight States: A Sourcebook of Church and State in the United States (Clark, NJ: The Lawbook Exchange, 2007), p. 38.

27 . R. Dawkins, The God Delusion (Boston: Houghton Mifflin, 2006).

28. R. Ahdar and I. Leigh, Religious Freedom in the Liberal State, 2nd ed. (Oxford: Oxford University Press, 2013), p. 70.

29. Dawkins, God Delusion, p. 62.

30. Norris and Inglehart, Sacred and Secular.

31. «Lobbying for the Faithful,» Pew Research Center, http://www.pewforum.org/201121/11//lobbying – for – the – faithful – exec/#expenditureshttp://www.

pewforum.org/201121/11//lobbying – for – the – faithful – exec/#expenditures (accessed November 20, 2013).

32.T. Riley, «Messing with Texas Textbooks,» Moyers & Company, http://billmoyers.com/content/messing – with – texas – textbooks/ (accessed November 18, 2013).

33.J. Calvin, «A Harmony of the Gospels Matthew, Mark and Luke Volume III, and the Epistles of James and Jude,» in Calvin's Commentaries , trans. A. W. Morrison, ed. D. W. Torrance and T. F. Torrance (Grand Rapids, MI: The Saint Andrews Press, 1972), p. 245.

34.Riley, Messing with Texas Textbooks.

35.S. Harris, The Moral Landscape: How Science Can Determine Human Values (New York: Free Press, 2010).

36.Plato, Apology , trans. B. Jowett, ed. J. Manis, An Electronic Classics Series Publication, Pennsylvania State University, Hazelton, PA, http://www2.hn.psu.edu/faculty/jmanis/plato/apology.pdf (accessed December 20, 2013).

37.P. Zuckerman, Society Without God (New York: New York University Press, 2008) (as cited in Harris, Moral Landscape, p. 146).

38.Norris and Inglehart, Sacred and Secular; G. Paul, «The Chronic Dependence of Popular Religiosity upon Dysfunctional Psycholosociological Conditions,» Evolutionary Psychology 73, no. 3 (2009).

39.M. Daly, M. Wilson, and S. Vasdev, «Income Inequality and Homicide Rates in Canada and the United States,» Canadian Journal of Criminology 43, no. 2 (2001).

40.Norris and Inglehart, Sacred and Secular.

41.Harris, Letter to a Christian Nation.

42.D. L. Hall, D. C. Matz, and W. Wood, «Why Don't We Practice What We Preach? A Meta – Analytic Review of Religious Racism,» Personality and Social Psychology Review 14, no. 10 (2010).

43.Norris and Inglehart, Sacred and Secular.

44.Paul, «Chronic Dependence of Popular Religiosity,» p. 25.

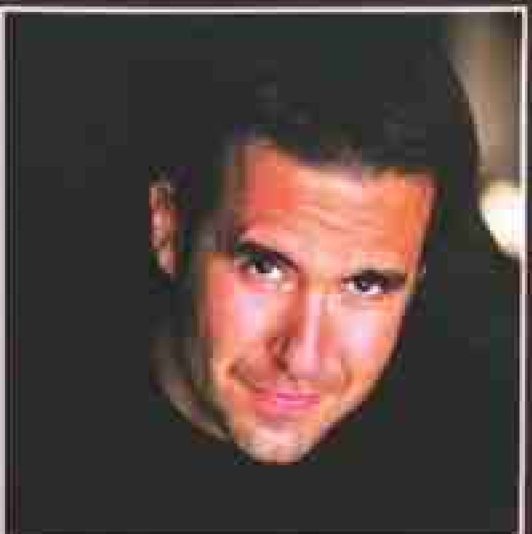
45.Ibid.

46.F. – A. Aulard, The French Revolution: A Political History, 1789–1804 (New York: Scribner, 1917), p. 205.

47.D. M. Buss, The Evolution of Desire: Strategies of Human Mating (New York: Basic Books, 1994), p. 69.

***

نحن نعيش اليوم في عصر تتصادم فيه الأديان مع حقوق النساء، ومع المساواة بين الجنسين ومكتسباتها التي نحاول جاهدين الحفاظ عليها، وفيه وضعت الأنظمة الثيوقراطيّة يدها على ترسانة من الأسلحة النوويّة، فضلاً عن تنامي التطرّف الخطير حول العالم. إنّها لحظة مصيريّة بالنسبة لنا كي نتأمّل ما يحصل، ونفهم كيف تُستغَلّ الأديانُ لتشجيع أسوأ ما في الطبيعة البشريّة، لا أفضل ما فيها.



سنبدأ برسم القواسم المشتركة، بين من يرتكبون أفعال العنف والاضطهاد السابقة. سنلاحظ على الفور أنّهم الرجال حصريّاً، وحتّى في الحالات النادرة التي يكون فيها الجاني امرأة (أو طفلا)، الرجال أيضاً هم من يحرّضونها على ارتكاب فعلتها، أو يرغمونها على ذلك. إنّها نقطة انطلاق هامّة، وبما أنّ القاسم الثاني المشترك لتلك الأفعال هو التديّن المزعوم، لذلك سنطرح سؤالاً ثانياً مفصليّاً: هل توجد قواسم مشتركة للتصوّرات عن الله خلف تلك الأفعال؟ وسنتوصّل بالإجابة عليه إلى لبّ المشكلة، وهو التصوّر المشترك لله على أنّه رجل.

أنا أجادل في هذا الكتاب أنّ الله خُلِقَ على صورة الرجل، وهو جدل قديم، فكلمات زينوفان تقترح أنّ المفكّرين ناقشوا هذا الترابط منذ عصر الإغريق القدماء. بأيّ حال، هناك أسباب عديدة تدفعنا لا لنؤكّد أنّ الله خُلِقَ على صورة رجل - وليس العكس - فحسب، بل كي ندرس أيضاً صفات الهيمنة التي يجسّدها الله، خاصّة أنّ رجال السلطة تماهوا معه تاريخيّاً، كي يوسّعوا سلطتهم ويستغلّوها لفرض المزيد من العنف والاضطهاد. يتكرّر هذا النموذج في تاريخ الأديان، إذ يُسبغ الرجال شرعيّة إلهيّة على أنفسهم كي يبرّروا أسوأ أفعالهم، كما أنّ الله بحدّ ذاته كثيراً ما يُصوَّر منخرطاً في أفعال عنيفة، ممّا يرسّخ الأفعال التدميريّة التي يقوم بها أصحاب السلطة.

9 789933 655723